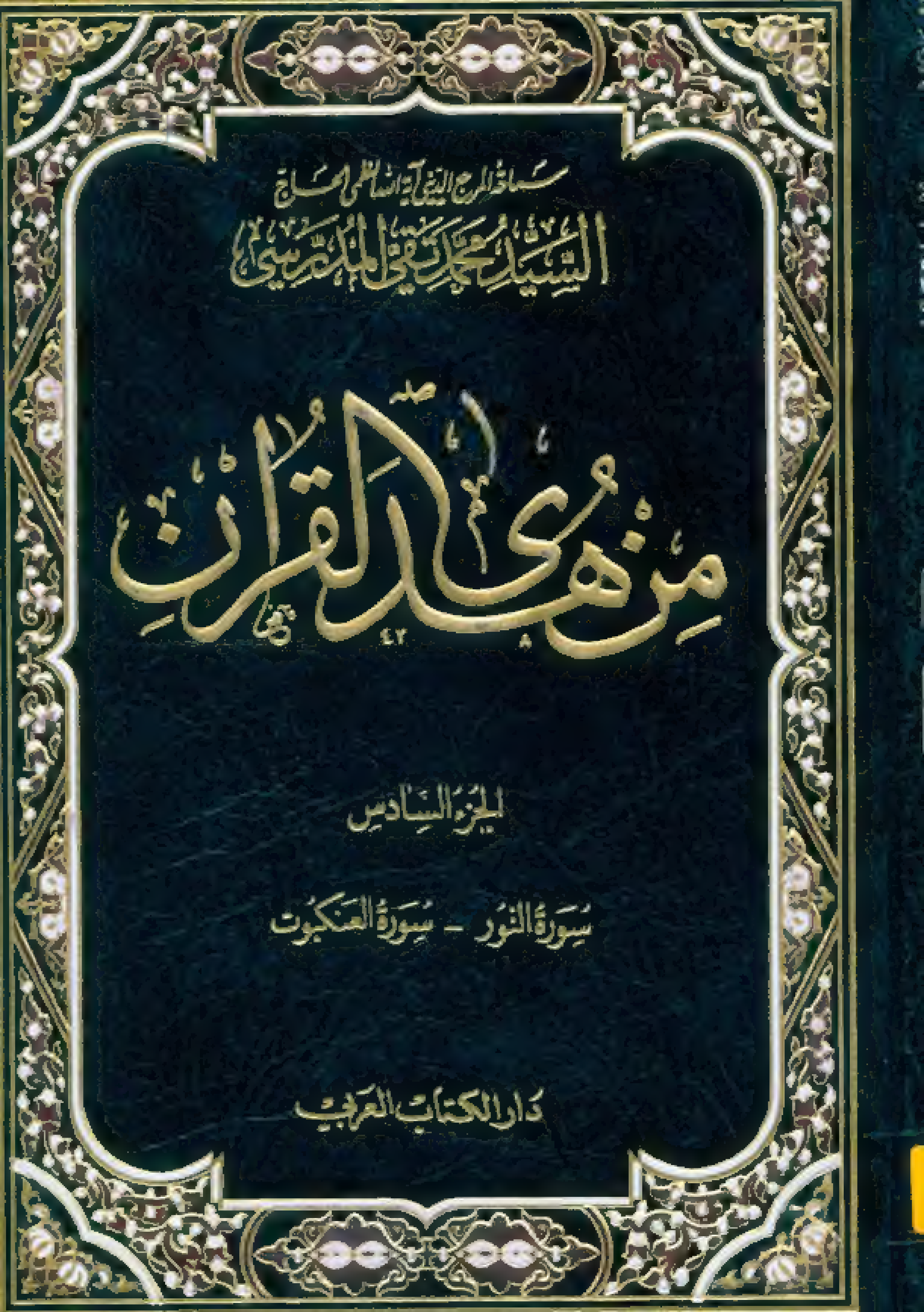

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي
من هدى القرآن
الجزء السادس
سورة النور - سورة العنكبوت
دار الكتاب العربي



سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي

من هدى القرآن

الجزء السادس

سورة النور - سورة العنكبوت

دار القارئ

الطبعة الثانية

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

■ الكتاب: من هدى القرآن ١/ ١٢.

■ المؤلف: سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

■ الطبعة: الثانية، تاريخ النشر: ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، (طبعة محققة ومنقحة ومزيدة).

■ إخراج وتنسيق: زكي حسن أحمد

■ zakiht@gmail.com

■ الناشر: دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون: ٠٣/٤١٣٢٥٦ - ٠٣/ ٩٠٢٩٤٤

Email:dar_alkari@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ وَ صَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ الطَّاهِرِين

سُورَةُ النُّور

* مدنية.

* عدد آياتها: ٦٤.

* ترتيبها النزولي: ١٠٣

* ترتيبها في المصحف: ٢٤.

* نزلت بعد سورة النصر.

فضل السُّورة

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «حَصِّنُوا أَمْوالَكُمْ وَفُرُوجَكُمْ بِتِلاوَةِ سُورَةِ النُّورِ وَحَصِّنُوا بِهَا نِساءَكُمْ فَإِنَّ مَنْ أَدْمَنَ قِراءَتَها فِي كُلِّ يَوْمٍ أَوْ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ لَمْ يَزْنِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ أَبَداً حَتَّى يَمُوتَ فَإِذَا هُوَ مَاتَ شَيَّعَهُ إِلَى قَبْرِهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ كُلُّهُمْ يَدْعُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ الله لَهُ حَتَّى يُدْخَلَ إِلَى قَبْرِهِ».

(ثواب الأعمال: ص١٠٩)

الإطار العام

مميزات البيت الإسلامي

كما السور الرفيع يصون بيت الإنسان وشرفه وقيمه، كذلك هو شأن شرائع الرب في المجتمع.

والأسرة كمشكاة، تحفظ ضياء الفطرة ونور الوحي عن عواصف الشهوة، وأدران الهوى.

ونور الله الذي هبط من السماء استقر في بيوت رفعها الرب بذكره.

حول هذا المحور تدور موضوعات سورة النور المباركة، ولكن كيف؟.

نقرأ في (الآية: ١) من السورة إشارة إلى السورة التي فرضها الرب، وأنزل فيها آيات بينات، بهدف تذكر الناس وتلك السورة تصون بآياتها التي تفيض حزماً فطرة البشر، وذلك:

أولاً: بفرض حد الزانية والزاني، وتهديد مبطن بأن المؤمنة والمؤمن لا يمارسان الزنا (الآيات: ٢-٣).

ثانياً: بتحصين البيت من عبث الفاسقين، وفرض حد القذف على من رمى محصناً بالزنا، من دون أن يأتي بأربعة شهداء (الآيات: ٤-٥).

ثالثاً: بتشريع حكم اللعان بين الزوجة والزوج، الذي يرميها بالفاحشة، فعليهما القسم أربعاً، ثم التلاعن في الخامسة (الآيات: ٦-١٠).

ويعالج القرآن مرض الشائعة، التي تدور تاريخياً حول قصة الإفك، بينما تجري في كل إشاعة باطلة (الآيات: ١١-٢٥).

وهكذا يزكي القرآن الأجواء، فلا قذف ولا شائعة (وهي قذف جماعي).

ويشير إلى التطابق الاجتماعي بين الخبيثات والخبيثين كما بين الطيبات والطيبين (الآية: ٢٦).

وبعد أن تزكي الآيات الأولى أجواء المجتمع من لوث الزنا والقذف والإشاعة، ينتقل السياق إلى تقرير (حرمة البيت) و(حرية الإنسان في بيته) فينهى عن دخول البيت إلا بعد الاستيناس والسلام على أهله،والرجوع عنه عند افتقاد الإذن لأنه الأزكى، إلا البيوت العامة وغير المسكونة، (الآيات: ٢٧-٢٩).

كما يوصي في (الآيات: ٣٠-٣١) بضرورة ممارسة التقوى الاجتماعية - الجنسية عمليًّا، إذ يأمر المؤمنين بغض البصر وحفظ الفرج.

وفي إطار صيانة الأسرة يأمر القرآن بتنظيف الطرق والمراكز العامة من سهام إبليس، كما يأمر النساء بذلك، وأيضاً بالحجاب.

وحين يسد الشرع الحنيف أبواب الفساد، يفتح باب النكاح ويشجع عليه، ويأمر بالعفة لمن لا يجد سبيلاً إلى النكاح، ويعالج وضع العبيد والإماء، فيأمر بمكاتبة من علم منه الخير من العبيد، وعدم إكراه الفتيات على البغاء إن أردن تحصناً (الآيات: ٣٢-٣٣).

على أي أساس متين، ترتفع قواعد البيت الطاهر؟ أوليس على الوحي الذي يهبط إليه، وذكر الله الذي يصعد منه؟! بلى؛ ولذلك كانت سورة النور هي سور الأسرة، ومن نور الوحي ضياء البيت، وكانت الأسرة مشكاة، فيها من نور الوحي مصباح تحيط به زجاجة شفافة من أولي الأبصار -الرجال الأتقياء حفظة الأسرة- يتقد شعاعاً من شجرة المعرفة.. وكانت بيوت النبوة التي أذن الله لها أن تُرفع، حصوناً منيعة للوحي على مستوى الأمة، كما البيت حصن القيم على مستوى الأسرة.

والأمة التي لا تكرم بيت النبوة، كما الأسرة التي لا تأبه بالقيم، تتساقط أطرافها وتغدو فيمها شديدة الظلام.

ونور المجتمع من بيت النبوة، ونور الأسرة من ضياء القيم، ويشرق هذا النور وذاك بنور الله (الآيات: ٣٤-٤٠).

وأشرقت السماوات والأرض بنور ربها، ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض، وله الملك، وهو الذي يزجي السحاب، ويبعث بالبرق، ويقلب الليل والنهار، وأنه خلق كل

دابة من ماء؟ بلى؛ إنه الرب الذي أنزل آيات مبينات،وهو يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (الآيات: ٤١-٤٦).

وهكذا يحيط السياق عبر (الآيات: ٤٧-٥٤) بالنواحي المعنوية للبيت الرفيع، ثم يعالج موضوع الطاعة التي تعتبر من أهم ركائز التربية، ويقول: لابد من التسليم لحكم الله والرسول، والرضا بالحق، كان له أم عليه،وبعد أن ينعت المؤمنين بفضيلة الطاعة، يلوم البعض ممن يَدَّعونها ويحلفون عليها، ولكنهم حين يجد الجد يخشون.

ويأمرهم بالطاعة لله وللرسول ليهتدوا، ويذكّر بأن الله قد وعد المؤمنين الصالحين أعمالاً باستخلافهم في الأرض،ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول، وعدم اليأس من روح الله، وألا يحسبوا الكفار معجزين في الأرض (الآيات: ٥٥-٥٧).

ويعود القرآن في (الآيات: ٥٨-٦١) إلى حرمة البيت، ويأمرنا بالاحتشام أمام الأطفال والخدم، فلا يدخلوا البيت -الذي هو عورة- أوقات الراحة إلا بعد الاستئذان، ويضع عن القواعد من النساء فريضة الحجاب، كما يرفع عن الأعمى والأعرج والمريض الحرج (لعله للتساهل معهم)، كما يرفع الحرج عن الأكل في بيوت الأقارب والأصدقاء، ويأمر بالسلام عند دخول البيوت.

وبعد أن يبين بعض آداب المجتمع، وعدم التسلل إلى البيت عند وجود الاستنفار للحرب أو ما أشبه، إلا بعد إذن القيادة،وينهى عن دعاء الرسول كدعاء بعضهم بعضاً، بعد كل ذلك، يُحذِّر المتسللين لواذاً من فتنة أو عذاب أليم. ويختم القرآن الحديث مذكراً بأن الله محيط علماً بالناس، وأنه ينبئهم بما عملوا (الآيات: ٦٢-٦٤).

الأسرة سور الفضيلة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾.

هدى من الآيات:

تبدأ هذه السورة المباركة بكلمتين:

الأولى: كلمة ﴿سُورَةٌ﴾ وهي ما يعبر بها، عن المجموعة المتكاملة، من الآيات القرآنية.

فالسورة من جهة تشبه السور الذي يحيط بالبيت، فيجعله مستقلا عن غيره، ومن جهة أخرى تشبه السوار الذي يحيط بالمعصم فيعطيه زينة وجمالا، وكما أن لكل مجموعة بشرية سورا يحيط بهم، وهو الأسرة التي تمثل الحجر الأساس في بناء المجتمع.

الثانية: كلمة ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ فالسورة القرآنية جاءت لتكون ثابتة ومستقرة ومفروضة في المجتمع البشري، و ليكون الأخذ بها وتطبيق آياتها فرضا على جميع عباد الله.

عندما ينزل الماء من السماء تذهب كل قطرة منه، في اتجاه يختلف عما ذهبت إليه القطرات الأخرى، أما الآيات القرآنية فلم تتنزل لكي تتناثر هنا وهناك، بل قدر الله لها أن تكون وحدة متراصة، ضمن سور واحد هو القرآن الكريم، تطبق كمجموع فلا تتبعض، بل لا يمكن الأخذ بقسم منها وترك الآخر جانبا. هكذا فرض الله السورة.

وكما فرض الله السورة القرآنية، فإنه فرض الأسرة التي هي بمثابة سور الإنسان وحصنه، الذي يلجأ إليه في الحياة الاجتماعية، وهذا ما تؤكده آيات هذا الدرس من سورة النور.

وحيث إنه لا يمكن فرض شيء إلا بالقوة، فقد فرض الله حرمة الأسرة بقوة العقوبات، التي أوجبها بحق من يعتدي على نظامها في المجتمع الإسلامي، حتى إننا لنلاحظ شدة العقوبة عليه، إذ يجلد كل من الزانية والزاني مئة جلدة دونما رأفة.

وكما يفرض الإسلام عقوبة صارمة على مرتكب الفاحشة، كذلك يفرض على من يزني بلسانه، فيرمي الأبرياء والبريئات بتهمة الزنا. إذ يعتبر ذلك نوعا من الاعتداء على سلامة البيت الأسري، الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بسمعته النظيفة، فالبيت الذي تلوكه الألسنة ليس محلا آمنا للحياة المستقيمة.

وبقدر ما يؤكد القرآن الحكيم على حرمة الزنا، فهو يؤكد على حرمة الاتهام، إذ يطالب المتهم بإثباتات كافية، لأن الاتهام ذاته قد يكون وسيلة لإشاعة الفاحشة، والمجتمع الذي تسقط فيه قيمة الشرف العائلي يسهل عليه الهبوط إلى حضيض الفواحش.

وبالرغم من الغلظة التي لا بد أن نقضي بها على الانحرافات الخلقية في المجتمع، يؤكد القرآن على أن للتوبة بابا واسعا فتحه الله أمام الناس كي يصلحوا ما أفسدوه، لأن الله سبحانه وتعالى - وهو خالق الإنسان - يعلم بما أودعه في هذا الكائن من شحنات غريزية تبرر الزلل والسقوط لديه، فلولا فتح أبواب التوبة له، فإنه لن يتمكن من النهوض بعد السقوط.

بينات من الآيات:

[١] ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أنزل الله السورة فأوجبها، وحافظ عليها، برغم كل الأهواء، والشهوات والضغوط، التي تحاول سلب القرآن قدسيته ومحتواه. والآيات الواضحة التي جاءت في السورة، هي التي تذكر الإنسان. لأن قلبه مفطور على الحقائق، وإنما يحتاج إلى مذكر يثير فيه كوامن الفطرة ودفائن العقل.

الحدود الشرعية حصانة المجتمع

[٢] بالرغم من أن الأسرة تبدأ عمليا بالزواج، إلا إن القرآن لا يبدأ بذكره، بل يذكر عقوبة الزنا أولاً، والسبب أنه من دون قانون يحصن الأسرة ويحفظها من الانحراف والاعتداء، تسقط كل القوانين الأخرى، فما فائدة الحصن الذي لا يحميه جدار رفيع؟.

وما هي فائدة الزواج في الأمم الكافرة، التي يجد فيها قطبا الأسرة الطريق مفتوحا لإشباع الغريزة الجنسية خارج البيت؟.

إذن تبدأ الأسرة في الواقع عندما تعطى لها حصانة، بفرض العقوبة على من يخترقها.

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ الجلدة هي الضربة التي تلامس جلد الإنسان، ولأن ما تلذذ به الزاني كان عن طريق جلده، الذي لامس جلد الجنس الآخر، فعليه أن يتذوق الألم عقابا له على هذه اللذة المحرمة. صحيح أن النفس البشرية تتألم لمنظر إنسان عار يجلد مئة جلدة ولكن يجب أن لا ننسى أنه انتهك حرمة دين الله. فإذا سمحنا له بالهرب من طائلة العقوبة، فذلك يعني أن نعرض المجتمع كله للفساد، لذا ينهانا القرآن أن نرأف بالزناة لأن التشديد عليهم يصلحهم من جهة، ويكون رادعا للآخرين عن التورط في هذه الجريمة البشعة من جهة أخرى.

﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ ولعله لذلك أكد القرآن هذا الحكم بقوله سبحانه: ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾.

إن الحدود الشرعية ذات قيمة أساسية في المجتمع، وكثير من الناس تأخذهم الرأفة حينما يعدم قاتل أمام أعينهم، أو يجلد الزاني، أو تقطع يد السارق، دون أن يعرفوا خلفية هذا العمل العظيم، فإعدام القاتل -مثلاً- يمنع القتل عن الكثيرين، وبالتالي يمنح الحياة للمجتمع، وهكذا جلد الزاني يحصن الأسرة، وقطع يد السارق يحافظ على ثروات الناس.

وهكذا إذا انتشر الزنا في المجتمع فإن بيوتا وأسرا ستتدمر، وإن أطفالا أبرياء سيضيعون، أو سوف يتربون على العقد المتراكمة، التي تتحول إلى جرائم بشعة. أوليس أكثر الذين دمروا الحضارات كانوا من أبناء البيوت الفاسدة التي لم تعرف شرفا للأسرة؟.

ولأن هذا القسم من الناس لا يعرفون كل هذه الحقائق، تأخذهم الرأفة السلبية على حساب الدين، فقد يعطلون الحدود. ولكن من يؤمن بالله، ويعلم بأنه أرأف بعباده منه، وأنه عندما يأمر بجلد الزاني، فإن في ذلك مصلحة لكل الناس بل للزاني نفسه، لا تأخذه هذه الرأفة.

ثم يقول ربنا: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لابد أن يكون الجلد في محضر من المؤمنين، لأن قيمة العقوبة لا تكمن في أثرها على الجاني فحسب، بل لا بد أن تنعكس على المجتمع. والواقع أن حد الزنا ليس واحدا، بل هناك ظروف مختلفة، تختلف العقوبة بموجبها، و فيما يلي حديث شريف يجمع بين مختلف الحدود:

جاء في تفسير علي بن إبراهيم: «إنه أحضر عمر بن الخطاب، ستة نفر أخذوا بالزنا، فأمر أن يقام على كل واحد منهم الحد، وكان أمير المؤمنين عليه السلام جالسا عند عمر، فقال: يا عمر ليس هذا حكمهم، قال: فأقم أنت عليهم الحد، فقدم واحدا منهم فضرب عنقه، وقدم الثاني فرجمه، وقدم الثالث فضربه الحد، وقدم الرابع فضربه نصف الحد، وقدم الخامس فعزره، وأطلق السادس، فتعجب عمر وتحير الناس. فقال عمر: يا أبا الحسن ستة نفر في قضية واحدة أقمت عليهم خمس عقوبات وأطلقت واحدا ليس منها حكم يشبه الآخر؟! فقال: نعم أما الأول فكان ذميا زنى بمسلمة فخرج عن ذمته فالحكم فيه بالسيف، وأما الثاني فرجل محصن زنى فرجمناه، وأما الثالث، فغير محصن حددناه، وأما الرابع، فرق زنى ضربناه نصف الحد، وأما الخامس فكان منه ذلك الفعل بالشبهة فعزرناه وأدبناه، وأما السادس مجنون مغلوب على عقله سقط منه التكليف»[1].

العفة سور المجتمع

[٣] ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾

من طبيعة الحياة الاجتماعية أن الشرفاء من الرجال أو النساء -لا فرق- لا يبحثون إلا عن نظائرهم، بينما نجد عكس ذلك لدى الهابطين خلقيا من الناس، الذين يبحثون عن أمثالهم، لذا ولخطورة الاختلاط، فإن الله يريد فصل مجموعة الزناة والزانيات عن المجتمع، ليحصنه بسور العفة والشرف. ولعل في ربط كلمة الشرك بالزنا، إشارة إلى أن الزنا نوع من الشرك الخفي، أو ليس ينطوي على عبادة الشهوات والهوى؟.

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ لقد جاءت في هذه العبارة القرآنية رواية مأثورة عن الأئمة عليهم السلام، في أنه يحرم نكاح الزانية أو الزاني الذي لا يمكن تحقق الإحصان لهما مع الزواج، ولذلك يجب على المؤمنين الابتعاد عن مجاميع الزناة، نعم إذا تاب الزاني أو تابت الزانية جاز نكاحها.

فقد روى محمد بن مسلم عن الإمام أبي جعفر عليه السلام فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَ جَلَّ: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٩٦.

إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ قَالَ: «هُمْ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ كَانُوا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ مَشْهُورِينَ بِالزِّنَا فَنَهَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ أُولَئِكَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالنَّاسُ الْيَوْمَ عَلَى تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ مَنْ شَهَرَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ أَوْ أُقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ فَلَا تُزَوِّجُوهُ حَتَّى تُعْرَفَ تَوْبَتُهُ»[1].

ولعل معنى كلامه عليه السلام والناس اليوم على تلك المنزلة، أن سيرة الرسول تجري على الناس اليوم أيضاً.

القذف بين الحد والتوبة

[٤] ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

هنا يفرض الله عقوبة شديدة على من يرمي المحصنات، بتهمة الزنا دون أن يأتي بأربعة شهداء عدول على ذلك، ممن شهدوا الحادثة بأم أعينهم.

ولا يكتفي بذكر هذه العقوبة الشرعية، بل يذكر عقوبة قضائية رديفة لها، إذ يجب نبذ مثل هذا الإنسان بعد إجراء حد القذف عليه، بإسقاط اعتباره في المجتمع، لأنه بعمله هذا يكون قد فقد عدالته، فلا شهادة له بعد ذلك، ليس فقط في قضية الزنا، بل وأيضاً في سائر القضايا الاجتماعية، كالعقود المالية، وإثبات الهلال، وسائر الموضوعات. وفي ذلك تأديب معنوي له، بالإضافة إلى التأديب البدني بالجلد.

ولا نجد كالقذف، عقوبة صارمة على اللسان في التشريعات الإسلامية، فلو قال شخص: إن فلانة زنت. عليه أن يحضر العدد الشرعي من الشهود العدول، ولو شهد اثنان بالزنا ثم قالا إن هناك شخصين آخرين رأيا ما رأيناه، وهما في الطريق لا يمهلان، إنما يجلد كل منهما ثمانين جلدة على الفور، إذ لا تثبت شهادتهما إلا إذا دخل أربعتهم دفعة واحدة، ليشهدوا لدى الحاكم على عملية الزنا. والإسلام الذي فرض عقوبة الجلد أو الرجم على مرتكب الزنا، هو الذي منع قبول الشهادة لأقل من أربعة، وهل تقع عملية الزنا علانية حتى يتمكن هذا العدد من الشهادة عليها؟.

إن الجرائم الأخرى كالقتل والسطو يمكن أن تحدث أمام الناس، أما الزنا فإن الحياء البشري الذي أودعه الله في فطرة كل إنسان يمنع وقوع هذه العملية جهارا أمام الآخرين، فكيف يرى هذه العملية أربعة وبكل وضوح؟ إنه لا يقع إلا في حالات نادرة جدا مما يدل

---

(١) الكافي: ج٥، ص٣٥٥.

على أن هذه العقوبة الشديدة سوف تختص واقعيا بالذين يستهترون الحدود الشرعية، وبآداب العرف العام، دعنا نقرأ النصوص التي تبين أحكام الشهادة على الزنا:

عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: **«لَا يُرْجَمُ الرَّجُلُ وَ الْمَرْأَةُ حَتَّى يَشْهَدَ عَلَيْهِمَا أَرْبَعَةُ شُهَدَاءَ عَلَى الْجِمَاعِ وَ الْإِيلَاجِ وَ الْإِدْخَالِ كَالْمِيلِ فِي الْمُكْحُلَةِ»**(١).

وعن حكمة اشتراط الشهود الأربعة، يروي أبو حنيفة إمام المذهب الحنفي عن الإمام الصادق عليه السلام، فيقول قلت له: **«أَيُّهُمَا أَشَدُّ الزِّنَا أَمِ الْقَتْلُ؟ فَقَالَ عليه السلام: الْقَتْلُ. قَالَ (أبو حنيفة) قُلْتُ: فَمَا بَالُ الْقَتْلِ جَازَ فِيهِ شَاهِدَانِ، وَلَا يَجُوزُ فِي الزِّنَا إِلَّا أَرْبَعَةٌ؟ إِلَى أَنْ قَالَ فَقَالَ عليه السلام: الزِّنَا فِيهِ حَدَّانِ وَلَا يَجُوزُ إِلَّا أَنْ يَشْهَدَا كُلُّ اثْنَيْنِ عَلَى وَاحِدٍ لِأَنَّ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ جَمِيعاً عَلَيْهِمَا الْحَدُّ وَالْقَتْلُ إِنَّمَا يُقَامُ الْحَدُّ عَلَى الْقَاتِلِ وَ يُدْفَعُ عَنِ الْمَقْتُولِ»**(٢).

وإنما يقصد الإسلام من هذا التشدد في مسألة الشهادة على الزنا، المحافظة على الحياة الأسرية في المجتمع من التفتت، والانهيار. وكما أن الزنا من أشد عوامل انهيار الأسرة فإن الاتهام به يؤدي إلى ذات النتيجة تقريبا، إذ إنه من الجرائم التي يمكن الاتهام بها سريعا، وهي تدغدغ غرائز الناس خصوصا المعقدين جنسيا، وليست مثل جريمة القتل وغيرها، لذلك شدد الإسلام على العقوبة من جهة، وعلى الشهادة من جهة أخرى، وكلا الأمرين يهدفان إلى شيء واحد هو صيانة الأسرة، والمحافظة على العفة والشرف في الحياة الاجتماعية.

وقد اعتبر القرآن من يقذفون المحصنات بالزنا، دون الإتيان بأربعة شهود بأنهم فاسقون، لأنهم بعملهم هذا يوجهون أكبر ضربة لشرف المجتمع، الذي جاءت الأديان السماوية لإصلاحه، وإحكام بنائه.

[٥] ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

ليس جديدا على من يقرأ القرآن، أن يلحظ لحوق كلمة الإصلاح بالتوبة، فكثيرا ما تكرر ذلك في مواضع مختلفة من القرآن الكريم ذاته، ذلك لأن شرط قبول التوبة أن يصلح الإنسان ما أفسده بذنوبه، والله سبحانه يؤكد لفئة التائبين، بأن مغفرته ورحمته سوف تشملهم إن هم رجعوا إلى طريق الحق بعد الانحراف، وتداركوا ما فاتهم بالجهد المخلص والعمل البناء، وإصلاح ما أفسدوه بذنوبهم، فإذا اتهموا المحصنات بالفاحشة وسقط شرفهن بذلك، وجب عليهم الإعلان عن كذبهم، والاستعداد لإجراء الحد عليهم، لإعادة الاعتبار إليهن، فقد قال

(١) الكافي: ج٧ ص١٨٤.
(٢) الكافي: ج٧ ص٤٠٤.

سماعة: سَأَلْتُهُ عَنْ شُهُودِ الزُّورِ؟ قَالَ: فَقَالَ: «يُجْلَدُونَ حَدّاً لَيْسَ لَهُ وَقْتٌ، وَ ذَلِكَ إِلَى الْإِمَامِ، وَ يُطَافُ بِهِمْ حَتَّى يَعْرِفَهُمُ النَّاسُ، وَ أَمَّا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَ جَلَّ: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ... إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ تُعْرَفُ تَوْبَتُهُ؟ قَالَ: يُكْذِبُ نَفْسَهُ عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ حَتَّى يُضْرَبَ وَ يَسْتَغْفِرَ رَبَّهُ وَ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ ظَهَرَتْ تَوْبَتُهُ»[1].

فمن يتوب بعد الزنا يوفر الله له أسباب الزواج، كما يرزق من تاب عن السرقة وأعاد الحقوق للناس رزقا حلالا، وكذلك من تاب من بعد أن استسلم لضغوط السلطة التي تعرض لها، يوفر له مكانا آمنا يأوي إليه ويرفع عنه الضغوط.

وهكذا يشجع الله عباده على التوبة، والرجوع إليه، حينما يعدهم بالمغفرة والرحمة إذا ما تابوا وأصلحوا.

(١) الكافي: ج٧ ص٢٤١.

كيف يواجه المسلمون إفك المنافقين؟

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا[1] الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ[2] عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ[3] مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥)﴾

هدى من الآيات:

في إطار فرض قانون الأسرة في المجتمع - وهو ما بينه القرآن في الدرس السابق - بعدما مر من بيان العلاقة بين الروح الإيمانية، وبين الأسرة المؤمنة في جانب عقوبة الزنا، وعقوبة

(١) يدرأ عنها: أي يدفع عنها.

(٢) الافك: الكذب العظيم.

(٣) تولى كبره: الذي يتحمل معظمه.

القذف به، تبين الآيات الكريمة العلاقة السليمة بين الزوج وزوجته في هذه المسألة الحساسة، حيث شرع الإسلام اللعان حلا للذين يقذفون أزواجهم بتهمة الزنا، كبديل للشهود، واللعان هو أن يشهد الزوج أربع شهادات بزنا زوجته، تحتسب كل واحدة منها بمثابة شاهد، ثم يستنزل في المرة الخامسة لعنة الله عليه إن كان كاذبا هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تشهد الزوجة أربع شهادات بالبراءة، وفي المرة الخامسة تقول أن غضب الله عليها إن كان زوجها صادقا في اتهامه لها بالزنا.

ولماذا تختلف تهمة الزوجة بالزنا عن تهمة غيرها؟ إنها للعلاقة الخاصة بين الزوج وزوجته. فقد يكتشف الزوج من زوجته مالا يمكن اكتشافه من قبل الآخرين، ولو لم يضع الإسلام قانونا خاصا لهذه العلاقة، لانهارت أسر بكاملها، لعدم وجود ما ينظم علاقة الزوج بزوجته في حالة التهمة والقذف.

بعدئذ يتعرض السياق القرآني لقضية هامة وهي مسألة (الإفك) ومع أن مورد النزول في هذا المقطع القرآني، يختص بتهمة الزنا التي الصقها البعض بزوجة الرسول ﷺ (مارية القبطية) على أحد الأقوال، إلا إن السياق يؤكد على ضرورة وقف أمثال هذه التهمة، التي تشيع في المجتمع، والوقوف في وجه من يختلقونها أو يروجون لها، وتوحي الآيات هذه، بالحقائق التالية:

أولاً: إن انطلاق التهم، عادة ما يكون، من مجموعة يلتفون حول بعضهم، ويسمي القرآن هؤلاء (بالعصبة).

وتشكل هذه العصبة تجمعا طاغوتيا، لا يعتمد على القيم الإسلامية في علاقاتهم، لأنهم يختلقون التهم الباطلة، ويفترون الأخبار الكاذبة، ويبثونها في المجتمع، كما تنفث الأفعى السم في ضحيتها.

ثانياً: إن المجتمع الصالح هو المجتمع المحصن ضد التهم والقادر على اكتشاف كذب التهمة، وردها إلى صاحبها بسرعة فائقة، أما المجتمع الهزيل الذي تتلاقف أبناءه التهم الباطلة، لنشرها دون العلم بما ورائها من هدف خبيث، يهدد سلامة المجتمع فإنه يتحطم سريعا. إن حرمات أبناء المجتمع وأعراضهم مهددة بعبث المعتدين.

وهكذا يعرف المجتمع الفاضل الرشيد منذ البدء خطورة التهم الباطلة، فيسعى لردها حفاظا على سلامة كل فرد من أبنائه.

ثالثاً: يؤكد القرآن الحكيم على نفع هذه الشائعات بالنسبة إلى المجتمع المؤمن لأنها

تكشف طبيعة بعض أفراد المجتمع، إذ يكشف مثيري التهم، ومدى ضحالة انتمائهم للمجتمع الإيماني، كما يكشف المسرعين لاستماعها منهم، مما يعطي فرصة كبيرة لإصلاحهم من قبل الموجهين.

بينات من الآيات:

حكمة اللعان في الإسلام

[٦] ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ ﴾

من الصعب جدا أن يعيش شخص يتهم زوجته بتهمة كالزنا بسعادة واطمئنان، ولكي لا تكون الأسرة محلا للصراع بين الزوجين فتفرز أبناء معقدين، حاقدين على المجتمع، لنشأتهم في جو موبوء، بل تكون الأسرة بيتا للوداعة، ودارا للأمان، لذلك شرع الإسلام اللعان الذي ينهي العلاقة بين الزوجين أبديا ويذكر الرواة قصة طريفة لنزول هذه الآية تبين بعض أحكام اللعان.

كما تعكس كيفية معالجة الإسلام للمشاكل الاجتماعية. تقول الرواية التي ينقلها المفسر المعروف علي بن إبراهيم أن الآية نزلت في اللعان، وكَانَ سَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ جَاءَ إِلَيْهِ عُوَيْمِرُ بْنُ سَاعِدَةَ الْعَجْلَانِيُّ وَكَانَ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ امْرَأَتِي زَنَى بِهَا شَرِيكُ بْنُ سَمْحَاءَ وَهِيَ مِنْهُ حَامِلٌ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ الله ﷺ فَأَعَادَ عَلَيْهِ الْقَوْلَ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فَدَخَلَ رَسُولُ الله مَنْزِلَهُ فَنَزَلَ عَلَيْهِ آيَةُ اللِّعَانِ، وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ وَصَلَّى بِالنَّاسِ الْعَصْرَ وَقَالَ لِعُوَيْمِرٍ: **ائْتِنِي بِأَهْلِكَ فَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ فِيكُمَا قُرْآناً**. فَجَاءَ إِلَيْهَا فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ: يَدْعُوكِ، وَكَانَتْ فِي شَرَفٍ مِنْ قَوْمِهَا، فَجَاءَ مَعَهَا جَمَاعَةٌ فَلَمَّا دَخَلَتِ الْمَسْجِدَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِعُوَيْمِرٍ: **تَقَدَّمْ إِلَى الْمِنْبَرِ وَالْتَعِنَا**. فَقَالَ: كَيْفَ أَصْنَعُ؟!. فَقَالَ ﷺ: **تَقَدَّمْ وَقُلْ أَشْهَدُ بِالله إِنِّي لَمِنَ الصَّادِقِينَ فِيمَا رَمَيْتُهَا بِهِ**. فَتَقَدَّمَ وَقَالَهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ **أَعِدْهَا**. فَأَعَادَهَا، ثُمَّ قَالَ ﷺ: **أَعِدْهَا**. حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ.

وَقَالَ ﷺ فِي الْخَامِسَةِ: **عَلَيْكَ لَعْنَةُ الله إِنْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فِيمَا رَمَيْتَهَا بِهِ**. فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: إِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ الله إِنْ كانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فِيمَا رَمَاهَا بِهِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **اللَّعْنَةُ مُوجِبَةٌ إِنْ كُنْتَ كَاذِباً**.

ثُمَّ قَالَ ﷺ لَهُ: **تَنَحَّ فَتَنَحَّى**، ثُمَّ قَالَ ﷺ لِزَوْجَتِهِ: **تَشْهَدِينَ كَمَا شَهِدَ وَإِلَّا أَقَمْتُ عَلَيْكِ حَدَّ الله**، فَنَظَرَتْ فِي وُجُوهِ قَوْمِهَا فَقَالَتْ: لَا أُسَوِّدُ هَذِهِ الْوُجُوهَ فِي هَذِهِ الْعَشِيَّةِ فَتَقَدَّمَتْ إِلَى الْمِنْبَرِ وَقَالَتْ أَشْهَدُ بِالله أَنَّ عُوَيْمِرَ بْنَ السَّاعِدَةِ مِنَ الْكَاذِبِينَ فِي مَا رَمَانِي بِهِ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ

الله ﷺ **أَعِيدِيهَا**، فَأَعَادَتْهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ.

فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ: **الْعَنِي نَفْسَكِ فِي الْخَامِسَةِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي مَا رَمَاكِ بِهِ**، فَقَالَتْ فِي الْخَامِسَةِ: أَنَّ غَضَبَ الله عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي مَا رَمَانِي بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **وَيْلَكِ إِنَّهَا مُوجِبَةٌ**، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **لِزَوْجِهَا اذْهَبْ فَلَا تَحِلُّ لَكَ أَبَداً**، قَالَ: يَا رَسُولَ الله فَمَالِيَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا؟!. قَالَ ﷺ: **إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَهُوَ أَبْعَدُ لَكَ مِنْهُ، وَإِنْ كُنْتَ صَادِقاً فَهُوَ لَهَا بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا...**»[1].

ومعنى الآية أن من يتهم زوجته ولم يستطيع إحضار الشهود الشرعيين في مثل هذا المورد، فعليه أن يحلف بالله أربعة أيمان، بأنه صادق في نسبة الزنا إلى زوجته ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

[٧] ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ عند اللعان يقول الشخص: لعنة الله علي إن كنت من الكاذبين، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ بضمير هو لكي لا تظهر وكأن اللعنة على من يقرأ القرآن.

[٨] ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فإذا أقسمت بالله أربع مرات على كذب زوجها ارتفع عنها الحد، فلا جلد ولا رجم، وان لم تفعل ذلك فكأنها صادقت على تهمة زوجها لها بالزنا.

[٩] ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في الذي يدعيه في حقها، وهكذا تلعن نفسها إن هي ارتكبت الزنا، وكان بالتالي اتهام زوجها لها صحيحا.

[١٠] ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ إذ لولا فضل الله وتوبته لعذب من يقذفون أزواجهم، لأن القذف تهمة عظيمة عند الله، ولا يجوز لأحد اتهام الآخرين لمجرد الظن أو حب الانتقام، وجواب «لولا» معروف من خلال السياق، ولعل الآية (١٤) تشير إليه أيضاً حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الحلف في القانون الإسلامي

ومما يثير التفكير هنا، مدى اعتماد الإسلام على روح (الإيمان) في الأنظمة الاجتماعية التي

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٢ ص٦٨.

يشرعها، إذ يشكل الحلف مثلاً أحد أعمدة النظام الإسلامي في القضاء، وعندما يفقد المجتمع روح الإيمان، ويفقد الالتزام بما يقول، وما يحلف به إذن لا يقدر على تنفيذ قيم الرسالة، ولا يمكن أن يكون بالتالي نظامه نظاما إسلاميا بأي حال.

وبالرغم من أن المجتمعات البشرية اليوم، وصلت إلى حد من التقدم التكنولوجي يبهر الإنسان، إلا أنها مازالت فاشلة في الأنظمة الاجتماعية والإنسانية، فلا يجد الفرد في المجتمع غير المؤمن وازعا من الحلف بالله كذبا من أجل بضعة دنانير، بينما ميزة المجتمع المؤمن تحرج أبناءه من الحلف كاذبا.

ولو راجعنا تاريخ الرعيل الأول من المسلمين، لعرفنا إلى أي حد كان النظام القضائي ناجحا آنذاك، فلقد كان المجتمع الإسلامي يسير من قبل الحكومة الإسلامية، وتحل جميع مشاكله دونما أي صعوبة، ذلك لأن المؤمنين يتحرجون من جعل الله عرضة لأيمانهم حتى ولو كانوا صادقين، وكان البعض منهم مستعدا للتنازل عن حقه، و دفع مبلغ كبير من المال، ولم يكن مستعدا للحلف بالله العظيم.

وننقل قصة الإمام زين العابدين، كشاهد على ذلك، فقد رفعت إحدى مطلقاته دعوى ضده عند القاضي، مطالبة إياها بالمهر الذي كان يبلغ أربعمئة دينار ذهبا، فلما ترافعا عند القاضي، وأنكر الإمام أنها تطلبه شيئا، طالبه القاضي بالحلف فرفض فحكم عليه، ودفع الإمام المهر كاملا فلما خرج من عند القاضي سأله ابنه الإمام الباقر عليه السلام قائلاً له: «**يَا أَبَهْ جُعِلْتُ فِدَاكَ أَ لَسْتَ مُحِقّاً**؟. قَالَ عليه السلام: **بَلَى يَا بُنَيَّ وَلَكِنِّي أَجْلَلْتُ اللهَ أَنْ أَحْلِفَ بِهِ يَمِينَ صَبْرٍ**»[1].

هكذا كانوا يتحرجون، وعلى هذا قامت قواعد المجتمع الإسلامي.

الأفاكون ومسؤولية المجتمع المسلم

[١١] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ من الذين اتهموا زوجة الرسول؟.

سؤال لا تهمنا الإجابة عليه بالأسماء، بل تهمنا طبيعة هذه العصبة وهدفهم من التهمة،

---

(١) الكافي. ج٧، ص٤٣٥، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: أَنَّ أَبَاهُ كَانَتْ عِنْدَهُ امْرَأَةٌ مِنَ الْخَوَارِجِ أَظُنُّهُ قَالَ: مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، فَقَالَ لَهُ مَوْلًى لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ إِنَّ عِنْدَكَ امْرَأَةً تَبَرَّأُ مِنْ جَدِّكَ، فَقُضِيَ لِأَبِي أَنَّهُ طَلَّقَهَا فَادَّعَتْ عَلَيْهِ صَدَاقَهَا فَجَاءَتْ بِهِ إِلَى أَمِيرِ الْمَدِينَةِ تَسْتَعْدِيهِ، فَقَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمَدِينَةِ: يَا عَلِيُّ إِمَّا أَنْ تَحْلِفَ وَإِمَّا أَنْ تُعْطِيَهَا [حَقَّهَا] فَقَالَ لِي: قُمْ يَا بُنَيَّ فَأَعْطِهَا أَرْبَعَمِائَةِ دِينَارٍ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَهْ جُعِلْتُ فِدَاكَ أَ لَسْتَ مُحِقّاً. قَالَ عليه السلام: بَلَى؛ يَا بُنَيَّ وَلَكِنِّي أَجْلَلْتُ اللهَ أَنْ أَحْلِفَ بِهِ يَمِينَ صَبْرٍ».

فقد كان هدفها التنقيص من كرامة الرسول ﷺ والعصبة هم الذين يتعصبون لبعضهم، على أساس المصالح المادية، لا على أساس القيم، ولاحتمال أن يعتري المؤمنين تصور خاطئ حول الأمر، فإن القرآن يوجههم قائلاً: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

لأن العاقبة سوف تنتهي إلى خير، باعتبارها امتحانا للمجتمع المؤمن، فإذا تغلب المؤمنون على هذا الأمر و أمثاله، فإنه سيكون مجتمعهم فاضلا وقادرا على مقاومة الضغوط والمشاكل المختلفة.

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ كما يكون الإنسان مسؤولا عن سلوكياته وتصرفاته، فإن مختلقي التهمة ضد الرسول ﷺ سوف يتحملون مسؤولية كلامهم في الدار الدنيا، بكشفهم وتعرية إشاعتهم الباطلة، وفي الآخرة بالعذاب الأليم.

﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ويبدو أن السياق يشير إلى إمام هذه العصبة، الذي يتحمل وزرها، بأن له عذابا عظيما، فالعادة تقضي بوجود كبير لهذه العصبة، يكون مصدر تلفيق التهمة، أو لا أقل يعطي الشرعية لها، ويبدو أن كبار السن الذين تنزوي عنهم الحياة، ويشعرون بأن شمس عمرهم تجنح للأفول، هم المبادرون لبث هذه التهم، لأنهم أكثر سلبية وحسدا، ولعل المراد منه هنا هو شيخ المنافقين في عهد الرسول ﷺ.

إلى هنا يكون الأمر مقتصرا على (التهمة) أما الحديث الآتي فإنه ينتقل إلى جانب آخر، حيث يحدد الله فيه المسؤولية، التي تقع على كاهل المجتمع، تجاه مثل هذا الأمر فيقول:

[١٢] ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾

يجب على المجتمع المؤمن قبل اتخاذ أي موقف، أن يعرف خلفيات التهمة بالإفك، حيث إنها لا تقتصر على شخص الرسول فحسب، بل تعنيهم أيضاً، وتهدد سلامة مجتمعهم، فهؤلاء لا يهدفون التنقيص من كرامة الرسول فحسب، بل يريدون أيضاً التنقيص من شرف الأمة الإسلامية، عن طريق بث التهم الباطلة ضد قيادتها، و عندما يتجاوب المؤمنون مع ما يصبو إليه هؤلاء، فيظنون بزوجة الرسول ﷺ سوءا، فهل يبقى بعد ذلك شرف سليم في الأمة، لا تناله ألسنة هؤلاء المنافقين؟!.

إذن لابد للذين يستمعون هذه التهم من التعرف على طبيعتها، وكشف الدوائر التي تقف وراءها، وعلى المجتمع أن يكون رشيدا فاضلا، يقيم الأفكار والشخصيات.

فما يدور من صراع جاد اليوم بين الجاهلية الحديثة والحركات الرسالية - التي تهدف تقويض الكيانات الجاهلية، وإقامة حكومة إسلامية عادلة صورة حية لما دار بالأمس بين

المنافقين الذين كانوا يختلقون التهم، و بين المجتمع المؤمن بقيادة الرسول.

إذ يسعى الجاهليون بكل ما يملكون من قوى شيطانية، للمس من كرامة الأمة الإسلامية عبر بث التهم ضد الحركات الرسالية، وواجب الأمة الإسلامية اليوم هو بالذات مسؤولية المؤمنين بالأمس، بأن تعتبر نفسها طرفا في الصراع، وان تكشف الدوائر الجاهلية الواقفة خلف الأباطيل والتهم المختلقة ضد البررة من أبنائها.

فالله سبحانه وتعالى يقول: إن هذه التهم تستهدف قبل كل شيء سلامة المجتمع المعنوية، وعلى المجتمع أن يظن بنفسه خيراً، ويتوجه جديا لمواجهة هذه التهم ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ ويطالب المتهمين بالأدلة الدامغة، فلو اتهم شخص آخر بأنه جاسوس دون أدلة، فإن المتهِم قد يكون هو الجاسوس حقا، لأن الجاسوس هو الذي يخدم مصالح وقوى الجاهلية التي تستهدف الحركات التحررية الرسالية، والإسلام يأمرنا بمواجهة هؤلاء الأشخاص أمرا وجوبيا معتبرا كفريضة إسلامية حيث يقول:

[١٣] ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ لإثبات ما اختلقوه ضد سلامة المجتمع وقيادته.

﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ لأن كلامهم في الواقع عار عن أي دليل حتى ولو كانوا صادقين، وإن نشر الفكرة التي لا دليل عليها ولو كان عن سذاجة أو حسن ظن خطأ كبير.

وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ بَلْ لَا تَقُلْ كُلَّ مَا تَعْلَمُ فَإِنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَى جَوَارِحِكَ كُلِّهَا فَرَائِضَ يَحْتَجُّ بِهَا عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١]

فنشر تهمة لا دليل عليها يؤدي إلى نفس العاقبة التي يسعى إليها الكاذب.

إن الدوائر المنحرفة تختلق التهم المختلفة، وتقذف بها في المجتمع لتتلقفها الألسن، وتنتشر كما ينتشر الوباء، وإن المجتمع الفاضل هو الذي يتهم المتهمين، ويعتقد أنهم كاذبون ولو كانوا صادقين، لأن الكذب كله في مجمل نقل القضية، فالحط من قيمة الإنسان الفاضل - الذي خلقه الله كريما، وأراد له العيش بكرامة، وأن يخلف وراءه سمعة حسنة - هو الكذب بعينه.

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٣٨٢.

فقد يكون الإنسان صادقا فيما يقول، ولكنه يصبح كاذبا، حينما يخطئ في تحديد موقع الكلمة التي يلفظها، و قد جاء في محتوى حديث مأثور عن الصادق عليه السلام جاء فيه: «إِنَّ اللهَ أَحَبَّ اثْنَيْنِ وَ أَبْغَضَ اثْنَيْنِ.. وَ أَحَبَّ الْكَذِبَ فِي الإِصْلَاحِ»[1].

ولو كانوا صادقين في قرارة أنفسهم، فإنهم كاذبون عند الله ينالون جزاء الكاذب، ولعل ذلك لأنهم لم يراعوا الظروف المحيطة بكلامهم.

[١٤] ويؤكد القرآن ضخامة هذا الخطأ، فالكلمة البسيطة التي تطلقها أفواه الكثير من الناس دون علم أو تثبت تكون وراءها مخاطر كبيرة جدا، ولولا أن الله رحيم بهم أخذهم بعذاب عظيم.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ بسبب ما تورطتم فيه من الكلام السيئ.

[١٥] ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾

لأن الإنسان يصبح خادما وبوقا للشيطان وأوليائه دونما شعور، وكم تمسنا هذه الآية الكريمة في الصميم، فأكثرنا يقول ما يسمع، ولا يعلم أنه ضد نفسه أو دينه أو مجتمعه أم لا، فيجب أن يكون الإنسان ناطقا عن علمه و تثبته، لا عن نقله من الآخرين كل ما يقولون.

وإذا اتخذنا مقياس التجمع الإيماني من طبيعة تعاملهم مع التهم، فإن كثيرا من المجتمعات القائمة اليوم تخرج عن حد التجمع الإيماني، لأنها تتلقف التهم كما يتلقف الصبيان الكرة، وينشرونها بينهم، كما ينشر المجذوم وباء المرض.

---

(١) الكافي: ج٢ ص٣٤٢.

البعد الاجتماعي للإشاعة الباطلة

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾

هدى من الآيات:

إن من خصائص القرآن الكريم في تناول الموضوعات المختلفة أنه لا ينكفئ عن أحدها دونها بيان لشتى أبعاده، وما يرتبط به من قضايا أخرى.

فبالرغم من أن مناسبة الحديث عن الإفك والإشاعة الباطلة في المجتمع كانت موضوع الأسرة، التي يجب أن تحاط بسور منيع من السلامة المعنوية، فإن القرآن الحكيم يشبع هذا الحديث بحثا ليعطينا علما بأكثر أبعاده، و من بين الأبعاد المختلفة الذي تبحثه السورة في هذا الدرس البعد الاجتماعي للإشاعة الباطلة، وكيف يجب أن يكون موقف المجتمع الفاضل من الإشاعات، وممن يبثها.

نقاط مضيئة

أولاً: من الضروري أن يمتلك المجتمع مواقف ثابتة ومحددة سلفا من الشائعات، فقد أودع الله في كل إنسان عقلا يستطيع من خلاله التعرف على صحة أو خطأ الأفكار التي تنشر في المجتمع، إذ لكل صواب نورا، فيدرك أهداف الشائعة ومصدرها.

ثانياً: على المؤمنين الصادقين الالتفاف أكثر فأكثر حول القيادة الرشيدة، ليعرفوا الأساليب الصحيحة و الصالحة، لمقاومة الشائعات حينها تنتشر في المجتمع.

ثالثاً: على أبناء المجتمع المؤمن أن لا يتبعوا خطوات الشيطان، لأن الخطوة الأولى تجرهم إلى آخر خطوة حتى ينهار المجتمع تماما.

وكمثال على ذلك عندما يسمع الفرد كلاما باطلا وينشره، فإنه يدافع عنه بسبب العزة بالإثم، مما يدفعه إلى الانتماء للمجموعة التي أشاعت هذا الكلام، وهكذا يقع في شرك العدو، من هنا يؤكد الإسلام بأن على الإنسان المؤمن أن لا يتبع خطوات الشيطان، وأن يكون واعيا، فيتجنب الخطوة الأولى الخاطئة حتى لا يصل إلى آخر خطوة.

رابعاً: إن الغاية لا تبرر الوسيلة في منطق الإسلام، فليس سليما أن يتبع المؤمنون السبل الملتوية في الوصول إلى أهدافهم، لأنها ليس لا تؤدي إلى الأهداف فحسب، بل تصل بصاحبها إلى الفحشاء والمنكر أيضاً.

فلا يمكن أن يكون الباطل طريق الحق، كما لا يمكن أن تنتصر الحركة الإيمانية عن طريق بث الأكاذيب، و محاولة التأثير على الناس بالخداع والتضليل وليس ذلك من صفات الحركة الرسالية، لأن الدجل لا يولد إلا دجلا مثله، والفحشاء إنما هي وليدة مجموعة انحرافات بسيطة تتكاثف عند الإنسان وفي واقع المجتمع.

خامساً: إن الهدف من وراء الإفك وبث الشائعات الكاذبة هو النيل من وحدة المجتمع المؤمن، لذا فإن على أفراده أن لا يسمحوا للشخص الذي يسبب نشر الشائعات بالتوسع، وذلك عن طريق الصفح والإحسان، وبالتالي المبادرة للملمة أطراف المجتمع التي تناثرت بسبب الإفك والافتراء.

بينات من الآيات:

[١٦] ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ كموقف ثابت للمؤمنين،

يوجب الله عليهم أن لا يتناقلوا الشائعات، أو يساعدوا على انتشارها بين صفوف المجتمع، وأن لا يصدقوا أي كلام دونما تثبت، ومن دون توفر الإثباتات والشواهد الكافية، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ يعني: فهلا أنكم حين تسمعون كلاما فيه طعن واتهام للآخرين تواجهونه بالصمت؟.

ثم يبين القرآن ضرورة تقييم الشائعات تقييما نابعا من العقل لا الهوى ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ ليس بسيطا أن ينسب الإنسان للآخرين تهمة الإفك، فهذا بهتان ما لم يقم عليه دليل، بل؛ إن المتهم بريء حتى تثبت إدانته، وكذلك القذف متهم حتى تثبت صحته.

ونتوقف قليلا عند كلمة ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ فإننا لا ننطقها إلا حينما نرى شيئا كبيرا يبهرنا، فلأننا نخشى الخضوع لشيء من دون الله، يسلبنا فكرنا واستقلالنا وإرادتنا نقول: سبحان الله، لكي نقاوم حالة الانبهار التي قد تؤدي إلى الشرك الخفي، فالله هو المنزه وهو الكبير.. الخ، لا ما نراه أو من نراه أنى بدا عظيما في أعيننا، فلماذا التسبيح هنا؟.

الواقع أن الآية الكريمة تشير إلى ضرورة التوجه إلى الله في حالة الخوف من التأثر بالإعلام المضاد، لأن النفس نزاعة إلى تصديق كل كلام يشيع في المجتمع، خصوصا إذا صدر من الكبار في العمر أو في الرتب الاجتماعية، و علينا أن نقاوم هذه النزعة بذكر الله، ذلك أن ذكر الله يزيد من مناعة المؤمن عن التأثر بالضغوط، والانبهار بالآخرين، والخضوع للتضليل، أو بالتالي يعيد الإنسان إلى عقله، ويعطيه فرصة للتفكر المنهجي، وهو بالتالي يعطي الإنسان استقلالا وقوة واطمئنانا، كما المرساة التي تبقي على استقرار السفينة بين يدي الموج.

[١٧] ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي لا تعودوا تتأثروا بالإعلام إن كنتم مؤمنين حقا، وكأنه يخاطب الجميع مع أن الذي جاء بالإفك مجموعة صغيرة منهم، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١]، وذلك ليشعر المجتمع المؤمن بأكمله أنه المسؤول، لأنه سمح لهذه العصبة، بالانتشار في وسطه ولم يردها من حيث أتت.

[١٨] ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إنه يعلم بمصالحكم، فيرشدكم لما فيه سعادتكم بحكمته البالغة.

[١٩] ويبين السياق جزاء من ينشر الشائعات في المجتمع، وهم عادة من ذوي النفوس المريضة، كما تؤكد هذا البحوث العلمية الحديثة، ذلك أن المبتلين بالعقد الجنسية، هم الذين يسعون لبث الشائعات المختلفة عنها، فلأنهم يعانون من الإحباط الجنسي مثلاً يثيرون

الشائعات لينتقموا من المجتمع، وكأنه المتسبب في إحباط هذه الغريزة في ذواتهم، أو لا أقل يتسلون بهذه الكلمات ليعوضوا بها عما فقدوه، وعما يشعرون به من عقدة الجنس، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ إن للفاحشة هيبة تنبعث من الحياء والشرف البشري، جبل عليها ضمير الإنسان وعندما تشيع الفاحشة في المجتمع تسقط هيبتها من أعين الناس، فيتورطون فيها، بل لا يتورعون عن ممارستها باستمرار.

وإشاعة الفاحشة تتحقق بمجرد نقل الإنسان ما يسمعه من كلام خبيث إلى الآخرين، وهذا ما يحطم جدار الشرف والحياء لدى أبناء المجتمع، فلا هو يدعو الإنسان المريض القلب للعمل الصالح، ولا هو ينصح الناس لما فيه خيرهم، بل يبحث عن الشائعة الباطلة لينشرها، وعن الفكرة الخبيثة الميتة ليحييها ويذيعها، لأنه من أهل الفاحشة وإن أنكرها بلسانه أو تظاهر بكراهته لها، فلو بحثت عميقا في نفسه لوجدته يعبر بكلامه عن واقعه، لا عن واقع الآخرين، ويبدو أن التعبير القرآني بـ﴿يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ يدل على انعطاف نفسي عند هذا الفريق نحو إشاعة الفاحشة، إما بسبب كراهية المجتمع، أو كراهية الفريق المتهم منه، أو لأنهم يرتكبون فعلا الفاحشة، ويريدون أن تنتشر بين الناس جميعا حتى يرتاحوا من لوم الناس ووخز الضمير.

وعلى الإنسان أن يقاوم هذا الحب في نفسه، ولا يفيض في نقل التهم بدافع هذا الحب الشيطاني.

ثم يختم القرآن حديثه الصادق بأن الله عليم بالحقائق ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فانتم لا تعلمون طبيعة الناس، والدوافع التي تدعوهم إلى خلق الافتراءات ضد هذا وذاك، فلا يجوز أن تثقوا بأي فرد، بل عليكم التثبت عما إذا كان نقيا عن حب إشاعة الفاحشة.

[٢٠] ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بأن بعث لكم رسولا ووفر لكم فرصة الهداية -لولا ذلك- لما زكا أحدا منكم، أي تخلص من ورطة اتهام الآخرين بالزور والبهتان.

ويبدو أن المراد من الفضل هو الهدى (القرآن والرسالة) ومن الرحمة النعم المادية (الأمن والسلامة و كل ما يمنع الإنسان من التورط في الجرائم المختلفة).

فلو لم تتوفر للإنسان وسائل الهداية من جهة، والوسائل المادية كالحياة الأسرية الفاضلة، والمكسب الحلال، وما إلى ذلك من النعم من جهة أخرى، لما تخلص من التورط في الجرائم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ويبدو أن جواب لولا ما يشار إليه في الآيات التالية من قوله تعالى: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[النور: ٢١].

[٢١] الشيطان سواء الجني الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم، أو الإنسي الذي تملأ أبواقه وشبكاته حياتنا اليوم، انه لا يدعونا إلى الفواحش الظاهرة مرة واحدة، وإنما يستدرجنا إليها خطوة فخطوة، وعلينا الحذر من اتباعه في الخطوات الأولى حتى لا يطمع فينا أكثر فأكثر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ومادام الله وفر للإنسان فضله ورحمته فلماذا يتبع الشيطان؟!.

إن الذي يتبع خطوات الشيطان لا يحقق سعادة الناس وهدايتهم، فكثير أولئك الذين حدثوا أنفسهم بالوصول إلى الحكم، ومن ثم تحقيق العدل والحرية للمستضعفين، ولكنهم تورطوا -بعد ما وصلوا إلى الحكم- في جرائم الإرهاب والذبح وإشاعة الفاحشة، فما أفلحوا بل أصبحوا أفسد ممن سبقهم.

إن السلطة التي تبنى على أساس الكذب والافتراء، لا ولن تكون في سبيل الله والمستضعفين لذا يقول القرآن: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ فلا يفكر الإنسان أنه سينصحه يوما، ولعل المقصود من ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وسائله وسبله، فالغاية لا تبرر الوسيلة، بل تحدد الغاية الوسيلة المناسبة لها.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾

﴿لَوْلَا﴾ حرف امتناع لوجود، وهي أداة شرط في هذا المقطع من الآية الكريمة و﴿فَضْلُ﴾ مصدر ناب عن فعل الشرط، أما جواب الشرط فقوله تعالى: ﴿مَا زَكَىٰ﴾.

ولعل هذا الجواب هو نفسه جواب لولا في الآية السابقة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ والآية تشير إلى مدى صعوبة التخلص من شبكات الشيطان، وعلينا إذا ألا نرتاح إلى ظل الغرور، و نغفل عن خطر الاستدراج بل نتوكل على الله، ونكون دائمي الحذر، شديدي اليقظة.

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ وذلك عن طريق الرسل والهداية والتوفيق، وبما يوفر لهم من نعم، تغنيهم عن تمنيات الشيطان ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

الموقف السليم

[٢٢] ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قيل: بعدما وقعت حادثة الإفك، قرر المسلمون أن يقاطعوا

كل المشتركين فيها مقاطعة شاملة، فلا يزوجونهم، ولا يعطونهم من المال شيئا، ولا يدعونهم يحضرون مساجدهم... الخ، وهذا ما يطمح إليه الأعداء أن يروا المجتمع المؤمن وقد تمزق كل ممزق، فيجب أن ينتبه الواعون في المجتمع الإسلامي إلى هذه الخطوة الشيطانية، ويقفون قبالها، لذلك نهى الله المؤمنين عن تطبيق قرار الجفاء والمقاطعة، ومعنى الآية الكريمة: أنه لا يحلف أولو الفضل بعدم العطاء وصلة الرحم.

وكما قلنا: إن المقصود بـ﴿ٱلْفَضْلِ﴾ الدين والهدى. ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ المال والنعم المادية، فيصبح معنى الآية بهذا التفسير: إنه على من أنعم الله عليهم بالهداية والمال، أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين من ذلك، ولو كانوا متورطين في جريمة الإفك.

﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ على ما مضى، ولعل المراد من العفو هو عدم المعاقبة على ما مضى أما الصفح فهو ما يسبب إعادة اللحمة إلى المجتمع.

ووظيفة الأمة الإسلامية بعد حوادث الإفك وما تسببه من فرقة وخلاف هو السعي نحو الوحدة لبناء كيان جديد يقوم على أساسها.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ربما يؤاخذ المؤمنون من اختلق الإفك ضدهم، ولكن هل ضمنوا لأنفسهم البراءة الخالصة من ذلك، والكل معرض لارتكاب الخطأ بحق الآخرين؟!.

لذا ينبغي الصفح عن الآخرين حتى يغفر الله لمن يصفح، وفعلا بادر المسلمون فور نزول هذه الآية الكريمة قائلين عفونا وصفحنا، أملا في غفران الله.

الوازع الديني وأثره في تحصين المجتمع

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ[1] مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ[2] أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)﴾.

هدى من الآيات:

يركز السياق هنا حول قضيتين رئيسيتين:

الأولى: إنذار شديد اللهجة، يوجهه الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات، ويحذرهم من نار جهنم، يوم لا يمكنهم إنكار افتراءاتهم، وذلك ليحيي الوازع الديني في ضمير الناس، ليرتفع المجتمع عن حضيض المهاترات الرخيصة إلى ذرى الآداب الرفيعة.

---

(١) مبرؤون: منزّهون.

(٢) جناح: حرج وإثم.

الثانية: بعد أن حدثتنا الآيات السابقة، عن ضرورة تحصين بيوت المسلمين معنويا، تحدثنا آيات هذا الدرس، عن ضرورة تحصينها ظاهرا عن دخول الغرباء، لأنه حرم الإنسان، (كما يقول الرسول ﷺ) فلا يدخله من ليس بصاحبه، إلا أن يستأذن ويحصل على الموافقة من أهله، وقبل الدخول لابد أن يذكر الله مستأنسا، رافعا صوته بذلك، حتى يكون معروفا عند أهل البيت، وبعد ذلك يبدأ بالسلام، فإن لم يكن رد منهم فليعد من حيث أتى ولا يدخله عنوة، مدفوعا بالكبر، ومأخوذا بعزة الإثم، لأن دخوله سيكون اعتداء ليس على هذا البيت فقط، بل على المجتمع بأكمله.

بينات من الآيات:

[٢٣] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قد تكون المرأة في أحضان الفساد ومظان الفاحشة، فلو اتهمت فإنها تتحمل مسؤولية ذلك، كما المتبرجة المخالفة لآداب الحشمة، المكثرة من الخروج غير اللائق، فهي تضع نفسها في دائرة الاتهام، و تستجلب كلام الناس عليها.

أما المرأة الغافلة عن التهمة، البعيدة عن مظانها فينبغي أن تحترم أشد الاحترام، ومن يتهمها فإنه ملعون في الدنيا، أي مبعد عن الخير، ومنبوذ لدى المؤمنين، وملعون في الآخرة حيث يبعده الله عن رضوانه، و يعذبه عذابا عظيما.

الشهادة

[٢٤] ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ كل عضو من الأعضاء يشهد على الإنسان يوم القيامة، وفي مقدمة من يشهد على الذين يرمون المحصنات، ألسنتهم التي ستنطق بفضحهم دون إرادتهم، ثم أيديهم وهي التي يشيرون بها إلى مواضع التهمة (فعادة ما يستخدم المتحدث لسانه ويده للتعبير عن مقاصده)، ثم أرجلهم الساعية بالتهمة لتوزيعها على أكبر رقعة اجتماعية ممكنة، كما المشّاء بنميم، ليفسد ما بين الناس ويقوض صرح العلاقات الاجتماعية، وقد وقف قدامى المفسرين على هذه الآية مستغربين، ليس من شهادة اللسان -فذلك أمر طبيعي وإنما من شهادة الأرجل والأيدي.

فقال بعضهم: إن الله يخلق ألسنة في كل جارحة تنطق بها عمله الإنسان، وقال البعض الآخر: إن الله هو الذي ينطق عن الجوارح كما كلم موسى تكليما، ولكننا اليوم ومع وجود الأجهزة الإلكترونية المتطورة، لا نحتاج إلى مزيد من التفكير، لنعرف كيف تشهد الأيدي والأرجل، فقد أثبت العلم الحديث بالتجربة العملية، أن أي كلام أو تصرف يصدر من

الإنسان، ترتسم آثاره على الأشياء الموجودة حوله، كالجدار والسقف والهواء .... الخ.

إذا شعر الإنسان بالرقابة الإلهية عليه، ونما لديه الوازع الديني، فإنه لن يرتكب معصية عن علم.

[٢٥] ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ عندما تنكشف لهم الحقيقة، ويتضح بطلان ما يدعون، ويعلمون بأن الله كان يحصي عليهم كل شيء حتى مشاعرهم، ونوايا قلوبهم، ثم يعطي جزاء كل ذلك ذرة بذرة جزاء وفاقا. ودين الإنسان هو ما يلتزم به، فإن التزم بالإسلام أعاده الله له يوم القيامة، وكذلك لو التزم بالجريمة فإنها تأتي له تسعى يوم الحساب فيجازى عليها.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ لأنه أنصع الحقائق وأوضحها، إذ تتجلى هذه الحقيقة لفطرة الإنسان السليمة بكل سهولة ويسر، دونما حاجة للبحوث الفلسفية أو البراهين المعقدة، ولكن الناس بأعمالهم الخاطئة، يسدلون على قلوبهم أستار الغفلة، فيجهلون ربهم وأسماءه الحسنى، عن إرادة لا جبر، وعندما تزاح عنهم هذه الأستار في يوم القيامة، تتجلى لهم الحقيقة العظمى (الله) كمن يهتدي إلى حقيقة لأول مرة.

[٢٦] ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ تعددت وجهات النظر في هذه الآية من قبل المفسرين، فقال قسم: إن هذه الآية تشير إلى أن الأقوال والأفعال الخبيثة للخبثاء، وعلى العكس بالنسبة للأقوال والأفعال الطيبة، وقال قسم آخر: إن الخبيثات من النساء للرجال الخبيثين، وعلى العكس بالنسبة للنساء الطيبات.

ولكن يبدو أن الآية تؤكد حقيقة اجتماعية مبدئية هي: إن الإنسان لا يمكنه تسجيل اسمه في قائمة المجرمين ثم يعيش مع الصالحين، بل لا بد أن تنتهي الحياة به إلى من سجل اسمه في قائمتهم عمليا.

أما في شطرها الثاني، فإنها تؤكد قدرة المجتمع الفاضل على بناء كيان مستقل، بعيدا عن الألسنة البذيئة، و الافتراءات الكاذبة، وهذا ما يمهد له الحصول على غفران الله ورزقه الكريم.

حرمة البيت

[٢٧] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

تطرح لنا هذه الآية وما يليها مجموعة تعاليم تتصل بحرمة البيت، حيث ينبغي أن يشعر

المرء بالأمن داخل منزله، حيث يضع ثيابه ويتخلص من العادات الاجتماعية المرهقة، ويستريح إلى طبيعته، وحيث زوجته التي يحب أن يخلو بها، ويبث إليها أسراره وعواطفه، ولعله يريد أن يقضي منها وطرا. فقبل أن تطأ قدماك بيتا غير بيتك، لابد أن تراعي آداب الدخول والتي منها:

أولاً: الإستيناس وإعطاء إشارة لقصد الدخول. وفي التعبير القرآني روعة ولطف، فالإستيناس المتخذ من لفظة (الأنس) يوحي بضرورة رعاية الجوانب العاطفية فلا كلمات نابية، أو صياح عال أو طرق شديد للباب، بل رقة ومحبة وتلطف وتودد. وجاء في الأثر أن «**الِاسْتِئْنَاسُ وَقْعُ النَّعْلِ وَالتَّسْلِيمُ**»[1]. وعن أبي أيوب الأنصاري قال: «**قُلْنَا**: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الاسْتِينَاسُ؟. قَالَ ﷺ: **يَتَكَلَّمُ الرَّجُلُ بِالتَّسْبِيحَةِ وَالتَّحْمِيدَةِ وَالتَّكْبِيرَةِ يَتَنَحْنَحُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ**»[2].

ثانياً: التسليم، إشعاراً بحسن النية وسلامة القصد. وليس هذا النظام شاذا عن الفطرة البشرية، بل متوافقا معها، وهكذا سائر الأحكام والآداب في الإسلام تتوافق مع فطرة البشر وعقله، وهذا ما تشير له الآية التي تحث الإنسان على التذكرة فكثير من الحقائق، معروفة لدى الناس، ولكنهم نسوها فاحتاجوا إلى التفكير ليتذكروها.

[٢٨] ﴿**فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ**﴾ إن لم يكن في البيت من يملك صلاحية الإذن بالدخول، أو وجد من يملكها، ولكنه لم يعط أذنا بذلك فليرجع، ففي ذلك زكاة للمجتمع، أي نمو للأخلاقيات والعلاقات الطيبة فيه، ولقد شددت النصوص الإسلامية على الاستيئذان وآدابه قبل دخول البيوت.

فهذا الرجل يستأذن على رسول الله ﷺ بالتنحنح، فيقول الرسول لامرأة يقال لها روضة: «**قُومِي إِلَى هَذَا فَعَلِّمِيهِ وَقُولِي لَهُ قُلِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ**؟ فَسَمِعَهَا الرَّجُلُ فَقَالَهَا، فَقَالَ: **ادْخُلْ**»[3]. ويسأله رجل عما إذا كان من الضروري الاستيئذان على الأم ويقول: «إِنَّهَا لَيْسَ لَهَا خَادِمٌ غَيْرِي أَفَأَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا كُلَّمَا دَخَلْتُ؟ قَالَ ﷺ: **أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً**؟، قَالَ الرَّجُلُ: لَا.. قَالَ: **فَاسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا**»[4].

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٢ ص٨٠، تفسير القمي: ج٢ ص١٠١.
(٢) تفسير مجمع البيان: ج٧، ص٢٣٧.
(٣) المصدر السابق: ص٢٣٧.
(٤) المصدر السابق: ص٢٣٧.

وهكذا كانت سيرة النبي ﷺ فقد روى جابر بن عبد الله الأنصاري قال: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرِيدُ فَاطِمَةَ عليها السلام، وَأَنَا مَعَهُ، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى الْبَابِ وَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَدَفَعَهُ ثُمَّ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ. فَقَالَتْ فَاطِمَةُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ ﷺ: أَدْخُلُ؟. قَالَتْ عليها السلام: ادْخُلْ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ ﷺ: أَدْخُلُ أَنَا وَمَنْ مَعِي؟ فَقَالَتْ عليها السلام: يَا رَسُولَ اللهِ لَيْسَ عَلَيَّ قِنَاعٌ. فَقَالَ ﷺ: يَا فَاطِمَةُ خُذِي فَضْلَ مِلْحَفَتِكِ فَقَنِّعِي بِهِ رَأْسَكِ. فَفَعَلَتْ ثُمَّ قَالَ ﷺ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ. فَقَالَتْ فَاطِمَةُ عليها السلام: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ ﷺ: أَدْخُلُ؟. قَالَتْ عليها السلام: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ ﷺ: أَنَا وَمَنْ مَعِي؟. قَالَتْ عليها السلام: وَمَنْ مَعَكَ»[1].

بهذه الرقة والتودد، أدبنا الإسلام.

ويحسن بنا الانتباه إلى نهاية الآيات، فعادة ما تكون نهايتها مفاتيحها، كما تكون الآيات الأخيرة في السورة مفاتيح لها، وهنا يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. ويختم الآية بهذه الصفة الإلهية بعد أن يطرح مجموعة من القوانين والأنظمة لماذا؟.

الجواب: لعله لأن للإنسان قدرة التفاف هائلة على القانون، وتحويله إلى قشرة دون أي محتوى، ولكي يحذر الله سبحانه الناس، من الالتفاف حول النظام الإسلامي يحثهم على الالتزام به بدقة وإخلاص، ويذكرهم بأنه يعلم حقيقة أعمالهم، فلا مناص لهم من النصح في تطبيق الأحكام، فقد يخادع الإنسان أصحاب البيت فيوهمهم حين دخوله أنه يقصد هدفا شريفا، وواقعه خلاف ذلك، ولكنه لا يستطيع أن يخدع الله لأنه عليم بما يعمل الناس.

ودخول كهذا، هو كما لو دخل بدون إذن لا فرق إذ لو علم أصحاب البيت بقصده السيء لما أذنوا له بالدخول.

وكثيرا ما يمتهن بعض المجرمين المهن التي تساعدهم على دخول البيوت، بحجة القيام بخدمات معينة لأصحاب المنزل كاصلاح بعض متاعهم، فيجدون بذلك فرصة سانحة للاطلاع على أعراض الناس، والتجسس على المؤمنين، ولا يعلمون أنهم بذلك قد ارتكبوا جريمتين:

الأولى: جريمة الدخول بدون إذن، لأن هدفه سيئ.

الثاني: جريمة الإفساد في الأرض.

ولئن أفلت هؤلاء من علم أهل البيت أو السلطات الشرعية، فلن يفلتوا من علم الله.

---

(١) الكافي: ج٥ ص٥٢٨.

[٢٩] ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ﴾ لأنها وضعت لمنفعة عامة، كالفنادق، والحمامات العامة، أو المحال التجارية، ومكاتب الخدمات المختلفة، و ما إلى ذلك، ولكن لا يجوز الدخول فيها لغير الهدف المحدد، وإن جاز الدخول فيها بدون إذن.

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ من النوايا والأهداف، وهذه دعوة لتنمية الوازع الديني في ضمير الإنسان، انطلاقا من تحسيسه بالرقابة الإلهية عليه.

فأولئك الذين يدخلون المحال التجارية مثلاً لا ليشتروا مما يعرض فيها، بل لكي يستريحوا من تعب المشي و زحام السوق، أو أمور مشابهة أو يدخلوا في دائرة ما، لا لكي ينجزوا معاملة لهم فيها، وإنما ليتحدثوا في شؤون خاصة مع زملائهم العاملين فيها.. وما إلى ذلك من الحالات الأخرى. ليعلم هؤلاء أن الإسلام لا يجوز لهم ذلك لما فيه من مضار اجتماعية، قد لا يظهر أثرها إلا مع مرور الزمن، كما إنها تناقض الأخلاق الفاضلة، والسجايا العالية، ولو وضع هؤلاء أنفسهم موضع أهل هذه المحلات والبيوت، لما رضوا من غيرهم هذه الأعمال المخالفة.

وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا(١) مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)﴾

---

(١) يغض: الغض أصله النقصان يقال غض من صفته ومن بصره أي نقص منه.

هدى من الآيات:

استمرارا للحديث الماضي عن الحدود الشرعية للغريزة الجنسية، وبعد أن بيّن القرآن حرمة الزنا والقتل، و حرمة دخول البيوت إلا بعد الاستئناس والسلام، يبين هذا الدرس حدا آخر لها هو حرمة النظر وضرورة الحجاب، وما يحويه هذا العنوان، من موضوعات هامة.

وإنما فرض الإسلام الحجاب ليحدد الإثارة الجنسية في القنوات الشرعية النافعة لها، وليحافظ على عفة المرأة وكرامتها، وليهبها موقعا مناسبا في المجتمع.

ويسمح الإسلام للمرأة بالحرية في أسرتها الصغيرة أو العائلة الكبيرة.. أي لدى زوجها أو الأب والابن و الأخ وأبناء الأخ والأخت وآباء الزوج، وبالتالي كل من يحرم عليها بالنسب أو السبب الزواج منها.

ولكن هل يجوز للمرأة باعتبارها (امرأة) التبرج أمام كل النساء؟.

كلا.. فقد حدد الإسلام بقوله ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ النساء اللاتي يجوز للمرأة التبرج أمامهن، فلا يجوز لها التبرج أمام غير المؤمنات وهذا ما نصت عليه النصوص الإسلامية.

أما بالنسبة لغير ذوي الإربة من الرجال كالبله، والمجانين، فمن حق المرأة أن لا تلتزم بالحجاب أمامهم، لأن الهدف منه كما تقدم تحديد (الإثارة الجنسية) في المجتمع، وبما أن هؤلاء قد ماتت الغريزة فيهم تقريبا، فلا باس بالتبرج أمامهم، وكذلك بالنسبة للأطفال الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال ولم يميزوا.

وبعد أن حدد الإسلام الغريزة الجنسية، صار يشجع على الزواج، ولولا أن الغريزة الجنسية هي من أقوى الغرائز الدافعة للإنسان، لما تحمل أحد مسؤوليات الزواج، إننا نرى الكثيرين يتحملون الكبت الجنسي هربا من القيام بمسؤولية الزواج، فلو وجدت في المجتمع قنوات أخرى لتفريغ هذه الغريزة لم يقدم الكثير على تحمل مسؤولياته.

وحينما دعا الإسلام إلى الزواج عالج المشاكل النفسية التي تعترضه، وأهمها الخوف من المسؤوليات التي من أبرزها مسؤولية الإنفاق، وتأمين العيش للأسرة، حيث يعد الله المتزوجين بأن يبارك لهم، ويبعث لهم بالرزق على قدر الحاجة، وهذا ما تقتضيه سنته سبحانه وتعالى، ذلك لأنه إنما يتكاسل الإنسان حينما لا يشعر بالحاجة. ولكنه عند الحاجة يفجر طاقاته، ويرزقه الله تعالى.

بينات من الآيات:

[٣٠] ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ بمطلق الحفظ وفي كل مجال، فلا يجوز للإنسان أن يستثير شهوته بأي وسيلة مريبة - كما يسميها الفقهاء - فالنظر إلى وجه المرأة الأجنبية أو حتى القريبة، أو النظر -بريبة وبهدف الإثارة- إلى الصور والأفلام كله حرام لأنه يستثير الغريزة الجنسية، وقد أمر الله بحفظها.

﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ من أن يضعوا أيديهم في مستنقعات الفساد المليئة بالجراثيم الخطيرة التي يخشى أن تتسرب إلى جسم الإنسان، وهل تتسرب إلى جسم الإنسان إذا حفظ نفسه منها، وابتعد عن مواضعها؟.

إن الغريزة الجنسية من أقوى غرائز البشر، فإذا أثيرت جرفت السدود أمامها، واندفعت في كل اتجاه، و لربما حملت صاحبها على جرائم بشعة، وعندما نطلع على أرقام الجرائم الجنسية في البلاد الغربية حيث الميوعة والمفاسد الأخلاقية نصاب بالذهول، وإذا فتشنا في أوراق المحاكم الجنائية عن خلفية الجرائم الكبيرة، وجدنا الغريزة الجنسية وراء كثير منها.

وإذا ملأنا الأجواء إثارة، وأشبعنا الغرائز ثورة وهياجا، فإن التوتر الجنسي العالي يضغط باستمرار على الأعصاب، ويسبب أمراضا خطيرة للرجال، والشبيبة منهم بالذات، ذلك لأن تفريغ الغريزة لا يكون مقدورا دائما، ثم لا يقتنع الفتى الذي يستمر هيجان الغريزة في كيانه بشريكة حياته، بل ولا بالجنس الثاني مهما كان فاتنا، بل يهبط إلى درك الشذوذ، ثم يتجاوزه إلى المخدرات، ذلك المهوى السافل الذي يهدد مستقبل الحضارة البشرية.

ولا تتوقف آثار التهييج الجنسي عند مفاسدها المباشرة. إذ هناك آثار أخطر.. أوليست الإثارة الجنسية أعظم معول يهدم الشيطان به صرح الأسرة، ويسبب في شيوع الخلافات العائلية، بل وانتشار الطلاق والزنا، وتكاثر أولاد الحرام وبالتالي ضياع الجيل الناشئ؟.

فأية نعمة كبيرة أسبغها الإسلام على البشر بحرمة النظر، ونظافة الأجواء العامة من سهام إبليس؟!.

جاء في حديث مأثور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**لَيْسَ فِي الْبَدَنِ أَقَلُّ شُكْراً مِنَ الْعَيْنِ فَلَا تُعْطُوها سؤْلَهَا فَتَشْغَلَكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ**»[1].

---

(١) وسائل الشيعة: ج٦ ص٥٠٥.

وقال عليه السلام: «لكُمْ أَوَّلُ نَظْرَةٍ إِلَى الْمَرْأَةِ فَلا تُتْبِعُوهَا نَظْرَةً أُخْرَى وَاحْذَرُوا الْفِتْنَةَ»[1].

وقال عليه السلام: «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمُ امْرَأَةً تُعْجِبُهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّ عِنْدَ أَهْلِهِ مِثْلَ مَا رَأَى فَلا يَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ عَلَى قَلْبِهِ سَبِيلاً، لِيَصْرِفْ بَصَرَهُ عَنْهَا، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ وَيَحْمَدُ الله كَثِيراً، وَلْيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله، ثُمَّ يَسْأَلِ الله مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّهُ يُتِيحُ لَهُ مِنْ رَأْفَتِهِ مَا يُغْنِيهِ»[2].

وقد استخدم الله كلمة ﴿مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ في التعبير القرآني دلالة على التبعيض، فليس كل نظرة حرام، وإنما يحرم منها المريب، والنظر إلى مالا يحله الله.

والغض في اللغة، بمعنى الخفض، ومقصود الآية أن يخفظوا من أبصارهم، فالإنسان لا يمكنه أن يغير العالم، ولكنه يستطيع أن يكيف نفسه حسب حكم الشرع، فإذا لحظ منظرا حراما يستطيع اجتنابه عبر طريقين: فإما أن يزيل هذا الواقع الفاسد، وإما أن يشيح ببصره عنه، ولم يأمر الله بإغماض العين لما في ذلك من احتمال للضرر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فإذا التف أحد على القانون، أو عجز الحاكم عن متابعته، فإنه لن يلتف على الله الخبير الذي يعلم المطبق للقانون من المخالف له، ظاهرا أو باطنا، فمن الأصلح للإنسان أن يجعل ضميره حارسا عليه، ومراقبا لأعماله، حتى لا يسخط الله، فيستحق العذاب.

[٣١] ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ لأن المسؤولية مشتركة بين الرجل والمرأة، ولكننا نلاحظ أن الله حينما فرض الحجاب فرضه على المرأة، وحينما أمر بغض النظر أمر الرجل أولاً، لأن نظر الرجل للمرأة أكثر إثارة للفتنة من نظر المرأة له. ولعل المرأة الفاتنة، تفسد الرجال قبل أن تفسدها. وذلك يعود لاختلاف التركيب الفسيولوجي، فاحتمال تجاوبه معها لو نظر لها أكبر من احتمال تجاوبها معه لو نظرت إليه.

ويربط القرآن بين غض البصر وحفظ الفرج، ذلك لأن هذين الأمرين يتظافران معا في حفظ الرجل أو المرأة عن الفاحشة، أوليست بداية الفاحشة نظرة خائنة؟!.

الحدود الشرعية للحجاب

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ﴾ يبين هذا

---

(١) وسائل الشيعة ج٢٠ ص١٩٤.

(٢) وسائل الشيعة: ج٢٠ ص١٠٥.

المقطع من الآية الحجاب الشرعي الذي يجب أن تأخذ به المرأة المسلمة. وهو كما فسره بعض الفقهاء، وجاء في الأحاديث أن تستر المرأة كامل بدنها وجوبا عدا الوجه، والكفين وكحل العين و الحناء ولبس الخاتم، فإن إظهارها جائز، لأنها من الزينة الظاهرة، كما إن بعض الروايات إستثنت القدمين أيضاً. ثم إن على المرأة أن تلبس خمارا يستر الصدر والعنق.

جاء في الحديث عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام وقد سأله بعض أصحابه «مَا لِلرَّجُلِ أَنْ يَرَى مِنَ الْمَرْأَةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا بِمَحْرَمٍ؟. قَالَ عليه السلام: **الْوَجْهَ وَالْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ**»[1].

ولقد كانت المرأة في الجاهلية تختمر، إلا أنها تبدي زينتها للرجال، حيث تجعل خمارها خلف إذنها، لتبدو أقراطها وكانت تحسر عن نحرها وبعض من صدرها، وتكشف بالتالي عن مفاتنها، فجاءت الآية تأمر نساء المؤمنين بشد الخمار، بحيث لا يبدو شعرهن ولا آذانهن ولا نحورهن وصدورهن، وقد جاء في رواية مأثورة عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام.. أن سبب نزول هذه الآية كالتالي:

«اسْتَقْبَلَ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ امْرَأَةً بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ النِّسَاءُ يَتَقَنَّعْنَ خَلْفَ آذَانِهِنَّ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَ هِيَ مُقْبِلَةٌ، فَلَمَّا جَازَتْ نَظَرَ إِلَيْهَا، وَ دَخَلَ فِي زُقَاقٍ قَدْ سَمَّاهُ بِبَنِي فُلَانٍ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ خَلْفَهَا، وَاعْتَرَضَ وَجْهَهُ عَظْمٌ فِي الْحَائِطِ أَوْ زُجَاجَةٌ فَشَقَّ وَجْهَهُ، فَلَمَّا مَضَتِ الْمَرْأَةُ نَظَرَ فَإِذَا الدِّمَاءُ تَسِيلُ عَلَى صَدْرِهِ وَثَوْبِهِ، فَقَالَ: وَاللهِ لَآتِيَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله، وَلَأُخْبِرَنَّهُ، قَالَ: فَأَتَاهُ فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله قَالَ لَهُ: مَا هَذَا؟، فَأَخْبَرَهُ، فَهَبَطَ جَبْرَئِيلُ عليه السلام بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾»[2].

أما الزينة الظاهرة: فلا يجب سترها، وجاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «**الزِّينَةُ الظَّاهِرَةُ الْكُحْلُ وَالْخَاتَمُ**»[3].

﴿**وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ**﴾

ويستوحى من هذه الآية أنه لا يجوز إظهار المفاتن لغير النساء المؤمنات، وقد جاء في الحديث الشريف عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**لَا يَنْبَغِي لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَنْكَشِفَ بَيْنَ يَدَيِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ فَإِنَّهُنَّ يَصِفْنَ ذَلِكَ لِأَزْوَاجِهِنَّ**»[4].

---

(١) بحار الأنوار: ج١٠١ ص٣٥.
(٢) الكافي: ج٥ ص٥٢١.
(٣) تفسير القمي: ج٢ ص١٠٦.
(٤) الكافي: ج٥ ص٥١٩.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ وهم البله، والمجانين والمصابون بموت الغريزة الجنسية كالشيوخ الطاعنين في السن وغيرهم، ممن فقدوا الشهوة الجنسية، أما ما يدعيه البعض من جواز إظهار المرأة زينتها للخادم والحارس، سواء في البيت أو المدرسة أو الدائرة خطأ كبير يخالف التعاليم القرآنية. إذن فلا يجوز للمرأة أن تظهر زينتها إلا لمن ذكرته الآية آنفا.

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ فإذا بلغ الطفل مبلغ الرجال أو صار مميزا في هذا الجانب، حرم على النساء إظهار زينتهن أمامه.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فتستثير شهوة الرجل الجنسية، لذلك لا ينبغي للمرأة الخروج بعطر فواح بين الرجال الأجانب، مما يدل على أن الإسلام يلتفت للجوهر لا للقشور. إذ يفرض على المرأة الحجاب الباطني أيضاً.

من هنا حرم بعض الفقهاء الاستماع لصوت المرأة الأجنبية إذا شابه دلال مريب، أو أن تخضع المرأة في حديثها فإن ذلك مما يستثير الرجل، ولعله من مضامين الآية أن تلبس المرأة حذاء أو نعلا، يفتعل صوتا عند مشيها، مما يلفت الانتباه لها، بينما لولاه لم يعلم بها أحد أو يلتفت إليها وهي تمر.

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فلم يخلق الإنسان معصوما، إذن لا غرابة أن يسقط سقطات عصيان، ولكن الغريب هو أن لا يعالجها بالتوبة . ولقد كان الرسول ﷺ يستغفر ربه كل يوم مئة مرة.

[٣٢] وحرض الإسلام على الزواج ليكون القناة النظيفة لأقوى غريزة عند البشر، فقال سبحانه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ لأنهم بشر يمتلكون نفس الغرائز ولديهم نفس الحاجات، والأيم مفرد أيامى وهي كلمة تطلق على غير المتزوج، مرأة كان أو رجلا، أما توفير الوسائل والتسهيلات اللازمة للزوج فهي مسؤولية اجتماعية كسائر المسؤوليات الأخرى.

وهذه الآية تشمل الشاب الأعزب رقا كان أم حرا، إذ يجب على المجتمع تزويجهم جميعا.

لأن أكبر العقبات النفسية أمام الزواج هي خشية العيلة، فإن ربنا سبحانه يزيح هذه العقبة بقوله: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فقدرته واسعة،

وفضله واسع، وعلمه محيط بكل شيء فلا يعجزه شيء.

إذا تدبرنا في هذه الآية، ومن خلالها في سنن الله في الحياة، عرفنا أن عجلة الحياة لم تكن لتدور من دون الزواج، الذي هو أبرز مظاهر التعاون عند الجنس البشري أوليست الحاجة أم الاختراع، أوليس الإحساس بالمسؤولية صاعق القوى الكامنة عند الإنسان؟! إن رزق الله كامن في الأرض، وقدرات الإنسان كامنة في نفسه، إنها تتفجر تلك القدرات فتستخرج رزق الله بالأمل والحاجة والسعي.

ومن هنا جاء في رواية مأثورة عن النبي ﷺ: **«مَنْ تَرَكَ التَّزْوِيجَ مَخَافَةَ الْعَيْلَةِ فَقَدْ أَسَاءَ ظَنَّهُ بِالله عَزَّ وَ جَلَّ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَ جَلَّ يَقُولُ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ»**[1].

بل إن النبي كان يوصي الفقراء بالزواج لكي يوسع الله عليهم.

يروي الإمام الصادق عليه السلام أنه: **«أَتَى رَسُولَ الله ﷺ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ فَشَكَا إِلَيْهِ الْحَاجَةَ فَقَالَ لَهُ: تَزَوَّجْ، فَقَالَ الشَّابُّ: إِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَنْ أَعُودَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَلَحِقَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: إِنَّ لِي بِنْتاً وَسِيمَةً فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ، قَالَ: فَوَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ [قَالَ] فَأَتَى الشَّابُّ النَّبِيَّ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ عَلَيْكُمْ بِالْبَاهِ** (أي النكاح)»[2].

ولقد بلغ من تحريض الإسلام على الزواج: أن يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«رَكْعَتَانِ يُصَلِّيهِمَا الْمُتَزَوِّجُ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ رَكْعَةً يُصَلِّيهَا أَعْزَبُ»**[3].

ويروى عن رسول الله ﷺ قوله: **«مَنْ تَزَوَّجَ أَحْرَزَ نِصْفَ دِينِهِ»**[4].

وقال ﷺ: **«رُذَالُ مَوْتَاكُمُ الْعُزَّابُ»**[5].

[٣٣] عندما لا يوفق الإنسان للزواج، أو يكون عاجزاً عن ذلك فعليه أن يتعفف، ويتحصن بالإيمان، لا أن يفسد في الأرض أو يكون سبباً لانتشار الفاحشة في المجتمع **﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾**

قال الرسول ﷺ: **«مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاهَ فَلْيَتَزَوَّجْ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيَصُمْ فَإِنَّ الصَّوْمَ**

(١) الكافي: ج٥ ص٣٣٠.
(٢) المصدر السابق: ص٣٣٠.
(٣) المصدر السابق: ص٣٢٨.
(٤) وسائل الشيعة: ج٢٠، ص١٦.
(٥) الكافي: ج٥ ص٣٢٩.

وِجَاؤُهُ»(١).

وبمناسبة الحديث عن مسؤولية الزواج، أخذ السياق يعالج مشكلة اجتماعية كانت حادة ذات يوم، هي مشكلة الرقيق، حيث كان الذكور منهم يبقون بلا زواج، ويعيشون عناء العزوبة، ويشكلون بؤرة الفساد، فأمر الله بمكاتبتهم، ليتحرروا، ولينكحوا مثل غيرهم.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ المكاتبة هي أن يأتي العبد إلى سيده ليشتري نفسه منه بمقدار مقسط من المال، و ينبغي لكل من يملك عبدا أن يطرح عليه هذا المشروع، فإن تجاوب معه، واستطاع كان حرا، وهذه ما تسمى بالمكاتبة المشروطة، وهناك مكاتبة أخرى تسمى بالمطلقة: يدفع فيها العبد حسب استطاعته المبلغ الذي يفك رقبته به.

﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ من سهم ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠]، الذين هم أحد مستحقي الزكاة. وفي الأحاديث يضع عنهم المولى الخمس أو الربع .

أما الإماء فكنَّ في الجاهلية يتاجر بأجسادهن، وجاء النهي الصريح عن ذلك ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

ولهذه الآية تفسيران: ظاهر، وباطن.

أما الظاهر فهو أن عبد الله بن أبي كان يجبر فتياته على الزنا، ليكسب مالا من وراء بغائهن، فاشتكين أمره لدى الرسول ﷺ فنزلت الآية الكريمة(٢) ﴿وَلَا تُكْرِهُوا..﴾، ولهذا فإنه لا يجوز أن يفسح المجتمع لمثل هؤلاء أن يمارسوا أبشع أنواع التجارة وهي (التجارة بأجساد النساء)، ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أما التفسير الباطن فهو: أن المجتمع الفاسد، والاقتصاد المنحرف، وبالتالي الفقر المدقع، كانت عوامل ألجأت النساء الشريفات بفطرتهن لممارسة الانحراف، وامتهان البغاء، ولذلك فإن الله يقبل توبتهن إليه. جاء في الحديث في تفسير هذه الآية الكريمة: «كَانَتْ الْعَرَبُ وَقُرَيْشٌ يَشْتَرُونَ الإِمَاءَ، وَيَضَعُونَ عَلَيْهِمُ الضَّرِيبَةَ الثَّقِيلَةَ وَيَقُولُونَ: اذْهَبُوا وَازْنُوا وَاكْتَسِبُوا، فَنَهَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ»(٣).

(١) وسائل الشيعة ج١٠، ص٤١١.
(٢) التبيان في تفسير القرآن: ج٧، ص٣٢.
(٣) تفسير القمي: ج٢ ص١٠١.

ولعل الآية تشير أيضاً إلى ضرورة رفع العقبات الاجتماعية التي تكره الفتيات على البغاء، مثل غلاء المهور، و وضع شروط للتزويج - ما أنزل الله بها من سلطان - ولقد واجه الإسلام هذه العقبات بقوة، فقد جاء في السيرة: «إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ زَوَّجَ مِقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ ضُبَاعَةَ ابْنَةَ الزُّبَيْرِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَإِنَّمَا زَوَّجَهُ لِتَتَّضِعَ الْمَنَاكِحُ وَلِيَتَأَسَّوْا بِرَسُولِ الله ﷺ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ أَكْرَمَهُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاهُمْ»[1].

وشجع الإسلام على المساعدة في أمر الزواج لتسهيل أمر هذا المشروع الحضاري، فقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام: «ثَلَاثَةٌ يَسْتَظِلُّونَ بِظِلِّ عَرْشِ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، رَجُلٌ زَوَّجَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ أَوْ أَخْدَمَهُ أَوْ كَتَمَ لَهُ سِرّاً»[2].

(١) وسائل الشيعة: ج٢٠ ص٧٠.
(٢) المصدر السابق: ص٤٥.

بيوت أذن الله أن ترفع

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ (١) يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ (٢) يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠)﴾.

هدى من الآيات:

إن النور الذي يتجلى في الطبيعة هو النور الذي يشع في قلب البشر، لأن الينبوع واحد، وهو الله الذي يمسك السماء والأرض بيد من القدرة، ولولا هيمنته تعالى لما استقر حجر على حجر،

(١) بقيعة: القيعة جمع قاع وهي الواسع من الأرض المنبسطة وفيه يكون السراب.

(٢) بحر لجي: لجة البحر معظمه الذي يتراكب أمواجه فلا يرى ساحله.

ولولا فيض رحمته لم يبق شيء من الوجود، فهو ليس قائما بذاته وإنما بما يمده به الله من نور البقاء.

وكمثل على ذلك -وتعالى الله عن الأمثال- لو توقف المصباح عن إشعاع النور لحل الظلام على الفور، ولا يعني ذلك أن خلق الله للأشياء هو كما يفيض النور من المصباح، كلا.. وإنما بالإرادة التي لا تحتاج إلى زمان، أو شيء من المعاناة، إنما هي لحظة الإرادة المخلوقة ونفحة الرحمة المعطاة.

وما الإسلام إلا حكمة قائمة على أساس هذه الفكرة: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾[الزمر: ٦٩] ولعلنا نسميها ببصائر النور، ولا مجال للحديث عن أبعادها الإسلامية العميقة، وإنما بينا ذلك، لكي نعرف الجانب الآخر وهو: إن النور في القلب والمجتمع هو نفس النور في حياة الإنسان التشريعية - وهو نفس النور في الحياة التكوينية، فلو أمسك الله تعالى فيض نوره عن السماوات والأرض لانعدمنا في أقل من لحظة، كذلك لو أمسك فيض نور رسالته عن البشر في حياتهم التشريعية والاجتماعية لساد الظلم والظلام.

لذا فإن نور الله في التشريع كمصباح في مشكاة (والمشكاة حفرة شق في الجدار يضعون المصباح فيها بعد أن يحيطوه بزجاجة تزيد من إضاءته) ووظيفة المشكاة هي العمل على تركيز النور، وأفضل الزيوت التي كانت تستخدم للإضاءة في ذلك الوقت هو زيت الزيتون الذي يزرع فوق الجبال، فلا يظلها يسار الجبل عن الشمس حين الشروق، ولا يمينه حين الغروب، فهي لا شرقية ولا غربية، وكلما كان الزيت أصفى كان ضوءه أبهى.. و كم تكون الإضاءة نيرة حينما يكون وقودها زيت الزيتون، ويكون المصباح في مشكاة عبر زجاجة؟!.

كذلك نور الله الذي يهبط وحيا فيستقر في قلب الرسول ﷺ الزكي، الطاهر كما المصباح يشع نورا من زيت نقي، ورسول الله يحيط هذا المصباح بزجاجة السنة الشريفة، ليضع الجميع في إطار أهل بيته الطاهرين عليهم السلام الذين هم أشبه شيء بمشكاة نظيفة تحفظ النور وتنميه نورا على نور.

إن بيوتهم التي أَذِنَ اللهُ أن تُرفع، كانت مشكاة للرسالة لأنها ضمّت ذكر الله، المنبعث من قلوب أولياء الله، المتقد بوقود مبارك هو الصلاة والزكاة وخشية المنقلب، وهذا البيت هو المثل الأعلى للأسرة المباركة حيث يجري السياق في سورة النور لبيان صفاتها المثلى.

وهكذا نستوحي من هذه الآية ضرورة جعل نور الإيمان في مشكاة الأسرة، وذلك من أجل تربية النفس البشرية وتنمية العوامل الخيرة فيها لتتضاعف خيراتها وبركاتها، كالزيتونة اللاشرقية واللاغربية، تمتص من أشعة شمس الرسالة أزكاها، وأنماها، وهكذا نتذكر بالآيات أن هناك سورين للأسرة الفاضلة: سور مادي و هو البيت الذي يحرم على الأجنبي اقتحامه،

وسور معنوي يعلو بالقيم السامية، والبيت الذي أذن الله له أن يرفع إنما هو الذي يحصنه ذكر الله وتسبيحه، والذي يشتغل أبناؤه بمعايشهم ولكن دون أن تشغلهم عن ذكر ربهم، وهكذا تحافظ الأسرة على مهمة الإنسان، الذي خلقه الله مصباحا للحياة، يتفجر من جوانبه النور - إرادة وعقلا وعواطف - فلو ترك هذا النور تلفحه رياح الشهوة لانطفأ أو لا أقل لقلت إضاءته، ولكنك تجد من الناس من لا نور لهم أساسا، وهم يجعلون أنفسهم في قبور من ظلمات الكفر والجحود، كالليل المظلم تلفه أمواج الشهوة، وتكتنفه سحب الغفلة، فلا يجد السبيل إلى فهم الحقيقة أبدا.

بينات من الآيات:

الله نور السماوات والأرض

[٣٤] ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ إن الآيات المبينات هي التي توضح الطريق للناس، وتجعلهم قريبين من الحقائق، وأسلوب القرآن في تفهيم الحقيقة هو أسلوب التذكرة، وإثارة العقل، بتوجيهه لها، فالحقائق موجودة والإنسان يمتلك ما يكشفها، و لكنه بحاجة إلى من يدله عليها، ويذكره بها، وذلك عن طريق الآيات التي تشير إليها، كالعبر التاريخية ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ لتتعظوا بتجارب الآخرين، وتزدادوا معرفة ورشدا ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يخافون عقاب الله، أما من لا يخاف عقابه، فإنه لا يستفيد من القرآن، فهو كالأعمى لا يستفيد من نور الشمس، وهكذا القرآن علم وحكمة وموعظة، ففيه آيات تبين سنن الله، مما يزيد البشر علما، ثم يضرب الأمثال من الأمم الغابرة، مما يزيد البشر حكمة، ثم يوصل ذلك العلم وتلك الحكمة بحياة القارئ مباشرة فيكون موعظة لمن يتعظ.

[٣٥] ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ يفيض من نوره بمشيئته المطلقة على السماوات والأرض خلقا بعد خلق، ولحظة بلحظة، وكما يفعل ذلك في عالم التكوين (الطبيعة) فإنه يفعل ذلك في عالم التشريع (الأحكام) إذ يفيض علينا برسله ورسالاته، فيعطي الإنسان النور (العقل) لحظة بلحظة، ليفهم الرسالة به.

إن نور الله يتجلى في الطبيعة كما يتجلى في التشريع. وربما تبين هذه الآية المثال الثاني، فلقد جاء في بعض التفاسير أن المقصود من المشكاة هو قلب الرسول ﷺ أما المصباح فإنه رسالات الله التي أنزلها على ذلك القلب الطاهر.

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ يمكننا تأويل الزجاجة بالعقل الذي يستقبل نور الرسالة، أوليس هو الرسول الباطن، أوليس هو الحجة الباطنة، وعنده تصديق ما أنزل الله؟! كما يمكن تأويله بالرجال الصالحين ممن يحفظون رسالات الله، وهذا هو المأثور.

﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ في نقائها وتلألئها، فعندما تتلوث هذه الزجاجة فإن النور يخبو، وهكذا الأمر بالنسبة للعقل عندما يتلوث بالأهواء. لا يرى الحقيقة بعينه، ولا يسمعها بأذنه، ولذا فإن مصباح الوحي لا ينفعه إلا قليلا، وإنما يؤيد الرسالة من ذكر نفسه، وتلألأ عقله، ولم يلهه عن رسالات ربه شيء.

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ﴾ لأنه يحتاج إلى زيت يتقد به، وإذا أردنا أن نؤول الشجرة المباركة نقول أنها شجرة العلم أو التقوى. إذ إن المعرفة تمد مصباح الوحي بالوقود فيزداد بهاء ونورا في مشكاة القلب، وبهذا جاءت الرواية المأثورة التي سنذكرها فيما بعد.

﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ بل في مكان تنشر بركاتها على العالم أجمع، دون أن تختص بها أرض دون أخرى، ولعل هذه الكلمة تشير إلى الاستقامة في التقوى، حيث إن المتقين لا تميل بهم ضغوط الحياة يمينا أو شمالا.

﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾ فالإنسان السوي -صاحب العقل النظيف- يمتلك علما نقيا، بعيدا عن الأهواء والخرافات، فنفسه الشفافة تنتظر أدنى إشارة لتستوعب الحقائق، والآية تشير -فيما يبدو لي- إلى أن التقوى -وهي زيت مصباح الوحي الزلال النظيف- هي طريق الهدى وسبيل المعرفة، ومهد الحكمة والسداد، فإنها تكاد تضيء الحقائق للبشر ولو لم تمسسه نار الوحي ونوره، لذلك قال ربنا بعدئذ:

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ﴾ فنور الوحي يتقد بنور التقوى، والوحي يتألق بنور العقل، إلا أن التوفيق للهداية لابد أن يأتي من الله سبحانه.

﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ فالله هو الذي يهدي من يشاء من عباده للنور الذي أرسله، وهو نور الوحي ونور محمد ﷺ وسنته الرشيدة، ونور أهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ فبعلمه أضاف نور الرسالة إلى نور العقل، ولا يمكن لأحد أن يستفيد من هذا النور دون مشيئته، فلابد من التوجه له حتى يفيض على الإنسان من نوره، ولا يكون ذلك إلا عندما يخلص الإنسان العبودية له.

ولعله إنما قال تعالى: ﴿لِنُورِهِۦ﴾ ولم يقل: (بنوره) لأنه يهدي الإنسان بنور رسالته، لنور رحمته.

وقد تعددت النصوص التي فسرت هذه الآية الكريمة، ونذكر فيما يلي ما جاء عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام في تفسيرها: «في قوله عزّ وجلّ: ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ قَالَ: الْمِشْكَاةُ نُورُ الْعِلْمِ فِي صَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ﴾ الزُّجَاجَةُ صَدْرُ عَلِيٍّ، صَارَ عِلْمُ النَّبِيِّ إِلَى

صَدْرُ عَلِيٍّ. عِلْمُ النَّبِيِّ عَلِيّاً. ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ قَالَ: نُورُ الْعِلْمِ. ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قَالَ: لَا يَهُودِيَّةٍ وَلَا نَصْرَانِيَّةٍ. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ قَالَ: يَكَادُ الْعَالِمُ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَتَكَلَّمُ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَ. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ يَعْنِي إِمَاماً مُؤَيَّداً بِنُورِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ فِي أَثَرِ إِمَامٍ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ عليه السلام وَذَلِكَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، فَهَؤُلَاءِ الْأَوْصِيَاءِ الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خُلَفَاءَ فِي أَرْضِهِ وَحُجَجَهُ عَلَى خَلْقِهِ، لَاتَخْلُو الْأَرْضُ فِي كُلِّ عَصْرٍ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ»[1].

بيوت الله

[٣٦] إن نور الرسالة لابد أن يوضع في البيت الرفيع والأسرة الفاضلة كي يزداد اتقادا، أما الأسرة المليئة بالعقد النفسية، والصفات الرذيلة، فإن النور ليس لا يتقد فيها فحسب، بل ويخفت حتى ينتهي إلى الظلام.

ففي تلك البيوت الرفيعة تنمو النفوس الطيبة، ينمو العقل النير، لأنها البيوت التي يذكر فيها اسم الله كثيرا، فيأذن الله لها بالارتفاع إلى سماء الوحي، فهي محل للعبادة والتسبيح في بدايات النهار وأخرياته، من رجال جعلوا ذكر الله فوق كل ذكر، وفوق التجارة التي لا تمنعهم عن ربهم، ولا تلهيهم عن إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ تلك هي بيوت الأنبياء والصديقين والصالحين، ولولا أن الله أذن لها أن ترفع، ويكون رجالها خير الرجال، ونساؤها خير النساء، منهم الأئمة والولاة، وفيهم سيدة النساء، وقدوة الصالحات وهم أهل بيت الرسالة .. لولا هذا لما حق لها ذلك، إن الناس عبيد الله، وهو الذي يختار لهم الأئمة والسادة، ولا ينبغي أن تكون للناس الخيرة من أمرهم، وحتى طاعة الناس لرسل الله لا تكون إلا بإذن الله، فقد قال ربنا عزّ وجلّ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[النساء: ٦٤] وجاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير البيوت هنا: «وَهِيَ بُيُوتُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالْحُكَمَاءِ وَأَئِمَّةِ الْهُدَى»[2].

ولكن بماذا رفعت هذه البيوت؟ إنما بذكر الله.

﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ إن ذكر الله ينبعث من قلوب طاهرة هي المشكاة لنور الله.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ فعندما يستقبلون النهار يسبحون ربهم، ويحيون

---

(١) التوحيد للصدوق: ص١٥٧.

(٢) بحار الأنوار: ج١١ ص٥٠.

صباحهم بتقديسه حتى لا يقدسوا ما سواه، وإذا مالت الشمس إلى المغيب، واستقبلوا سواد الليل سبحوا ربهم ليغسلوا عن قلوبهم أدران الحياة ويأووا إلى فراشهم بأفئدة طاهرة.

[٣٧] إن نور الله يتجلى في ضمير هؤلاء المسبحين لأنهم تعالوا عن ملهيات الحياة، فلا خشية الخسارة في التجارة، ولا تبادل المصالح بالبيع يمكن لها أن يلهياهم عن ذكر الله، وأداء واجباتهم ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فلذلك تراهم يبصرون الحياة من خلال نافذة الوحي، ويجرون عليها شرائع الدين، فلا تمنعهم ضغوط المعيشة عن تنفيذ الأحكام ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾؛ لأن خشية المعاد تفوق عندهم خشية الخسارة، في التجارة والبيع ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ فهم حذرون أبدا لأنهم يخشون أن يبعثوا على غير دين الله، وألا تقبل حسناتهم ولا تغفر سيئاتهم.

[٣٨] ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فلا يكتفي بأن يجزيهم على أحسن أعمالهم، بل يزيدهم من فضله لأنه الغني الذي لا تزيده كثرة العطاء إلا جودا وكرما.

[٣٩] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فبغض النظر عن إيمان الإنسان أو كفره، استقامته أو انحرافه، فإنه يسعى دؤوبا لتكون أعماله مثمرة تصل به إلى أهدافه وطموحاته، ولكن الإنسان المؤمن الذي يتبع تعاليم السماء هو وحده الذي يصل إلى نهاية سعيدة، أما الكافر فإنه لا يحقق من أهدافه شيئا بالرغم من إجهاده لنفسه.

وليت الأمر يقف عند هذا الحد، فبالإضافة إلى الفشل في الوصول إلى السعادة، فإنه يجد نفسه أمام رب رقيب قد أحصى أعماله، وأعد له عذابا شديدا جزاء كفره.

ولا يظن المرء أن حساب الله مختص بيوم الآخرة فقط، بل قد يرى نتيجة عمله في حياته الدنيوية إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، والله سريع الحساب.

[٤٠] ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ كمن يغرق في ظلمات أعماله المنحرفة، فلم يعد يرى شيئا من طريقه في الحياة، بل يبلغ حدا لا يرى فيه يده لو قربها من عينه، وذلك بسبب عصيانه لربه، مما سبب في سلب النور من عقله، وسمعه، وبصره، فضل يتخبط في دياجير الظلام الدامس، والآية الكريمة تبين أن أعمال الكافر هي بذاتها ظلام، وهل يهتدي من لم يجعل الله له نورا في الحياة؟!.

وكلمة أخيرة: نجد في آيات هذا الدرس غرة الجمال وغاية الروعة، فبعد أن ذكرتنا الآية الأولى بأن القرآن آيات مبينات، ومثل وموعظة، بصرتنا الآية الثانية تجليات نور الله في السماوات والأرض.. ومثلا منها تجلى بالوحي في مشكاة قلب الرسول فإذا به نور على نور، وبعد أن ذكرتنا آية النور -التي سميت السورة بها- بتفاصيل هذا النور فسرتها بالمثل الواقعي لتجسيد هذا النور:

ألف: فهده بيوت النبوة سمت بذكر الله، إنه مثل للمشكاة تستقبل المصباح: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾.

بـاء: ويزهر فيها ذكر الله كما المصباح يشع في المشكاة: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾.

جيم: والصالحون في هذه البيوت هم سور ذكر الله، كما الزجاجة للمصباح، وهم في ذات الوقت حصون الدين، وأوتاد العلم والفضيلة: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾.

لذلك هم يسبحون ربهم بالغدو والآصال لا تلهيهم تجارة ولا بيع.

دال: وتعلو شعائر الله على أكتافهم من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وتلك الشعائر وقود مسيرة التوحيد، و زيت اتقاد نور الوحي في الآفاق: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾.

هـاء: ثم يبصرنا السياق بجزاء هؤلاء وأن الله يزيدهم من فضله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

ويبين القرآن صفات الكفر في الطرف الآخر من الصورة ليرينا مدى اتساع الهوة بين الطرفين:

الأول: فبينما نجد هنا المشكاة أو البيوت الرفيعة، لا نجد هنالك إلا سرابا لا حقيقة له في قيعة، لا سور ولا حدود واضحة، ولا موانع طبيعية.

الثاني: وهنا يتسع النور، أما هنالك فظلمات فوقها ظلمات. أمواج البحر تغشاها سحب الليل.

الثالث: وهنالك بيوت رفيعة، يجللها نور الرسالة، ويسمو بها ذكر الرب على شفاه رجال متعالين عن الدنيا، يجب على العباد احترامها، وتعظيم أهلها، وطاعتهم، أما هنا فظلمات بعضها فوق بعض، لا تأوي من شر و لا تحمي من خطر، وهم الطغاة وولاتهم الظلمة الذين يجب البراءة منهم، وقد جاء في تفسير أئمة الهدى أن الظلمات «فِتَنُ بَنِي أُمَيَّةَ»[1]، ويجري في من يتبع النهج الأموي الجاهلي من الطغاة والظلمة.

(١) الكافي: ج١ ص١٩٥، تفسير القمي: ج٢ ص١٠٦.

كل قد علم صلاته وتسبيحه

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي[١] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا[٢] فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا[٣] بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤)﴾.

هدى من الآيات:

كيف نعي الحقيقة الهامة التي ختمت بها آيات الدرس الآنف: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾، و كيف نسمو بأنفسنا إلى شأن الرجال الذين يسبحون الله بالغدو والآصال، دون أن يلهيهم عنه شيء؟.

يجيب السياق في هذا الدرس: بالاستماع إلى سبحات الخلائق، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..﴾.

تعال وانظر إلى الطير صافات تسبح ربها بألحان مختلفة، والله قد علم صلاتها وتسبيحها، وعلم ماذا تفعل.

---

(١) يرجي: الإزجاء والتزجية الدفع والسوق.
(٢) ركاماً: أي متراكمًا على بعضه.
(٣) سنا: الضوء واللمعان.

وقد بسط الله ملكه وسلطانه على السماوات والأرض، وهو إذ يشأ يقبضهما إليه، وإليه المصير.

وهو الذي يسوق السحاب ثم يؤلفه ثم يركزه ويكثفه فإذا بالمطر ينبعث من خلاله، فيسقي به الرب من يشاء من عباده ويمنعه عمن يشاء، وإذا التقى السحابان يولدان البرق الذي يكاد ضياؤه يذهب بالأبصار.

وهكذا يدبر الله الليل والنهار، يختلفان، وفي ذلك عبرة لأولي الأبصار.

وهكذا يهديك الله إلى ذاته ببالغ حجته:

أولاً: يريك الحقيقة التي تتجلى في كل شيء، وعلى لسان كل حي ألا وهي تسبيح الله وتقديسه.

ثانياً: يذكرك بملكه وسلطانه.

ثالثاً: يبصرك بلطائف نظمه وحسن تدبيره.

فإن صرت من ذوي الأبصار فإن العبرة هذه تكفيك هدى.

بينات من الآيات:

تدبير الله آية ملكه

[٤١] يتجلى ملك الله وسلطانه الشامل في تدبيره لشؤون الوجود، والتقلبات المستمرة التي نشاهدها فيه، فالكون ليس ثابتا، بل هو في حركة دائمة، الليل يخلف النهار، والنهار يغشاه الليل، والسحب تأتي وتذهب و الأمطار تتراوح بين الهطول والانقطاع.

وهذه الحركة بذاتها دليل على من يحركها، والنظام فيها دليل حكمته وواسع قدرته، فمن الذي يسير السحاب في هذا الاتجاه أو ذاك؟.

ولماذا يتراكم على ارتفاعات ثابتة ولا يذهب إلى أعماق الفضاء؟ ولماذا لا تعود السحب إلى المحيطات التي انطلقت منها فتمطر فيها بدل أن تتوجه إلى الأرض اليابسة فترويها؟ ولماذا لا يحصل اضطراب في تعاقب الليل و النهار؟ ولماذا.. ولماذا..؟ الخ.

إن هذه الظواهر الطبيعية (وكثير غيرها) دليل الحكمة البالغة للخالق المبدع سبحانه، ولعل في قوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ إشارة إلى ضرورة ملاحظة تحولات الحياة، وتقلباتها فلحظة الشروق.. لحظة الأصيل.. لحظات حلول الربيع والخريف.. لحظات المطر..

وما إلى ذلك تهدي الإنسان إلى سر الحياة.

وهكذا التحولات الاجتماعية والسياسية الكبيرة، كنشوب الحروب وسقوط دول وقيام أخرى، تعكس سنن الله في المجتمع، لأن قوانين الحياة وأنظمتها إنما تكتشف في هذه اللحظات، فهل يعرف المنظرون السياسيون القوانين التي تحكم عالم السياسة إلا من خلال الأحداث والتحولات الهامة؟.

ينزل المطر، وتدب الحياة إلى الأرض الجرداء فتخضر، وتغنى الطبيعة على أديمها وتنشط فيها الدواب و الطيور. إن هذه التحولات تفيض معاني جديدة على القلوب الطاهرة. فتسبح ربها وتكبره.

وحين يعلم الإنسان زخارف الحياة ومباهجها تتغير باستمرار، فلا ملك يدوم ولا ثروة تبقى ولا جاه يستمر فيها، آنئذ لا يطمئن إليها، بل يطمئن إلى الحي الذي لا يموت، فلو عقل الملك زوال الحكم، والغني زوال الثروة، لما استبد أو بخل، ولما استكانت نفسه أو اطمأنت إلا إلى خالقه، الحق الذي لا يتغير.

وهكذا يذكرنا الرب بسبحات الخلائق فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ تسبح بحمد الله، وهذه الآية تدل على أن كل مخلوق قادر على التسبيح، وإنما وصف الله غير ذوي العقول بوصف ذوي العقول، ليدلنا على أن لكل حي شعور بقدره يسبح به ربه قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤].

إن رهافة سمع أولي الأبصار تجعلهم يسمعون تسبيح كل حي في السماوات والأرض، لأنهم يتجاوزون المظهر إلى اللب، ويعبرون الدلالات إلى الحق والشواهد إلى الغيب، فبالنسبة إليهم لا تعني حركة الأسماك في البحار، ولا صراع الوحوش في الغابات، ولا رفرفة الطيور في الفضاء، مجرد نشاط عابث من أجل البقاء، إنما فيه أيضاً محتوى رباني، وأبعاد فوق مادية، إنه تسبيح وصلاة وسعي نحو الأعلى.

كيف لا يسبح ذلك القلب الزكي الذي لا يلتفت إلى حي حتى يسمع منه التسبيح، ويرى منه الصلاة والتبتل و إذا وجد بلاء يصيب واحدا من الأحياء عرف إنما أصيب لأنه نسي ذكر الله.

جاء في رواية عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «مَا مِنْ طَيْرٍ يُصَادُ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ وَلَا

يُصَادُ شَيْءٌ مِنَ الْوُحُوشِ إِلَّا بِتَضْيِيعِهِ التَّسْبِيحَ»[1].

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من الذكر والتسبيح وعموم العبادة والأفعال الصالحة الأخرى، وهذا ما يدعو الإنسان إلى الاهتمام بالعبادة و التوجه إلى رب العالمين.

وهكذا روي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية: «إِنَّ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلَكاً عَلَى صُورَةِ دِيكٍ أَبْيَضَ رَأْسُهُ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَرِجْلَاهُ فِي تُخُومِ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ، لَهُ جَنَاحٌ فِي الْمَشْرِقِ وَجَنَاحٌ فِي الْمَغْرِبِ، لَا تَصِيحُ الدُّيُوكُ حَتَّى يَصِيحَ، فَإِذَا صَاحَ خَفَقَ بِجَنَاحَيْهِ ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَيُجِيبُهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَيَقُولُ: لَا يَحْلِفُ بِي كَاذِباً مَنْ يَعْرِفُ مَا تَقُولُ»[2].

وتذكرنا هذه الآية بعلم الله المحيط بكل شيء حتى بخبايا نية الطيور.

[٤٢] ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فكما كانت منه البداية كذلك تكون النهاية إليه، وفي هذه الحقيقة -التي تقوم على إثباتها كل الشواهد العقلية، وتظهر تجلياتها في كل الطبيعة- أعظم موعظة للمتدبر الذي لم يسمح لحجب الغفلة أو الشهوة أن تغطي بصره و بصيرته، وأكبر دافع نحو توجهه إلى العزيز الحكيم بأن يجعل عمله خالصا لوجه ربه الكريم، لا يريد جزاء و لا شكورا من أحد غيره، ولا يخشى أو يخاف أحدا سواه.

وتهدينا الآية إلى سلطان الله الفعلي على جوهر الأشياء. وأنه الذي يمسك بقدرته ناصية الحقائق أن تزول و تنعدم.

[٤٣] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ فلا موضع للصدفة التي هي أكذوبة الجاحدين، ولا يمكن أن يكون هذا النظام بلا مدبر حكيم وهو الله الذي يحمل الرياح السحب التي تزن ملايين الأطنان، تتحرك بكل خفة وسهولة في طبقات الجو العليا ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ فلولا تكاثف السحب لما هبط المطر، ثم إن السحاب مؤلف من شحنات سالبة وموجبة، ولولا ذلك لما نفع الزرع، فالبرق الذي يفرز المواد الضرورية لنمو النباتات إنما تؤلفه الأمواج الكهربائية القوية التي يولدها الاحتكاك بين هذه الأمواج ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ كي ينزل المطر، فبدون أن يتكثف السحاب لا ينزل المطر. وتكثفه لا يتم إلا عبر قوانين يجريها الله سبحانه فيها.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦١ ص٢٤، تفسير القمي: ج٢ ص١٠٧.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج١ ص٤٨٢.

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ وهو المطر حالة تكونه وخروجه، من بين ثنايا السحاب ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ فالسحب في الفضاء كما الجبال في الأرض، من حيث ضخامة كتلتها وتفاوت ارتفاعاتها، ويمكن للإنسان الاطلاع على هذه الحقيقة عندما يطير مسافرا من بلد لآخر فوق الغيام.

ولعل في الآية إشارة إلى حقيقة يذكرها العلماء: إن طريقة تكون (البرد) هي أن قطرة من الماء تنزل من السحاب، ثم تمر بطبقة باردة فتتجمد، ثم تحمله الرياح الشديدة إلى الأعلى من جديد. وتتقلب بين جبال السحب، كلما مرت سحابة حملت قدرا أكبر من الماء، فنزلت فحملتها الرياح - مرة أخرى - إلى الأعلى حتى تثقل وتهبط إلى الأرض. وقد تنزل حبات البرد بحجم البيضة.

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ من عباده، وعموم خلقه، إذن فليس ذلك بالصدفة.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لشدة الوميض الخاطف الصادر عن تفريغ شحنات كهربائية هائلة بين السحاب.. وهكذا فإننا نجد في هذه الظاهرة الطبيعية بشارة خير بنزول رحمة الله (المطر)، وإنذارا صارما بعقاب الله الذي لو نزل فإنه لا يبقي و لا يذر ولأفنى الأحياء.

بين الإيمان والعلم

[٤٤] ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ الله سبحانه هو الذي بيده الليل والنهار يقلبهما بقدرته، وهذه عبرة لأصحاب البصائر النافذة، والعقول النيرة. ألم يقل الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ وألم يقل عن الكفار: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾! [النور: ٤٠].

وهذا يعني أن من لا يملك الإيمان لا يفهم سر الحياة، كما لا يدرك التحولات والتقلبات الاجتماعية، ولا يفهم أن الله هو الذي يقلب الليل والنهار إلا أولو الأبصار، الذين يمتلكون البصر الحقيقي النابع من الإيمان، وهذا يدل على أن معرفة الله بداية كل معرفة، وأن الكفر بالله انحراف يستدرج الإنسان إلى كل انحراف.

الطاعة المصلحية الدواعي والنتائج

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ[1] (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ[2] اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)﴾

هدى من الآيات:

يبصرنا الرب بملكه واقتداره عبر تذكيرنا بخلقه الأحياء، ألم يخلق كل شيء من ماء؟ ولكن انظر إلى مدى التباين بين الدواب، فمنهم من يمشي على بطنه كالحيات ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع، هكذا ينشئ المليك المقتدر ما يريد، ليعرفنا بواسع قدرته المحيطة بكل شيء.

---

(١) مذعنين: منقادين

(٢) يحيف: الجور بنقص الحق.

وهذه آيات القرآن تبين لنا وتذكرنا بالرب ويهدي الله من يشاء إلى صراط مستقيم.

والهداية لا تعني مجرد الاعتراف اللساني بل لابد أن تصدقه الطاعة عند القضاء، فهنالك من يدعي الطاعة فإذا خالف الحق هواه أو مصالحه تولى. كلا.. ليس هؤلاء بالمؤمن فليس الإيمان هو الإذعان عند توافق المصلحة والتولي عند مخالفتها، ولكن لماذا هذا التفريق؟ هل في قلوبهم مرض الحسد والحقد وحب الدنيا أم هم في ريب من صدق الرسالة؟ أم يخافون من أن يظلمهم الرب في الحكم الذي يصدره الرسول؟ الواقع أنهم يظلمون أنفسهم حين يتولون عن العدالة الإلهية.

ما هي علامة الإيمان؟ إنها الطاعة عندما يدعوهم الرسول ليحكم بينهم، وهذا يوفر لهم الفلاح والفوز أيضاً إن هم أطاعوا الله ورسوله وخافوا الله واتقوه.

ويبقى السؤال التالي:

ما هي علاقة هذه الآيات بالمحور الرئيسي لسورة النور، الذي كان الأسرة وما يدور حولها من قضايا اجتماعية وتربوية؟.

وللإجابة على هذا السؤال يمكننا أن نقول:

أولاً: إن القرآن لا يكتفي ببيان المعالجات التي ترفع الانحرافات الاجتماعية، بل هو بذاته علاج لها وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين ولا يكتفي القرآن بإعطاء العلاجات الفوقية، بل يسعى لعلاج الانحرافات جذريا، من هنا نجد أن الآية القرآنية الواحدة تذكرنا بالحكم الشرعي، كما تذكرنا بعقوبة الله أو بثوابه.

فالحكم بيان للعلاج، ولكن التهديد بالعقاب والترغيب في الثواب هو ذاته علاج، لأن كلا من الترغيب و الترهيب يعطي النفس البشرية شحنة من الإرادة القوية التي تقاوم الانحراف.

وفي هذه السورة بالذات يحدثنا القرآن عن الأسرة الفاضلة والتي من ميزاتها أنها تؤمن بالله، وأن البيت الذي يحويها هو بيت الإيمان الذي يذكر فيه اسم الله كثيرا.. وهذا علاج للانحراف الذي قد يقع في الأسرة داخل المجتمع، والعلاج هو: أن الانحرافات البشرية يجب أن يزيلها الإيمان بالله مع الذكر والتسبيح.

بيد أن القرآن لا يكتفي بذلك، بل يقوم بإعطاء العلاج ذاته عبر بث روح الإيمان في قلب الناس، فنراه يحدثنا طويلا عن الإيمان بالله، وعن التذكرة بالقيم الحقيقية، وعن التوجه إلى

رب السماوات والأرض.. الخ.

ثانياً: إن كل انحراف في البشر نابع من انحراف آخر، وتتسلسل الانحرافات الواحدة تلو الأخرى، حتى تصل إلى الانحرافة الكبرى في حياة الإنسان وهي الكفر بالله، والابتعاد عن هداه، وذلك هو الضلال البعيد.

وفي الوقت الذي يعالج القرآن تلك الانحرافات الفرعية يعالج الضلال البعيد ذاته (وهو الكفر)، لذلك نجد القرآن - سوره وآياته ودروسه وعبره - تبتدئ بذكر الله، وتختتم به، لأنه المحور الحقيقي الذي تدور حوله كل القضايا.

ثالثاً: إن أهم صفة من صفات الإنسان في الأسرة الفاضلة، والتي يجب على الأسرة أن تسعى من أجل تركيزها وتنميتها في أبنائها، هي صفة الطاعة المستقيمة للحق.

ذلك أن الإنسان في الطاعة مختلف:

ألف: فقد ينمو الإنسان متمردا على النظام وعلى أية سلطة حتى ولو كانت السلطة سلطة شرعية، بل ويتمرد ضد أية نصيحة مما يجعله أشبه ما يكون بالوحش الهائج.

بـــاء: وقد ينمو ذليلا يعطي القيادة لأي كان، ويخضع لكل الناس ولكل الأنظمة، ويصغي لكل الأوامر و التعليمات، وهذا أشبه ما يكون بالبضاعة يشتريها من أراد.

جيم: وقد ينمو الإنسان ويتربى على طاعة الأهواء والشهوات وبالتالي طاعة كل من يشبع نهم رغباته، بغض النظر عن استقامته أو انحرافه، وعدالته أو ظلمه، وأكثر الناس في الواقع هم من هذا النموذج، إذ يطيعون من بيده المال أو السلطة، وهؤلاء أيضاً فاسدون كغيرهم.

دال: أما الفريق الرابع فهو الذي يطيع، ولكن لا للشهوات والمصالح، ولا حبا في الطاعة العمياء، وإنما يطيع القيم، فطاعته لأي أحد نابعة من ولائه للحق، وإيمانه بالقيم السامية، وهذا هو الإنسان الذي يجب أن تسعى الأسرة الفاضلة من أجل تربيته وتنمية مواهبه، وبلورة شخصيته.

ويحدثنا القرآن الحكيم في منتصف هذه السورة عن ضرورة الطاعة، وأنها يجب أن تكون لله لا للمصالح، و ليس خوفا من إرهاب أي سلطة بشرية، وهذه هي النقطة المحورية لبناء الإنسان الفاضل في الأسرة الفاضلة .

ثم إن الأسرة الفاضلة تبتدئ من الإنسان المطيع لله، وتنتهي إليه، فالأب الذي لا يخضع لشهواته العاجلة، ولا لمصالحه الخادعة، ولا للشركاء من دون الله كسلطان الجور، وأصحاب المال: إنه هو الذي يستطيع تربية أبنائه على شاكلته، أما الآخر الذي تمتلئ حياته بالطاعة العمياء، للمال ولأصحاب المال، أو السلطة ولأصحاب السلطة، أو للإرهاب، فإنه لا يستطيع تربية أبنائه أحراراً، يقاومون انحراف النفس والمجتمع.

رابعاً: لو بحثنا بعمق عن الأسباب الحقيقية للانحرافات البشرية، لوجدناها تنطلق من طاعة الإنسان للشهوات، فالذي لا يطيع شهواته لا يسرق، لأن من يسرق إنما يسرق لكي يصبح أكثر ثراء من غيره، أوليست هذه شهوة؟.

وهكذا يكذب الإنسان ويظلم أو يخاف من الناس، وهو يعلم أن كل ذلك طريق للانحدار والتردي.

وإذا ما عالج الإنسان هذا المرض عنده فإن سائر الانحرافات التي يعاني منها ستشفى طبيعيًّا تباعاً لعلاج الجذر.

بينات من الآيات:

[٤٥] ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ لابد أن كل إنسان قد شاهد النملة التي لا تكاد العين تراها، كيف تبحث عن رزقها وكيف تمتلك ما تملكه الحيوانات الضخمة من أجهزة داخلية وأعضاء مختلفة؟ وهي تعرف بما أودع الله فيها من الهدى أن الحبة التي تحصل عليها يجب أن تفلقها إلى عدة أجزاء قبل أن تختزنها، لكي لا تنمو ثانية وهي في بطن التراب، و الأغرب من ذلك أنها تفلق الحبوب إلى قسمين إلا حبة الذرة، فإنها تفلقها إلى أربع أقسام بنظرتها التي أودعها الله فيها، وكأنها تعلم لو أنها فلقتها إلى قسمين لامكن لكل جزء منها أن ينبت لوحده دون سواها من الحبوب، و إذا رأت مكانا فيه غذاء فإنها تذهب وسرعان ما تعود ومعها جيش من النمل ليتعاونوا جميعا على نقله، و ادخاره، ترى كيف أبلغتهم بالأمر وبأي لغة تكلمت؟.

هذه النملة الصغيرة خلقها الله من الماء، وذلك الفيل الضخم الذي إذا رأيته هالك منظره، هو خلقه الله من الماء أيضاً، وهكذا سائر الحيوانات البرية والبحرية، والطيور والحشرات بالإضافة إلى البشر.

إن تنويع الخلقة، والتركيز على أن كل نوع منها يسير وفق سلسلة معينة في تدرج الحياة يعطينا إيمانا بالله، وبقدرته اللامتناهية حيث خلقها جميعا من الماء.

﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالزواحف، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالدواب، ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقد جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام للمفضل بن عمر في إطار الحديث عن خلقة الزرافة: «..فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَتِ الزَّرَافَةُ مِنْ لِقَاحِ أَصْنَافٍ شَتَّى مِنَ الْحَيَوَانِ كَمَا زَعَمَ الْجَاهِلُونَ بَلْ هِيَ خَلْقٌ عَجِيبٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُدْرَتِهِ الَّتِي لَا يُعْجِزُهَا شَيْءٌ وَلِيُعْلِمَ أَنَّهُ خَالِقُ أَصْنَافِ الْحَيَوَانِ كُلِّهَا يَجْمَعُ بَيْنَ مَا يَشَاءُ مِنْ أَعْضَائِهَا فِي أَيِّهَا شَاءَ وَيُفَرِّقُ مَا شَاءَ مِنْهَا فِي أَيِّهَا شَاءَ وَيَزِيدُ فِي الْخِلْقَةِ مَا شَاءَ وَيَنْقُصُ مِنْهَا مَا شَاءَ دَلَالَةً عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَأَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ أَرَادَهُ جَلَّ وَتَعَالَى..»[1].

فربنا الذي شاء وكانت مشيئته هي الغالبة، وأنت بدورك محكوم بإرادة الله، فلماذا التمرد ولماذا العصيان ؟.

[٤٦] وفي الوقت الذي أنزل الله الآيات التي تذكرنا بآياته، فإن البشر بحاجة إلى الهداية المباشرة من قبل الله برحمة يخص بها من يشاء منهم ليهتدوا إلى الصراط المستقيم، ذلك أن الهداية نعمة عظيمة وهدف رفيع لا ينالها كل الناس ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إذن فعليك أن تسعى من أجل الحصول على هداية الله بطاعته والتقرب إليه بالأعمال الصالحة.

[٤٧] بيد أن هناك أناسا يدعون الإيمان ولكن واقعهم يخالف ما يدعون. ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

[٤٨] إن أصوب مقياس للإيمان هو الطاعة عند الصراع، فإذا أسلم للحق الذي يخالف هداه ومصلحته وقبل العدالة التي تكون إلى جانب خصومه، وتنازل طواعية عن دعاويه إذا حكم القاضي العادل ضده، فإن إيمانه حق، وإلا فإن دعوى الإيمان غير مقبولة ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

[٤٩] ولأن طاعتهم لله والرسول نابعة من مصالحهم المادية، فإذا كان الأمر لصالحهم أطاعوا ودعوا الناس إلى الطاعة، أما إذا لم يكن الأمر كذلك فإنهم يخالفون حكم الله ويعرضون عن شريعته فإذا عرف أحدهم انه لو ذهب إلى الحاكم الشرعي فإنه سيحكم ضده، فإنه يذهب إلى المحاكم الجائرة ليتسنى له التلاعب بالقوانين عبر الرشاوى.

---

(١) بحار الأنوار: ج٣ ص٩٧.

أما المحاكم الإسلامية الحاسمة التي تقضي بالحق فإنه لا يذهب لها إلا إذا علم بأن قضيته رابحة، ويكون في هذه الحالة أسرع الناس إلى حكم الإسلام، وأكثر الناس دعوة إلى الأخذ به ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾.

[٥٠] وهذا نوع من أنواع الطاعة المصلحية، و الإيمان المنفعي المرفوض في الإسلام، ولكن ما هو الدافع لهذا الإيمان؟.

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾
إن الذين يخشون العودة إلى طاعة الله، وحكم الرسول هم أحد أولئك التالية صفاتهم:

أولاً: مرضى القلوب: الذين يخالفون قيادة الرسول، استكبارا في الأرض، وتمردا على هذه القيادة الشرعية، فلقد كان بنو أمية و غيرهم من بطون قريش يحسدون النبي محمد ﷺ - القيادة الشرعية - لأنه كان من عائلة بني هاشم، التي أثبتت سيادتها وتفوقها على غيرها، مما دفعهم لحسدها ومن ثم حسدوا الرسالة والقيادة المنبعثة عنها.

وهذا نوع من أمراض القلب، حيث يسارع صاحبه إلى اتخاذ موقف النفور والكراهية ضد كل من يتحلى الطيبة والأخلاق الفاضلة، لمجرد انه يستقطب الناس حوله ويتفوق عليه.

ثانياً: الريبة: حيث تستبد بقلب البعض حالة الشك فيكون شخصية قلقة يشك في كل شيء، وهكذا يشك في القيادة الرسالية أيضاً لشكه الأساسي في الدين.

ثالثاً: الخوف من الحيف: وهناك فريق ثالث يتمرد أفراده على القيادة الرسالية بسبب خوفهم من أن تسبب لهم الضرر، كما لو أرادت إعادة حقوق المظلومين ويعتبرون ذلك ظلما لهم، في حين أن الظالم الحقيقي هو الذي يمتص دماء المستضعفين، ويترف على حساب المحرومين، وليس حيفا أن يسترد الله حقوق المستضعفين من المستكبرين، إنما هو العدل والإنصاف بعينه، وحاشا لله أن يظلم أحدا أو رسوله، بل الذين يخالفون الله ورسوله، لهذه الأسباب هم الظالمون.

[٥١] وفي مقابل هؤلاء الذين يقولون أطعنا، ثم يخالفون القيادة الرسالية في ساعة الجد، ويميلون إلى مصالحهم وأهوائهم الشخصية، نرى أولئك المؤمنين الصادقين والذين إذا قالوا أطعنا استقاموا على ذلك، و ثبتوا مضحين بمصالحهم الشخصية لصالح الإسلام والمسلمين، واستجابوا لكل الأوامر القيادية على الرغم من شدتها وصرامتها ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

[٥٢] لأنهم يتلقون أحكام الله وتشريعاته وتعاليم نبيه الأكرم، ويعملون بموجبها في معاملاتهم الاقتصادية و السياسية والقضائية وغيرها، -تماما- كما يفعلون ذلك في شؤونهم التعبدية كالصلاة والصوم وغيرها، فما من واقعة إلا ولله فيها حكم يتبعونه، وهكذا يجب على أبناء الأمة الإسلامية أن يستجيبوا لنداء علماء الإسلام عندما يدعونهم لمنهج الله في الحكم والسياسة، أو الاقتصاد، وسائر شؤون الحياة، لا أن يهرعوا إلى الغرب تارة وإلى الشرق تارة أخرى، يبحثون عن المناهج والأحكام عندهم.

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ ذلك لأن من يمتلكون هذه الصفات الثلاث (الطاعة، الخشية، التقوى) يكونون قد استكملوا أسباب الإيمان الحقيقي، فيحصلون على الفوز من الله.

إنهم يطيعون الله ورسوله خشية من عقابه المهين، وعذابه الأليم، ولأن الخشية شعور مؤقت قد يخبو مع الزمن في النفس البشرية، فإنهم يدعمونها بالتقوى، وهي الالتزام الدقيق بالتعاليم الإسلامية صغيرها و كبيرها، والاهتمام البالغ بكل الأوامر الإلهية.

وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)﴾.

هدى من الآيات:

في إطار الحديث السابق عن الطاعة للقيادة الشرعية التي أمر الله بها -تلك الطاعة التي هي أحد أهداف التربية السليمة- يبين هذا الدرس: أن هناك مقياسا واحدا وحقيقيا لمعرفة مدى تسليم الإنسان لربه، وبالتالي لمعرفة مدى عمق الإيمان وصدقه، وذلك المقياس هو: مدى طاعة الإنسان لقيادته الرسالية التي تجسد أوامر الله سبحانه.

والطاعة المقصودة هي الطاعة المستقيمة في أوقات الشدة والرخاء لا في الرخاء فحسب، لأن الإنسان قد يكون مستعدا للطاعة، ولكن في حدود القضايا البسيطة التي لا تكلفه شيئا من الجهد، أما حينما يؤمر باقتحام الصعوبات في الحياة كالجهاد، فإنه ينكص على عقبيه، خسر الدنيا والآخرة، وكثير أولئك الذين يتظاهرون بالإيمان بل ويحلفون بأغلظ الإيمان وأشدها

أنهم يطيعون القيادة عند الشدة إلا إنهم حين تأمره القيادة بالخروج إلى الحرب ينكثون فإذا بادعائهم مجرد حلف غطاء لنفاقهم.

ويؤكد ربنا سبحانه وتعالى على ضرورة الطاعة للقيادة الشرعية، كالرسول ﷺ، وأولي الأمر، وأنه يجب أن لا يقلق الإنسان بعد ذلك على المستقبل، لأن الله قد ضمنه للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، حيث وعدهم بالنصر والتأييد، وأكد أن الرسول قد حمل الرسالة، وأنتم حملتم طاعته.

ففي ساعة النصر ينسى الإنسان كل لحظات الصعوبة التي مر بها، لذلك أكد الله سبحانه للمسلمين المؤمنين أنه سيجعلهم خلفاء في الأرض، بعد أن يهلك أعداءهم، كما حقق ذلك للذين آمنوا وعملوا الصالحات من قبلهم، والخلافة لا تشكل هدفا لذاتها، بل هي وسيلة لهدف أسمى، هو تطبيق حكم الله، ومن ثم عبادة الله وحده و إسقاط سلطة الآلهة الباطلة.

وينهي القرآن الحديث في هذا الدرس بتسفيه فكر الكفار الذين يعتقدون بقدرتهم على فعل كل شيء، إذ لا يمكن لأحد أن يقف أمام المد الإيماني، الذي تقوده رسالة الله، ويتصدره المؤمنون الصادقون، فليس الكفار بمعجزين في الأرض، وليسوا بقادرين على أن يمنعوا حركة التاريخ من المضي قدما ضمن سنن الله في الطبيعة و المجتمع.

بينات من الآيات:

[٥٣] ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ إلى معترك الحرب وسوح الجهاد، فقد أقسموا على ذلك بأغلظ الإيمان الممكنة، وهل يحتاج الإنسان الصادق للحلف حتى يفي بالوعد؟!

﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ الطاعة الحق معروفة لأن العمل يصدقها ولا تحتاج إلى القسم، فهل يحتاج الإنسان في البديهيات الحياتية إلى القسم؟! بالطبع كلا.. لأنها قضايا معروفة لا داعي للحلف فيها، لذلك ينبغي أن تكون الطاعة أساسا ثابتا في حياة المسلم، وجزءا من كيانه، فلا داعي لأن يجعلها في خانة الاستثناء، التي يحتاج صاحبها للحلف حتى يبرهن على صدقه فيها، بل يجب تحويلها إلى صبغة ثابتة في حياته.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فإذا خادعتم القيادة الرسالية بقسمكم، فلن تخدعوا ربكم وهو الخبير بما تعملون، وإذا كان عملكم رديئا فلن يغير القسم من طبيعته شيئاً، مهما كان مؤكداً ومغلظاً.

دور القيادة ومسؤولية الأمة

[٥٤] ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾

إن طاعة الرسول -وهكذا القيادة الشرعية من بعده- هي الطريق إلى طاعة الله سبحانه، ولا تعني طاعة الله شيئا من دون الطاعة للرسول، ويخطئون أولئك الذين يقولون حسبنا كتاب الله، رافضين طاعة القيادة الرسالية التي فرضها الله عليهم كي تحدد لهم المناهج الدقيقة والتفصيلية لمختلف التغييرات الحياتية.

هذا الموقف وإن حاول أصحابه إعطاءه صبغة شرعية، إلا إنه - في الواقع - نوع من التمرد على الله، لذا تتكرر في الآيات القرآنية كلمة (الطاعة).

ولم يقل تعالى: قل أطيعوا الله والرسول، بالرغم من أن طاعة الرسول امتدادا لطاعة الله، بل كرر كلمة ﴿أَطِيعُوا﴾ ليؤكد على الطاعة الثانية تأكيدا مباشرا، وذلك لصعوبتها على كثير من الناس.

من جهة ثانية فإن هذا الفصل في الطاعة هو إشارة لطاعة الرسول ﷺ في الأمور الولائية. ذلك أن طاعة الله قد تكون في الأمور الثابتة، أما طاعة الرسول - التي هي أيضاً طاعة لله - فهي طاعة تشريعية حين تقرن بطاعة الله تعالى. وأخرى طاعة بوصفه قائداً وإماماً حين تفصل عن طاعة الله ظاهراً. فطاعة الرسول في هذه الآية هي اتباع منهج الله العملي في القضايا السياسية، والشرعية، وفي متغيرات الحياة العامة، كما في الحوادث الواقعة (الجديدة).

ومن لم يفهم هذه الحقيقة فإنه معرض للتمرد على الرسول، ولمن يخلفه من بعده.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ وهو تبليغ الرسالة، ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ وهو الاستجابة له في ما يأمر به.

والله يجازي كل إنسان على حدة، دون أن يجعل مسؤولية الناس على عاتق الرسول ﷺ، كما أنه لا يكلف الرسول بأن يفرض الطاعة عليهم.

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ لأنكم تصلون بذلك إلى فهم حقيقة الحياة.

ونستوحي من هذه الآية تأويل قوله سبحانه في آية مضت آنفا: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة: ٢١٣] حيث نعرف أن طاعة الرسل وأوصيائهم وسيلة للهداية، وأن مخالفتهم طريق الضلال.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وبالرغم من أننا نعتقد بهذه الفكرة بصفتنا مسلمين، إلا إنا حين نضعها موضع التطبيق يثقل علينا الأمر، لأن الإنسان بطبيعته يحاول التهرب من المسؤولية، وإلقاء الأخطاء على كاهل الآخرين، أو يلقي بمسؤولية عدم قيامه بواجباته على عاتق القيادة، أيا كانت، فالابن يلقي التبعة على الأب، و المدرس على إدارة المدرسة، وإدارة المدرسة على الوزارة المختصة بها، وهكذا. فلكي يتنصل كل واحد منا من ثقل المسؤولية التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال تجده يوزع الاتهامات يمينا وشمالا، ولا يبخل بها حتى على قيادته، بل إنها تنال الحظ الأوفر منها، وهذه فكرة ضلال في نفس الوقت.

هدف الدولة الإسلامية

[٥٥] ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

وهنا ثلاثة أسئلة لابد من الإجابة عليها:

الأول: ما هي العلاقة بين هذا الوعد بعد الأمر بالطاعة؟.

الثاني: لماذا أكد القرآن على كلمة ﴿مِنكُمْ﴾؟.

الثالث: ما معنى الاستخلاف في الأرض؟.

الجواب:

أولاً: لأن الطاعة للقيادة أمر صعب جدا، ولا يمكن أن يلتزم الإنسان بها مخلصا تمام الإخلاص، إلا أن يكون وراءه هدف محدد.

وحينما تسعى جماعة مؤمنة لتحقيق الاستخلاف في الأرض، فإن الأفراد يتنازلون مرحليا عن أنانيتهم، و يذوبون أنفسهم في بوتقة القيادة، وهذا يجعل كل واحد منهم يلبس شخصية جديدة، هي شخصية المجموع، و يتمثل بالتالي شخصية القيادة.

ثانياً: جاءت كلمة ﴿مِنكُمْ﴾ لتبين بأن الاستخلاف سنة جرت في السابقين، وهي ليست حكرا على أولئك، بل تجري فينا أيضاً، ومن سيأتي بعدنا من المؤمنين، إذ ليست هذه السنة حكرا على فئة محددة في زمن محدد، بل يكفي أن يتحقق شرطا (الإيمان والعمل الصالح) لتأخذ هذه السنة مجراها في أي مجتمع.

أما الجواب عن السؤال الثالث:

ألف: فقال جماعة من المفسرين إن الاستخلاف يعني ذهاب طائفة من الناس، وحلول أخرى محلها.

باء: وقال آخرون إن معنى الاستخلاف هو إكرام الله المؤمنين بجعلهم أئمة الناس، ليقوموا بتطبيق الشريعة، كما استخلف الأنبياء والأوصياء والصالحين من المؤمنين من قبلهم.

والواقع إن الخلافة كما جاء في (**ألف**)، فهذا هو المعنى الضيق للكلمة، فكل الناس خلفاء لمن سبقهم، حتى الكفار منهم، فلا داعي للتخصيص، لأن الله وعد المؤمنين بالخلافة عامة.

وعموما فإن الخلافة في الأرض هي القيادة التي يهبها الله لفئة من الناس، لأنهم يتبعون ما أنزل عليهم من قيم.

إذن فواقع الاستخلاف يعني أمرين:

الأول: إن الله يعطي السلطة للمؤمنين ويمكن لهم تمكينا.

الثاني: إن هذه السلطة لا تكون إلا بإذن الله الذي يحققها ويعطيها الشرعية.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ فسلطتهم ليست كأي سلطة مادية، بل هي سلطة روحية تهديها القيم الرسالية، ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ الذي عاشوه في ظل السلطات الجائرة وهم يقاومونها حتى يقيموا دولة الحق، ﴿أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ إن الهدف الحقيقي للحكم الذي يعطيه الله للإنسان، ليس التسلط على رقاب الناس، فهو ليس هدفا بذاته، بل الحكمة منه هو عبادة الله وعدم الشرك به.

إن توفر ظروف التخلص من الضغوط الشركية حيث يرتاح الإنسان من شبكات الاستعباد التضليلية والمالية و السلطوية هي أعظم نعمة يهبها الله للإنسان.

ومن المعروف أن الشرك لا يتحقق بعبودية الصنم، بقدر ما يتحقق بعبادة الطاغوت والخضوع لسلطته الجائرة، أو بعبادة المال، والأرض، والعنصر... الخ.

ورفض الشرك إنما هو رفض للقيم التي يتغذى منها، ولعل هذا ما نلاحظه في التعبير القرآني، إذ لم يقل تعالى: «لا يشركون بي شخصاً» مثلا، وإنما أطلق وقال: ﴿شَيْـًٔا﴾، ذلك لأن من يخضع للطاغوت لا يعبد جسده، وإنما يعبد الصولجان الذي بيده، والقوة التي تحت

سيطرته، وهكذا من يخضع للأثرياء، إنما يعبد الدينار والدرهم.

﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فإذا قامت السلطة السياسية (الشرعية) فإن كل من يكفر يكون فاسقاً، إذ لا يملك أي تبرير لكفره.

والواقع أن التأويل الحق والشامل لهذه الآية إنما يكون عند تحقق وعد الله بالتمكين التام للدين المختار، في كل أقطار الأرض، كما جاء في أحاديث مأثورة عن النبي ﷺ أنه قال: «زُوِيَتْ لِيَ الْأَرْضُ فَأُرِيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»[1].

وقال ﷺ: «لَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ ذُلِّ ذَلِيلٍ، إِمَّا أَنْ يُعِزَّهُمُ اللهُ فَيَجْعَلَهُمْ مِنْ أَهْلِهَا، وَإِمَّا أَنْ يُذِلَّهُمْ فَيَدِينُونَ بِهَا»[2].

أما متى يتحقق ذلك؟ فإنه إنما يتحقق عند قيام المهدي من آل محمد حيث جاء في حديث اتفق عليه المسلمون: «لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ وَاحِدٌ لَطَوَّلَ اللهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى حَتَّى يَلِيَ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي، اسْمُهُ اسْمِي، يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلاً وَقِسْطاً كَمَا مُلِئَتْ ظُلْماً وَجَوْراً»[3].

[٥٦] ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من التشريعات الإلهية التي تدخل ضمن نطاق طاعة الله سبحانه، لذلك فهما لا يكفيان دون طاعة الرسول، ولعل المراد بالرحمة هنا النصر على الأعداء.

الانتصار وليد الثقة

لا تنتصر أمة لا تثق بطاقاتها وقدرتها على الانتصار. فلا ينبغي أن يقف حاجزا بين المؤمنين وإقامة حكومة الإسلام وسلطة الشرع في الأرض ما يجدونه من قوة الطغاة، وثروة الأغنياء، أو جهل الناس، بل اعتقادهم بأن الكفار قد سلبوا قدرتهم وإرادتهم على الصراع و الانتصار باطل. فلا تخش أيها المؤمن الكفار!.

[٥٧] ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ لا تظنوا أن السلطات الكافرة قد سلبتكم الإرادة، وأوصلتكم إلى حافة العجز.

﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فمن الناحية المادية لا قوة لهم تمنع المؤمنين من أخذهم

(١) بحار الأنوار: ج١٨ ص١٣٤.
(٢) صحيح مسلم، ج٨، ص١٩٨، مسند أحمد بن حنبل: ج٦، ص٤.
(٣) تأويل الآيات: ص٣٦٥.

حقهم، ومن الناحية المعنوية فإن مصيرهم إلى النار وبئس المصير، وهذا يعني أن الله قد رفع عنهم دعمه، فلن يجدوا من ينصرهم على المؤمنين، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

ويا ليتنا نحن المسلمين اليوم، نتخذ هذه الآية الكريمة شعارا في حياتنا السياسية، وتحركاتنا الاجتماعية، فنقاوم أكبر عقبة كأداء في حياة المسلمين الذين يعتقدون بتفوق الكفار عليهم، وأنهم قادرون على منعهم من أخذ حقوقهم، وتحقيق أهدافهم، مع أن الواقع عكس ذلك تماما.

والله يفند هذا الاعتقاد الباطل، بوعده المؤمنين بالانتصار، وببيان أن الكفار عاجزون وضعفاء.

تعاليم الإسلام في دخول البيوت

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

في إطار حديث سورة النور عن العلاقات الأسرية، وضرورة تنظيمها، يحدثنا ربنا في هذا الدرس عن بعض القضايا التي تبدو جزئية، ولكنها -في الواقع- هامة، لأنها ترسم حدود الأسرة، والتي من بينها ضرورة تنظيم التزاور بحيث تستطيع الأسرة أن تبقى آمنة في مأواها، بعيدة عن العيون الغريبة، فيحرم على المملوك و الأطفال دخول الغرف، إلا بعد الاستئذان، وذلك في أوقات الاستراحة في الليل وعند الظهيرة ومن قبل صلاة الفجر.

وينهى الأطفال الذين يبلغون الحلم، أن يسترسلوا على عاداتهم في دخول البيوت بلا استيذان في غير الأوقات الثلاث.

ولأن أعظم حكمة في ذلك هو المحافظة على العفة الاجتماعية، يحدثنا السياق بهذه المناسبة عن القواعد من النساء، وهي اللاتي لا يرغب في زواجهن أحد لكبر سنهن، فيسوغ لهن وضع ثيابهن الظاهرة كالخمار و الجلباب بشرط عدم التبرج بزينة من أجل إثارة شهوة الرجال.

ثم يبين السياق حكم الدخول في البيوت والأكل منها بالنسبة إلى العائلة الكبيرة، ويبدأ ببيان حكم ذوي العاهات فيجوز دخولهم جميعا البيوت وتناول الطعام بلا استيذان.

بينات من الآيات:

[٥٨] لتزكى أجواء المجتمع، ويبقى الاحتشام والعفاف في البيئة الأسرية، لا ينبغي السماح للعبيد والأطفال باقتحام غرف النوم والراحة من دون الأذن.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾ من العبيد والإماء ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ﴾ و هم الأطفال من العائلة، إذ يجب عليهم استئذان أصحاب البيوت في أوقات معينة، وهي:

﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾
لأنها أوقات الراحة التي يتواجد الناس حينها في بيوتهم، بعد أن يكونوا قد حضروا صلاة الجماعة في المساجد، أو قاموا بأعمالهم المختلفة ونشاطاتهم المتنوعة لكسب الرزق، وتحقيق المعاش، وهكذا ينظم الإسلام الوقت بدقة، فجزء لاجتماع المسلمين في المساجد كي يؤدوا الفرائض ويتبادلوا الأفكار والخبرات بينهم، و جزء للسعي والعمل، وجزء للراحة والاستجمام، حيث يستعيدوا القوة والنشاط ويكملوا دورة الحياة.

﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ أحوال يجب أن لا يظهر عليها الآخرون، لأنها أوقات الراحة، وكم يرتاح الإنسان نفسيا حين يطمئن بأن لا أحد يدخل عليه إذ يضع عن نفسه الكلفة.

﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾ وأما بعد هذه الأوقات فلا مؤاخذة عليكم ولا عليهم أي الأطفال والعبيد والإماء أن يدخلوا عليكم دون استئذان.

﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ أي تأخذ حركة الدخول والزيارات مجراها عليكم بعد المنع والتوقف، وبالطبع إن الدخول بلا استئذان يختص بالمتعلقين بالشخص دون الأجانب.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ فهو عليم بمصالحكم، وحكيم إذ يضع لكم هذه الأحكام الرشيدة، وجاء في النص المروي عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية: «**فَلَا يَلِجْ عَلَى أُمِّهِ وَ لَا عَلَى أُخْتِهِ وَ لَا عَلَى ابْنَتِهِ وَ لَا عَلَى مَنْ سِوَى ذَلِكَ إِلَّا بِإِذْنٍ وَ لَا يَأْذَنْ لِأَحَدٍ حَتَّى يُسَلِّمَ فَإِنَّ السَّلَامَ طَاعَةُ الرَّحْمَنِ**»[1].

فما هي فائدة هذا الحكم؟.

قبل أن نبين الإجابة على ذلك نورد ملاحظة هامة هي: إن الإنسان قد يكون مهتما بحدود التنظيم الاجتماعي وقيوده، دون أن يهتم بجوهره ومحتواه، وقد يعكس فيكون مهتما بجوهر التنظيم وهدفه، ولكنه يتجاهل الحدود التي هي وسائل تحقيق الهدف ويعتقد بأنها غير هامة أو قشرية.

بينما يريد الإسلام من أبنائه الاهتمام بجوهر التنظيم وبحدوده، أي بهدفه وبالوسائل التي تحقق هذا الهدف.

إن جوهر التنظيم الاجتماعي هو الطاعة الخالصة لله تعالى، والبعيدة عن الأهواء والمصالح الآنية، وكل أنواع العصبيات الجاهلية، وتبرز أعلى مظاهر الطاعة لله، في الطاعة للقيادة الرسالية وتتدرج هابطا حتى تصل إلى ولي الأمر الحاكم الشرعي، وكذا ولي الأسرة ورؤساء كافة التنظيمات الاجتماعية والسياسية الشرعية.

والأسرة الفاضلة هي الأسرة القائمة على أساس التعاون البناء، ولا يأتي ذلك إلا عن طريق الطاعة السليمة للقيم الحق، بحيث لا تكون هذه الطاعة خالية من قانون يحددها، بل يجب أن تصب في قنوات قانونية، فلا يكتفي الإنسان المنظم بالطاعة لقيادته أو ولي أمره أو رب

(١) الكافي: ج٥ ص٥٣٠.

أسرته، بل أن يلتزم أيضاً بحدود القوانين الاجتماعية المفروضة، فقد لا تبدو هذه القوانين ذات أهمية، ولكنها حينما تطبق في الحياة الاجتماعية تصبح ذات نفع عظيم، مثلاً حينما يلزم الإسلام المسلم الوفاء بالعهد والالتزام بالوعد، أتدري كم ينظم هذا الأمر حياة المجتمع، أو كم يحافظ على الوقت الذي يذهب هدرا؟، والى أي حد يحافظ على علاقات الناس متينة وطيبة؟.

وهكذا حين يفرض الإسلام تنظيم الوقت، فلأنه حاجة اجتماعية، وضرورة حياتية، إذ لا يمكن للإنسان العمل في أي وقت يريد، أو التبضع متى شاء، أو حتى النوم متى يرغب، بل هناك أوقات محدودة لكل نشاطات الحياة وشؤونها، وبالرغم من أن تنظيم الوقت يبدو لكثير من الناس عملا ثانويا، إلا إنه أشبه ما يكون بالقناة التي تحافظ على مياه المطر من التشتت، لأنه يحافظ على طاقات الإنسان من التشتت ويجمع طاقات الجماهير ليصبها في قناة واحدة.

من هنا نجد تأكيدا في هذه الآيات على ضرورة ملاحظة أوقات الراحة للإنسان، والتي عادة ما تكون قبل صلاة الفجر وعند الظهر، وكذا بعد العشاء، وبمعنى آخر ضرورة مراعاة أوقات الآخرين وبرامجهم.

وحتى الأطفال يجب عليهم الاستئذان في هذه الفترات لتبقى البيوت محلا آمنا يستطيع الإنسان الاستراحة فيه أنى شاء.

ولتنفصل أوقات الراحة عن أوقات العمل، كي يكون هناك وقت للراحة، كما أن هناك وقتا للسعي والكدح ابتغاء فضل الله. والذي يجد وقتا كافيا للراحة، يستطيع الجد والإبداع عند العمل، إذ يجب أن تكون أوقات الراحة -كالقيلولة في الظهر- منطلقا للتحرك نحو العمل من جديد، وبروح نشطة.

وهذا القانون يوفر على الإنسان مزيدا من الوقت المنظم، مما يعني مزيدا من التقدم الحضاري.

وكلمة أخيرة: إن حكمة هذا التشريع الهام هي أبعاد الأطفال عن بعض المظاهر غير المناسبة والغير محتشمة في غرف النوم، حيث تثيرهم وتزرع في نفوسهم حب الزنا، أو حتى عداوة أحد الوالدين، مما يتسبب في العقد الجنسية، وما تتبعها من نتائج خطيرة.

ولقد حذرت النصوص الشرعية من ذلك واعتبرته نوعا من التشجيع على الزنا، إذ يسقط الحياء وتصبح المعاشرة الجنسية عملا عاديا عندهم، وسوف يمارسونها عند أول بوادر الحاجة الفسيولوجية إليها.

حتى جاء في حديث مأثور عن علي عليه السلام قال: «نهى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يجامع الرجل امرأته والصبي في المهد ينظر إليهما»[1].

أما غير الأطفال والعبيد فعليهم الإستئذان، وقد سبق الحديث عن ذلك في آيات مضت وعلى الأطفال إذا بلغوا سن الرشد أن يتوقفوا عن دخول الغرف إلا بإذن.

[٥٩] ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ في الدخول، ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأحرار ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وهذا التكرار تأكيد على أهمية هذه الأوامر الالهية، وأنها ذات أثر عميق في المجتمع، وان لم يستطع الإنسان الإحاطة علما بجميع أبعادها، وآثارها الآنية، والمستقبلية، لقلة علمه وضعف عقله، مما يجعله يستهين بها، فلا يبذل جهدا للالتزام بها وتطبيقها بدقة.

لهذا يجب أن تكون حكمة الله وعلمه مقياسا لقوانين المجتمع البشري، لا أهواء الإنسان وتخرصاته.

[٦٠] ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ﴾ حيث يجيز الشارع المقدس للمرأة الكبيرة في السن، أن تضع بعض ثيابها مثل جلبابها وخمارها مما يغطي رأسها ما دام لا يرغب أحد في نكاحها، بشرط أن لا تتبرج بإظهار مواضع زينتها، ولكن الأفضل أن تسود المجتمع الإسلامي كله حالة من العفاف والاحتشام.

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ﴾ فالمرأة وإن كبرت وبلغت سن اليأس، فإن الحجاب أكثر هيبة لها، كما إن ذلك يشجع الشابات على أن يتمسكن بالحجاب.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فلا يجوز لها أن تقول كلاما تثير به شهوة الرجال، أو تنوي القيام بحركة معينة حراما، إذ إن الله سميع للقول الظاهر عليم بالنية الباطنة.

[٦١] ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ قال بعض المفسرين: إن الناس كانوا يتحرجون من التعامل مع هذه الطوائف الثلاث في الجاهلية، لأنهم كانوا يعتقدون أن الله قد غضب على من ابتلي بهذه الحالات، فيبتعدون عنهم، وجاءت هذه الآية لتبين الحقيقة بأن الله لم يغضب على هؤلاء، بل من الضروري معاشرتهم بالإحسان، جاء في الرواية المأثورة عن الإمام الباقر عليه السلام: «أن أهل المدينة قبل أن يسلموا كانوا يعتزلون

(١) مستدرك الوسائل: ج١٤ ص٢٢٨.

الأَعْمَى وَالأَعْرَجَ وَالمَرِيضَ كَانُوا لاَيَأْكُلُونَ مَعَهُمْ وَكَانَتِ الأَنْصَارُ فِيهِمْ تَيَهٌ وَتَكَرُّمٌ، فَقَالُوا: إِنَّ الأَعْمَى لاَيُبْصِرُ الطَّعَامَ وَالأَعْرَجَ لاَيَسْتَطِيعُ الزِّحَامَ عَلَى الطَّعَامِ وَالمَرِيضَ لاَيَأْكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الصَّحِيحُ فَعَزَلُوا لَهُمْ طَعَامَهُمْ عَلَى نَاحِيَةٍ وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ عَلَيْهِمْ فِي مُوَاكَلَتِهِمْ جُنَاحاً وَكَانَ الأَعْمَى وَالمَرِيضُ يَقُولُونَ: لَعَلَّنَا نُؤْذِيهِمْ فِي مُوَاكَلَتِهِمْ. فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ سَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾»(١).

ولعلنا نستوحي من السياق أيضاً أن نفي الحرج هنا يعني جواز الأكل، فيكون المفهوم من الآية ليس على الأعمى حرج، ولا على الأعرج حرج، ولا على المريض حرج، أن يأكل من بيوت الناس، أما أنتم فليس عليكم حرج أن تأكلوا من بيوتكم، أو بيوت أقاربكم.

والحكمة في ذلك: أن هؤلاء هم العناصر الضعيفة الذين يعجزون عادة عن كسب رزقهم، فعلى الأصحاء كفالتهم والسماح لهم بالدخول إلى بيوتهم للطعام وبرهم.

﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾ تذكر هذه الآية بالتفصيل البيوت التي لا حرج على الإنسان في دخولها والأكل منها.

ويبدو أنها ليست في مقام إعطاء الأذن فحسب، بل في مقام التشجيع على ذلك أيضاً، فربما يتحرج الإنسان من الدخول إلى بيوت أقاربه أو معارفه من الأصدقاء، فيرفع النص هذا الحرج، لتنمو الألفة والمحبة بين الأسر المختلفة، وكما جاء في كتاب الكافي: «عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ الحَجَّاجِ قَالَ: أَكَلْنَا مَعَ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام فَأُوتِينَا بِقَصْعَةٍ مِنْ أَرُزٍّ فَجَعَلْنَا نُعَذِّرُ فَقَالَ عليه السلام: مَا صَنَعْتُمْ شَيْئاً إِنَّ أَشَدَّكُمْ حُبّاً لَنَا أَحْسَنُكُمْ أَكْلاً عِنْدَنَا. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَرَفَعْتُ كُسْحَةَ المَائِدَةِ فَأَكَلْتُ. فَقَالَ عليه السلام: نَعَمْ الآنَ»(٢).

لأن الجلوس إلى مائدة الطعام في البيت يفتح القلوب على بعضها، ويمتن العلاقات، وبالتالي يفتح طريق التعاون بين أفراد المجتمع.

فكم من تعاون بدأ من جلسة طعام، حتى النشاطات الخيرية، والحركات الرسالية كثيرا ما تنطلق من مثل هذه المناسبات، فحينما تقترب النفوس وترتفع الحجب بين الإنسان وأخيه وبعيدا عن أنظار الناس وأسماعهم، هنالك يبدأ الإنسان بالحديث عما يعانيه، فيبث همومه

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص١٠٨، بحار الأنوار: ج٧٢، ص١٤.

(٢) الكافي: ج٦ ص٢٧٨.

ومشاكله لأخيه وبالتالي تتوفر الأجواء الملائمة للمناقشة وتبادل الأفكار مما يكون مناسبا لجمع الإمكانات والكفاءات المختلفة وإزالة الصعوبات، فربما جلس أناس مؤمنون لبعضهم كي يأكلوا، ولكنهم قاموا من على مائدة الطعام لينجزوا أعمالا عظيمة في سبيل الله.

إن التجمعات الأسرية في الإسلام هي اللبنات الأولى والأساسية في صرح الصمود والتضحية في المجتمع الإسلامي، فلا يستطيع الإنسان الصمود أمام تحديات الزمن وعنجهية الطغاة، وتحقيق النصر لوحده، ولكنه يستطيع ذلك حينما يجلس إلى أقاربه ومعارفه ويتفاعل معهم حيث يشعر بالقوة فيندفع بحماس لمواجهة كل التحديات.

ولما في الجلوس إلى الموائد من فوائد اجتماعية عظيمة، نجد الإسلام يشجع عليها، ولو كانت العلاقات الاجتماعية في البلاد التي يحكمها الطاغوت متينة وفعالة لشل سيف الطغيان فيها، لأن الطاغوت حينئذ لا يضرب واحدا واحدا، و إنما يضرب أسرة أسرة، والأسرة القوية المتفاعلة صخرة صماء لا تتفتت، فلو وقف المجتمع بأسره المتعاونة مع بعضها عبر قياداتها لسقط الطاغوت المتسلط على رقاب الناس.

ثم يبين القرآن الكريم حكما آخر يعطي العلاقات الاجتماعية حرارة ودفئا فيقول: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ فإذا أعطى المالك مفتاح بيته لأحد، يجوز له تناول الطعام الذي فيه -بالفحوى- لما ينبئ ذلك عن رضى قلبي.

جاء في التاريخ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ آخَى بَيْنَ أَصْحَابِهِ فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا بَعَثَ أَحَداً مِنْ أَصْحَابِهِ فِي غَزَاةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ يَدْفَعُ الرَّجُلُ مِفْتَاحَ بَيْتِهِ إِلَى أَخِيهِ فِي الدِّينِ وَيَقُولُ: خُذْ مَا شِئْتَ وَكُلْ مَا شِئْتَ، وَكَانُوا يَمْتَنِعُونَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى رُبَّمَا فَسَدَ الطَّعَامُ فِي الْبَيْتِ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ يَعْنِي حَضَرَ أَوْ لَمْ يَحْضُرْ إِذَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ»[1].

وأعطى الإسلام الصديق الوفي حكم القريب فقال: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾

وجاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «مِنْ عِظَمِ حُرْمَةِ الصَّدِيقِ أَنْ جَعَلَهُ مِنَ الأُنْسِ وَالثِّقَةِ، وَالانْبِسَاطِ وَطَرْحِ الحِشْمَةِ، بِمَنْزِلَةِ النَّفْسِ وَالأَبِ وَالأَخِ وَالابْنِ»[2].

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ فبإمكان الأسرة أن تجتمع بأكملها حول مائدة الطعام، أو يحضر أفراد منها فقط كأن يأكل الأخ مع أخيه و الصديق مع

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٤ ص٢٨٣، تفسير القمي: ج٢ ص١٠٩.

(٢) تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٦٢٧، تفسير جوامع الجامع للطبرسي: ج٢، ص٦٣٥.

صديقه.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ يجب أن تكون القلوب متحابة متآلفة، ومجندة في جيش واحد، والسلام هو رمز تآلف القلوب، وعندما يسلم المرء على أخيه، فإنه يربط نفسه معه برابطة المحبة ويتعهد بأن يكون مسالما له في حضوره وغيابه.

لذلك يؤكد القرآن قائلاً: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي إنكم تشكلون نفسا واحدة، ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فحينما يقول الإنسان لأخيه السلام عليكم يقول الله أيضاً السلام عليك أيها المجتمع الذي يتسالم أفراده ويتبادل أبناؤه السلام، إني سوف أمنحكم السلام تحية، ﴿مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ وهذا السلام يسبب البركة أي النمو الاجتماعي و المعنوي، الذي يختلف عن النمو المادي الفاسد لدى المترفين أو الحكام الطغاة، بل هو تكامل طيب ومستقبله عظيم.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فكلما كانت الأحكام القرآنية حساسة وعميقة، كلما وجدنا بعدها مباشرة مثل هذه الكلمات: لعلكم تعقلون، لعلكم تتفكرون، لحاجة الأمر إلى التعقل والتفكر حتى يعرف المؤمنون أهميته، وأنه لا يمكن فهم ذلك إلا إذا استشار الإنسان عقله، وقدح زناد أفكاره.

بين القيادة الرسالية والأمة المؤمنة

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾

هدى من الآيات:

في ختام هذه السورة التي تتحدث عن الأسرة الفاضلة، وعن القيم التي ينبغي أن تنمو فيها، والتي من أبرزها الطاعة لولي الأمر انطلاقا من الطاعة للقيم الحق، يؤكد ربنا في هذه الآيات الكريمة على ضرورة الطاعة للقيادة الرسالية في القضايا الاجتماعية المختلفة.

فإذا كان المسلمون مجتمعين على أمر كالحرب أو البناء أو أي عمل آخر فلا يجوز لأحد منهم أن يتسلل من الاجتماع في خلسة ويذهب لأعماله الخاصة، حتى ولو كانت هناك حاجة تدعوه إلى ذلك، لأن حاجة المجتمع أهم من حاجته الشخصية.

نعم له أن يستأذن القيادة، فإذا أذنت له فليذهب وإلا فلا.. والقيادة - بدورها - تستطيع أن تأذن لمن شاءت إذا عرفت الكفاية في الباقين، ومع ذلك تستغفر القيادة له، لأن استئذانه في

مثل هذا الوقت نوع من الذنب، إذ هو هروب من المسؤولية الاجتماعية.

وبعدئذ يؤكد القرآن على ضرورة تمييز الرسول عن الآخرين باعتباره القائد، والمبلغ للرسالة، مما يجعله شخصية ذات تأثير فعال في فرض الأوامر والتعليمات، ويحذر بشدة أولئك الذين يخالفون عن أمره بأن تصيبهم فتنة، وأبرز الفتن سيطرة الطغاة، أو عذاب اليم في الآخرة.

ويحذرنا الله نفسه، أوليس له ما في السماوات والأرض، وهو عالم بما نحن عليه من خير أو شر؟!، و حين نعود إليه يخبرنا بأعمالنا وهو بكل شيء عليم، فلماذا التبرير والنفاق والخداع الذاتي؟.

بينات من الآيات:

[٦٢] إن الإسلام يريد لمجتمعه أن يكون مجتمعا متكافلا متكاملا موحدا، والقيادة هي الرابط الاجتماعي الذي يعصم المجتمع من الانهيار والتشتت، وهنا تكمن أهمية الوحدة، وعدم شق عصاها، فلا يجوز للفرد أن يعتنق رأيا يفصله عن المسيرة العامة للأمة، وهذا هو المقياس الصحيح لمدى ارتباط المسلم بالمجتمع الإسلامي و انتمائه الحقيقي له.

أما الأفراد الذين يرسمون لأنفسهم خططا، يفرضونها على المجتمع، شاءت القيادة أم أبت، فلا يمكن أن يكونوا منتمين إلى المجتمع، وهؤلاء هم المنافقون في منطق القرآن الحكيم.

لذلك نجد التعبير القرآني يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ للتأكيد على أن هؤلاء وحدهم الذين ينتمون إلى مجتمع الإيمان، أما الآخرون فلا.

وهكذا يريد الإسلام ترسيخ الشعور بالمسؤولية في نفوس المؤمنين، ويبدو من هذه الآيات أن بعض الناس كانوا يريدون التنصل من مسؤولياتهم.

وكثيرا ما ينفر الإنسان من تحمل المسؤولية حينما يشعر بثقلها، أو خطورتها على مصالحه، وحتى يخفي هذا الشعور يصنع دثارا من المبررات لنفسه، ولكي يعالج الإسلام هذه النزعة فقد فرض على الإنسان المسلم أن يتحلى بصفتين أساسيتين هما:

١- الطاعة والتسليم.
٢- التنفيذ الجاد لقرارات القيادة.

ولو عرف الإنسان المسلم نوعية فكر القيادة الرسالية، وكذلك توجهها، فإنه سيسلم نفسه لها تسليما عميقا يذوب بسببه كليا في خطها، ولا يكتفي باتباع القرارات الظاهرة فقط، بل

سيتبع روح القرار وأهداف القيادة، حتى من دون أن تحدد هي ذلك بالضبط.

فبنو إسرائيل لما قال لهم موسى عليه السلام إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، أمطروه بوابل من الأسئلة: ما هذه البقرة؟ ما لونها؟ ما شكلها؟ ما.. ما. الخ؟.

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[البقرة: ٧١] لأن التسليم النفسي لم يكن موجودا عندهم بما فيه الكفاية، فكانوا يريدون التنصل من المسؤولية بأية وسيلة كانت.

ولا يكتمل إيمان المؤمن حتى تذوب شخصيته في شخصية الأمة، ويبيع نفسه وتوجهاته في الحياة للقيادة الرسالية، بأن يكون رهن أوامرها، كما لا يكتفي بتنفيذ ظاهرها فقط، وإنما يغوص إلى الأعماق، ليكتشف أبعادها، ويطبقها بالشكل الأكمل، بخضوع قلبي تام، وقد وصف القرآن المؤمنين بذلك حيث قال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، و التسليم هو الانصياع النفسي التام.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فلا يشكل الإيمان بالله وحده قيمة حقيقية ما لم يكن مقترنا بالإيمان بالرسول، وما يترتب على ذلك من تلقي الأوامر والتعليمات والتشريعات الإلهية منه، وهذا ما يميز المؤمن الحقيقي عن المؤمن الظاهري.

﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ أي إنهم لا يتصرفون وفق رغباتهم الشخصية، إنما يدعون القرار الحاسم بيد القيادة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ قد تحتاج إلى هذا الشخص فيجوز لك أن تأذن له.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لأن ذهابهم وإن كان بأمر الرسول إلا إنه نوع من الذنب أو التقصير، لذلك ينبغي للرسول الاستغفار لهم حتى يغفر الله لهم من جهة، وحتى يكون ذلك إشعارا للآخرين بأن لا يطلبوا أذنا مماثلا، وبالتالي ينفض الناس شيئا فشيئا و يبقى الرسول وحيدا في الساحة.

وجاء في التاريخ إن هذه الآية: «نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كَانُوا إِذَا جَمَعَهُمْ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله لِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ -فِي بَعْثٍ يَبْعَثُهُ أَوْ حَرْبٍ قَدْ حَضَرَتْ- يَتَفَرَّقُونَ بِغَيْرِ إِذْنِهِ فَنَهَاهُمُ الله عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ج١٧ ص٢٦، تفسير القمي: ج٢ ص١٠٩.

وجاء في نص آخر إن الآية: نَزَلَتْ فِي حَنْظَلَةَ بْنِ أَبِي عَامِرٍ وَذَلِكَ أَنَّهُ تَزَوَّجَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي كَانَ فِي صُبْحِهَا حَرْبُ أُحُدٍ فَاسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَ أَهْلِهِ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فَأَقَامَ عِنْدَ أَهْلِهِ ثُمَّ أَصْبَحَ وَهُوَ جُنُبٌ فَحَضَرَ الْقِتَالَ فَاسْتُشْهِدَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: رَأَيْتُ الْمَلَائِكَةَ تَغْسِلُ حَنْظَلَةَ بِمَاءِ الْمُزْنِ فِي صِحَافِ فِضَّةٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَكَانَ يُسَمَّى غَسِيلَ الْمَلَائِكَةِ»[1].

[٦٣] إن احترام القيادة في قراراتها يجب أن ينعكس على احترامها في الظاهر أيضاً، فلو نطقت باسم الرسول، أو باسم قيادتك كما تنطق باسم الآخرين دون أي احترام، أو إذا جلست إلى الرسول ترفع صوتك أمامه، كما ترفعه أمام الآخرين أو تناديه من وراء الحجرات كما تنادي الآخرين، فإنك لن تكون مستعدا بعد ذلك لتلقي أوامره ومن ثم تنفيذها، إذا لا بد من إعداد نفسي كامل سلفا، لتلقي أوامر الرسول أو القيادة الرسالية التي تمثله على الواقع، كأن يتوضأ الفرد قبل الذهاب إلى مجلس الرسول، أو يغتسل إن كان عليه غسل، ثم يجلس في محضره مجلس المستفيد، ليقتبس من علمه بتركيز تفكيره في كلامه، وتفريغ نفسه لتطبيق تعاليمه.. وهكذا حتى ينتهي الأمر به إلى تنفيذ أوامر القيادة بشكل دقيق جدا.

فحينما تحترم القيادة تطبق أوامرها وتوجيهاتها، وعلى العكس فإنك تأخذ أوامرها وتوجيهاتها مأخذ الهزل لو لم تكن تحترمها.

﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ ولهذا المقطع من الآية وجهان: أحدهما ظاهر والآخر باطن.

أما الظاهر فهو: أن لا يسمي الإنسان رسول الله باسمه الخاص، بل بكنيته، وحينما جاءت هذه الآية حرم على المسلمين أن ينادوا رسول الله باسمه، فأخذوا ينادونه يا رسول الله أي باسمه القيادي.

وأما الوجه الباطن فهو: ضرورة تهيؤ المسلم نفسيا لتقبل قيادة الرسول ﷺ وكل من جلس مجلسه وحكم باسمه، ولا يقول هذا إنسان وأنا إنسان، بلى إنه بشر، ولكنه يمتلك صفة اعتبارية أنت لا تملكها، هي جلوسه مجلس الرسول، لذلك قال كثير من فقهائنا: «إذا حكم ولـي الأمر المجتهد الجامع للشرائط بحكم ما، وجب على الناس - سواء منهم المقلدون لهذا المجتهد أو غيرهم - اتباع حكمه، بل وحتى على المجتهدين أن يتبعوه في حكمه»، لأنه حينما يحكم فإنه يحكم باسم منصبه، وإهانة حكمه إهانة لمركزه، والإهانة لمركزه إهانة للدين، وبالتالي

(١) تفسير القمي: ج٢ ص١٠٩، بحار الأنوار: ج١٧، ص٢٦.

لله سبحانه وتعالى، وقد روى عمر بن حنظلة عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مِمَّنْ قَدْ رَوَى حَدِيثَنَا وَعَرَفَ حَلاَلَنَا وَحَرَامَنَا وَعَرَفَ أَحْكَامَنَا فَلْيَرْضَوْا بِهِ حَكَماً فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ عَلَيْكُمْ حَاكِماً فَإِذَا حَكَمَ بِحُكْمٍ وَلَمْ يَقْبَلْهُ مِنْهُ فَإِنَّمَا بِحُكْمِ الله اسْتَخَفَّ وَعَلَيْنَا رَدَّ وَالرَّادُّ عَلَيْنَا كَالرَّادِّ عَلَى الله وَ هُوَ عَلَى حَدِّ الشِّرْكِ بِالله»[1].

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ أي يتسللون خلسة دون أن يشعر بهم الرسول أو يراهم وهم يخرجون من مجلسه.

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ إن المقصود من ﴿الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ ليس فقط مخالفة الأوامر الظاهرة، بل أيضاً مخالفة روح القيادة.

إنهم استطاعوا أن يتسللوا لواذا وأن يهربوا خلسة، ولكن هل أصبحوا في مأمن كما يزعمون؟!.

كلا.. بل إنهم يعرضون أنفسهم للفتنة، وللعذاب الأليم، فإذا استدعاهم الرسول في يوم ما، وأصدر إليهم أوامر مباشرة بحمل السلاح، والتوجه إلى الغزو مثلا، فإنهم في هذه الحالة أمام موقفين، فإما الانصياع إلى الأوامر، وهذا خلاف ما يريدون، وإما الرفض فيخرجون -بذلك- ظاهرا وباطنا عن الإسلام، ويضعون أنفسهم تحت طائلة العقاب الشرعي في الدنيا وفي الآخرة.

وعلى فرض أنهم اختاروا الأمر الأول، فإنهم سيجدون صعوبة بالغة في تنفيذ الأوامر، لأن الذي لم يرب نفسه على تنفيذ الأوامر الصغيرة لا يستطيع ذلك في القضايا الكبيرة، والذي يهرب اليوم من الحر والبرد، و سهر الليل ومشاكل التدريب وما أشبه، كيف لا يهرب غدا من الحرب والقتال؟!.

إذن فعلى الإنسان أن يربي نفسه على الطاعة والانضباط وتحمل الصعاب حتى يكون على أتم الاستعداد نفسيا و بدنيا لتطبيق الأوامر الهامة.

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جاء في حديث مأثور عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «يُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً جَائِراً، أَوْ عَذَاباً أَلِيماً فِي الآخِرَةِ»[2].

والواقع: أن هناك رابطة وثيقة بين سيطرة الطغاة وبين مخالفة أوامر القيادة الشرعية.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٠١ ص٢٦١.

(٢) تفسير جوامع الجامع الطبرسي: ج٢ ص٦٣٧.

[٦٤] ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي إن الله وبكل تأكيد يعلم بكل ما تفعلونه، وهو قادر على محاسبتكم ومجازاتكم لأنه مالك الكون والوجود.

﴿وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ وغدا يخبركم بكل ما فعلتم، لأن علمه محيط بالإنسان، ومعرفة الإنسان بهذه الحقيقة تجعله مسؤولا عن أقواله وأعماله، فيعمل على إصلاحها وتحسينها، ليكسب ثواب الله، ويتجنب عقابه.

سُورَةُ الفُرقَان

* مكية.

* عدد آياتها: ٧٧.

* ترتيبها النزولي: ٤٢

* ترتيبها في المصحف: ٢٥.

* نزلت بعد سورة يس.

فضل السورة

عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْفُرْقَانِ بُعِثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ يُؤْمِنُ، أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ».

(مستدرك الوسائل: ج٤ ص٣٤٥)

***

عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «يَا ابْنَ عَمَّارٍ لَا تَدَعْ قِرَاءَةَ سُورَةِ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ فَإِنَّ مَنْ قَرَأَهَا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ لَمْ يُعَذِّبْهُ اللهُ أَبَداً، وَلَمْ يُحَاسِبْهُ، وَكَانَ مَنْزِلُهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص ٢٥٣)

***

الاسم:

لأن هذه السورة تبين حقائق عن الوحي، ولأن أهم ميزة للوحي هو تفريقه بين الحق والباطل فقد سميت بـ (الفرقان) الذي يشير إلى الآيات المحكمات في القرآن.

الإطار العام

القرآن: هدية السماء لأهل الأرض

لأن هذه السورة تبيّن حقائق عن الوحي، ولأن أهم ميزة للوحي هو تفريقه بين الحق والباطل، فقد سميت بـ(الفرقان) الذي يشير إلى الآيات المحكمات في القرآن.

والقرآن رسالة، وعظمة الرسالة تأتي أولاً من جانب مرسلها.

و(الآيات: ١-٦) من هذه السورة التي يبدو أنها تبين حقائق الوحي وتنسف العقبات التي تعترض طريق الإيمان به، تذكرنا بمن أرسل الكتاب، وبالكتاب، وبالرسول الذي أرسل معه:

أولاً: الله هو الذي أنزل الفرقان، وهو رب السماوات والأرض الذي أرسل الكتاب، إنه الله الذي تبارك وتعالى، أوليس خيره عميم ثابت لا يفنى ولا يتناقص، وله وحده ملك السماوات والأرض، وهو الذي قدر كل شيء؟.

ثانياً: ومن آمن بالله عرف رسالاته، أما من اتخذ من دونه شركاء فسوف لا يحظى بالإيمان بالرسالة، لذلك تراهم يتهمون الرسالة بالافتراء، ويزعمون أنها أساطير. بينما الذي يعرف الله، وأنه العليم بسر الخلق، يؤمن بالرسالة التي تكشف جانباً من ذلك السر.

ثالثاً: قالوا كيف يبعث الله بشراً رسولاً، إنه يأكل ويكتسب معيشته؟ وقالوا: لماذا لم ينزل معه ملك، ولم يلق إليه كنز؟ ثم قالوا: إنه رجل مسحور. وهكذا ضلوا عن السبيل بسبب ضربهم الأمثال للرسول، (الآيات: ٧-٩).

وبعد أن يجيب السياق عن افتراءاتهم بأن الله قادر على أن يجعل للرسول ما يملأ عيونهم من الجنات والقصور (الآية: ١٠)، يبين في (الآيات: ١١-١٩) جذر الكفر بالرسالة المتمثل:

أولاً: في تكذيب الساعة التي ينذرهم بها حيث تستدعيهم من بعيد بزفير وتغيظ، فإذا أقحموا فيها تنادوا بالهلاك،ويقارنها الذكر بالجنات التي وعد المتقون.

ثانياً: باعتمادهم على شركائهم، حيث يذكرنا الرب بأن الأنداد لا يغنون عنا شيئاً في ذلك اليوم الذي يقفون فيه أمام المحكمة،يتبرؤون ممن كانوا يعبدونهم.

ثالثاً: إن من أسباب الكفر بالرسالة نسيان الذكر بسبب تطاول العمر واستمرار النعم، فكان سبباً لهلاكهم.

ويعود الذكر إلى رد شبهاتهم التي سبقت الواحدة تلو الأخرى:

أولاً: قالوا لماذا يأكل رسولنا الطعام ويمشي في الأسواق؟ فقال الرب: إن المرسلين سابقاً كانوا أيضاً يأكلون الطعام،ويمشون في الأسواق، وإن ابتلاء الناس ببعضهم سنّة الله التي تمضي في الخلق لمعرفة من يصبر، وهو البصير بهم (الآية: ٢٠).

ثانياً: قالوا لماذا لم ينزل معه ملك نذيراً؟ يقول ربنا: إنه الاستكبار والعتو. أو لا يعلمون أنه لو تنزلت الملائكة، وانكشف الغطاء فقد لزمهم الجزاء، ولا بشرى لهم يومئذ، وتنتثر أعمالهم فلا تنفعهم. ويمضي السياق في بيان أهوال الساعة التي كذبوا بها لعلهم يتذكرون (الآيات: ٢١-٢٦).

ثالثاً: من أسباب الكفر بالوحي خلة السوء، حيث يعضّ الظالم -آنئذ- على يديه، وينادي بالويل على نفسه على ما اتخذ من أخلاء سوء أضلوه عن الذكر، (الآيات: ٢٧-٢٩).

رابعاً: يأتي الرسول يوم القيامة يشكو إلى ربه من قومه الذين اتخذوا القرآن مهجوراً، (الآيات: ٣٠-٣١).

خامساً: وقالوا لولا أنزل القرآن جملة واحدة؟ ويجيب السياق بأن الحكمة هي تثبيت الفؤاد، ومقاومة أمثلتهم الباطلة بالحق المبين، (الآيات: ٣٢-٣٤).

ويحدث السياق في (الآيات: ٣٥-٤٠) عن مثل للرسالة الإلهية، حيث بعث الله نبيه موسى عليه السلام إلى فرعون رسولاً، كما بعث نوحاً عليه السلام إلى قومه، وأرسل إلى عاد وثمود وأصحاب الرس، فماذا كانت عاقبة الذين كذبوا بالرسالة؟ إن مصير القرية التي أمطرت مطر السوء، مَثَلٌ واحد لعاقبة أولئك المكذبين. أفلا يعتبر هؤلاء بهم ويكفون عن تكذيبهم؟!.

سادساً: ويتخذون الرسول هزواً، ولكنهم يعترفون بمدى تأثيره فيهم. والواقع؛ إن

الهدى من الله وليس الرسول وكيلاً عنهم، ولا يهديهم الله، إذ أنهم اتخذوا أهواءهم آلهتهم. ويبين القرآن أن الله هو الذي جعل الشمس دليل الظل، وأحيى ميت البلاد، وصرف الأمثال، فهو الهادي والمذكر، ولكن أكثر الناس يكفرون، (الآيات: ٤١-٥٠).

والله سبحانه المالك المقتدر، وقد أمر الرسول بجهاد الكفار جهاداً كبيراً، وبَيَّنَ آيات قدرته البالغة، حيث مرج البحرين،وجعل بينهما حاجزاً، وأنه قد خلق من الماء بشراً، (الآيات: ٥١-٥٤).

ولعل الآيات توحي بأن من يكفر بالرسالة سوف يتعرض لمعاداة المؤمنين، ولا ينفعه الأنداد شيئاً، كما أنهم لا يضرونه إذا خالفهم. وفي المقابل لا يطلب الرسول أجراً، ولا يعتمد إلا على الله سبحانه، (الآيات: ٥٥-٦٧).

ويأمر الله الرسول بالتوكل على الحي القيوم، ويذكره بأسمائه الحسنى، فقد خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على عرش القدرة، ينشر رحمته على عباده، وهم ينفرون من السجود للرحمن بكفرهم، (الآيات: ٥٨-٦٠).

وفي الآيات الأخيرة وهي: (٦١-٧٦) يذكرنا القرآن باسم ﴿تَبَارَكَ﴾ الذي به جعل في السماء بروجاً، وجعل فيها سراجاً منيراً، ثم يضرب مثلاً من واقع عباد الرحمن الذين صاغهم الوحي، فهم يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، وهم يبيتون لربهم سجداً وقياماً، ويحذرون عذاب الآخرة،ويقتصدون في الإنفاق، ولا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، ويتوبون إلى الله، ولايشهدون الزور، ويمرون باللغو كراماً، وتعي أفئدتهم آيات ربهم، ويتطلعون إلى أن يصبح الواحد منهم إماماً للمتقين،فيجزيهم الله الغرفة بما صبروا، ويلقون فيها تحيةً وسلاماً.

وفي الآية الأخيرة يذكرنا السياق بدور الدعاء، ولعل السبب يتلخص في أنه رد التحية من قبل العبد لرسالات الرب.

تبارك الذي نزل الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦)﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس الأول من هذه السورة التي تبين حقائق عن الوحي، يذكرنا ربنا بأن من انزل الفرقان هو الله الذي تنوعت وكثرت بركاته، والهدف من الفرقان الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وآله هو إنذار كافة الناس.

ويفصل الذكر حديثه عمن أنزل الفرقان. أوليس خطر شأن الرسالة إنما يكون بمن أرسلها؟ وهاهو المليك المقتدر الواحد بلا شريك والمقدر لكل شيء ينزل ما يهدينا إلى حقيقة الأشياء.

بينما الضالون الذين يهتدون بالقرآن يشركون بربهم من لا يخلق شيئا، ولا يملك لنفسه

ضرا فيدفعه أو نفعا فيجلبه، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا.

وشركهم الله يجعلهم يكفرون بالفرقان ويزعمون أنه ليس إلا إفك صنعه الرسول بالتعاون مع آخرين. هكذا يظلمون الرسول، وهكذا يقولون باطلا.

ويقولون: إنها مجموعة أفكار السابقين تملى عليه فيكتبها بكرة وأصيلا.

كلا.. إنما أنزل الفرقان الخبير بسر السماوات والأرض. أو ليس الله هو الغفور الرحيم يتجاوز عن ذنوب عباده ويرحمهم بإنزال الوحي إليهم؟!.

بينات من الآيات:

[١] إن من أبرز مميزات القرآن الكريم أن الحكمة تتجلى فيه، لأنه من لدن حكيم خبير، فلا تجد لفظة من ألفاظه على صيغة معينة إلا لحكمة.

ولعل سبب تسمية هذه السورة بسورة (الفرقان) هو التالي:

أولاً: لاشتمالها على هذه الكلمة في بدايتها.

ثانياً: بما أن الإنسان خلق للبقاء في حياة أخرى لا تفنى، وإنما جيء به إلى الدنيا لتتكامل نفسه، ويعد لتلك الحياة وطريق التكامل الوحي، وسورة الفرقان تحدثنا عن الوحي، وضرورة الإيمان به، وكيفية تجاوز العقبات التي تعترض طريق الإيمان به، ونقرأ في نهاية السورة عرضا لأبرز صفات المؤمنين به، والتي تبين -في ذات الوقت- صورة عن الإنسان المتكامل الذي يعده الفرقان للجنة، ومن هنا سمي الوحي هنا بالفرقان لأنه يميز الإنسان المتكامل المعد للجنة عن البشر الناقص الذي يلقى في النار، فالفرقان هو القرآن الذي يعمل به، وتصاغ عبره شخصية أصحاب الجنة.

فبالقرآن يعرف الحق من الباطل، والخير من الشر، ومن اهتدى به أوتي الفرقان، وارتفع إلى درجة الولاية على الناس تشريعيا، إذ يستخلفه الله على أرضه، لا لميزة ذاتية، بل لأنه يجسد أكثر من غيره- رسالة الله في سلوكه وتصرفاته، كما إنه يسمو لمستوى الولاية التكوينية، لأنه قد طبق بنود الرسالة على نفسه مما يعطيه القدرة على تسخير الأرض وما فيها.

وعندما تبدأ آيات هذه السورة المباركة بكلمة ﴿تَبَارَكَ﴾ والتي تعني التكامل في الحياة، فلكي تشير إلى حقيقة عظيمة تهم الإنسان كمسؤول عن حياته ومصيره، فلو طمح يوما إلى التكامل، فلابد له من إدراك هذه الحقيقة، وإلا فإنه سيظل عاجزا عن بلوغ الهدف الكبير.

تلك الحقيقة هي أن الإنسان لا يمتلك القدرة الذاتية على التكامل، ولا سبيل له إلى ذلك إلا بالارتباط بينبوع التكامل والبركة وهو رحمة الله -جل شأنه- عبر التمسك بحبله الممدود من السماء إلى الأرض، وهو القرآن، حيث يسمو بالإنسان نحو مدارج الكمال، ويفجر طاقاته الخيرة التي أودعها ربنا فيه.

لذا نجد هذه الكلمة تتكرر ثلاث مرات أو أكثر بعبارات مختلفة في هذه السورة، التي يستوقف الإنسان سياقها في الآية الأولى ليبين أن الهدف الأساسي من الوحي هو الإنذار لأن الإنسان اقرب إلى دفع الشر عن نفسه منه عن جلب الخير، فلو علم بعدو يريد اقتحام البيت تراه يتحرك استعدادا للدفاع بنشاط أكبر مما لو علم بوجود فرصة أمامه للكسب، ولربما كان هذا السبب الذي يجعل الإنذار يسبق التبشير.

القرآن رسالة إلى العالمين

وتشير الآية الكريمة إلى أن القرآن ليس رسالة موجهة إلى طائفة من بني البشر دون أخرى، إنما هي رسالة مترامية الأبعاد، تسع البشرية كلها، فهي شاملة وعامة، وهذه الميزة من أكبر الدلائل الواضحة على أنها وحي أرسله الله سبحانه، وأنها ليست من اصطناع الرسول لأن الإنسان لا يمكنه الوصول إلى مستوى متقدم من التجرد عن الذات والمصلحة العنصرية والإقليمية وغيرها من الانتماءات المادية، وإنما يستطيع ذلك عندما يتصل بمشكاة النور، وينتصل من أي انتماء مادي ويرتبط بالله المهيمن على جميع الحدود والقيود والولاءات.

فكون القرآن حديثا للبشرية دليل على صدقه، وأنه مرسل من عند الله، ثم إن من يضع المنهج للحياة، و يفرضه على الإنسان لابد أن يكون مطلعا على شيئين: الإنسان والكون، فلابد أن يعرف طبيعة الإنسان، و مكنوناته من الطاقات والتطلعات، أما الكون فلابد أن يكون مهيمنا عليه، عارفا بسننه وأنظمته، ولا يتسنى هذا الأمر لغير الله -سبحانه- الذي أودع السنن والأنظمة وقدرها تقديرا.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ لماذا اختار الله سبحانه كلمة ﴿عَبْدِهِۦ﴾؟.

يبدو لي أن الهدف من هذا التعبير أمران، هما:

أولاً: إن عظمة الرسول ﷺ نابعة من عبوديته لربه، وإخلاصه له سبحانه.

ثانياً: إن القرآن ليس من فكر الرسول، ولا هو إفراز طبيعي لعلمه، وكمال عقله، أو

دليل على اختلاف عنصره.

﴿الْفُرْقَانَ﴾ كلمة مشتقة من فرق يفرق مفارقة، وقد سمي الذكر فرقانا لأنه يهب الإنسان قدرة على التميز، و عليه مسؤولية الاختيار.

وجاء في النص المأثور عن أبي عبد الله عليه السلام في معنى الفرقان في قوله ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ قال: «هُوَ كُلُّ أَمْرٍ مُحْكَمٍ وَالْكِتَابُ هُوَ جُمْلَةُ الْقُرْآنِ الَّذِي يُصَدِّقُهُ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ»[1]. وفي الصحيفة السجادية عن أبي محمد الباقر زين العابدين عليه السلام: «وَفُرْقَاناً فَرَقْتَ بِهِ بَيْنَ حَلَالِكَ وَحَرَامِكَ، وَقُرْآناً أَعْرَبْتَ بِهِ عَنْ شَرَائِعِ أَحْكَامِكَ»[2].

[٢] وإذا عرف الإنسان رب العزة الذي أنزل الفرقان عرف صدق هذا الكتاب، وكلما زادت معرفته بربه كلما زادت قدرته على الاستفادة من كتابه، وتحول الكتاب عنده إلى مقياس سليم لمعرفة الخير والشر، والنفع و الضر. ذلك لأن من عرف ربه بأسمائه الحسنى ثم تليت عليه آيات الكتاب، رأى تجليات ربه فيها، وعرف أنه لا يكون مثل هذا الكتاب إلا من الله الخبير، فلا يخالجه ريب في صدق رسالة ربه. وهكذا ذكرتنا سورة الفرقان أولاً بمن أنزل الكتاب.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ إن من الناس من يعبد الآخرين باعتقاد ذواتهم الألوهية -كما يزعمون- أو أن شرعيتهم نابعة من الله ذاتا، كالاعتقاد بأن السلطان ظل الله في الأرض، أو أن الله أمر بعبادة التراب، وتقديس القوم والعشيرة.

وعندما ينسف الله هاتين الفكرتين، فإنه ينسف بذلك قاعدة التمايز الطبيعي بين العناصر البشرية، أو القوميات والوطنيات، أو أي شيء آخر.

ويأتي عجز الآية الكريمة مكملا -بتناغم وتناسب- مع كلمة ﴿الْفُرْقَانَ﴾ التي مر ذكرها في الآية الأولى، فهي ليست بعيدة عما تهدف إليه كلمتي ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ في آخر هذه الآية، لأن الفرقان جاء لتعريف الإنسان بالتقديرات الإلهية، والأنظمة الربانية، والتقادير هي الأنظمة والسنن.

وقد أضافت الأحاديث في معنى التقدير وحدوده ونذكر فيما يلي بعضا منها:

روي عن علي بن إبراهيم الهاشمي قال: سمعت أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام

(١) تفسير القمي: ج١ ص٩٦، بحار الأنوار: ج٨٩، ص١٦

(٢) الصحيفة السجادية: دعاء ختم القرآن.

يقول:

«لَا يَكُونُ شَيْءٌ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَأَرَادَ وَقَدَّرَ وَقَضَى.

قُلْتُ: مَا مَعْنَى شَاءَ؟.

قَالَ عليه السلام: ابْتِدَاءُ الْفِعْلِ.

قُلْتُ: مَا مَعْنَى قَدَّرَ؟.

قَالَ عليه السلام: تَقْدِيرُ الشَّيْءِ مِنْ طُولِهِ وَعَرْضِهِ.

قُلْتُ: مَا مَعْنَى قَضَى؟.

قَالَ عليه السلام: إِذَا قَضَى أَمْضَاهُ فَذَلِكَ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ»[1].

والتقدير الإلهي سبق الخلق بمدة طويلة، هكذا يروى مسندا عن علي بن موسى الرضا عن آبائه عن علي عليه السلام قال: «قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدَّرَ الْمَقَادِيرَ وَدَبَّرَ التَّدَابِيرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ بِأَلْفَيْ عَامٍ»[2].

وقال الإمام الرضا عليه السلام ليونس: «وَتَدْرِي مَا التَّقْدِيرُ؟. قُلْتُ: لَا. قَالَ عليه السلام: هُوَ وَضْعُ الْحُدُودِ مِنَ الْآجَالِ وَالْأَرْزَاقِ وَالْبَقَاءِ وَالْفَنَاءِ»[3].

واتخذوا من دونه آلهة

[٣] ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ وينساب السياق القرآني ليطهر الأفئدة من الأساطير الجاهلية، فلا آلهة من دون الله تخلق وتصنع. كلا. إنما هي التي تُخلَق وتُصنَع، بل قد يكون الإنسان هو الذي يصنعها كما تشير إليه آيات أخرى، والتي توحي بأن الله يخلق الآلهة خلقا أوليا من العدم، ولكن الإنسان يعطيها منصب الألوهية، وليس الله الذي لبس رداء الوحدانية، وتسربل بالعزة والفردانية، ولا من قبل أنفسهم.

إننا نجد هجوما قرآنيا شديدا بين الحين والآخر على الأساطير والخرافات وذلك لإبطالها، والأخذ بيد الإنسان إلى الحقيقة بعد إسقاط الآلهة الكاذبة التي نبتت في مستنقع أوهام

---

(١) الكافي: ج١ ص١٥٠.

(٢) بحار الأنوار: ج٥، ص٩٣.

(٣) تفسير القمي: ج١ ص٢٤، بحار الأنوار: ج٥ ص١١٦.

البشر البدائي؛ الإنسان ذي الذهنية الساذجة والمحدودة.

إن تخلف الإنسان هو المسؤول الأول والأخير عن ضلالاته وفساده سواء على صعيد الأفراد والمجتمعات والأمم، إذ لا وجود لهذه الآلهة المزيفة لولا جهله وضيق أفقه، وتوجهاته المنحرفة المستبتة في بيئة الشهوة والمصلحة.

وإلا فما تفسير ظاهرة الطغيان. إذ يعتلي فرد أو تتكبر جماعة لتتحكم بمصير مجاميع بشرية هائلة وكأنها آلهة، فيتزلف له أو لهم الناس، متناسين الحقيقة العظمى في هذا الكون، ومتغافلين عن واقع الذين يعبدونهم بأنهم أناس مثلهم، خلقوا من طين لازب، تحكمهم ذات القوانين والأنظمة الجسدية والنفسية التي تحكم سائر الناس، وإنما أصبحوا بهذه الهالة من التقديس الأجوف بخوف الناس منهم، ورغبتهم في خيرهم.

وإذا أراد مجتمع ما أن يكتشف هذه الحقيقة، فما عليه إلا أن ينفض غبار التخلف عن نفسه، وينتفض لله متخلياً عن الخوف، متنازلا عن المصلحة والشهوة العاجلة في سبيل هدف مقدس هو رضوان الله، فإن الطاغوت آنئذ لا يتهاوى، لأن عوامل انهياره موجودة -إذا- في ضمير الإنسان والمجتمع وفي سنن الحياة.

ولا يقصد بالألهة المزيفة الحاكمين فقط بقدر ما يعنى بهذه الكلمة كل شيء يقدسه الإنسان إلى حد العبودية له، سواء تجسد ذلك في الحاكم كفرعون، أو القبيلة كقريش، أو العنصر كاليهود، أو الإقليم أو الحزب أو ما أشبه.

فلربما يشرد بالإنسان خياله في مغبات الانحراف ليصور له الوطن شيئا قائما بذاته. فإذا أصبح حب الوطن بغضا للأوطان الأخرى، أو التضحية من أجله بطشا وعدوانا على الآخرين بغير الحق، فإنه بذلك يصبح إلها يعبد من دون الله.

ويدرك البشر بفطرته أن لا إله في الكون إلا الله، فهو خالقه، ومقدر سننه، والمهيمن عليه، وأنه قد بعث نبيه برسالة تبين تلك السنن، إلا إن الإنسان قد يستجيب لدعوات الشيطان والنفس التي تتحول إلى آلهة مقدسة بعد تبلورها في الواقع الخارجي.

ولو وقف الإنسان ساعة تفكر لنفسه، وعرض دعوات الشيطان، وضغوط النفس على ضوء الفطرة و العقل لتبدد ظلام الانحراف عن قلبه، ولوجد الآلهة التي تعبد من دون الله لا تملك شيئا، بل الله يملكها ومن يعبدها من دونه.

وينثني السياق ليهتف بالإنسان قائلاً: مادمت أنت الذي تعطي هذه الآلهة الشرعية،

فلماذا تخضع لها تارة خوف البطش، وتستجيب لها أخرى رغبة في الخير؟!. ولكن لا يستجيب لهذا الهتاف المقدس إلا من هدى الله قلبه للإيمان، أما من غرق في بحر الجحود والكفر، وتوغل في الضلالة والهوى، فإنه بالإضافة إلى رفضه هذا النداء، يتهم القرآن بالإفك والرسول بالافتراء، وإنما يأفك الإنسان الذي يفتري على الله تكذيبا وزورا، من أجل لذة عابرة، إذ لا يكذب كاذب لغير مصلحة ورغبة.

أما الرسول ذلك الإنسان العظيم الذي تجرد عن رغباته وذاته، فأصبح موضوعيا في كل شيء لا يمكنه أن يختلق هذه الفرية الكبيرة، ولماذا يختلقها وقد تجرد عن المصلحة؟!.

وإنه من السخف أن يتهم أحد رسول الله بالفرية والكذب، فإن القرآن لا يولي اهتماما بالغا لتهمة هؤلاء الرسول بذلك، بل يمر عليها مرور الكرام، وأية مصلحة له من ذلك وقد وهب حياته كلها وما يملك من أجل الناس؟!.

وكذلك لا يولي اهتماما لمن اتهموا الرسول بأنه يقتبس هذا القرآن ليلا، من مجموعة عبيد كانوا في مكة بينهم عبد بن طحي (مولى طحي)، ورحب (مولى عبد شمس) وأناس آخرين لم يكونوا يميزون الهر من البر، لقصور أفكارهم عن إنتاج فكري أقل من إنتاج إنسان عادي، فكيف بالقرآن العظيم الذي هو ضمير الحياة، لان من خلق الحياة هو الذي بعث رسوله محمد به؟!.

إن القرآن حق لا ريب فيه، وكلما توغل الإنسان في الحياة أكثر، وتدبر في آيات الذكر أكثر كلما اكتشف العلاقة الوثيقة بين السر الذي يكتشفه عندما يتوغل في الحياة، والآخر الذي يعثر عليه عندما يتدبر في القرآن، و كلما نما عقل الإنسان وزاد علمه، وتكاملت شخصيته كلما كان أقرب إلى فهم القرآن ومعرفة آياته الكريمة .

ويبقى الإنسان هو المسؤول عن تسلط الآلهة، وتلبسها بالقداسة المزيفة، وهي ليست أكثر من حجر يتحطم بضربة.

وصدق أبو ذر الغفاري ﷺ حيث قال عندما رأى الثعلب الثعلبان- يبول على رأس صنم قبيلته[1]:

أرب يبـــول الثعلبان برأســه   لقد هـان من بالت عليه الثعالب

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ إذا كانوا لا يملكون دفع الضر عن أنفسهم،

(١) بحار الأنوار: ج٣ ص٢٥٣.

فكيف يستطيعون إلحاق الضر بغيرهم؟!.

إنهم أعجز، ولكن الثقافة الجاهلية هي التي تهول الأصنام وتعظمها، وهي التي ترمز للقوى الاجتماعية الحاكمة حتى إننا نقرأ في التاريخ: إن بعض القبائل العربية كانت تدخل الإسلام ولكنها ترفض تحطيم أصنامها بأيديهم خشية نزول العذاب عليهم إن هم كسروا تلك الأحجار التي صنعتها أيديهم، وفي التاريخ أن الرسول ﷺ قبل من ثقيف شرطهم عليه ألا يتولوا هم تكسير أصنامهم، فأمر بعض أصحابه بذلك، وكانوا يزعمون أن الجدب والبلاء سيحلان بهم لو أهانوا تلك الأحجار الصماء بسبب كثافة الإعلام السلطوي الذي مارسه بحقهم المترفون الذين كانوا يحكمون البسطاء باسم تلك الأصنام.

واليوم نرى بعض الشعوب تقدس أصناما بشرية، ويظنون أنهم مصدر الاستقرار والرخاء، بدلا من التوجه إلى الله، و الدعاء للمؤمنين، ثم من هو هذا السلطان حتى نعتقد أنه أساس كل خير وبركة؟!.

بلى؛ إن سلبية الناس أدت إلى انسحابهم من الساحة السياسية، وهي التي صنعت الأجواء المناسبة لنمو الأنظمة الفاسدة، وانتفاخ الطواغيت.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾

ولعل المقصود من الآلهة التي ذكرها القرآن في قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ الرموز الاجتماعية المعبودة من دون الله لا الأصنام الحجرية، إذ ليس للصنم موت ولا حياة، بل هما من طبيعة الإنسان.

والنشور هو البعث بعد الموت، وكيف يعبد من لا يملك لنفسه ذلك؟.

[٤] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ من الناحية اللغوية الإفك هو: الكذب، والافتراء هو: اصطناع الكذب من غير أساس.

وكما هي العادة يسم الكفار الرسول بهذه الخصال الرديئة، ولا يكتفون بذلك بل يدعون إعانة مجموعة من موالي مكة للرسول على هذه الأمور، ولا يستمهلهم القرآن دون رد، بل يجيبهم: إنكم جئتم ظلما وزورا، و لعل الآية تشير إلى أن الانحراف هو وليد الظلم العملي والزور الفكري.

[٥] ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

اتهموا الرسول بأنه يتلقى القرآن من جماعة تأتيه أول النهار وآخره، ثم يطلع عليهم ليسميها وحيا نازلا من عند الله، لا لشيء إلا لتبرير الكفر والجحود بآيات الله، إذ إن اعترافهم بالقرآن والرسول -أنهما من عند الله- يكلفهم الكثير.

[٦] ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ لأن الله عالم السر في السماوات والأرض ولأنه غفور رحيم، يريد الغفران لذنوبنا، والرحمة لنا.

لهذا وذاك كشف لنا سر الحياة دون أن يجهدنا في البحث عنه، وكان ذلك عبر رسوله محمد ﷺ والصالحين من أوليائه الذين جعلهم نورا وسراجا منيرا، كي ينقذوا الناس من الضلالة والضياع.

فكيف يكون من أساطير الأولين التي لا تكشف سرا ولا تهب نورا؟!.

انظر كيف ضربوا لك الأمثال

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا (١٦)﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن ذكرنا الرب بمن أنزل الفرقان ليهدينا - كما يبدو لي - إلى المنهج القويم لمعرفة الكتاب، وللتصديق به بعدئذ. دحض تبريرات الكافرين بالرسالة، ولا يزال يفندها السياق. الواحد تلو الآخر.

لقد قالوا: كيف يبعث الله إلينا بشرا رسولا يحتاج إلى الطعام، بل وإلى اكتساب المعيشة من الأسواق، فلولا أنزل إليه ملك ليكون معه نذيرا.

أو يستغني عن اكتساب رزقه بأن يلقى إليه كنز أو لا أقل تكون له جنة يأكل منها.

وتطرف الظالمون فقالوا: ليس هذا الذين تتبعونه سوى رجل مسحور.

ويعالج القرآن هذه الأفكار المريضة:

أولاً: بأن قياس الرسول بأنفسهم وضربهم الأمثال له، جعلهم يضلون السبيل. ولعلهم لو تجردوا عن الأحكام المسبقة لم يضلوا عنه.

ثانياً: إن القرآن نزل فعلا من عند الله تبارك خيره، وعظم فضله، فلو شاء وقضت حكمته البالغة لجعل لرسوله خيرا من ذلك، جنات تجري من تحتها الأنهار (في الآخرة، أو حتى في الدنيا عندما جرت ثروات الأرض على أقوام تابعيه بما لم يحلموا به، ولا تخيله أولئك الجاهلون الذين كفروا برسالته أول مرة).

ثالثاً: إن سبب جحودهم إحساسهم بالأمن من عذاب الله، فهم قد كذبوا بالساعة، ولقد أعد لهم الرب سعيرا ملتهبا. يدعوهم إلى نفسه من بعيد، ويستقبلهم بالتغيظ والزفير.

إنه مكان ضيق. محلهم فيه كمحل الوتد في الحائط، وهم مغلولون ببعضهم مع شياطينهم، وينادون بالويل، وبناديهم الملائكة: ألا ادعوا ويلا كثيرا.

ما قيمة الكنز والبستان، في مقابل الخلاص من نار جهنم؟! وأيضاً مقابل الجنة التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا، لهم فيها ما يشاؤون خالدين.

هكذا يعالج القرآن النظرة المادية اللامسؤولة بتذكير النفس البشرية بعذاب الساعة، وثواب الله في الجنة.

وهكذا ينسف العقبات ويزيلها عن طريق الإيمان بالفرقان.

بينات من الآيات:

المقاييس الخاطئة

[٧] لقد أراد الكفار أن يكون الرسول الذي بعث إليهم كأحد قياداتهم المزيفة، أو بالأحرى آلهتهم التي تعبد من دون الله، وبالتالي خاضعا للمقاييس الجاهلية لاختيار القيادة، ومن أهم المقاييس التي كانوا يعتمدونها في تمييز القيادة:

١- القوة البشرية؛ عدد التابعين والأصحاب.

٢- القوة الاقتصادية؛ الثروة والمال.

٣- السيطرة السياسية، وعادة ما تكون نابعة من القوتين السابقتين.

ومادام الرسول لا يمتلك الجنود المجندة حتى يخضعوا لقمعها، ولا تلك الثروة التي تستعبدهم بها الطبقة الرأسمالية، ولا تلك الأراضي الواسعة حتى يحترموه كما يحترمون إقطاعييهم الكبار، فهو لا يستحق -إذا- قيادتهم، ولكنهم لم يعلموا أن هناك فرقا شاسعا بين الرسول وقادتهم الجاهليين، فقد ضلوا السبيل لما ضربوا له الأمثال.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ فمن جانب يتعجبون لأن الرسول ﷺ يشبههم في حياتهم ومعيشتهم، يأكل الطعام، ويبحث عن رزقه في الأسواق -وكأنهم كانوا يريدون له الإقامة في البروج العاجية، وأن يجعل بينه وبينهم عشرات الحجب، كما يفعل الملوك والسلاطين- ومن جانب آخر يتساءلون لماذا لم ينزل معه مخلوق غيبي، يتوعد كل من يعرض عن دعوة الرسول.

ولعلنا نستوحي من قوله تعالى: ﴿نَذِيرًا﴾ عن لسان الكفار، ولم يقولوا (بشيرا) أنهم أرادوا أن يكون للرسول قوة قامعة تدعم الرسالة بإذلال الرقاب، وكانوا يريدونها قوة مادية يشاهدونها بأعينهم، أما أن تكون قوة الغيب الإلهية هي السند، فهذا ما لم تستوعبه عقولهم التي لم تتحرر من قيد المفاهيم المادية.

[٨] ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ وإذا لم تهبط عليه الثروة بصورة كنز يلقى له من السماء ليجعله من طبقة الأثرياء، فليكن عنده بستان يدر عليه من الدخل ما يغنيه عن الاكتساب لطعامه الخاص؟!.

وقد أغفل هؤلاء بهذه التخرصات كرامة الإنسان التي هي فوق القوة والمال وما تغله الأرض من ثمرات.

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ وقد نسب القرآن صفة الظلم لهم دون الاكتفاء بضمير يعود على ما تقدم ذكره لأن لكلامهم جانبين:

الأول: المطالبة بحجة قاطعة على صدق الرسالة، وقد يتصور لها جانب الموضوعية.

الثاني: اتهامهم الرسول بأنه رجل مسحور. أي فاقد العقل والإرادة الحقيقيين، وهذا ظلم في حق الرسول، و من يدعي باطلا مقابل الحق يتحول من مجرد منكر باللسان إلى محارب

بكل معنى الكلمة، وحين يدعو شخص أحدا إلى فكرة فإما يرفض أو يقبل، وأما أن يعلن الحرب ضده، ويتهمه بالجنون، فإنه الظلم ذاته؟، لأن عدم اقتناعه بالدعوة - لو افترضناه - لا يسمح له أن يمنع الناس من قبولها.

[٩] عندما بدل الكفار المقاييس، ضربوا الأمثال لمقاييسهم الخاطئة، حيث أرادوا الرسول قيادة كقياداتهم، كي يستجيبوا له، فطالبوا بملك كرمز لقيادة أصحاب القوة، أو كنز كرمز لقيادة أصحاب الثروة، أو جنة كرمز لقيادة أصحاب الأرض، ولكن ماذا كانت تبعة هذا الخطأ الفادح؟، إنها الضلالة لا غير ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾.

وحينها قاسوا قيادة الرسول بالقوى المادية، حرموا أنفسهم من فهم الحقيقة، ولا سبيل لهدايتهم مادامت الأفكار الجاهلية تستبد بعقولهم.

[١٠] ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ إذا شاء الله جعل للرسول جنات وقصورا ولكن أين كل ذلك؟.

قال بعض من المفسرين: إن المراد من ذلك -جنات وقصورا- في الدنيا وذلك محتمل، إلا إن الأفضل القول: بأن ربنا يذكر بالآخرة، فليست الدنيا آخر المطاف بالنسبة للإنسان.

لهذا جاء الرد الإلهي بأن الرسول كريم على الله وهو يحبه، ولكنه لا يعطي له الدنيا جزاء لعمله، لعدم كونها في مستواه، بما فيها من زخرف وزينة، وكذلك يتعامل الله مع المؤمنين، ويسند هذا الرأي قوله تعالى مباشرة بعد هذه الآية:

[١١] ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ فهم إنما اقتصروا في مقاييسهم على الدنيا لتكذيبهم بالعالم الآخر، وما جزاؤهم سوى السعير.

إن آيات الذكر تعالج الأمراض النفسية التي تصيب القلب وتمنع عنه الرؤية. أرأيت من غرق في لجة، و تكاثفت عليه الأمواج، هل يقدر على الاستقرار، أو السيطرة على نفسه. كذلك الذي تتقاذفه أمواج الشهوات، و تعصف به عواصف العداوة والغيظ.

فلكي يستقر هذا القلب الذي يتقلب على كف الشهوة والغضب، حتى يفكر بموضوعية، ويستضيء بنور العقل المودع فيه، ويعود إلى فطرته التي خلق عليها، لابد له من مرساة يحفظ سفينته عن هيجان الأمواج. لابد له من قوة تصونه من التقلبات. وإن الإيمان بالساعة لهو تلك المرساة وإنه لتلك القوة.

إن الإيمان بالساعة يعطي النفس موضع استقرار ينطلق منه نحو تقييم سائر الأشياء، إنه

يعطيه قوة، لتتعالى بها عن أمواج الشهوة والعصبية. كيف؟.

لنضرب مثلا: من لا يملك إلا دينارا واحدا وخشي عليه من السرقة، يكون كل تفكيره في ديناره، حتى يكاد ينظر إلى الدنيا كلها من خلالها، أما من يملك مليون دينار غيره فهو يتغافل عن ذلك الدينار الواحد، فحتى لو سرق منه فله ما يسليه عنه.

هكذا الذي يؤمن بالجنة، يتسلى عن شهوات الدنيا، ويتغلب نفسيا عليها، وبالتالي يقوى على مقاومة ضغوطها.

كذلك من يخشى النار، فإن قلبه يلهو عن مصيبات الدنيا. أو ليست هي حقيرة جدا إذا قيست بسعير جهنم؟!.

وهكذا يسمو قلبه عن الحب والبغض، وعن الشهوة والغضب، عن العصبية والعداوة، ويتعالى على الخوف والطمع، فيرى الحقائق كما هي لا كما توحي به مصالحه الآنية.

كذلك الذين كفروا بالرسالة لأن الرسول لا يملك كنزا أو جنة يأكل منها، أو لم ينزل معه ملك نذير. إنما هم مرضى القلب، ولا بد أن يستشفوا وشفاؤهم في التذكرة بالساعة، حيث تتضاءل عندها ثروة الدنيا ومصيباتها، وعندها تتحرر أفئدتهم من قيود الشهوات.

ومن هنا كانت الآية هذه والتي تتلوها بيانا لسبب كفرهم، وأيضاً شفاء لمرض كفرهم.

ويستمر السياق في وصف النار ليزداد القارئ تجردا عن أغلال القلب، وبالتالي يزداد إيمانا بالكتاب. ذلك أن القرآن لا يجادل الكفار بالرسالة فقط، وإنما هو يزيد إيمان المؤمنين بها عبر إنذارهم بالساعة، فكلما وعوا حقيقة العذاب كلما أبصروا بنور قلوبهم حقائق الوحي أوضح وأجلى.

صور من العذاب

[١٢] ومن صفات جهنم أنها تلتقط طعمتها من مسافة بعيدة لقوة جذبها، فإذا رأت أصحابها مصفدين بالأغلال، مستسلمين لا يملكون حراكا ولا هربا، فإنها تسحبهم بلهيبها، وفي الوقت نفسه تستعر استعارا شديدا وبصوت رهيب وهذا هو التغيظ. كل ذلك لاستقبال أعداء الله والرسالة، وفي الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «مِنْ مَسِيرَةِ سَنَةٍ»[1].
﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ وبالإضافة إلى ذلك فإنهم لا يدخلون جهنم دخولا عاديا، وإنما يهوون فيها لأنها موجودة في مكان سحيق.

(١) بحار الأنوار: ج٨ ص٢٥٤.

[١٣] ﴿وَإِذَآ أُلۡقُوا۟ مِنۡهَا مَكَانࣰا ضَيِّقࣰا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡا۟ هُنَالِكَ ثُبُورࣰا﴾ مقرنين: أي مصفدين بالأغلال، والثبور: هو الهلاك.

وهنا تصور لنا الآية الكريمة أنواعا من العذاب في جهنم، فبالإضافة للحريق هناك:

١- الإلقاء من شاهق: ويمكن للإنسان أن يكون قريبا ولو بعض الشيء من تخيل ذلك، لو تصور شخصا يلقى من الطابق العاشر ليرتطم جسده برصيف الشارع، فتسحق عظامه، وإلا فإن الإلقاء في جهنم يوم القيامة لا يستوعبه عقل الإنسان المحدود، إذ من بين من يلقون من يهوي ألف عام حتى يصل إلى مقامه فيها.

٢- المكان الضيق: وفيه التعذيب النفسي الشديد، إذ يجلب الكآبة والضجر لصاحبه، وجاء في الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ: إِنَّهُمْ يُسْتَكْرَهُونَ فِي النَّارِ كَمَا يُسْتَكْرَهُ الْوَتَدُ فِي الْحَائِطِ»[1].

٣- التصفيد بالأغلال: حيث معاناة المصير التعيس بثقل الأصفاد وفقدان القدرة على الحركة تماما.

٤- وينادي المكذبون بالويل والثبور، لهول ما يرون، فيأتيهم النداء الذي يزيدهم ألما لآلامهم.

[١٤] ﴿لَّا تَدۡعُوا۟ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورࣰا وَٰحِدࣰا وَٱدۡعُوا۟ ثُبُورࣰا كَثِيرࣰا﴾ لا تتلفظوا بهذا الكلام مرة واحدة، بل كرروه مرارا، ولن يجديكم ذلك نفعا لأنكم في العذاب خالدون.

[١٥] ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءࣰ وَمَصِيرࣰا﴾ أيها أفضل الدنيا بما فيها من ثمرات وكنوز. تعقبها النار والسعير، أم جنة الخلد يسبقها العمل الصالح، حيث النعيم المقيم والعز الدائم؟!.

بالطبع لو حكم الإنسان عقله في هذه المسألة لأجاب الصواب، ولكن ذلك وحده لا يكفيه لدخول الجنة إلا بالعمل الصالح في سبيل الله، لأنها للذين يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، غير مستكبرين على الناس، ولا مبتغين العز إلا من عند الله.

[١٦] ﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدࣰا مَّسۡـُٔولࣰا﴾ لا أحد ينكر ما بلغت إليه مدنية اليوم من التقنية والمنهجية والعلمية، ولكنها تبقى عاجزة أمام طموحات الإنسان، فهي لم ولن تستطيع تحقيق كل ما يصبو إليه، ومن كان عاجزا عن أن يهب للإنسان

(١) بحار الأنوار: ج٨ ص٢٥٥.

الحياة بعد الموت، لهو أعجز عن إعطائه الخلود.

إن أسمى ما يفكر الإنسان في الوصول إليه شيئان:

ألف: أن يدرك ما يريد.

باء: الخلود وهو ما يسمى بغريزة حب البقاء.

ولا يمكن تحقيق هذه الطموحات في الدنيا بطبيعتها، فلا بد أن يفكر الإنسان في الدار التي يمكنه تحقيق طموحاته فيها، وليست إلا الدار الآخرة، وهذا وعد أكيد من الله للمتقين ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ١١١] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾؟ [النساء: ١٢٢].

روي أن الفضل بن سهل وزير المأمون العباسي أراد تزويج المأمون من ابنته (بوران) وكان مترفا، وجندوا كل أموال الدولة الإسلامية من أجل حفل الزفاف، وكذلك يفعل الطغاة عبر التاريخ، واليوم أيضاً.

فصنعا ما صنعا، ومن جملة ذلك صنعوا فراشا منسوجا بخيوط الذهب، ومرصعا باللآلئ والجواهر، وعندما أراد الأب الأخذ بيد ابنته ويسلمها إلى عريسها -كما تقتضي التقاليد آنذاك- قال لها: يا بنيتي هل قصرت في حقك؟ وهل تريدين مني شيئا آخر، فقد أعددت لك كل ما تتمنى نفسك؟ قالت: لم تقصر في حقي، ولكنني أريد شيئا واحدا. وما هو ذلك؟.قالت: أريد مسمارا ومطرقة أسمر بهما الفلك حتى يتوقف عن الدوران، كي تبقى كل الليالي مثل هذه الليلة. قال: وأنى لي بذلك؟. قالت العروس: وما تنفع ليلة واحدة إذن؟».

إن الإنسان مهما أوتي من نعم الله في هذه الدنيا، إلا إنه سيبقى قاصرا عن بلوغ تطلعاته البعيدة، فلو فكر بعقله مليا لأدرك أن الجنة هي الهدف لا الدنيا.

وكلما ازدادت النعم على الإنسان في الدنيا، كلما ازداد خوفه من زوالها. ألا ترى أنه كلما أوتي الإنسان خيرا يزداد بخلا؟ وفي الحديث: «مَا فَتَحَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ بَاباً مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا فَتَحَ عَلَيْهِ مِنَ الْحِرْصِ مِثْلَيْهِ»[1].

لأنه كلما ازدادت النعمة عليه. كلما ازداد حرصه عليها كي لا تزول، وهو يعلم في قرارة نفسه أنها زائلة لا محالة.

لذلك لا يمكن للإنسان أن يفرح بالنعم الدنيوية، بينما يساوره إحساس عميق بخوف زوالها يساوره بين لحظة واخرى، أما أصحاب الجنة فهم خالدون فيها لا يبغون عنها حولا.

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٥ ص٢٥٤.

وجعلنا بعضكم لبعض فتنة

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا[1] ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا[2] كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا[3] ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا[4] ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

---

(١) البور الهلكى وهو جمع الباير.

(٢) وعتو عتواً: العتو هو الخروج إلى أفحش الظلم.

(٣) هباء منثوراً: والهباء هو الغبار يدخل الكوة من شعاع الشمس.

(٤) مقيلاً: المقيل محل القيلولة.

هدى من الآيات:

لقد كفروا بالرسول، وآمنوا بالجبت والطاغوت، وقالوا: لولا ألقي عليه كنز؟!.

وتساءلوا: لماذا يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق ولكن هل ينفعهم الأنداد شيئا يوم يحشرهم الله وما عبدوا، فيتبرؤون منهم و يقولون: سبحانك.. ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء متعتهم، ويرون أن طول متعتهم أنساهم الذكر، فهلكوا.

إذا غرورهم بقيم المادة، وكفرهم بالرسول لأنه لم يلق إليه كنز أرداهم، وجعلهم قوما بورا.

وهكذا ينسف الذكر الحكيم هذه العقبة عن طريق الإيمان بالوحي: ويقول: إن سنة الله في بعث الرسل مضت على أنهم يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وأمر الله الناس باتباع واحد منهم ليفتنهم. فهل يصبرون على طاعته؟! والله من ورائهم يبصرهم، وهو عليم رقيب.

ثم ينسف العقبة الأخرى، حيث قالوا: لولا أنزل علينا الملائكة، أو نرى ربنا، فيقول: إنه عتو كبير. فكيف يطالبون برؤية الملائكة؟، فلا بشرى يومئذ للمجرمين إذ ينزل بهم عقابهم العاجل في ذلك اليوم، وتراهم يقولون حجرا محجورا -إشارة إلى ذلهم واستسلامهم- ويجعل الله أعمالهم هباء منثورا، بينما أصحاب الجنة خير مستقرا في ذلك اليوم، الذي تشقق السماء بالغمام، وتنزل الملائكة، ويتجلى ملكوت الله لكل شخص، وهو يوم عسير على الكافرين.

بينات من الآيات:

متعتهم حتى نسوا الذكر

[١٧] أهم عقبة تعترض الإيمان بالوحي هي اتخاذ الأولياء من دون الله. ذلك أن الانتماء إلى الجبت أو الطاغوت يجعل الإنسان يتكئ على الشيء دون القيم، ويعتمد على الباطل وليس الحق، وبالتالي يضل السبيل.

ولأن يوم القيامة هو اليوم الذي تجلو فيه الحقائق، وتتوضح السرايا، فإن الحقيقة التي يبينها القرآن هنا تكون أجلى حينذاك. إذ يتنصل كل من العابد والمعبود كل من صاحبه، وذلك عندما يكتشفون أن هؤلاء الأولياء لا يملكون صرفا ولا نصرا، وفي ذلك اليوم لا تنفعهم معرفتهم. وإنما يكشف الذكر هذه الحقيقة لينسف أساس تبريرهم الكفر بأن الرسول لا يملك

كنزا أو جنة، وأنه ليس رجلا من القريتين عظيم.

ذلك أن أساس هذا التبرير هو الاتكال على القيم المادية، غافلين عن أنها تتلاشى ولا تغني عنهم شيئا يوم يكونون بأشد الحاجة إليها في الآخرة، بل حتى في الدنيا إذا كشف عنها غطاء الغرور بدت خاوية زاهقة.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ وهذا السؤال موجه إلى كل من يساهم في إضلال الناس، كالقلم المأجور، والسلطان الظالم، ووعاظ السلاطين. ويبدو أن الانتماء إلى القيادة الجاهلية كان من عوامل الكفر بالرسول، الذي هو القائد الحق الذي يقدمه القرآن بديلا عن القيادات الضالة، ولذلك نبه الذكر إلى ضرورة التخلص منها، ومن الولاءات الجاهلية تمهيدا للإيمان بالوحي.

[١٨] ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أنت المسبح والمقدس عن أي شريك. ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ فنحن بدورنا عبيد لك أيضاً، فكيف نكون آلهة.

ثم بين الذكر الحكيم العامل الحقيقي للشرك والانتماءات الجاهلية، فقال: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ ﴾ أنت الذي فتنتهم بالنعم حتى نسوا الذكر.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ أي هالكين، والأراضي البوار هي التي لا تصلح لشيء من الزراعة.

[١٩] إن الطغاة المؤلهين من دون الله، يدركون أنهم ليسوا آلهة ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا ﴾ للعذاب عن أنفسهم أو عمن عبدوهم.

﴿وَلَا نَصْرًا ﴾ ولا ينصرونهم من دون الله.

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾

وإذا لم يساهم الإنسان في تسخير الناس لعبادته، بل عبدوه بجهلهم، فليس عليه شيء، كالنبي عيسى بن مريم عليه السلام، الذي اتخذه النصارى إلها من دون الله، بينما سيكون أول المتبرئين من عملهم يوم القيامة.

[٢٠] ويواصل السياق تزييف تبريرات الكافرين بالرسالة بعد نسف أساسها آنفا، حيث يبطل هنا قولهم: كيف نتبع رسولا يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق.

أولاً: بأن تلك سنة الله التي مضت في الأولين، إذ لم يبعث الله رسولا إلا وهو يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق.

ثانياً: بأن تلك وسيلة لامتحان الناس، فهل يصبرون على الطاعة أم لا.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ فلم يكن الرسول بدعا، وإنما جاء خاتما لمسيرة مباركة ممتدة. والجاهلون لم يستوعبوا هذه السنة لأحد الأسباب التالية:

ألف: لجهلهم بواقع البشر، وزعمهم: أن الإنسان لا يمكن أن يكون رسولا لرب العالمين، كلا.. الإنسان كريم عند ربه إذا عبده وأطاعه.

بـاء: لزعمهم: أن الرسول ينبغي أن يكون غنيا أو مقتدرا، وقد نسف القرآن آنفا أساس هذه الفكرة القائمة على تقديس المادة.

جيم: لجهلهم بحكمة الخلق، حيث زعموا: ان الله يريد هدايتهم حتما، بينما الله شاء بحكمته البالغة أن يهديهم بطوع إرادتهم، وليس بصورة حتمية، وهكذا امتحنهم بالرسول الذي هو منهم، وأمرهم بطاعته لينظر هل يصبرون ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾.

ومنهج القرآن الكريم هو بيان الحكم عند بيان ما يناسبها، ولذلك تتسع آياته لتشمل ما وراء حدود السياق.

وهكذا نجد أن هذه الحكمة البالغة تذكر هنا بمناسبة الحديث عن الرسول لتبين لنا: أن طاعة الرسول، و المخالفة لهوى النفس نوع من الفتنة بالنسبة إلى الناس. ولكن الآية تعطينا أيضاً بصيرة نافذة تكشف الكثير من أسرار الحياة. فالغني فتنة للفقير الذي قد يكفر في الكذب أو الغش والسرقة كي يصبح مثله غنيا، وكذلك الغني فتنة للفقير، فهو مبتلى به أمام الله، إما بالبخل والربا أو بالغرور والتكبر.

عنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ مُوسِرٌ إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله نَقِيُّ الثَّوْبِ فَجَلَسَ إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله فَجَاءَ رَجُلٌ مُعْسِرٌ دَرِنُ الثَّوْبِ فَجَلَسَ إِلَى جَنْبِ الْمُوسِرِ فَقَبَضَ الْمُوسِرُ ثِيَابَهُ مِنْ تَحْتِ فَخِذَيْهِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: أَخِفْتَ أَنْ يَمَسَّكَ مِنْ فَقْرِهِ شَيْءٌ؟! قَالَ: لَا، قَالَ صلى الله عليه وآله: فَخِفْتَ أَنْ يُصِيبَهُ مِنْ غِنَاكَ شَيْءٌ؟!. قَالَ: لَا، قَالَ صلى الله عليه وآله: فَخِفْتَ أَنْ يُوَسِّخَ ثِيَابَكَ؟!. قَالَ: لَا قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟. فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله إِنَّ لِي قَرِيناً يُزَيِّنُ لِي كُلَّ قَبِيحٍ وَيُقَبِّحُ لِي كُلَّ حَسَنٍ وَقَدْ جَعَلْتُ لَهُ نِصْفَ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله لِلْمُعْسِرِ: أَتَقْبَلُ. قَالَ: لَا، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: وَ لِمَ؟، قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَدْخُلَنِي مَا دَخَلَكَ»[1].

(١) الكافي: ج٢، ص٢٦٣.

هكذا كانت الحكمة من تفاضل الناس. ابتلاؤهم ببعضهم لمعرفة مدى صمودهم أمام إغراءات الدنيا.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ يحصي على الناس تصرفاتهم، ويرصد سلوكهم تجاه بعضهم، وكيف لا والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

[٢١] إلى هنا يكون السياق القرآني قد عالج العقبة الأولى في طريق الإيمان، وهي النظرة الخاطئة للرسول، لذا فإنه ينتقل إلى علاج العقبة الثانية وهي عقبة الكفر بالساعة.

عندما يؤمن الإنسان بفكرة ما فإنه يبحث عن أي شيء ليبرر هذا الإيمان، حتى ليمكننا تقسيم فكر الإنسان إلى جانبين:

١- جانب الاعتقاد: وهو الإيمان بالفكرة ذاتها.

٢- جانب التبرير: وذلك للإبقاء على الاعتقاد.

وهذا التقسيم نجده ليس لدى الكفار بالحق فحسب، بل حتى لدى المؤمنين، إذ لا بد أن يسعى كلا الطرفين ليبرر موقفه، فالتبرير له وجه إيجابي وذلك إذا كان من أجل الحق، وله وجه سلبي عندما يكون من أجل الباطل.

إن قسما من الناس يبرر رفضه للرسالة بأعذار، فيسأل: إذا كان الله قد بعث رسولا، فلماذا لا ينزل علينا الملائكة لتخبرنا بصدق الرسالة؟ أو يسأل: عن الله لماذا لا نراه جهرة؟.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ استكبروا في أنفسهم حينها أراد كل واحد منهم أن يصبح رسولا تنزل عيه الملائكة، وعتوا حينها طالبوا برؤية الله سبحانه وتعالى.

[٢٢] إن الدنيا دار اختبار، ولا يتم الاختبار من دون حرية القرار، وإذا ظهرت الملائكة فإن ذلك إيذان بنهاية مرحلة الاختبار إلى مرحلة الجزاء، وآنئذ لا ينفعهم شيء.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ إن الملائكة التي يطالب هؤلاء بمجيئهم مخلوقات جبارة، أصوات بعضهم كالرعد ونظراتهم كالبرق، يستطيع أحدهم أن ينسف الأرض بمن فيها ومن عليها بنفخة واحدة، إذا أوكل الله له ذلك.

وسيكتشف المجرمون مدى حماقتهم، حين وضعوا شرط نزول الملائكة عليهم، وسيعلمون كم أوقعهم عنادهم في الجهل، عندما يرون الملائكة، وسيكون قولهم آنئذ ﴿حِجْرًا

﴿مَّحْجُورًا﴾ أي ليت بيننا وبينهم حاجزا يحجبهم عنا، فنتخلص من هول الموقف، الذي لا طاقة لنا به. وكانت هذه الكلمة إيذانا بالتسليم عند العرب، والطلب من العدو ألا يضر به.

[٢٣] ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ فالكدح الذي كدحوه في الدنيا، للحصول على الثروة والجاه، سيضيع من أيديهم، ولن يجدوا غير الحسرة و الندامة. لأنهم كانوا يعيشون ضيق الأفق، فلم يحسبوا للآخرة حسابها، ولعل في الآية إشارة إلى أن الأعمال الصالحة لا تنفع من دون طاعة الرسول والقيادة الشرعية.

[٢٤] أما ما يقدمه المؤمنون برسالة الله، المصدقون لرسوله فإن الله عزّ وجلّ سيحفظه لهم، ويعيده عليهم في صورة ثواب عظيم وجزاء كريم، يدخلهم الجنة، وسيكونون فيها صالحي البال، يشعرون بالاستقرار و الطمأنينة، وينامون ملء أعينهم، كما ينام الإنسان وقت القيلولة لا يزعجه ألم ولا يهدده خطر: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

[٢٥] ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾، ربما يكون تفسير هذا المقطع من الآية، أن السماء تنفطر وكأنها غمام، أو أن فيها غماما ينكشف عن السماء. وكم هو مريع حين تنفطر هذه السماء المترامية الأطراف أمام ناظري هذا الإنسان الضعيف الذي لا يتحمل أبسط الشدائد.

من جهة أخرى: لقد جعل الله السماء سقفا محفوظا، وجعل منظرها في النهار بهيا، وفي الليل جميلا، و جعل فؤاد البشر يطمئن إليها، وإنما يسعى الإنسان للدفاع عن نفسه عبر وضع الحواجز من حوله، ولا يمكنه أن يحتاط لنفسه عن الأخطار التي تصله من السماء. لذلك كان تشقق السماء -هذا السقف المحفوظ- أشد رهبة و أعظم.

والخطر لا ينزل بصورة عمياء كالصاعقة أو الشهب المتساقطة، كلا.. بل يتنزل الملائكة الغلاظ الشداد، يأخذون المجرمين ويسلكونهم في الأغلال ويسحبونهم إلى النار وساءت مصيرا.

﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ فئات فئات، والمرة تلو الأخرى.

الخوف والرجاء

[٢٦] ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ بالرغم من أن الملك لله في كل حين، وعلى كل حال، إلا أن ملكوت الله يتجلى بصورة أظهر وأعظم في يوم القيامة، وقد ذكرت الآيات بصفة الرحمة الإلهية في هذا المورد، وليس بصفة الغضب لتشير إلى أنه في الوقت الذي تتجلى قوة الرب

التي لا تحد، يعطينا السياق أملا في رحمته الواسعة، ولكن يحذرنا أن نضيع الفرصة ولا نستفيد من رحمته، وكم يكون الإنسان شقيا لو ترك الاستفادة من رحمة الله، التي وسعت كل شيء؟!.

﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ حينما ينظر الإنسان إلى رحمة الله يزداد أملا ورجاء، إلى حد قد يتصور أن لا عذاب عند الله، وأنه سيدخل الناس جميعا إلى جنته الواسعة.

ولكن حينما يفكر البشر في معاصيه، ومخالفته لربه، يحس أن كل العذاب قليل بحقه، لهذا نجد معادلة قرآنية تتجلى في قوله تعالى: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ﴾ من جهة، وفي قوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ من جهة ثانية، وهي معادلة التوازن النفسي بين الرحمة والغضب، اللذين يجب أن ينعكسا على سلوك الإنسان.

كذلك لنثبت به فؤادك

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا[1] (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ﴾.

هدى من الآيات:

في جو تشقق السماء، وتنزل الملائكة، وتجلي ملكوت الرب الرحمن -الذي مر آنفا- يعالج هذا الدرس صداقات السوء التي تنفصم عروتها يوم القيامة حتى يقول الظالم: ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾، ويشتد به الندم حتى تراه لا يكتفي بعض سبابته، بل يعض على يديه، ويقول: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾.

إن صديق السوء يضل صاحبه ويبعده عن الذكر، ثم يتركه لشأنه كما يفعل الشيطان. حيث يخذل من اتبعه في ساعة العسرة.

ويجيء الرسول شاهدا على قومه الذين هجروا القرآن، فلم يؤمنوا به، أو لم يعملوا به بعد أن تظاهروا بالإيمان.

---

(١) خليلًا: الخليل هو الصديق.

ويسدل السياق الستار على مشهد القيامة المهيب. بعد أن يهدم بنيان النظم الجاهلية للمجتمع. حيث الولاءات الجاهلية التي لا تنفع ولا تضر، وحيث صداقات السوء التي تضل عن السبيل، ويختم كل ذلك ببيان أن لكل رسول عدوا من طغاة الجاهلية، ومجرمي المجتمع.

ثم يواصل القرآن رد شبهات الجاحدين للرسالة حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، ويرده: بأن التنزيل المتدرج أثبت لفؤاد الرسول، وأوضح في البيان، وأبلغ في معارضة ثقافة الجاهلية بالحق المبين.

بينات من الآيات:

[٢٧] الناس في الدنيا محكومون بالضغوط الاجتماعية التي تدعو الكثير منهم إلى ترك الرسالة الإلهية.

إن الشيطان يدعو الإنسان إلى الانحراف، ويعده بالنصر، ثم يكون أول المتبرئين منه، حينما يواجه مصيره وعاقبة أمره، ولكن من هو الشيطان؟.

إن للشيطان صورتين، فتارة يتجسد في القوى الخفية التي تضلنا عن الحق، وأخرى في القوى الظاهرة و بصورة مختلفة، فقد يكون صديقا يدغدغ فينا الآمال والشهوات، وقد يكون المجتمع الذي يضغط باتجاه التقاليد و العادات المنحرفة، وربما يكون السلطان الحاكم، أو الإعلام المضلل، و.. الخ، وهؤلاء جميعا يتبرؤون من البشر يوم القيامة.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ حينما يرى الظالم أن الجنة والنار بيد الله -سبحانه- وأن الطاعة أو العصيان للرسول هما المقياس عنده لدخول أحدهما، فإنه يندم على ما فرط في جنب الله ورسالته، ويتمنى لو كان متبعا للرسول، وسبيله الحق.

[٢٨] ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾ يدعو على نفسه متندما ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ الذي أضله من صديق سوء أو سلطان جائر أو ضرب شيطاني، ولكن ماذا ينفعه كل أولئك، وقد ضل بما زخرف له هؤلاء الأخلاء، فترك رسالة الله سبحانه، وعليه إن أراد أن يتخلص من النار، ويزحزح إلى الجنة أن يتخلص من الولاءات الشيطانية في الدنيا، ويخلص ولاءه لله ولمن أمر الله بولايته.

[٢٩] ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ وكثير أولئك الذين يتبعون أصدقاء السوء الذين يضلون الناس عن ذكر الله بدعوتهم للمعاصي، ويبدو أن مشكلة أصدقاء السوء

إلهاء الإنسان عن ذكر الله ببعض التوافه، ولذلك ينبغي أن يبتعد المؤمن عن مجالس اللهو واللغو وحفلات البطالين ويأوي إلى روضات الجنات.. ألا وهي مجالس العلماء، وحلقات الذكر، ومدارس العلم، وجلسات العمل في سبيل الله.

وهذا الشيطان الذي يدعوك للمعصية هو الذي يخذلك في ساعة العسرة، ويتبرأ منك بحجة أنه يخاف الله رب العالمين، وقد ورد في الحديث أن الشيطان يبصق في وجوه تابعيه يوم القيامة ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾

لكي لا يكون الرسول خصيمنا

[٣٠] لكي لا يكون الشفيع خصيمنا، ولا يشهد علينا سيدنا وإمامنا الذي هو أرحم خلق الله بعباد الله. لابد أن نعيش رياض القرآن فنتخذه أنيسا في الوحدة، حاكما في التجمع، قاضيا عند الخلاف، إماما للمسيرة، هاديا لدى تواتر الفتن. فقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**إِذَا الْتَبَسَتْ عَلَيْكُمُ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَ مَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، وَ مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَ مَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ، وَ هُوَ الدَّلِيلُ يَدُلُّ عَلَى خَيْرِ سَبِيلٍ وَ هُوَ كِتَابٌ فِيهِ تَفْصِيلٌ، وَ بَيَانٌ وَ تَحْصِيلٌ**»[١].

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ الرسول يقاضي أمته يوم القيامة عند ربه إذا تركوا العمل بالقرآن. هكذا تدل الآية، وبهذا جاءت السنة الشريفة، فقد روى الإمام الباقر عليه السلام عن جده الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: «**أَنَا أَوَّلُ وَافِدٍ عَلَى الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَ كِتَابُهُ، وَ أَهْلُ بَيْتِي، ثُمَّ أُمَّتِي، ثُمَّ أَسْأَلُهُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَ بِأَهْلِ بَيْتِي**»[٢].

دعنا نتساءل اليوم -وقبل ضياع الفرصة- هل نحن نؤدي حق القرآن علينا؟.

كيف لو جاء الرسول صلى الله عليه وآله يوم القيامة ليشهد في قومه. هل يشهد لنا أم علينا؟.

حقاً نخشى أن يشهد علينا، فأين معارف القرآن إذن في ثقافتنا؟! وأين التعاليم الخُلقية في سلوكنا؟!، وأين أحكامه في سياستنا وقضائنا، وقوانين بلادنا؟! فهل نحن مسلمون قرآنيون؟!، وما الفرق بين من لا يؤمن بالقرآن، ومن يهجره هجرا؟!.

(١) الكافي: ج٢ ص٥٩٨، تفسير العياشي: ج١ ص٢.
(٢) الكافي: ج٢ ص٦٠٠.

إن قلب المؤمن يكاد يتصدع إذا استمع إلى النبي وأهل بيته عليهم السلام وهم يؤكدون عليه الوصية بالقرآن -أقول يكاد يتصدع قلبه خشية ألا يكون قد أدى حق كتاب ربه-.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«الْقُرْآنُ هُدًى مِنَ الضَّلَالِ، وَتِبْيَانٌ مِنَ الْعَمَى، وَاسْتِقَالَةٌ مِنَ الْعَثْرَةِ، وَنُورٌ مِنَ الظُّلْمَةِ، وَضِيَاءٌ مِنَ الْأَحْدَاثِ، وَعِصْمَةٌ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَرُشْدٌ مِنَ الْغَوَايَةِ، وَبَيَانٌ مِنَ الْفِتَنِ، وَبَلَاغٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ، وَفِيهِ كَمَالُ دِينِكُمْ، وَمَا عَدَلَ أَحَدٌ عَنِ الْقُرْآنِ إِلَّا إِلَى النَّارِ»**[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: **«الْقُرْآنَ الْقُرْآنَ! إِنَّ الْآيَةَ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّورَةَ لَتَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى تَصْعَدَ أَلْفَ دَرَجَةٍ يَعْنِي فِي الْجَنَّةِ فَتَقُولُ لَوْ حَفِظْتَنِي لَبَلَغْتُ بِكَ هَاهُنَا»**[2].

فهل نعود إلى القرآن، ونبلغ تلك الدرجات العلى في الجنة، والنجاح والسعادة في الدنيا؟ نرجو أن يوفقنا الله لذلك.

[٣١] في الآيات الماضية حديث عن القيادة المضادة للرسول في المجتمع، والتي هي من أسباب ابتعاد الناس عن ا لقيم الرسالية، المتمثلة في الوحي الإلهي، والآن تصرح هذه الآية بذلك مؤكدة بأن هذه سنة إلهية أن يكون للحق سنام هو القيادة الرسالية، وإن للباطل سناما أيضاً هي قيادة الباطل، والإنسان بين هذه وتلك يختار طريقه بنفسه.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كما أن لله سنة في خلقه أن يبعث رسلا يحملون مسؤولية الهداية للبشر، أو مصلحين على رأس كل قرن و في كل قرية، فإن له سنة في قبالتها أن يجعل في مقابل كل قيادة حق قيادة باطل، تستقطب سلبيات الناس ضد القيادة الرسالية، وهذه هي التي يتبرأ منها الناس يوم القيامة قائلين: ليتنا لم نتخذ فلانا خليلا.

فهنا نظام وهنالك نظام. هنا تجمع وهنالك تجمع. هنا انتماء وهنالك انتماء، وعلينا أن نختار خطنا بوعي.

هكذا كان مع إبراهيم نمرود، ومع موسى فرعون، ومع نبينا الأكرم طغاة قريش.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ إن في الحياة خطين متناقضين هما خط الحق، وخط الباطل وحتى لا يشتبه البشر فيضلوا الطريق، ثم يقولوا: يا ربنا إننا لم نعرف قيادة الحق من قيادة الباطل، فقد تكفل ربنا ببيان صفات كل منهما عبر وحيه الذي لو اتبعناه لاهتدينا إلى الحق، ولانتصرنا على الباطل بعونه تعالى.

---

(١) الكافي: ج٢ ص٦٠٠، تفسير العياشي: ج١ ص٥.

(٢) الكافي: ج٢ ص٦٠٨، ولعل المقصود هو الالتزام بتعاليم السورة وحفظ حرمتها علمياً.

حكمة التنزيل المتدرج

[٣٢] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ بعد أن فشلت كل تبريراتهم قالوا: نحن لا نؤمن لأن القرآن لم ينزل جملة واحدة، وذلك دليل على ضعف الرسول، فلو كان من عند الله لما أعجزه أن يبعث به دفعة واحدة، لأنهم كانوا يجهلون خلفيات التنجيم. فلماذا جاء القرآن منجما؟.

١ - إن القرآن ليس كتابا عاديا كأي كتاب، بل هو كتاب حياة، ينبغي أن يصنع جيلا من المتمسكين به، ولا يمكن ذلك إلا إذا ترسخت أفكاره وآياته في نفوس الناس، ونجد إشارة إلى الجيل القرآني في الآيات الأخيرة من هذه السورة حين ذكرت صفات عباد الرحمن.

والتنزيل المتدرج هو الذي صاغ الجيل الرسالي في الرعيل الأول من المسلمين، إذ كان المسلمون يصوغون حياتهم وفق كل آية تنزل عليهم، لتأتي الآية الثانية مكملة لسابقتها، ولتضيف تكاملا جديدا في شخصيتهم، إذ لم يكونوا قادرين على صياغة شخصيتهم وفق المنهاج القرآني دفعة واحدة، ولم يكن الله يريد للقرآن أن يكون تراثا فكريا وعلميا، بل منهجا عمليا لحياة الناس.

ويهدينا ذلك إلى ضرورة أن يطبق كل من المجتمع والفرد القرآن على نفسه كلما استطاع إلى ذلك سبيلا، و تشير إلى ذلك الآية الكريمة: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن: ١٦] حيث يجب تطبيق الميسور من الآيات الآن تمهيدا لتنفيذ غيرها في المستقبل، ويوحي إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾[البقرة: ١٠٤] على تفسير مضى: إن معنى النظر -هنا- الانتظار لوقت الإمكان.

ويبدو أن هذه من أعظم القواعد التربوية في الإسلام، ولا ريب أن ذلك لا يرتبط بالواجبات الدينية كالصلاة والصوم، إنما تختص بدرجات المعارف الإلهية أو المراتب العالية من الطاعات .

وفي هذه الأمور يتثبت الإنسان من خلال القرآن عندما يرتله على نفسه، كما رتل الله كتابه على نبيه ليثبت فؤاده.

٢- إن في ذلك بيانا لعظمة القرآن وأنه من عند الله، فمع أنه نزل على امتداد (٢٣) عاما وفي ظروف مختلفة. إلا إن ما تهدي إليه الآية الأولى وما تنطلق منه، هو عين ما تهدي إليه وتنطلق منه كل الآيات، لأن الله الذي أنزله صاغه على نمط ومنهج واحد، لا اختلاف فيه ولا تناقض.

ومع أن مراحل الدعوة قد اختلفت في حياة الرسول ﷺ حيث انتقل من مكة إلى

المدينة، والتي تختلف فيها الظروف والمشاكل الاجتماعية إلا أن ذلك لم يخلف ولا أثرا بسيطا على واقع القرآن روحا ومنهجا.

إن في المستشرقين ممن لا يؤمن بالوحي حاول ربط الآيات بالأوضاع الاجتماعية التي مرت بها الأمة آنذاك، فجمعوا الآيات حسب نزولها، فسورة العلق تسبق سورة الحمد، فلما لم يكن مرتبا بشكل جيد. عرفوا بأنه من عند الله. حيث إن بعض الآيات من بعض السور نزلت في مكة، وبعضها الآخر في المدينة المنورة، بينهما فترة زمنية ليست بالقليلة. تتخللها آيات من سور أخر، ولكننا نجدهما في غاية التناسق، والوحدة الموضوعية. بحيث لو أضفنا كلمة زائدة إلى السياق أو حذفنا كلمة لاختلف السياق اختلافا كبيرا، بل لا يمكن ذلك حتى مع الحفاظ على ذات الكلمات القرآنية مع التقديم والتأخير.

وكلما تدبر البشر أكثر في القرآن الحكيم، كلما ازداد يقينا بأنه من عند الله، إذ يستحيل على الإنسان أن يجد ترابطا وثيقا بين كلام ينطقه الآن وكلام نطقه منذ عشرين عاما. من حيث المحتوى ونضوج الأفكار، وحتى في الأدب والصياغة، وقد قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

هذا إذا ما تركنا الروايات والأحاديث التي تحدثنا عن أسباب النزول جانبا لأن أكثرها لا ترقى إلى درجة اليقين العلمي.

٣- لتثبيت قيادة الرسول في المجتمع. حيث يعود الناس إليه، وينتظرون منه حلا ورأيا كلما مرت بهم حادثة.

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ ونجعلك تصيغ شخصيتك وفق آياته. ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ آية آية، ومقطعا مقطعا، حتى يصير واضحا غير مختلط ببعضه، لكي يدخل في ضمير المجتمع، ويمتد عبر الأجيال في التاريخ.

وينبغي أن نتلو القرآن -إذا تلوناه- بتدبر، ونرتله بتأمل، ونستضيء بهديه في ظلمات حياتنا، ونسلط أشعته الكاشفة على كل زاوية مظلمة.

يقول الحديث الشريف المروي عن النبي ﷺ عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ قَالَ: «بَيِّنْهُ تَبْيِيناً وَلَا تَنْثُرْهُ نَثْرَ الدَّقَلِ وَلَا تَهُذَّهُ هَذَّ الشِّعْرِ قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ حَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ وَلَا يَكُونُ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ»[1].

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٤ ص٢٤٢.

ونحن نرى أن القرآن نزل مرتين:

- هبط به الروح الأمين جملة واحدة على قلب النبي الأمي ﷺ في ليلة القدر، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[الدخان: ٣] وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾[القدر: ١] هكذا نزل القرآن دفعة واحدة.

- نزل مفرقاً حسب الظروف والمناسبات، حيث كان سبحانه يأمر رسوله بأن يتلو كل آية في مناسبتها، وربما تدل على ذلك الآية الكريمة: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾[القيامة: ١٦-١٧].

[٣٣] ربنا الرحمن شافٍ بالقرآن أمراض المجتمع البشري المتمثلة في الثقافات الجاهلية. فكلما طرحت فكرة جاهلية غامضة جاء الوحي بالحق المبين ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾.

ما هو المثل؟.

يبدو أن كل مجموعة فكرية يعبر عنها بمثل (أو حسب تعبيرنا اليوم بشعار) والأمثلة عند الناس تختزل حشداً متناسقاً من الأفكار، وتعبر عن سلسلة فكرية متشابكة.

ولتوضيح ذلك دعنا نضرب مثلا:

ألف: العشائرية نهج اجتماعي، وقيمة فكرية كان شعارها: «أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وأخي وابن عمي على الغريب». ولكن القرآن يقول: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾ [النساء: ١٣٥]، إن هذا هو الحق يواجه ذلك المثل الشائع.

باء: القومية إطار سياسي يعبر عنه المثل ينفيه القرآن بقوله: ﴿ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ﴾ [فصلت: ٤٤] وتقابلها العالمية الإسلامية التي يقول عنها الرب: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

جيم: وهكذا عبادة الأصنام منهج سياسي عبر عنه قريش بشعارهم في غزوة أحد: قال أبو سفيان: «اعْلُ هُبَلْ. -وقابلها الرسول بالحق حيث قال-: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلّ»[1].

وهكذا في سائر الحقول جاء الوحي منجما لكي يواجه الثقافات الجاهلية مثلاً بمثل أحسن، وفكرة باطلة بحق واضح ذا تفسير حسن بليغ.

(١) بحار الأنوار: ج٢٠، ص٢٣.

أرأيت من اتخذ إلهه هواه

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا[1] (٤٠) وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)﴾.

هدى من الآيات:

لا يزال السياق ينسف عن طريق الإيمان بالوحي العقبات التي يضعها الشيطان، وذلك بالإنذار الشديد بعاقبة المكذبين، وضرب الأمثال من واقع الغابرين، ويهدينا الذكر هنا إلى أن

(١) نشوراً: من النشر وهو الحياة بعد الموت (البعث).

واقع الإنسان الذي لا يتمسك بالوحي في الدنيا يشبه واقعه الذي يتجسد له في الآخرة، فهو يمشي ووجهه إلى الأرض لا يبصر الطرق، فإن وقف وقف موقف شر، وإن سار كان طريقه ضلالا.

ويؤكد القرآن أن من لا يؤمن بالوحي ولا يتمسك بالرسالة، ليس فقط لا يحقق تطلعاته، بل ويفقد بالإضافة إلى ذلك نعم الله عليه من عقل وعلم.

إن الله منح البشر قدرا من العقل والعلم، لو استثمره عن طريق تمسكه بالوحي الذي يثير في قلبه دفائن العقل، لازداد عقلا وعلما، ولكن إذا رفض الرسالة فإنه يفقد العقل، حيث يسلبه الله ما أوتي، فيمشي مكبا على وجهه يتخبط خبط عشواء، كالأنعام بل أضل سبيلا.

وبعدها ينذر القرآن من يسمعه دون أن يتعظوا بمصير السابقين كقوم نوح وعاد، وثمود وآل فرعون، إذ كذب آل فرعون موسى وأخاه فدمرهم، لأنهم لا يعترفون بشرعية القيم، فلا يشكل البشر بما يملكون من قوى و طاقات وأسماء وشعارات وزنا عند الله لولا القيم، لأن الأهم لديه هو الإيمان والعمل الصالح، وتفقد كل أمة مبرر وجودها عندما تفقد هذين الأساسين، وما تدمير الله لأصحاب الرس إلا لأنهم أمة كفرت بالحق، وهذه سنته في الحياة.

ومن الناس من أشرب قلبه حب الدنيا، ويتجاهل قيمة العلم والتقوى، وينظر إلى رسول ربه من منطلق قيمه المادية، فهو يكفر بالرسالة قائلاً: أهذا الذي بعث الله رسولا؟!. ويرى أن صبره أمام تأثير الرسالة فضيلة، ولا يتذكر أن كفره بها يكلفه كثيرا، لأنه يرديه إلى مهوى الضلالة.

ولكن منطلق هذه النظرة الخاطئة إلى الرسول ومن ثم الوحي نابع من عبادة الهوى، فيدعه الرسول لشأنه لأنه ليس وكيلا عنه، ولأنه أفقد نفسه نعمة العلم والعقل، فهو أضل سبيلا من الأنعام والبهائم.

هكذا يبين القرآن هنا الحقائق التي تمس الوحي:

أولاً: الذي يكفر بالوحي يكفر بالنور، فهو يمشي على وجهه.

ثانياً: إن نهايته ستكون كما الذين كفروا من قبل فدمرهم الله في الدنيا، وأعد لهم عذابا أليما في الآخرة.

ثالثاً: من استهزأ بالرسول فكفر برسالته لذلك فقد اختار الضلال، وأضحى كالأنعام وأضل سبيلا.

بينات من الآيات:

[٣٤] إن الله يسلب العقول والأبصار من الذين يكفرون بالقرآن في الدار الدنيا بصورة معنوية. أما في الآخرة فإنهم يفقدون كل ذلك بالصورتين المعنوية والظاهرية، فإذا بهم يمشون مكبين على وجوههم ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

قال بعض المفسرين: إنهم يمشون بعكس الآخرين، فتكون رؤوسهم إلى الأرض. وأرجلهم إلى السماء، و لعل التفسير الأحسن للآية: إنهم لا يرون أمامهم، فهم مكبون على وجوههم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا﴾ إذا توقفوا، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ إذا تحركوا وساروا، ويبدو أن الآيات التالية شواهد تاريخية على حقيقة هؤلاء، ولعل هذه الكلمة لا تخص الآخرة بل تشمل الدنيا أيضاً، فإن للكفار بالوحي عقبى الشر في الدنيا كما في الآخرة.

[٣٥-٣٦] ثم تتعرض الآيات إلى قصة قوم فرعون الذين كذبوا موسى عليه السلام كمثال على عاقبة السوء التي تنتظر المكذبين بالرسالات، ويلاحظ الاختصار الشديد في القصة، وذلك من أجل الاعتبار بالنهاية -إذ هي الهدف من بيان هذه القصص هنا- ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿٣٥﴾ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا﴾.

ويوحي هذا التصوير القرآني البليغ بفكرة هامة، وهي أن المقياس عند الله هو الإيمان بآياته، أما السلطة والثروة وغيرهما فلا قيمة لكل ذلك عنده تعالى.

[٣٧] وتستمر الآيات تضرب لنا الأمثال من واقع الذين هلكوا بكفرهم، وكيف أنهم دمروا بسبب تكذيبهم لرسل الله وآياته. أوليس خلق الله الخلق لعبادته؟!، بلى؛ إذن فإذا كذبوا بالوحي فقدوا مبرر وجودهم، فلا ضير أن يهلكهم الله.

﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ ﴾ بالطوفان، ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ ﴾ علامة وشاهدا على مصير المكذبين برسل الله ورسالاته.

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ ويبين هذا الشطر من الآية أن العذاب لا ينحصر في الماضين فقط، بل يطال كل من يسير في خطهم، وذلك حتى لا نتصور أنفسنا فوق سنن الله، أو قادرين على الفرار منها. ولكن لماذا يقول القرآن عذابا أليما وليس عظيما مثلا؟.

ربما لأن الذي يكذب بآيات الله يهدف التمتع بحرام الدنيا ومن يفعل ذلك لابد وأن يؤلم بالعذاب في الآخرة، و هذه الفكرة تتجلى في مواقع كثيرة من القرآن، فغالبا ما يتطرق الذكر للعذاب الأليم بعد استعراض لذة حرام مباشرة، ليبين أن الله يؤلم الإنسان في مقابل تلك اللذة.

[٣٨] ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ الرس: تعني البئر، وأصحاب الرس قوم كانت لهم بئر يعيشون عليها، فأنذرهم رسولهم، فلم يؤمنوا، فهدم الله عليهم بئرهم وأهلكهم ومواشيهم.

ويظهر من حديث مفصل يرويه الإمام الرضا عليه السلام عمن سأل جده الإمام علي عليه السلام وخلاصة مضمونها: «إن أصحاب الرس كانوا يعبدون اثنتي عشرة شجرة صنوبر، سموا أشهر العام باسمها (وهي الأسماء الفارسية المتداولة للأشهر) وزعموا أن نوحا عليه السلام قد زرعها، وأنهم حرموا على أنفسهم مياه نهر لهم، و جعلوها خاصة بتلك الأشجار المقدسة في زعمهم!.

وإن الله بعث إليهم نبيا، من بني إسرائيل من ولد يهودا بن يعقوب، فدعاهم إلى التوحيد فرفضوا، فدعا ربه أن يهلك معبودهم فيبست كبرى الأشجار، فزعموا أنها غضبت عليهم لدعوة الرسول بنبذها، وقالوا: دعنا ندفن نبينا تحتها حيا فلعلها ترضى، فحفروا حفيرة في وسط النهر، وألقوا نبيهم فيها، ووضعوا عليها حجرا كبيرا، فغضب الله عليهم وعمهم بعذاب شديد، حيث هبت عليهم ريح عاصف، شديدة الحمرة، ثم صارت الأرض من تحتهم حجر كبريت يتوقد، وأظلتهم سحابة سوداء فألقت عليهم كالقبة جمرا يلتهب، فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص»[١].

ويبين حديث آخر أن من أفعالهم القبيحة فعل السحاق، وهو الشذوذ الجنسي عند النساء، وذكر الإمام الصادق عليه السلام أن حدها حد الزانية[٢].

﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ فكل هؤلاء جرت عليهم سنة الله، حيث دمرهم لتكذيبهم بآياته، ورفضهم لما أتى به رسله.

ويبدو أن المقصود من كلمة القرن في القرآن الحكيم هو الجيل حسب تعبيرنا اليوم، وهم الذين يقارن بعضهم بعضا. وقيل أن القرن مئة عام أو سبعون سنة، وقيل خمسون خريفا، ولعله أربعون عاما لأنه الجيل من الناس يتبدلون كل أربعين عاما، وسبق أن فصلنا القول في

(١) بحار الأنوار: ج١٤، ص١٤٨-١٥٣.
(٢) راجع: ثواب الأعمال: ص٢٦٧.

قصة تيه بني إسرائيل.

[٣٩] ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ﴾ ويبدو أن المراد من المثل هنا إنذارهم ببيان مصير المكذبين من قبلهم. ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ التبر هو: القطعات المفتتة من الذهب، ويسمى بالتبر لأنه ينقطع، والتتبير يعني التقطيع الكامل، فالله قطع هؤلاء القوم تقطيعا.

والملاحظ تحول القرآن من أسلوب لآخر، فمرة يقول: ﴿دَمَّرْنَا﴾ وأخرى ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وثالثة ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ ورابعة ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ فهل في ذلك ما يزجرنا عن التكذيب بآيات الله؟.

وكم يجب أن يكون قلب الإنسان قاسيا حتى يمنعه من الهداية أو التأثر بهذه التهديدات المتتالية.

[٤٠] ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ لقد كانت القرية هذه آية من آيات الله التي يجب على الإنسان الاتعاظ بها، وهي كما يذكره الحديث قرية سدوم لقوم لوط، ولكن هؤلاء لم يعتبروا بما يرون من آثارها، ليس لأنهم لم يروها وإنما لأنهم يعتقدون أن الدنيا آخر المطاف، فلا حساب ولا نشور.

ولا تشمل هذه السنة من يكفرون بالوحي جملة وتفصيلا فحسب، بل كل واحد يتخذ القرآن مهجورا تشمله هذه السنة، ونذكر بهذه الحقيقة لأن مشكلة الكثير منا اعتقاده باقتصار الإنذار والتبشير على الآخرين.

فنرتل القرآن ليستمعه غيرنا، وكأننا أنهينا واجبنا بمجرد لقلقة لسان اعترفنا عبرها بالشهادتين. كلا.. لابد أن يعرف كل فرد منا أنه لا يمكنه الوصول إلى درجة الإيمان إلا بالجهد الكبير والعمل الجاد، ويعتقد كل منا أن القرآن حديث الله إليه.

فالذي لا يقرأ القرآن أو يقرؤه دون تدبر، أو يتدبره دون عمل، أو يعمل ببعضه دون بعض، أو يعمل به كله دون استمرار وتحمل للصعاب، كل أولئك يشملهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾[الفرقان: ٣٠] لأن من كفر بالقرآن سابقا ليس لأنه من طينة تختلف عن طينتنا، بل مثله كأي بشر وجد صعوبة الإيمان بالقرآن، و تطبيق آياته ومناهجه، فتركه ولذلك تشمله سنة العذاب.

ونحن عندما نتبع ذات الخطوات فنحن مثله. بلى؛ إننا عشنا في بيئة مسلمة تشهد

بالشهادتين، وتقول بنزول القرآن من الله، فآمنا بذلك إيمان التقليد والوراثة، وتتضح حقيقتنا عند ساعات الحرج التي يسميها القرآن بالعقبة، والتي من واجبنا اقتحامها، وفي الآية إشارة إلى أن الكفر بالنشور سبب سائر مفردات الكفر.

[٤١] وبعد أن ذكرنا الوحي بمصير المكذبين بالوحي. لعل القلوب تلين فتستقبل الرسالة. أخذ يداوي أمراض القلوب الجاحدة.

ذلك أن مرض الاستهزاء بصاحب الرسالة، يقف حاجزا دون استقبال نور الوحي. أرأيت لو استصغرت أحدا. واستهنت بكلامه أيضاً، ولكن لماذا استهزؤوا بالرسول الكريم؟. لأن قلوبهم أشربت بحب المادة، فلم تعد تعترف إلا بالثروة والقوة والجاه العريض، وبهذه المقاييس وزنوا العلم والفضيلة، وأرادوا أن تكون موازين الرب تابعة لأحداثهم الشاذة، ونظراتهم الضيقة.

وقد بين القرآن في مطلع السورة هذه سخف تلك المقاييس المادية، ولكنه -كما يبدو لي- عاد هنا إلى ذات الحديث ليذكرهم بخطأ منهجهم العلمي، فهل من الصحيح أن نرفض إنذارا وراءه التدمير والتتبير عبر الاستهزاء بمن يحمله. هب أنه كما يحسبون -حاشا لله- فهل من العقل أن نقع في البئر لمجرد أننا لا نكرم من أنذرنا؟.

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ من هذا حتى نتبعه، أو نستجيب لإنذاره.

[٤٢] وكم هؤلاء غارقون في الغباء والضلال فلقد كاد الوحي يصل قلوبهم، وكادت أنوار الهداية تخترق حجب العناد في أنفسهم، ولكنهم صبروا على آلهتهم، واستقاموا على الضلال بعناد وجحود، فرأوا الهداية ضلالا، والإصرار على الضلال صبرا على الحق. يا ويلهم ما أكفرهم قالوا: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.

[٤٣] وإن هذه العقبة النفسية منشؤها عقبة أخرى تحصل بتغيير محور الإنسان من القيم إلى الهوى. فيتبع أهواءه بدل عقله، مما يجعله لا يميز الحق من الباطل.

إن عبادة الأهواء أساس كفر الإنسان، لأن مقياسه في تقييم الحياة سيكون -آنئذ- شهواته (حبه وبغضه) لا عقله وعلمه، فلأن فلانا محبوب لديه فهو جيد، وأفكاره سليمة، فيتبعه، ولأن فلانا الآخر مبغوض عنده، فهو خبيث وكل أفكاره خاطئة، وسلوكه منحرف.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ ونرى الآن وبوضوح أن أساس الانتماء والولاء في عالمنا اليوم قائم على الحب والبغض وليس العقل و العلم، وقد عرف أولو السياسة وأنصار الثقافة الجاهلية، أن مفتاح شخصية المجتمع الجاهلي هو الحب و البغض، فسعوا لزخرفة أفكارهم الخاطئة بما يثير شهواتهم، فخربوا أفكارهم، وجعلوهم يلهثون وراء كل ما يثير الشهوات والنعرات الجاهلية.

وهكذا ضلوا وأضلوا، ولم يكتفوا بتضليل الناس في القضايا المختلفة حتى سلبوهم قدرتهم على أن يسمعوا أو يعقلوا.

فلو ذهب شاب مثقف إلى مكتبة ما ورأى فيها كتابا قيما يحوي أفكارا هامة، ولكنه مطبوع قبل مئتي عام و على ورق أصفر رديء، فإنه قلما يجد دافعا لشرائه وقراءته، وإن تجشم الصعاب وضغط على نفسه ليقرأ بعض صفحاته، فإنه يشمئز من جراء الأخطاء المطبعية أو عدم الوضوح في كلماته حتى ليكاد أن يخطئه، بينما ينجذب لبريق الإعلام المليء بالسموم، والممول على أساس نهب ثروات الفقراء.

وهكذا تجد المجتمع الجاهلي يتردى في بؤر الجهل بسبب طاعة أبنائه الشهوات والأهواء بدل العقل والعلم.

وهنا يتضح أساس الخطأ في المحور المعتمد للتقييم. فهل المحور الصحيح أن كل ما تحبه حق؟ أم الحق هو الذي ينبغي أن تحبه؟.

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ ومثل هذا الإنسان لا تنفعه شفاعة الشافعين، ورسول الله لا يشفع له ولو استغفر له سبعين مرة، بسبب توليه عن القيم واتباعه الهوى.

[٤٤] الذي يترك عقله لهواه، والحق تابع لما يحب ويبغض، فإنه يجعل نفسه أضل سبيلا من الأنعام، لأنها أوتيت مقدارا من الشعور والفهم تعتمد عليه ولا تحيد عنه، فلم نر الأنعام يوما تدخل جحيما من النار أو تتبع مضرتها لحبها، ولكن الإنسان يستخدم ما يؤذيه ويتبع ما يضره.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ كلا إنهم لا يسمعون العلم ولا يعقلونه إن سمعوه، وهم بلا علم يستفيدونه من الآخرين ولا عقل يستوعب ذلك العلم.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ وهذه نتيجة اتباعهم الهوى. إذ جعلهم يبدلون مقاييسهم، فبدل أن يحبوا الحق يعتبرون ما يحبونه حقا.

ويبقى سؤال: أيهما أفضل الأنعام تتبع شعورها القليل، أم البشر يتركون عقلهم المنير؟ وندع الإجابة للقرآن حيث يقول: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الأنعام تعمل بغرائزها بصورة شبه إجبارية، بينما أوتي الإنسان العقل ليقوم بدور الغرائز وأفضل منها، فإذا ترك عقله هلك، لأنه لا يملك كالأنعام دافعاً غريزيًا، أما هو قد أفقد نفسه نعمة العقل البديل عنه.

ثم جعلنا الشمس عليه دليلا

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ [1] كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ [2] بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس السابق قرأنا عن أولئك الذين اتخذوا إلههم أهواءهم واستهزؤوا بالرسول فكفروا برسالة الله.. و يعالج القرآن هذا المرض بتذكير البشر بربه فإذا عرفه تلاشت الآلهة من دونه.

أفلا تنظر إلى آثار ربك في هذا الظل الممتد؟ كيف يبسطه ثم يقبضه بتحريك الشمس مشرقا لمغرب؟! ثم يقسم الليل والنهار بقدر ليكون الليل سباتا وسترا وراحة، ويتخذ النهار نشورا ونشاطا وبحثا عن المعاش.

والمعاش بدوره يدره الرب حين يرسل الرياح لتبشر برحماته وبركاته. فإذا بالسماء تنزل الماء الطهور. فإذا بالحياة تدب في البلد الميت أرضه وبشره وبهائمه.

---

(١) أناسي: جمع إنسان وجعلت الياء عوضاً عن النون وقيل أنها جمع أُنسي.
(٢) صرفناه: بثثنا ووزعنا.

كل ذلك ليتذكر الإنسان، ولكن أكثر الناس يكفرون. وكفرهم هذا يدعوهم ليتخذوا إلههم الهوى، ويتحدوا -بالتالي- قيادة الرسول.

بينات من الآيات:

وهو الذي مد الظل

[٤٥] الإيمان بالله قاعدة كل معرفة ومنطلق كل إيمان، فلا يمكن للإنسان أن يؤمن بالوحي قبل الإيمان بمن أنزله.

وفي أول آية من هذا الدرس نجد قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾وذلك مما حير المفسرين، وجعلهم يؤولون الكلام تأويلا.. أو يستطيع الإنسان -هذا الضعيف المحدود- أن ينظر إلى ربه؟!.

فقال بعضهم: إن في الآية لقلبا، ومعناها: ألم ترَ إلى الظل كيف مده ربك وقال البعض إن فيه حذفا، و معناه ألم تر إلى فعل ربك ولكن يبدو لي: أن في تعبير الآية إيحاء لا نجده في غيره، فالإنسان يرى ربه بالفعل و ليس بعينيه ولا بصورة مباشرة، بل يراه بقلبه المنفتح من خلال آياته في الكون، فهي لوضوحها الشديد تعبر عن بديع صنع الله، وتشهد على ما ورائها من قوة مهيمنة عليها، وهي قوة الله وأسماؤه الحسنى.

وماذا يحصل للإنسان عندما يرى شيئا ما؟. أوليس يؤمن به إيمانا عميقا؟. وإلا فلماذا يؤمن بالشمس وظلها، وبالأرض وما فيها؟.

بالطبع لأنه يرى كل ذلك، إذن فالرؤية تعطيه هذه المعرفة، وتصنع هذه الحالة النفسية من الإيمان و الاطمئنان لديه حتى يصل إلى درجة اليقين الأعمق.

بالطبع إنه لا يرى إلا انعكاسا لنور الشمس عليها. ومن الشمس ماذا يرى؟ أليس نورها دون جرمها؟.

وهكذا بالنسبة للقمر وسائر النجوم والأشياء.

فمن النجوم ما يحتمل العلم أنها اندثرت ولا نرى منها سوى نورا انبعث قبل مليون عام ليصلنا اليوم مثلا، فلا نستطيع أن نتأكد من فناء النجم، إلا بعد مليون عام.

وماذا نرى من التفاحة التي نحملها بين أيدينا غير النور المنبعث من أي مصدر ضوئي

انعكس عليها؟.

وحتى جرم التفاحة لا نرى منه غير الأجزاء المحيطة به، فالثقل ظاهر محيط بالجسم لا ذات الجسم.

وهكذا الحقيقة غيب، لا يصل إليها الإنسان إلا عبر الظواهر والشواهد المرتبطة بها والدالة عليها، فهي تشبه أمواج الأثير التي لا ترى إلا على شاشة التلفزيون، وأمواج اللاسلكي التي لا تلتقط ولا تسمع بغير المذياع و الأجهزة المشابهة.

وهل هناك حقيقة ترى بأحسن ما يمكن أن يرى الإنسان ربه؟.

إذا كانت الشواهد هي التي تحملنا على الإيمان والاعتقاد بكل شيء وليس الإحاطة به، وإذا كان الأمر هكذا بالنسبة لسائر الأشياء، كالأرض والسماء وما فيها، فهل لشيء من الآيات والشواهد وبالتالي من الظهور و الوضوح مثلما لله سبحانه وتعالى؟!.

فلماذا يجوز أن نقول رأينا الشمس ونظرنا إلى القمر.. الخ ولا يجوز أن نقول رأينا ربنا؟!.

إن إيماننا بالله يجب أن يكون أقوى من إيماننا بأي شيء سواه، لأننا نجده في كل شيء:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ففي كل شيء تتجلى آثار القدرة والعظمة، والحكمة والنظام، والجمال والروعة وهي من أسماء الله الحسنى.

ونحن عن طريق النور الذي ينبعث من الشمس إلى الأرض نكتشفها ونؤمن بها، والشمس أظهر الحقائق عندنا، فإذا أراد الواحد بيان وضوح شيء قال: «كالشَّمْسِ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ»، ولكن هل رأينا الشمس رأي العين؟.

كلا.. بل إن كل ما نراه هو ظلها الممتد على البسيطة. وقد قال بعض المفسرين إن الظل هو موجود منذ البدء في الكون، ثم تأتي الشمس لتذهب به، فكلما ارتفعت انحسر أكثر، حتى يأتي وقت الزوال فينعدم تقريبا ثم يعود فيئا بعد دوران الأرض حول الشمس، فيصبح الوقت مساء.

إلا إن هناك احتمالا آخر لمعنى الظل أطرحه ليتدبر فيه المتدبرون: إن الظل هو انعكاس نور الشمس، ولذلك جاء في الحديث في تفسير علي بن إبراهيم وفي رواية أبي الجارود عن أبي

جعفر عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ فقال: «الظِّلُّ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ»[1].

وإذا سميت شبح الأشياء ظلا فلأن شعاع الشمس يمتد إليه. ونسأل: ماذا يرى الناس من ظل الشمس؟.

لا يرون إلا نورا منبعثا منها منبسطا على الأرض، وهو في انقباض وانبساط بمشيئة الله فبين الحين و الآخر يتبدل النهار ليلا والليل نهارا، وكل ذلك آية دالة على وجود الشمس.

إننا نؤمن بالشمس، دون أن نرى غير ظلها، الذي نعرف من خلاله طبيعتها وقوتها، ومدى دفئها، كما لو كانت الشمس هي التي نراها، وكذلك عن طريق أسماء الله وآياته في الكون يجب أن نعرف ربنا ونتيقن يقينا راسخا به، وكما أن الشمس هي دليل الظل بإذن الله وليس العكس، كذلك الرب هو الدليل إلى ذاته بذاته، و بآياته وأسمائه وليس العكس.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ وذلك بوقف دوران الأرض لتبقى في ليل دائم، أو نهار مستمر.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ تتمازج التعابير والإيحاءات القرآنية لتبث حزمة نور إلى القلب وتوصل الإنسان إلى غيب الحقائق، فما نراه ظل للشمس، وآية من آيات الله، فلماذا عن طريق الظل نكتشف الشمس ولا نعرف وجود الله؟!.

فالمؤمن يعيش محاطا بمعرفة الله، لأنه أنى ينظر يجد آيات الله الواضحة، مما يزيده إيمانا إلى إيمانه، فإن رأى الجمال والكمال قال سبحان الله، وإن رأى العظمة والقدرة قال الله أكبر. ولعل الآية توحي إلى التشابه بين شمس الطبيعة وشمس الوحي، وأن الذي جعل الشمس دليل الظل أوحى بالرسالة لتكون هدى ونورا.

[٤٦] ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ وهنا تتجلى هيمنة الله، وكيف أنه ينشر الظل، ثم يقبضه بصورة سهلة وميسرة، دون نصب وتعب تعالى الله عن ذلك.

[٤٧] بين ساعة وأخرى يرتدي الكون ظلمة الليل، ويتوقف كل شيء في مكانه، فالنور المنبعث من السماء يخفت، وزرافات الحيوانات المنطلقة من هنا وهناك تعود إلى مهاجعها، وأسراب الطيور تؤوب إلى وكورها، و يعود الإنسان إلى بيته يبحث عن ملجأ يأوي إليه وكأنه يخشى من شيء غريب. وبعد لحظات يرى الإنسان الذي كان كتلة من النشاط، قد تراخى على

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص١١٥.

فراش نومه.

ولعل هذا التعبير يشير إلى التغيير الذي يحصل في الإنسان المؤمن، فإن الذي يهتدي بالقرآن كمن يعيش الصباح والنهار فكله معرفة وحركة ونشاط، بينما يشبه الكافر والضال من انغمس في سبات عميق، في ظلمة ليل بهيم، فكله سكون عن النشاط وخوف وجمود.

وبين هاتين الحالتين يجب على الإنسان التحرك نحو النشاط عبر الوحي، فالله في هذه السورة يحدثنا عن القرآن ولكنه يختار ما يتناسب مع موضوعها من آيات الطبيعة.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ﴾ حيث يشبه ربنا الليل وكأنه لباس يشمل ملايين البشر، كما يغطي الطبيعة سهلها وجبلها، برها وبحرها.

﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا ﴾ السبات هو الانقطاع عن العمل والحركة. فإذا توقفت الآلة عن العمل قيل لها سبتت، وسمي يوم السبت كذلك لأن الماضين كانوا ينقطعون عن العمل فيه، وهكذا تنقطع أعضاء وجوارح الإنسان عن النشاط والحركة ليلا، ولذا سمي النوم سباتا.

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ فهو عكس الليل لأنه انبعاث وعمل.

[٤٨] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ ﴾ إن الإنسان ليفرح بالرياح وهي تقل له عرف الورود والأوكسجين، كما تحمل السحب المليئة بالمطر، فهي مصدر بشارة وسرور له.

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ لقد أثبت العلم أن أفضل أنواع المياه هو ماء المطر، لأن ما ينزل من السماء بالإضافة إلى كونه ماء فإنه يحمل الأوكسجين النقي، فهو نظيف ومنظف، كما هو أن نزوله يزيل الأمراض.

[٤٩] ﴿ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا ﴾ إن التعابير القرآنية هنا إشارات إلى رسالة الله -كما يبدو- فالله الذي يطهر الأرض بالماء الذي ينزله من السماء يطهر القلب بالوحي.

﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ خلق الله الماء وأودعه الأرض ليسقي به الأنعام والناس.

[٥٠] ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ فماذا صرف الله بينهم؟.

قال البعض إن هذه العبارة تدل على تصريف الله للسحاب، ينزلها بإذنه على المناطق المختلفة من الأرض، و لولا ذلك لتجمعت في مكان واحد وأنزلت كل حمولتها من المطر على

بلد واحد حيث تفيض المياه، بينما تبقى سائر البلاد قاحلة لعدم وصوله لها.

ولكن القرآن يقول: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ وكلمة صرفناه لا تدل على السحب بقدر ما تدل على الأمثال التي ضربها آنفا.

والمعنى إنا صرفنا أمثالنا وكلماتنا فبيناها للناس كافة، وفي البلاد المختلفة أنزلنا كتابا من الله يحمل رسالته للبشرية عبر رسول منه.

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ وهنا نرى نوع التشابه والتنسيق، بين المطر الذي ينزل من السماء، وعن طريق توزيع القنوات الطبيعية في الأرض يجري ليسقي الأنعام والأناسي، وبين الرسالة التي تهبط من السماء فتستقر في قلوب الناس.

وجاهدهم به جهادا كبيرا

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ(١) الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨)﴾.

هدى من الآيات:

لم يخلق الله البشر عبثا، ولم يتركهم سدى، فلقد وفر لهم سبحانه جميع وسائل الهداية، وعندما تكون الأكثرية هي الكافرة، فإن ذلك لا يدل على انعدام الفرصة أمامهم، بل لأن الإيمان تكامل عظيم قلما يرتفع إليه إنسان. كما لا تدل قلة المصلحين الاجتماعيين أو المخترعين والعلماء على عدم أهمية العلم والاختراع، أو الإصلاح الاجتماعي، وإنما هي مراتب عالية لا يصل لها إلا القليل.

وأن يرسل الله رسولا واحدا للعالم بأكمله لا يدل على ضآلة قيمة الرسالة عند الله حاشا، بل العكس هو الصحيح فلعظمتها اكتفى بشخص واحد يبلغها البشرية كلها. وكما

(١) مرج: أصل المرج الخلط ومرج أي خلط.

تكفي الشمس أن تكون مصباحا لكل الأرض و الكواكب المحيطة بها، فإن رسول الله ﷺ يكفي أن يكون بشيرا لكل العالمين.

وبالطبع لا يكون ذلك إلا إذا تسلح بالقرآن وتحدى الكافرين دون طاعة لهم أو تنازل عن القيم، فواحد يتسلح بالقرآن يمكنه الانتصار على الجاهلية العالمية بأكملها، ويذكرنا الرب بقدرته لعلنا نخشى إنذاره ونتبع النذير المبعوث من عنده. انظروا إلى البحرين كيف أرسل الله المياه فيهما من عذب فرات وملح أجاج وجعل بينهما حاجزا لكي لا يختلطا.

ومن مظاهر قدرته خلق الإنسان من الماء وتنظيم حياته عبر جعله نسبا يتصل بعضهم ببعض عبر الولادة، و صهرا يتكاملون بالزواج.

كذلك ينبغي أن نخلص له العبادة ونسلم لمن أرسله، بينما يعبد الكفار من دون الله أصناما وأناسا لا ينفعون من أطاعهم، ولا يضرون من رفضهم، ويتظاهرون ضد رسل الله ورسالاته.

وليس الرسول وكيلا عنهم إنما هو مبشر ونذير، وهو لا يطالب بأجر لقاء أتعابه وإنما يسعى لإسعاد الإنسان عبر هدايته إلى السبيل السوي.

ولا يعتمد الرسول على قوة بشرية فانية، إنما يتوكل على الحي الذي لا يموت، ويستمد منه القوة حين يسبح بحمده، وهو وحده الذي يحاسب عباده، وكفى به خبيرا.

بهذه الصفات ينعت القرآن رسول الله، ويزيل الشبهات التي ألقاها الشيطان في قلوب البسطاء ليكفروا بالوحي.

بينات من الآيات:

الجهاد الكبير

[٥١] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ إن الله قادر على أن يبعث نذيرا في كل قرية، ولكنه بالحكمة جعله واحدا لكل البشر، وليس هذا دليلا على عدم عظمة النذير، ولا هو دليل أيضاً على عدم أهمية الفئة القليلة الملتفة حوله من المؤمنين، بل لعله يدل على العكس تماما.. وإذا كان القلب طاهرا والأذن واعية يكفي نذير واحد للعالمين، أما إذا كان في الآذان صمم و على القلوب رين فلا ينفع وجود المنذرين في كل قرية بل ولا في كل بيت.

[٥٢] الكثير من المؤمنين يفقدون إحساسهم بشخصيتهم، وثقتهم بذاتهم إذا وجدوا أنفسهم فئة قليلة، فينهارون أمام ضغوط الكفار، وهنا يحذر الله الرسول من هذه السلبية إذ يقول: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ أي جاهد الكفار بسلاح القرآن جهادا لا هوادة فيه. وقد قال بعض المفسرين أن الجهاد الأكبر هنا هو جهاد الكلمة والحجة، ولكن السياق لا يدل على هذا التفسير، لأن التعبير في هذا المورد أشمل من أن يدل على جهاد الكلمة فحسب، لأن المؤمن حينما يرفض طاعة الكفار أو الاستسلام لأفكارهم وضغوطهم، فذلك يجره لخوض المعارك معهم مما يجعله يدخل الصراع بجهاد أكبر، ومن جميع الأنواع وفي مختلف الجبهات، ولابد أن يعرف الكفار أن مخالفتهم للرسالة تعرضهم للخطر من موقعين، من عند الله ومن عند رسوله والمؤمنين. فلا يحسبوا أن النعم التي خشوا زوالها بالإيمان سوف تستمر لهم إن هم كفروا بالوحي، كلا.. سوف يعلن الرسول جهادا كبيرا عليهم سواء بالكلمة الصاعقة أو بالسيف الصارم أو بوسائل ضاغطة أخرى.

ونتساءل ماذا تعني كلمة ﴿بِهِ﴾ هنا؟. الجواب: إن القرآن ذاته نهج الجهاد الثقافي والسياسي والاقتصادي و العسكري، فالجهاد يتم بالقرآن شاملا متكاملا مستمرا.

[٥٣] ولقد حذرنا الرب نفسه، وأبلغنا واسع قدرته، وذكرنا بآياته في الخلق. أفلا نخشاه؟! دعنا نقرأ في كتاب الطبيعة أسماء ربنا العزيز المقتدر.. دعنا نخرق حجب الظاهر إلى غيب الحقائق.. هذه المياه التي اقرب ما تكون إلى الامتزاج بها، يجريها الرب في مجاريها بحرين مختلفين هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج، ويجعل بينهما فاصلا يحجز هذا عن ذاك. أوليست تلك علامات القدرة وشواهد الحكمة؟!. فما أكثر من يتحدى ربا هذه آياته وتلك هي أسماؤه الحسنى.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ العذب هو الماء الحلو، والفرات هو أحلى المياه، والملح هو الماء المالح، والأجاج هو أشد المياه ملوحة، والبرزخ هو السد الذي يمنع الماءين من الاختلاط ببعضهما.

[٥٤] ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ وكما جعل الله الاختلاف في المياه، جعل ذلك في بني البشر، فالناس كلهم من ماء واحد، وأرض واحدة، إلا إنهم يختلفون بالنسب والصهر عن بعضهم، فالبعض ينتسب إلى الآخرين عبر النسب كالأب والأخ والابن. الخ، وبعضهم ينتسب للآخرين عبر التصاهر بالزواج.

[٥٥] ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ وتسأل: وهل عبادة الإنسان

للأصنام تضره أم لا؟.

بالطبع إنها تضره، ولكن القرآن يقول: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ ذلك أن ما يضر الإنسان عبادته للأصنام وليس الأصنام ذاتها، فالطغاة من الحكام، والمترفين، والمؤسسات الثقافية المضلة .. كل أولئك أصنام، والإنسان هو الذي يلحق الضرر بنفسه عندما يخضع لهم، ويؤيد الشيطان والكفار.

ولولا خضوع البسطاء من الناس واستسلام أصحاب المصالح لما قامت للظلم قائمة. دعنا نقرأ معا حديثا حكيما في ذلك: عن علي بن أبي حمزة قال: «كَانَ لِي صَدِيقٌ مِنْ كُتَّابِ بَنِي أُمَيَّةَ فَقَالَ لِي: اسْتَأْذِنْ لِي عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام فَاسْتَأْذَنْتُ لَهُ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَهُ فَلَمَّا أَنْ دَخَلَ سَلَّمَ وَجَلَسَ ثُمَّ قَالَ: جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنِّي كُنْتُ فِي دِيوَانِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فَأَصَبْتُ مِنْ دُنْيَاهُمْ مَالًا كَثِيراً وَأَغْمَضْتُ فِي مَطَالِبِهِ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِالله عليه السلام: **لَوْ لَا أَنَّ بَنِي أُمَيَّةَ وَجَدُوا مَنْ يَكْتُبُ لَهُمْ وَيَجْبِي لَهُمُ الْفَيْءَ وَيُقَاتِلُ عَنْهُمْ وَيَشْهَدُ جَمَاعَتَهُمْ لَمَا سَلَبُونَا حَقَّنَا وَلَوْ تَرَكَهُمُ النَّاسُ وَمَا فِي أَيْدِيهِمْ مَا وَجَدُوا شَيْئاً إِلَّا مَا وَقَعَ فِي أَيْدِيهِمْ**.

قَالَ: فَقَالَ الْفَتَى: جُعِلْتُ فِدَاكَ فَهَلْ لِي مَخْرَجٌ مِنْهُ، قَالَ عليه السلام: **إِنْ قُلْتُ لَكَ تَفْعَلُ؟** قَالَ: أَفْعَلُ، قَالَ عليه السلام لَهُ: **فَاخْرُجْ مِنْ جَمِيعِ مَا اكْتَسَبْتَ فِي دِيوَانِهِمْ فَمَنْ عَرَفْتَ مِنْهُمْ رَدَدْتَ عَلَيْهِ مَالَهُ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ تَصَدَّقْتَ بِهِ وَأَنَا أَضْمَنُ لَكَ عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ الْجَنَّةَ**. قَالَ: فَأَطْرَقَ الْفَتَى رَأْسَهُ طَوِيلًا ثُمَّ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَمْزَةَ: فَرَجَعَ الْفَتَى مَعَنَا إِلَى الْكُوفَةِ فَمَا تَرَكَ شَيْئاً عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى ثِيَابِهِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى بَدَنِهِ، قَالَ: فَقَسَمْتُ لَهُ قِسْمَةً وَاشْتَرَيْنَا لَهُ ثِيَاباً وَبَعَثْنَا إِلَيْهِ بِنَفَقَةٍ»[1].

﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ إن من يعبد الطاغوت بخضوعه يظاهره ويعاونه ضد الحق، وإلا فبمن استطاع الطغاة التسلط على رقاب الناس؟!.

١ - أليس بالإعلاميين المأجورين وأمثالهم، ممن يتسكعون على عتبات القصور؟.

٢ - أوليس بالجنود المجندة من الشباب الذين يصرفون طاقاتهم في خدمة الطغاة؟.

٣ - أوليس بالموظفين الذين أذلوا أنفسهم في دوائر السلطة كي يشبعوا بطونهم؟.

٤ - ثم الأهم من كل ذلك؛ أليس بسكوت الناس عنهم وخنوعهم عن المواجهة والتمرد ضدهم؟!.

---

(١) الكافي: ج٥ ص١٠٦.

إذن فالجريمة ليست من الطغاة وحدهم، بل للشعوب المستسلمة نصيب وافر من المسؤولية أيضاً.

[٥٦] الرسول ينذر ويبشر والناس يتحملون مسؤوليتهم. وإذا ساد الظلام أمة من الناس ينتمون ظاهرا إلى رسالة إلهية فلا يعني أبدا أن في رسالات الله نقصا.. بل أنهم هم المسؤولون لأنهم تركوا العمل الجاد بها، و تحمل مسؤولية القيام في وجه الطغاة.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ إذا تسلط الطاغوت، فإن البعض يحاول أن يلقي باللوم والمسؤولية على كاهل المصلحين، ثم ينتظرها الخلاص بهم.

فكما ليس من الصحيح أن ينتظر الناس الرسول أن يجاهد الطاغوت وحده، ليس من الصحيح أيضاً أن تنتظر الأمة الإسلامية اليوم وفي كل العصور، الطليعة الرسالية أن تقوم بهذا الدور، ذلك أن دور الرسل -كما المصلحين تبعاً للرسل- هو قيادة حركة الناس وتوجيهها، لا القتال نيابة عن الناس، كما كان بنو إسرائيل ينتظرون من نبيهم موسى عليه السلام فلما جاءهم وحملهم مسؤولية الجهاد ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فالمصلحون المؤمنون يبذلون أقصى الجهود، في مختلف المجالات لمجاهدة الطواغيت متحملين في سبيل ذلك التبعات، من السجن والتعذيب والإعدام، ولكن لا يجوز للناس أن يكونوا متفرجين.

لأن مسؤولية الطليعة من حملة الرسالة هي مسؤولية الرسول نفسها، أي تبليغ الرسالة للناس وقيادة المعركة وعلى الناس المقاومة والوقوف في وجه الفساد والانحراف.

[٥٧] ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ إن الرسل ومن يمثلهم عبر التاريخ لا يطالبون الناس أجرا مقابل بما يقدمون لهم من خدمة البشارة والإنذار، سوى ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ هذا في ما يخص الناس.

[٥٨] أما في ما يخص الرسول وحملة الرسالة فإن واجبهم السير في الطريق رغم الصعاب، بالتوكل على الحي القيوم، دون التفات لقلة الأنصار حولهم، أو مدى الطاعة والرفض من قبل الناس.

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ فإذا اعتمد البعض على قوة بشرية فإن المؤمن يعتمد على الله الذي لا يموت، ولا يعتمد حتى على الأنصار والأصحاب، فقد تزل قدم هؤلاء أو تعثر فييأس ويترك الجهاد.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ إن القيادة أو الطليعة الرسالية هم الأقلية في بدء الانطلاق، وهم الغرباء عن واقعهم، إذ يشعرون بالوحشة وهيبة الطريق، كما يتحسسون الفراغ الاجتماعي، ولكي يقاوموا هذه السلبيات فإن عليهم التعويض عن كل ذلك بالارتباط المتين والعميق بالله سبحانه وتعالى، لأن ذلك يثلج صدورهم، ويسكن روع قلوبهم، فيعطيهم الثبات والطمأنينة.

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ يعني أن الله قادر على إحصاء ذنوب الذين يتركون المؤمنين الحاملين للرسالة، فلا تشغل الفئة المؤمنة نفسها بإحصاء سلبيات وذنوب الآخرين من المخالفين، ولا تفكر في رفض الناس لها ولرسالتها، وإنما عليها المضي قدما على خطها، تاركة ما يجري حولها إلى الله، فهو الذي يحصي ذنوب الناس وكفى به خبيرا بها.

عباد الرحمن

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا[1] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا[2] ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

في إطار التذكرة بالتوحيد الذي هو قاعدة الإيمان بالرسالة يبين الدرس بعض أسماء ربنا، وبالذات اسمي ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ و ﴿تَبَارَكَ﴾.

ويتجلى اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في خلق السماوات والأرض وتدبيرهما بالرغم من نفور الكفار من هذا الاسم الكريم، ورفضهم السجود للرب الذي أحاطت بهم رحمته، وزعموا

(١) هوناً: والهون مصدر الهين في السكينة والوقار.
(٢) غراماً: الغرام هو أشد العذاب.

أنهم لا يسجدون لمن يأمرهم الرسول (استهزاء به وتحديا له).

بينما يتجلى اسم ﴿ تَبَارَكَ ﴾ في ذلك البناء المتين الذي تعالى فوقنا، والسراج المنير الذي تعلق به كالقنديل، و القمر المنير الذي زينه وفاض نوره الهادئ على الربايا والسهول.

وهكذا في توالي الليل والنهار ليكون فرصة لمن يريد ذكر الله، أو أراد له شكورا.

إن أسماء الله تتجلى في أفئدة الذاكرين الشاكرين، فيكونون عباد الرحمن حقا. فتراهم يمشون على الأرض هونا لا أذلاء ولا متبخترين، ويواجهون الجهل بالسلام، ويبيتون الليل بالتبتل، ويتطلعون لاتقاء نار جهنم اللاهبة البئيسة، وإذا أنفقوا اقتصدوا، فلم يبخلوا ولم يترفوا.

ويواصل الدرس التالي الحديث عن سائر صفات هؤلاء الصالحين.

بينات من الآيات:

فسأل به خبيرا

[٥٩] يحدثنا القرآن الكريم في هذه المجموعة من الآيات عن أمرين متقاربين:

الأول: الإيمان بالله.

الثاني: كيف يتجلى الإيمان في سلوك الإنسان الصادق. لتوضيح هذا الأمر لا بد أن نتذكر أن هناك فرقا بين الإيمان بالله وبين معرفته - حقا - لأن هناك درجات في مسيرة التوحيد وهناك مفارقات ينبغي أن نعرفها وهي كما يلي:

١- فقد يكون الإيمان إجماليا، كما لو عرف الإنسان أن وراء الأكمة أشجارا، أو أن وراء الجبل غابة، و ربما يؤمن بذلك عن طريق العلم بكثافة الأمطار وراء الأكمة، أو وجود الحيوانات المختلفة الآتية من وراء الجبل، أو عن طريق مخبر صادق يثق به.

وقد يكون الإيمان عرفانيا، وذلك حينما يدخل الغابة أو يشرف عليها من قريب، ويزداد هذا العرفان كلما أحاط بما في الغابة من جزئيات.

٢ الذين يؤمنون بالله عبر آية واحدة من آياته، قد لا يندفعون إلى السلوك المتكامل الذي يصوغ الإيمان العرفاني به شخصية المؤمنين. عبر معرفتهم بآيات الله المختلفة التي يرونها.

٣- إذا أراد الإنسان اكتشاف حقيقة إيمانه، وهل وصل إلى درجة العرفان، أم لا يزال

إيمانه بسيطا يخرجه عن حدود الجحود والكفر فقط، فإن عليه أن يبحث عن آثار الإيمان الصادق، فإذا كانت موجودة بصورة كاملة على سلوكه وتصرفاته كان وإلا فلا.

لذا نجد القرآن يربط بين من يؤمن بالله إيمانا كاملا -والذي ينعكس في صورة توكل على الحي الذي لا يموت- وبين سلوكيات عباد الرحمن كما تصفهم الآيات الكريمة.

٤ - كلما عرف الإنسان ربه بالتقرب إليه من خلال العبادة، كلما عرف نفسه بصورة أكمل، فهاتان معرفتان متقابلتان، وسبب المقابلة أن الله هو خالق الإنسان، فإيمانه بالإله الخالق يدعوه للإيمان بالعبد المخلوق. مما يجعله عارفا بمدى عبوديته وضعفه، أو محدوديته وضيق أفقه، وبين الأمرين (معرفة الله، ومعرفة النفس) تتنامى نحو التكامل الشخصية الإيمانية لدى الإنسان المؤمن.

كذلك يبصرنا القرآن بآيات ربنا المبثوثة في الآفاق ذكرى من بعد ذكرى فيقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ حينما يقف الإنسان على ربوة تل، فيرمي ببصره نحو الأرض الممتدة من تحته، أو السماء الواسعة من فوقه، فإنه ينبهر بكل ذلك، وهنا وفي لحظات الانبهار بالذات، عليه أن يجعل الانبهار سبيلا إلى الإيمان بالله، فكلما وجد عظمة وقدرة وجمالا وروعة تتجلى في الخلق، كلما تعمق إيمانه بعظمة الخالق.

ولعل خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام، دليل على أنه يطورهما باستمرار، حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن، وهذا لا يدل على عجز الله، بل يشير إلى استمرار الهيمنة الإلهية عليهما، فلم يتركهما بعد الخلق لشأنهما سدى.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وعلى هذا فهناك علاقة سياقية بين كلمتي ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ و﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ حيث تشير الآية إلى أن الذي خلق السماوات والأرض يشرف عليهما ويدبر أمرهما. و﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾: أي هيمن على العرش، وهو رمز التدبير بعد التقدير والإمضاء بعد القضاء.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ تتكرر كلمة الرحمن في مواضع كثيرة من هذه السورة، ولعل الحكمة في ذلك أن الرسالة الإلهية هي أعظم منة من ربنا علينا، وأن السبيل إلى الإيمان بها يمر عبر الإيمان بأن الله هو الرحمن، وأن آيات رحمته في الخلق تجعلنا نثق بل نوقن أنه لن يترك عباده في بؤر الجهل والضلالة. تتجاذبهم شهوات المترفين، ونزوات المستكبرين.

إذا فلنؤمن برسالته التي يشكل إرسالها أكبر شاهد على رحمته.

﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي فاسأل بهذا الأمر (خلق السماوات والأرض وعلى مراحل

متتابعة ومتكاملة) خبيرا ينبئك به، وهو -كما نعرف- من خلال الآية، الله وجبرائيل عليه السلام فتكون هذه الآية مختصة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله.

ولعل المراد من الخبير كل عالم من علماء الفلك والفيزياء والكيمياء وغيرهم ممن توصلوا إلى الاكتشافات العلمية التي تعرفنا بآثار رحمة ربنا سبحانه، وبالتالي يكون هذا استشهادا بالعلم، حيث يأخذ بأعناق المثقفين و المفكرين للإيمان بآيات الله والاعتراف بالرسالة.

عندما يتصور البشر ربه

[٦٠] يتساءل الكفار: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؟ عندما يؤمرون بالسجود له ظنا منهم بأن الرسول يريد من وراء ذلك تعظيم نفسه، وهذا سبب رفضهم الخضوع لله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ أي هل تريد التأمر علينا بفرض السجود؟.

إن المجتمع الجاهلي القائم في علاقاته الاجتماعية على أسس فاسدة، كالعنف والاستغلال لا يمكنه أن يؤمن برحمانية الله، وهو يحسب أن العلاقات القائمة في الكون تشبه العلاقات القائمة بين أبناء البشر، فالمجتمع الجاهلي إذا تصور الله فإنما يتصوره حسب مزاجه النفسي المستوحى من الخيال، أو من الوضع الاجتماعي القائم.

فعندما أراد المجتمع اليوناني تصور الله بادر مفكروه يضعون آلهة من التماثيل الحجرية واللوحات الفنية المتضاربة، فلكل إله جيش وشعب، وعنده حدود وإقليم، ويستخدم شعبه وجيشه في محاربة الآلهة الأخر .

وهذا الخيال يعكس التضارب القائم في ذلك المجتمع الإغريقي القديم، فلأن وضعهم مليء بالصراع، و علاقاتهم مشحونة بالبغضاء، تصوروا الله كذلك يشاركهم في المزاج والشعور ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

وهكذا كان يصنع المجتمع العربي قبل الإسلام فكل حزب بما لديهم فرحون، لذا جاء في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «وَلَعَلَّ النَّمْلَ الصِّغَارَ تَتَوَهَّمُ أَنَّ للهِ تَعَالَى زُبَانِيَيْنِ[1] فَإِنَّ ذَلِكَ كَمَالُهَا وَيَتَوَهَّمُ أَنَّ عَدَمَهَا نُقْصَانٌ لِمَنْ لَا يَتَّصِفُ بِهِمَا»[2].

---

(١) زبانيا النمل أو العقرب قرناها.

(٢) بحار الأنوار: ج٦٦ ص٢٩٣.

فما دامت القضية لا تتجاوز التصور، فإن النملة تمتلك القدرة على تصور الرب، ولكن من واقعها وشعورها .

وقد وقع بعض البسطاء من المسلمين في ذات الخطأ، فقالوا: إن الله شخص عنده لحية بيضاء طويلة، و يركب الحمار لينزل إلى الأرض في ليالي الجمع، فكان بعضهم يضع حزمة علف على سطح بيته في كل ليلة جمعة، حتى يأكل ما فيها حمار الله. (سبحانه وتعالى عن الأمثال).

وسبب هذه التخيلات خضوع الإنسان لخياله المحدود عند تصور الله، فيتصوره تارة من واقعه وطبيعته كإنسان فيحسبه كذلك، أو من واقع المجتمع وطبيعته تارة أخرى، فينعكس الوضع الاجتماعي على تصوره لله أيضا، فلأن علاقة المجتمع الجاهلي بالتجمع الإيماني مادية فهي صلفة، فإنهم لم يكن بمقدورهم تصور الرحمة صفة من صفات الله، فلا عجب أن يرفضوا أمر الرسول لهم بالسجود للرحمن. فقالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؟.

فهذا اسم جديد على واقعهم ليس بعيدا أن يستغربوا منه، فواقعهم مشبع بالخوف والإرهاب وما إلى ذلك من الصفات المشينة.

﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ لم يكن أمر الرسول لهم بالسجود لله إلا لجمع شتاتهم. كي تشرق عليهم شمس الرحمة، وتلفهم غمامة اللطف الإلهي، ولكنهم لعمق الإحساس بالإرهاب والخوف وما أشبه من الصفات الرذيلة نفروا حتى من هذه الكلمة كما تنفر الإبل المذعورة.

ويعبر هذا النفور عن مدى الجهل الغارقين فيه، والذي لا يزال جاهليو العصر يغرقون فيه أيضاً، ولا فرق بين الجاهليتين إلا أن إحداهما حديثة والأخرى قديمة.

فلو نهض رسالي يدعو الشرق الملحد، والغرب المشرك للسجود للرحمن، وإشاعة السلام والعدل في أرجاء المعمورة لردوا ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؟ أيضاً، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

من آيات الكون

[٦١] ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ ربما تشبه كلمة ﴿ تَبَارَكَ ﴾ كلمة التكامل في منطقنا الحديث، فالمبارك يعني واسع الخير وثابته، أو المتكامل الذي ينمو -وتعالى الله عن النمو لأنه- الكامل الذي لا كمال بعده: «الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ وَلَا نَعْتٌ مَوْجُودٌ وَلَا وَقْتٌ مَعْدُودٌ وَلَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ»[1] كما قال الإمام أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) نهج البلاغة: من خطبة له عَلَيْهِ السَّلَامُ يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض.

فما معنى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾؟.

إن الذي أعطى البركة للسماء هو الذي يعطي البركة للإنسان، والبروج هي المواقع الظاهرة والمرتفعة في نفس الوقت، وعادة ما يكون برج المدينة رمزها، والشمس والقمر وسائر الكواكب والنجوم بروج للسماء، و الذي جعل الشمس والقمر والبروج هو صاحب البركة، فالأولى أن نتوجه إليه دون غيره لأنه الرحمن، فلماذا لا نعرف هذه الصفة الحميدة من صفات ربنا؟.

[٦٢] ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ لقد جعل الله كلا من الليل والنهار يخلف أحدهما الآخر، فلو دام الليل لانعدم المعاش، ولو دام النهار لانعدمت الراحة.

ولكن متى يتذكر الإنسان؟ في الليل. ومتى يحصل على النعم فيشكر الله؟ في النهار.

وكم هو جميل السياق إذ يقول: جعلنا الليل لمن أراد أن يذكر!.

فحينما تهدأ الأصوات، وتسكن الأحياء، فيعم الصمت حيث الناس كل أوى إلى فراش نومه، فينبعث ضمير المؤمن حيا ليناجي ربه ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

أما في النهار حيث ينهض الإنسان من نومه طلبا للرزق والمعاش، لا لكي يطغى وانما ليشكر ربه، ويصل بوظائف النعم التي وفرها له، نجد انعكاس المعرفة الإيمانية على سلوك عباد الرحمن الذين يصوغون به شخصيتهم من خلال الإيمان العرفاني.

عباد الرحمن

[٦٣] إن لعباد الرحمن الذين تتجلى أسماء الله وفي طليعتها ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ على أفئدتهم وسلوكهم صفات حسان كثيرة أبرزها:

١- التواضع

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ فعلاقتهم من الطبيعة والناس علاقة الرحمة، لأنهم عباد الرحمن -ولا غرابة- فقد انعكس اسم الرحمن الإلهي على شخصيتهم فصيغت بقالب هذا الإسلام المقدس، وهذا ما يدعوهم للسير هونا على الأرض، مشية متواضعة لا كمشية المتكبرين على العباد والمفسدين في الأرض، ولا كمشية الأذلاء والدونية،

لذلك جاء في الحديث في تفسير الآية عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «يَمْشِي بِسَجِيَّتِهِ الَّتِي جُبِلَ عَلَيْهَا لَا يَتَكَلَّفُ وَلَا يَتَبَخْتَرُ»(١).

فعباد الرحمن يحبون حتى الأرض التي يضعون أقدامهم عليها. ولما يتعاملون به من خفة مع الأرض، لا يسحقون حتى النمل، ولا يقتلون حتى النبتة الصغيرة، ولا ينفرون الحيوان، بل يمشون عارفين بمواقع أقدامهم.

هذا بالنسبة للأرض، أما بالنسبة للمجتمع فإن علاقتهم علاقة رفق مع الآخرين، وخلفية كل ذلك أنهم يتكيفون مع السنن والقوانين الإلهية الثابتة، في علاقاتهم مع الطبيعة والمجتمع، مقتنعين بوجود سبل و أساليب ينبغي العمل وفقها، و السير في إطارها للاستفادة من الإمكانيات الهائلة المودعة من قبل الله في الطبيعة، وينعكس ذلك أيضاً على مواقفهم الاجتماعية والسياسية، فلأنها نابعة من فطرتهم النقية التي ترفض التكلف والتبختر فإنها مشية معتدلة. لا تظاهر فيها ولا صخب. جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام: عن مُحَمَّدِ بْنِ النُّعْمَانِ عَنْ سَلَّامٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قَالَ عليه السلام: «هُمُ الْأَوْصِيَاءُ مِنْ مَخَافَةِ عَدُوِّهِمْ»(٢).

وهذا خلاف ما يفعله الآخرون ممن لا تشملهم الآية الكريمة ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فإنا نجد علاقتهم مع الطبيعة و المجتمع علاقة قائمة على أسس فاسدة من الخشونة والعنف، واستغلال الناس، وتوجيههم منصرفا إلى التمرد على الأنظمة والقوانين الطبيعية، مما نرى آثار ذلك في إفساد العلاقات الاجتماعية، وانتشار التوتر و الحروب بين الدول المختلفة.

٢- الرفق

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ لأن علاقتهم علاقة السلام والأمن فإنهم يجيبون الجاهلين - ممن يخاطبونهم بالجهل - بقولهم: سلاما، و قيل: إن المقصود بالسلام سلام الوداع، أي أنهم ينصرفون عن الجاهل بعد السلام عليه، عندما يحتكون به دون مبادلته جهلا بجهل.

ولكن الأقرب إلى قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أنهم يبدؤون كلامهم وعلاقاتهم مع الناس عن طريق السلام، وهو إضفاء حالة من الأمن على العلاقة الإيجابية مع الطرف الآخر.

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٤، ص١٣٢.
(٢) الكافي: ج١، ص٤٢٧.

٣- قيام الليل

[٦٤] ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ قليل هم الذين يحيون ليلهم بالعبادة، مكثرين من الصلاة والدعاء تضرعا لله وخوفا منه. والناس في نوم عميق، والكثير من الناس من يطمح في الوصول إلى مستوى عباد الرحمن، ولكن لا يستطيع فلماذا؟.

لأن هـذا القسم من الناس يريدون إجبار أنفسهم على الفضائل وهي لا تأتي بالإكراه، وإنما بصياغة الشخصية، فإذا لم تنعكس آيات الرحمن على سلوك الإنسان، فلا ينمي نفسه بالسجود له ليلا لأنه سيرى نفسه عاجزا أمام هجوم النوم، أما عندما تتجلى آيات الرحمن أمام ناظريه، وتنعكس على سلوكه فتصوغ شخصيته، آنئذ لا يستطيع النوم ليلا بل تتجافى جنوبهم عن المضاجع.

فالأصل في كل فضيلة معرفة الله وإصلاح النفس، فمن لا يعرف الله، ومن ثم لا يصلح نفسه لا يحصل من الفضائل الأخرى على شيء، إذ ليست المسألة مسألة تكلف بقدر ما هي سجية لقلب الإنسان.

٤- التقوى من النار

[٦٥] ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ إن شهيق جهنم وزفيرها لا يعزب عن بالهم طرفة عين أبدا، بل تتجسد صور النار أمام أعينهم في كل لحظة، فيقول أحدهم: إلهي اصرف عني عذاب جهنم، وكأنه يرى نفسه يصلى فيه، أولا يقول تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[مريم: ٧١-٧٢].

فكل إنسان سيمر من فوق الصراط على جهنم، والعاقل من فتش عن سبيل للنجاة.

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي إن عذاب جهنم يلزم الإنسان الذي يدخله، وإنه لخسارة كبرى، فليس الخسران الحقيقي خسران الدنيا بما فيها من لذات، وإنما الخسارة أن يخسر الإنسان رحمة الله في يوم القيامة حيث المطاف الأخير.

[٦٦] ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ فهي ليست مستقرا مرغوبا كي يقيم فيه الإنسان، وليست مكانا طيبا يصلح أن يستمر فيه.

٥- الاقتصاد في المعيشة

[٦٧] ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ الكثير من الناس من ينفق المال، والقليل من يحصل على الثواب، والأقل من ينفقه كما يريد له الله، وهم عباد الرحمن حقا، فإنفاقهم ليس بدافع الترف والشهوة، أو الرياء والسمعة، وإنما بدافع الإيمان والعقل و الإرادة، فلم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما.

فبين هذا وذاك ينفقون وباعتدال ما يقيمون به حياتهم وحياة الآخرين.

وهكذا يروي العياشي يقول: «اسْتَأْذَنْتُ الرِّضَا عليه السلام فِي النَّفَقَةِ عَلَى الْعِيَالِ؟ فَقَالَ عليه السلام: بَيْنَ الْمَكْرُوهَيْنِ. قُلْتُ: لَا أَعْرِفُ الْمَكْرُوهَيْنِ، قَالَ عليه السلام: إِنَّ الله كَرِهَ الْإِسْرَافَ وَكَرِهَ الْإِقْتَارَ، فَقَالَ: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾»[١].

وضرب الإمام الصادق عليه السلام مثلاً لذلك «فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ حَصًى وَقَبَضَهَا بِيَدِهِ فَقَالَ: هَذَا الْإِقْتَارُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ. ثُمَّ قَبَضَ قَبْضَةً أُخْرَى فَأَرْخَى كَفَّهُ كُلَّهَا ثُمَّ قَالَ عليه السلام: هَذَا الْإِسْرَافُ. ثُمَّ أَخَذَ قَبْضَةً أُخْرَى فَأَرْخَى بَعْضَهَا وَ أَمْسَكَ بَعْضَهَا وَقَالَ عليه السلام: هَذَا الْقَوَامُ»[٢].

وتربط رواية ثالثة بين الإنفاق ومستوى المعيشة في المجتمع، بينما نجد رواية رابعة تجعل الإنفاق في سبيل قوام البدن وفيما يصح البدن ليس إسرافا -مهما كان- وتأمر نصوص أخرى بضرورة التوسعة على العيال، و نفهم من مجموع النصوص أن الاقتصاد في المعيشة يرتبط بمجموعة عوامل يحددها الشرع والعقل والعرف[٣].

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢١، ص٥٥٦.

(٢) وسائل الشيعة: ج٢١ ص٥٥٩.

(٣) راجع: وسائل الشيعة، كتاب النكاح، أبواب النفقات.

عباد الرحمن بين السلوك والتطلعات

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا[١] (٧٧)﴾.

هدى من الآيات:

في الغالب تلخص الآيات الأخيرة من السورة أفكارها، لتزيدها أيضاحا وتبيانا، ولتزرع في نفس القارئ، خلاصة مركزة عما مر الحديث عنه.

وفي نهاية سورة الفرقان التي خصصت لبيان الرسالة والوحي، والإيمان بهما، يوجز لنا الله عدة موضوعات هامة ذكرنا بها خلال السورة.

---

(١) لزاماً: أي أنه واقع لا محالة.

أولاً: ليس الإيمان بالرسالة كلمة تقال، إنما هو وقر عظيم وموقف حاسم يشعر كل فرد من أفراد المجتمع بوطئه وخطورته.

ثانياً: إن المجتمع الذي تصنعه الرسالة بعيد عن السلطة، فلا يتسلط فيه أحد على الآخر، إذ لا خضوع لغير ولاية الله فيه، أما الخضوع لولي أمر الله كالرسول أو الإمام أو الفقيه العادل العارف فحقيقته خضوع وتسليم لله سبحانه. إذ لا يقدس المجتمع أشخاصهم، وإنما يقدس ويخضع للقيم التي يجسدونها.

ثالثاً: إن هذا المجتمع تحكمه روح الاحترام المتبادل في العلاقة بين أبنائه، فلا يقتلون النفس ولا يزنون.

وهناك علاقة بين قتل النفس من جهة، والزنا من جهة أخرى، فكلاهما يعتبر نوعا من الاعتداء على كرامة الإنسان، وبالتالي فكلاهما قتل للنفس كما سنوضح ذلك في البينات.

وإن الذين يفضلون سيادة سلطة غير إلهية عليهم، فلا يحترمون النفس البشرية، ويفعلون الفاحشة سيلقون العذاب في الدنيا والآخرة، إلى أن يتوبوا إلى الله ربهم.

رابعاً: في المجتمع الرحماني لا يظلم أحد أحدا أبدا.

وحتى لا يظلم الإنسان غيره، فإن عليه الامتناع عن شهادة الزور، وكثير من الذين يجدون جوا مناسبا للظلم تدفعهم شهواتهم ومصالحهم لارتكاب الجريمة، والاعتداء على حقوق الآخرين، أما في المجمع الإسلامي فان الجو العام، والقانون الإلهي الحاكم لا يشجع على الظلم أو البغي، فلو فتش ظالم عمن يشهد في صالحه فسوف لن يبلغ مناه.

خامساً: الجدية من أهم مميزات المجتمع الإيماني.

فهو بعيد عن اللغو، الذي يكون عاملا من عوامل الانحرافات الاجتماعية الفكرية وغيرها، كما اللامبالاة التي تعني العبثية واللاهدف، فيجب أن يكون المجتمع جديا في البحث عن أهدافه، بعيدا عن اللغو واللامبالاة اللذان يجعلانه بعيدا عن الرحمانية، قريبا من الجريمة والانحراف.

وهذا المجتمع هو الذاكر الذي يتكامل بذكره لله، إذ يجعل ذكره لخالقه معراجا لسموه المعنوي والمادي أيضاً، وبتعبير آخر هو الذي يجعله يعرج إلى مستوى التحضر والتقدم، فيصنع بذلك حضارة الإيمان، كما صنعها نبي الله سليمان منذ قبل.

سادساً: إن صفة التطلع من أبرز سمات المجتمع الإسلامي، الذي يصفه القرآن في هذه

السورة، فبالرغم من اعتماد أبنائه على العناصر الفاضلة من الأسرة في تربيتهم، إلا إنهم لا ينسون تطلعاتهم الاجتماعية. إذ يطمحون لإمامة المتقين، وتنتهي السورة بذكر الدعاء الذي هو رد التحية من البشر لرسالة الرب سبحانه.

يعني إمامة أفضل طبقة وفئة في المجتمع، فقد يطمح الإنسان أن يكون إماما فقط، أما عباد الرحمن فطموحهم قيادة الطليعة في المجتمع، وهذا يدل على التطلع الواسع في البعد المستقبلي والحاضر لأبناء المجتمع الإسلامي الرحماني.

فمن جهة يسعون لصياغة شخصية أبنائهم وفق المفاهيم الصادقة، ليمتدوا عبر أولادهم كما أزواجهم عموديا في عمق الزمن.

ومن جهة أخرى فأنهم يسعون جادين ليصبحوا قدوة لمن حولهم من الناس، ليمتدوا أفقيا عبر أبناء المجتمع الذي يعيشون فيه وفي أوسع رقعة من المكان.

وهؤلاء بتطلعاتهم وسلوكهم هم الذين سيبنون حياة فاضلة في الدنيا، ويجزون جزاء حسنا في الآخرة، إذ يأمر الله الملائكة والطبيعة أن يكونا مسلمين لهم، وعندما تكون الملائكة والطبيعة معا مسلمين لإنسان ما، فحينئذ لا يخشى هذا الإنسان من شيء، لأنه يشعر وكأن رب الطبيعة والملائكة وخالقها من جهة، وذات الطبيعة والملائكة الموكلة بها من جهة أخرى، يحبونه ويعينونه.

ذلك لأن عباد الرحمن كانوا مسالمين مع أنفسهم، وقد علموا أن دورهم بناء إنسان رسالي فاضل انطلاقا من ذواتهم، وأمة رسالية فاضلة انطلاقا من أسرتهم، وحضارة إسلامية متقدمة انطلاقا من مجتمعهم، وكل ذلك في إطار السنن والقوانين الرسالية الصحيحة.

وعلى العكس في كل ذلك من يرتكبون الجرائم ويقترفون الآثام، فيضلوا أنفسهم وأسرهم ومجتمعهم، ولا يصلون إلى أهدافهم التي يطمحون إليها، فتكون المعادلة عكسية إنسان منحرف، أمة متخلفة، نهاية حضارة أو مدنية -كما وصل إلى هذه النتيجة السابقون من الأقوام- قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[الفجر: ٦-١٤].

سابعاً: في نهاية هذه السورة لفتة غريبة.

فسورة الفرقان التي بدأت بذكر القرآن معبرة عنه بالفرقان، أي الميزان بين الحق

والباطل، نجدها تنتهي بذكر الدعاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]. فما هي العلاقة بين القرآن والدعاء؟.

ربما يفسر هذه العلاقة حديث شريف عن النبي الأعظم ﷺ يقول فيه: «أَفْضَلُ عِبَادَةِ أُمَّتِي بَعْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الدُّعَاءُ. ثُمَّ قَرَأَ ﷺ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أَلَا تَرَى أَنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ»[1].

فقبل أن ينتظر الإنسان رسالة تنزل من الله عليه، يجب أن يبعث رسالة إلى الله عبر الدعاء، فإن الله يحب رسالة الإنسان، ويستمع إليها، فهو الذي قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل: ٦٢] وهو الذي قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة: ١٨٦] وهو الذي يقول: «لَبَّيْكَ عَبْدِي» إذا دعاه داع.

بينات من الآيات:

الوجه الآخر للقتل

[٦٨] ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي لا يخضون لسلطة مادية أخرى، إنما لله وحده، فهو صاحب السلطة المطلقة في منطقهم لا غير.

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ يعني لا يقتلون النفس المحترمة، ولا يرتكبون فاحشة الزنى، ولكن السؤال لماذا جاء ذكر الزنى بعد قتل النفس؟!.

الجواب أن قتل النفس نوعان:

١- القتل عبر إزهاق الروح.

٢- القتل عبر سلب الروح الإنسانية بسوء التربية والتوجيه، وأيضاً بطمس العقل والإرادة في نفس الإنسان، فإذا سلب الإنسان عواطفه الحسنة وشخصيته الإيمانية فإن ذلك أشد عليه مما لو قتل بزهق روحه أو إهدار دمه.

ولقد جاء في تفسير الآية الكريمة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]: «مَنْ أَخْرَجَهَا مِنْ ضَلَالٍ إِلَى هُدًى فَقَدْ

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٠ ص٣٠٠.

أَحْيَاهَا وَمَنْ أَخْرَجَهَا مِنْ هُدًى إِلَى ضَلَالٍ فَقَدْ قَتَلَهَا»[(١)].

والذي يزني فيتسبب في مجيء أبناء زنى يتربون في الشوارع كأنما قتلهم، لأنهم لن يجدوا أسرة تحتضنهم لتربيتهم، مما قد يحولهم إلى وحوش كاسرة على المجتمع، إذ تموت الصفات الخيرة والمواهب الفاضلة فيهم، و تنمو مقابلها كل صفات الشر، وهذا هو القتل المعنوي.

قال محمد بن سنان أن أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله: «وَ حَرَّمَ الزِّنَا لِمَا فِيهِ مِنَ الْفَسَادِ مِنْ قَتْلِ الْأَنْفُسِ وَذَهَابِ الْأَنْسَابِ وَ تَرْكِ التَّرْبِيَةِ لِلْأَطْفَالِ وَفَسَادِ الْمَوَارِيثِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الْفَسَادِ»[(٢)].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ من الطبيعي أن يلقى جزاء عمله، وجاء في الحديث: «أَثَامٌ وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ جَهَنَّمَ مِنْ صُفْرٍ مُذَابٍ قُدَّامَهُ حَرَّةٌ فِي جَهَنَّمَ يَكُونُ فِيهِ مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللهِ وَمَنْ قَتَلَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ وَ تَكُونُ فِيهِ الزُّنَاةُ»[(٣)].

[٦٩] ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ فكل عمل يلحقه جزاء بقدره وعذاب بامتداده، فلو كذب رجل على آخر سأل عن طريق فأرشده إلى غيره تعمدا، فإنه سيجازى أولاً على الكذب، وثانيا على العذاب والنصب العملي الذي سيواجه المكذوب عليه، و يكون الكاذب مسؤولا لو أصاب هذا الإنسان شيء في طريقه.

ولعل هذا هو معنى مضاعفة العذاب.

التوبة قرار وعمل

[٧٠] ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ إن رحمة الله واسعة جدا، فمهما فعل الإنسان من ذنوب كالزنا والقتل، إلا إنه سيجد باب الرحمة مفتوحا على مصراعيه للتائبين والمستغفرين -وليس هذا فحسب- بل الأعظم من ذلك أن الله يحول سيئات التائبين إلى حسنات يثابون عليها، ولعل سبب تحول السيئات إلى حسنات أن التائب سيجعل تذكره لها، وندمه على فعلها منطلقا للتصحيح، والمسارعة إلى معرفة أكبر، وإيمان أعمق، وكلما تذكر سيئة شعر بمسؤولية محوها، وإبدالها بعمل صالح، والشقي الشقي من حرم غفران الله بإصراره على الذنوب دون التوبة. إن

(١) تفسير العياشي: ج١ ص٣١٢، بحار الأنوار: ج٢، ص٢٠

(٢) بحار الأنوار: ج٧٦ ص٢٤.

(٣) مستدرك الوسائل: ج١٤ ص٣٣٢.

ذنوب العباد مهما كبرت وكثرت لأصغر وأقل من رحمة الله. جاء في حديث مروي عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية: «يُؤْتَى بِالْمُؤْمِنِ الْمُذْنِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَامَ بِمَوْقِفِ الْحِسَابِ فَيَكُونُ اللهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى حِسَابَهُ، لا يَطَّلِعُ عَلَى حِسَابِهِ أَحَداً مِنَ النَّاسِ، فَيُعَرِّفُهُ ذُنُوبَهُ حَتَّى إِذَا أَقَرَّ بِسَيِّئَاتِهِ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَتَبَةِ بَدِّلُوهَا حَسَنَاتٍ وَأَظْهِرُوهَا لِلنَّاسِ فَيَقُولُ النَّاسُ حِينَئِذٍ: مَا كَانَ لِهَذَا الْعَبْدِ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ...» الخبر[1].

حقا إن الأمل في رحمة الله، يجعل المؤمن يزداد لربه حبا، فيبتعد عن معاصيه. لذلك استفاضت آيات القرآن و نصوص السنة تؤكد رضوان الله، والحديث التالي يعكس مدى تعطف الرب لعباده، كما يبين كيف تساهم معرفة هذه الحقيقة في إصلاح البشر، يروى عن الإمام الرضا عليه السلام: «قِيلَ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وآله، يَا رَسُولَ الله هَلَكَ فُلَانٌ يَعْمَلُ مِنَ الذُّنُوبِ كَيْتَ وَكَيْتَ. فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله بَلْ قَدْ نَجَا وَلَا يَخْتِمُ اللهُ تَعَالَى عَمَلَهُ إِلَّا بِالْحُسْنَى وَسَيَمْحُو اللهُ عَنْهُ السَّيِّئَاتِ وَيُبَدِّلُهَا لَهُ حَسَنَاتٍ، إِنَّهُ كَانَ مَرَّةً يَمُرُّ فِي طَرِيقٍ عَرَضَ لَهُ مُؤْمِنٌ قَدِ انْكَشَفَ عَوْرَتُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ فَسَتَرَهَا عَلَيْهِ وَلَمْ يُخْبِرْهُ بِهَا مَخَافَةَ أَنْ يَخْجَلَ ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ الْمُؤْمِنَ عَرَفَهُ فِي مَهْوَاهِ فَقَالَ لَهُ: أَجْزَلَ اللهُ لَكَ الثَّوَابَ وَأَكْرَمَ لَكَ الْمَآبَ، وَلَا نَاقَشَكَ الْحِسَابَ فَاسْتَجَابَ اللهُ لَهُ فِيهِ فَهَذَا الْعَبْدُ لَا يُخْتَمُ لَهُ إِلَّا بِخَيْرٍ بِدُعَاءِ ذَلِكَ الْمُؤْمِنِ فَاتَّصَلَ قَوْلُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله بِهَذَا الرَّجُلِ فَتَابَ وَأَنَابَ وَأَقْبَلَ إِلَى طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَمْ يَأْتِ عَلَيْهِ سَبْعَةُ أَيَّامٍ حَتَّى أُغِيرَ عَلَى سَرْحِ الْمَدِينَةِ فَوَجَّهَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله فِي أَثَرِهِمْ جَمَاعَةً ذَلِكَ الرَّجُلُ أَحَدُهُمْ فَاسْتُشْهِدَ فِيهِمْ»[2].

[٧١] ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴾ يعني أن الذي يتوب ويعمل صالحا، فإنما يتوب إلى الله الرحيم.

صفات عباد الرحمن

١- لا يشهدون الزور

[٧٢] ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ إن عباد الرحمن لا يشهدون بالباطل زورا، ومن جانب آخر لا يطلقون الكلمة إلا في وقتها ومحلها المناسب، شعورا منهم بأن الكلام هو من عمل الإنسان، كما قال الرسول صلى الله عليه وآله لأعرابي سأله أن يوصيه: «قَالَ يَا رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله أَوْصِنِي، قَالَ صلى الله عليه وآله: احْفَظْ لِسَانَكَ، قَالَ يَا رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله أَوْصِنِي، قَالَ صلى الله عليه وآله: احْفَظْ لِسَانَكَ، قَالَ يَا رَسُولَ الله أَوْصِنِي، قَالَ صلى الله عليه وآله: احْفَظْ لِسَانَكَ، وَيْحَكَ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ

(١) بحار الأنوار: ج٧ ص٢٦١.
(٢) بحار الأنوار: ج٥ ص١٥٥.

إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[١]. وفي حديث آخر عنه ﷺ: «مَنْ رَأَى مَوْضِعَ كَلَامِهِ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ»[٢].

وفي بعض الروايات فِي قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قَالَ عليه السلام: «الْغِنَاءُ»[٣]، وروى الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام، عن عيسى بن مريم عليه السلام: «إِيَّاكُمْ وَمَجَالِسَ الْخَطَّائِينَ»[٤]، وفي تفسير علي بن إبراهيم: «قَالَ: الْغِنَاءُ وَمَجَالِسُ اللَّغْوِ»[٥]، وكما جاء في جامع الجوامع: «أي مجالس الفساق، ولا يحضرون الباطل»[٦].

هكذا تتسع دلالة الآية لتشمل كل باطل، فهم لا يشهدون الزور، لأنهم تدبروا في الحياة فعرفوا أن هناك هدفاً مقدساً لها، فسعوا إليه، فعزفت أنفسهم عن الباطل.

٢- يمرون باللغو كراما

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ فلا يتشدقون بالكلام الخاطئ أو غير الهادف، وكذلك لا يشاركون في اجتماعات اللهو واللعب، لأن وقتهم أثمن من ذلك، ولعلمهم أن الحياة فرصة لا تتكرر، فلابد من استغلالها، بسنينها وأيامها وساعاتها ودقائقها، كل ذلك اتقاء ليوم الندامة على التفريط في فرصة العمر.

وهم يمرون كراما على اللغو لأنهم يشعرون أنهم أكرم من اللغو، فكرامتهم وشرفهم يدعوهم لتجنب مجالس اللهو، وفي المجمع عن الباقر: «هُمُ الَّذِينَ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَ الْفَرْجِ كَنَّوا عَنْهُ»[٧] لعفة ألسنتهم.

٣- البصيرة والوعي

[٧٣] ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ البصيرة من الصفات البارزة لعباد الرحمن. إذ يتفكرون في آيات الله التي تتلى عليهم بحثا عن الحقيقة،

---

(١) الكافي: ج٢، ص١١٥.
(٢) الكافي: ج٢، ص١١٧.
(٣) الكافي: ج٦، ص٤٣١.
(٤) نور الثقلين: ج ٤، ص٤١.
(٥) تفسير القمي، ج٢، ص١١٦.
(٦) جوامع الجامع للطبرسي: ج٢، ص٦٦٣.
(٧) مجمع البيان: ج٧، ص٣١٥.

و طمعا في البصيرة، متأملين في شؤون الحياة على ضوئها، عاكفين على استنباط الأنظمة والتشريعات الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية، والتربوية وغيرها منها، علما منهم بأن من أنزل الآيات هو الذي خلق الحياة، وسن فيها القوانين والأنظمة.

يبدو أن ترك اللغو يوفر لهم وقتاً كبيراً. يملؤونه بالنشاط الفكري الرشيد. جاء في دعاء مكارم الأخلاق: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي رُوعِي مِنَ التَّمَنِّي وَالتَّظَنِّي وَالْحَسَدِ، ذِكْراً لِعَظَمَتِكَ، وَتَفَكُّراً فِي قُدْرَتِكَ، وَتَدْبِيراً عَلَى عَدُوِّكَ، وَمَا أَجْرَى عَلَى لِسَانِي مِنْ لَفْظَةِ فُحْشٍ أَوْ هُجْرٍ أَوْ شَتْمِ عِرْضٍ أَوْ شَهَادَةِ بَاطِلٍ أَوِ اغْتِيَابِ مُؤْمِنٍ غَائِبٍ أَوْ سَبِّ حَاضِرٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ نُطْقاً بِالْحَمْدِ لَكَ، وَإِغْرَاقاً فِي الثَّنَاءِ عَلَيْكَ، وَذَهَاباً فِي تَمْجِيدِكَ، وَشُكْراً لِنِعْمَتِكَ، وَاعْتِرَافاً بِإِحْسَانِكَ، وَإِحْصَاءً لِمِنَنِكَ**»[1].

وروى أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام: في تفسير الآية هذه قال: «**مُسْتَبْصِرِينَ لَيْسُوا بِشُكَّاكٍ**»[2].

ولكن أين المسلمون الآن من هؤلاء؟!.

فلو تطلعنا إلى واقع الأمة الإسلامية لرأينا أكثر المسلمين ممن يخرون على آيات الله صما وعميانا، يرتلونها مبدعين، ولكنهم لا يفقهون معانيها ولا يدركون مدلولاتها، بل لا يتدبرون فيها ليطبقوها على سلوكهم، ومن ثم على مجتمعهم.

٤- الطموح الكبير

[٧٤] ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾ إن العلاقة بين طلب الأزواج والذرية الصالحة، وبين طلب الإمامة والقيادة لدى عباد الرحمن، تتجلى في طموحهم نحو امتداد رسالتهم في ذريتهم وأيضاً في من يلتقون بهم من الناس، فيصبحون قدوة للمتقين، و المتقون -بدورهم- طليعة المجتمع، فهم يطمحون أن يكونوا قدوة الطليعة وليس الطليعة فحسب.

وتدل الآية الكريمة على ما يحملون من روحية التنافس على الخير، ففي المجتمع الرحماني يتطلع الكل لأن يصبح أفضل في مجال الخير والعمل.

---

(١) الصحيفة السجادية: دعاء مكارم الأخلاق.

(٢) الكافي: ج٨ ص١٧٨.

وجاء في أحاديث أئمة آل البيت عليهم السلام أن الكلام إياهم عني، وهم تأويلها. وجاء في حديث شريف: عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «وَالله مَا سَأَلْتُ رَبِّي وَلَداً نَضِيرَ الْوَجْهِ وَلَا وَلَداً حَسَنَ الْقَامَةِ، وَلَكِنْ سَأَلْتُ رَبِّي وُلْداً مُطِيعِينَ لله خَائِفِينَ وَجِلِينَ مِنْهُ، حَتَّى إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ مُطِيعٌ لله قَرَّتْ بِهِ عَيْنِي. قَالَ: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قَالَ: نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا مِنَ الْمُتَّقِينَ فَيَقْتَدِي الْمُتَّقُونَ بِنَا مِنْ بَعْدِنَا»(1).

[٧٥-٧٦] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ حيث يستقبلهم الله بغرفات مبنية من الذهب والفضة، ومن الياقوت والدر، ويلقون فيها تحية وسلاما من الله وملائكته، والغرفة الأماكن العالية في الجنة، كما أن السلام يتجلّى في: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

وتوحي هذه الآية إلى فكرة هامة وهي، أن تحقيق الطموح وبلوغ الأهداف يحتاج إلى كثير من الصبر، فالطموح الأجوف والتطلع الميت لا يجدي نفعا، والإنسان لا يجزى على تطلعه بمقدار ما يجزى على سعيه في تحقيق ذلك التطلع وما نستوحيه من الآية أن الجزاء يكون على الصبر في سبيل الأهداف السامية.

٥- الدعاء معراج المؤمن

[٧٧] ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ الدعاء هو جسر الارتباط مع الله، ومما يميز عباد الرحمن دعاؤهم، فهم بجانب العمل والسعي يهتمون بالدعاء، إيمانا منهم بأن توفيق الله أفضل من عملهم، بل هو روح العمل التي توصله إلى أبواب الجنة.

إذ لا فائدة من عمل لا خشوع لله فيه، ومن طلب الحساب على عمله دون فضل الله خسر، والرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لا يدخل الجنة بعمله، وإنما بفضل الله فلو حاسب الله الناس بأعمالهم ما دخل أحد الجنة.

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ عندما ينصرف الناس عن الله، ولا يتوجهون له بالدعاء والتضرع، فإنه ينزل عليهم العذاب، وكما في الحديث إن: «الصَّدَقَةُ تَدْفَعُ الْبَلَاءَ الْمُبْرَمَ... »(2). و: «إِنَّ الدُّعَاءَ يَرُدُّ الْقَضَاءَ الْمُبْرَمَ بَعْدَ مَا أُبْرِمَ إِبْرَاماً»(3).

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٤، ص١٣٢.

(٢) وسائل الشيعة: ج٢ ص٤٣٣

(٣) مستدرك الوسائل: ج٥ ص١٧٦.

سُورَةُ الشُّعَرَآءِ

* مكية.
* عدد آياتها: ٢٢٧.
* ترتيبها النزولي: ٤٧
* ترتيبها في المصحف: ٢٦.
* نزلت بعد سورة الواقعة.

فضل السّورة

عن النبي محمد ﷺ قال: «أُعْطِيتُ السُّورَةَ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا البَقَرَةُ مِنَ الذِّكْرِ الأَوَّلِ، وَأُعْطِيتُ طَهَ وَطَوَاسِينَ مِنْ أَلْوَاحِ مُوسَى، وَأُعْطِيتُ فَوَاتِحَ القُرْآنِ وَخَوَاتِيمَ السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا البَقَرَةُ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ، وَأُعْطِيتُ المُفَصَّلَةَ نَافِلَةً».

(مجمع البيان: ج٧، ص ٣١٨)

***

روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُوَرَ الطَّوَاسِينِ الثَّلَاثَ فِي لَيْلَةِ الجُمُعَةِ كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الله وفِي جِوَارِ الله وكَنَفِهِ ولَمْ يُصِبْهُ فِي الدُّنْيَا بُؤْسٌ أَبَداً وأُعْطِيَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الجَنَّةِ حَتَّى يَرْضَى وفَوْقَ رِضَاهُ وزَوَّجَهُ اللهُ مِائَةَ زَوْجَةٍ مِنَ الحُورِ العِينِ».

(وسائل الشيعة: ج٧، ص٤١١)

الإطار العام

حقيقة الصراع بين رسالات الله وثقافة البشر

سميت هذه السورة باسم (الشعراء) لأن السورة تتحدث عن رسالات الله في مواجهة ثقافات البشر.

تدور آيات هذه السورة حول رسالات الله، على نهج سورة الفرقان ولكن بتفصيل أكثر، وضمن بيان الصراع بينها وبين الكيانات الجاهلية ذات الثقافة المنحرفة.

وبعد أن تذكرنا فاتحة السورة بالله تعالى، تبين حرص النبي على هداية الناس، وتؤكد أن الله لا يكرههم على الهدى،وتبين من صفات الرب اسمي (العزة والرحمة) اللذين يتجليان في الطبيعة وفي الصراع.

ويقص علينا السياق أنباء النبيين، وتنتهي كل قصة بذكر هذين الاسمين الكريمين، وتؤكد بأن في تلك القصص آيات،ولكن أغلب الناس لا يؤمنون.

وتنتهي السورة بأمر الرسول بالتوكل على العزيز الرحيم.

في قصة النبي موسى عليه السلام يأمر الله موسى بحمل رسالته إلى فرعون، ويبين موسى عقبات الطريق، والله ينفيها بـ(كلاّ)، ويعده بالنصر، ويحاور النبي موسى فرعون برسالة الله، ويجادل فرعون بما يملك من قوة.

ويبدو أن لكل رسالة محتوى اجتماعي، هدفه إصلاح نوع الفساد المنتشر في المجتمع، فقد حارب النبي موسى عليه السلام العنصرية والاستكبار، والنبي إبراهيم عليه السلام الوثنية والرجعية، والنبي نوح عليه السلام الطبقية والعناد، والنبي هود عليه السلام العبثية والتجبر، والنبي صالح عليه السلام الإسراف والفساد، والنبي لوط عليه السلام الشذوذ والإباحية، والنبي شعيب عليه السلام الغش والتطفيف. ولعل

هذه المفاسد متدرجة في خطورتها حسب هذا الترتيب الذي نجده في سورة الشعراء.

ويجري الحوار بين النبي وقومه، ويعاندونه، ويهددونه، وفي لحظة الحسم ينصر الله النبي والمؤمنين، ويأخذ الكافرين بعذاب شديد، ولعل العذاب يتناسب ونوع الفساد.

ويبدأ النبي بالتذكرة بالله، والأمر بتقواه وطاعته، وينذرهم عذاب ربهم.

ويؤكد الأنبياء عليهم السلام على أنهم لا يطالبونهم بأجر، وإنما أجرهم على الله، وبالتالي لا يدعون للناس مجالاً للشك في صدق رسالاتهم. و بالإضافة إلى ذلك، فإن هناك شواهد على صدق رسالات الله، فهي تدعو إلى الله، وتتعالى على حواجز الدم والأرض والزمن، وهي تتحدى بقوة الله كل القوى مما يستحيل على البشر، وتحارب الفساد الأكبر في المجتمع.

ويد الغيب تمتد لنصرتهم في الوقت المناسب بإهلاك أعدائهم، هذا بالإضافة إلى قوة الحجة، وسلامة السلوك، والمعاجز الظاهرة؛ كالعصى، والناقة، وخمود النيران، وانفلاق البحر، والطوفان.

إن الصراع الدائر بين رسالة الله وثقافة الأرض، صراع ممتد عبر الزمن، لأن رسالات الله تهدف تغيير كل القيم الجاهلية، وإقامة كيان ثقافي جديد.

فحينما يدعو الأنبياء عليهم السلام شعوبهم إلى التسليم والإيمان بالله، فإنهم يدعونهم في ذات الوقت إلى التسليم لكل القيم الإلهية التي تحمل التحضر والتمدن لأولئك الناس الذين سلموا لخرافات الماضي، وفساد الواقع.

وبالرغم من أن الرسل عليهم السلام قد تحملوا الصعوبات في سبيل تبليغ رسالاتهم، إلا أنهم استطاعوا أن يغيروا أفكار البشرية، حتى أن الأفكار الصحيحة التي نجدها في الأقوام الجاهلية لابد أن يكون الدين الإلهي مصدرها، لأن الرسل كانوا بحق المحرك الأساسي للتاريخ البشري، وإلا فإن البشرية كانت تسير بشكل طبيعي نحو النهاية.

ومن هنا؛ كان لزاماً علينا أن نقف ويقف معنا التاريخ كله إجلالاً لذلك الفكر الذي يصيغ أجيالاً مؤمنة، وأن نقف إجلالاً أمام صبر الرسل وتضحياتهم.

وفي سياق تبيان الصراع بين رسالات الله وثقافة الشعراء، يضرب لنا الرب مثلاً من قصة النبي إبراهيم عليه السلام وقومه،وكيف أوحى الله إليه بمقاومة الفساد العريض الذي تردّوا فيه، فعبدوا الأصنام؛ وحين سألهم إبراهيم عليه السلام عن ذلك، لم يحروا جواباً، وأصروا على التمسك بدين آبائهم الجهلة، فأعلن البراءة منهم..

ويؤكد النص القرآني الخاص بهذه السورة الشريفة أن محتوى رسالات الله واحد، وإنما اختلف ظاهره بحسب اختلاف الظروف، لأن كل رسالة استهدفت إصلاح الفساد المستشري في المجتمع الذي أنزلت فيه، وكذب كل قوم رسولهم، فانتصر الله للرسول وللمؤمنين، وأهلك الكافرين بعذاب شديد.

أما الدرس المهم الآخر الذي تعكسه آيات السورة؛ فهو أنها تحدد معالم الرسالة الإلهية وخصائصها المميزة، وتحصر في خمس نقاط، هي:

١- أنها لا تختص بقوم أو أرض أو زمن.

٢- وأنها رسالة حق تعكس حقائق الحياة المادية والمعنوية، وتمتد من الدنيا إلى الآخرة.

٣- وأنها تهدف الإصلاح الجذري الذي ينتهي إلى اقتلاع الفساد والانحراف كلية.

٤- وأنها تخاطب الناس بلغتهم، بالضد للغة الشعراء الغامضة المعقدة. فالرسالة لغة الواقع لكشف الحقائق، كما هي للناس.

٥- وأن خطها ممتد عبر العصور من آدم عليه السلام إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله ويشهد بها ولها العلماء المنصفون.

وفي خاتمة السورة يبين ربنا أن القرآن أنزله رب العالمين، نزل به الروح الأمين، وبلغة عربية مبينة، وقد شهد على صدقه علماء بني إسرائيل.

وبعد أن بين الفروق الأساسية بين وحي الحق، وأفكار الشيطان، أمر الله تعالى الرسول بإنذار عشيرته، والعطف على المؤمنين، والبراءة من العصاة، والتوكل على العزيز الرحيم. بعدئذٍ يبين القرآن ميزات وحي الشيطان الذي يتنزل على كل أفاك أثيم، وأن الشعراء (أدعياء العلم والدين) إنما يتبعهم الغاوون، وينعتهم بالاسترسال و اللامسؤولية. وتختم السورة ببيان الفوارق الكبيرة بين رسالات الرب، وبين ما يوحيه الشيطان.. وتبين أن محور رسالات الله هو التوحيد، كما يمضي السياق قدماً في شرح صفات الرسول النابعة من هذا المحور. فهو رسول نذير لأقرب الناس إليه وهم عشيرته، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، ويعلن براءته من العصاة؛ متوكلاً على العزيز الرحيم.

ومن جانب آخر، يهبط الشيطان على كل كذاب فاجر..

وحقاً إن المراد من الشعراء في هذه السورة ليس خصوص من أنشد شعراً، إنما يشمل كل من اتبع خياله وترك وحي الله؛ كفلاسفة اليونان، والعرفاء المتأثرون بهم، والمتصوفة، وطائفة

من المتكلمين، وبعض المتفقهين من علماء السوء، وأنصاف المثقفين الذين يتبعون أهواءهم وأهواء من يدفع إليهم ويرشوهم ويشتري أقلامهم، ليغيروا دين الله ويخالفوا أمره.

بلى؛ هناك فئة من (الشعراء) مؤمنة صالحة، تذكر الله كثيراً، لئلا يخدعها الشيطان، وإذا ظلم الجبارون أفراد هذه الفئة لقولهم الحق، فهم ينتصرون، وإن عاقبة الظلم هي الخيبة والبوار، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

إنا معكم مستمعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ(١) نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ(٢) إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٩) وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥)﴾.

هدى من الآيات:

كلما ازدادت معرفتك بالله كلما توسعت آفاق إيمانك، وعرفت المزيد من أسرار السماوات والأرض، وهكذا كان: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ»(٣).

وتفتتح هذه السورة التي تحدثنا عن رسالات الله كما سورة الفرقان بالتذكرة بالله لأنها

(١) باخع: أي مهلك أو قاتل نفسك أسفاً.

(٢) محدث: جديد.

(٣) نهج البلاغة: خطبة: ١.

السبيل إلى معرفة الوحي.

ويمضي السياق في بيان حرص النبي على هداية قومه،حتى ليكاد يهلك نفسه، ويسليه بأن حكمة الله قضت بأن يكون الناس أحرارا، وإلا فهو قادر على أن ينزل عليهم آية يكرههم بها على الإيمان، ولكنهم لن يهربوا من جزاء أعمالهم.

ويعود السياق يذكرنا بربنا الذي أنبت الأرض من كل زوج بهيج، لعلنا نهتدي إلى ربنا بهذه الآية، ونعرف أنه العزيز الرحيم، ونعرف بالتالي أنه أرسل بعزته ورحمته أنبياء، فقد أمر موسى عليه السلام بأن يأتي الظالمين من قوم فرعون، ويحذرهم عذاب الله، ولكن موسى خشي تكذيبهم، وخاف أن يضيق صدره، ولا ينطلق لسانه بكل معاني الرسالة، وطلب أن يكون أخوه هارون معه رسولا، وطلب العون من الله لمواجهة خطر الموت على يدهم، لأنه قتل منهم شخصا، وجاءه النداء: كلا.. وعاد الرب وأمره بالذهاب إليهم، وطمأنهم بأنه سيكون معهم.

بينات من الآيات:

[١] ﴿طسٓمٓ﴾ تحدثنا عن الحروف المقطعة في القرآن أكثر من مرة، وقلنا: أنها إشارة إلى القرآن، وأنها رموز بين الله وأوليائه.

وجاء في الحديث المأثور عن الصادق عليه السلام: «**وَأَمَّا ﴿طسٓمٓ﴾ فَمَعْنَاهُ أَنَا الطَّالِبُ السَّمِيعُ المُبْدِئُ المُعِيدُ**»[1].

[٢] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ تأتي هذه في الجملة الأغلب بعد الحروف المقطعة، مما يدعونا إلى الاعتقاد بأن المعنى الظاهر لتلك الحروف هو الإشارة إلى القرآن وحروفه.

[٣] لأن إخلاص الرسول شديد لرسالة ربه، وحرصه على مصلحة الناس عظيم، فهو يكاد يهلك نفسه حينما يرى كفر الناس بالرسالة ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

[٤] ولكن هل الرسول قادر على ما يريده من إيمان الناس بالرسالة من دون إذن الله، كلا.. لأن الله منح الناس حرية القرار، ولم يرد إكراههم على الإيمان، ودليل ذلك أنه لا ينزل عليهم عذابا غليظا يجعلهم خاضعين للحق.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ ولكن ربنا شاء أن يؤمنوا بكامل حريتهم، ولو أنزل عليهم عذابا فآمنوا خشية وقوعه عليهم لم يكن ينفعهم إيمانهم، إنما

(١) بحار الأنوار: ج٨٩ ص٣٧٣.

ينفع الإيمان إذا جاء بلا إكراه.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال وهو يتحدث عن الأنبياء وحكمة الابتلاء: «**وَلَوْ أَرَادَ اللهُ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ- بِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ، أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ، وَمَعَادِنَ الْعِقْيَانِ، وَمَغَارِسَ الْجِنَانِ، وأَنْ يَحْشُرَ طَيْرَ السَّمَاءِ، ووَحْشَ الأَرْضِ مَعَهُمْ لَفَعَلَ، ولَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلاءُ، وبَطَلَ الْجَزَاءُ، واضْمَحَلَّتِ الأَنْبَاءُ، ولَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلَيْنَ، ولَا لَحِقَ الْمُؤْمِنِينَ ثَوَابُ الْمُحْسِنِينَ، ولَا لَزِمَتِ الأَسْمَاءُ أَهَالِيَهَا عَلَى مَعْنًى مُبِينٍ، ولِذَلِكَ لَوْ أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ، ولَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلْوَى عَنِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[1].

[٥] رسالات الله تستثير العقل، وتستنهض الفطرة، وتطهر القلب من رواسب التقليد، وتفك القيود والأغلال التي تمنع الانطلاق، وأولئك الذين يكفرون بها إنما يعرضون عن ذكرهم، ويتشبثون بالتقاليد البالية.

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ وقد سمى الله القرآن ذكرا لأنه يقوم بدور المنبه للإنسان، كمن يمشي في ظلام وهو يملك مصباحا غفل عنه، فيأتيه من يذكره بمصباحه ﴿مُحْدَثٍ﴾ بالرغم من أن رسالات الله واحدة عبر القرون حتى إن الجاهلين قالوا: إن هي إلا أساطير الأولين، إلا أن الذكر القرآني محدث، وجديد، لماذا؟.

أولاً: لأن القرآن جاء بعد هجعة من البشر، حيث فترت علاقاتها بالقيم، فكان ذكرا جديدا.

ثانياً: لأن رسالات الله تدعو إلى العقل، والعقل إمام الإنسان الذي يقوده إلى الأمام أبدا، والذي يفك به البشر قيود التقليد، وأغلال الجمود، لذلك كانت تصطدم الرسالات الإلهية بالتقاليد حيث كانوا يعرضون عنها ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾.

[٦] إنهم تشبثوا بالماضي واستهزؤوا بالمحدث، فكذبوا بالرسالة، و سيأتيهم خبرها: أنها ستعلو على باطلهم، وسيندمون ولكن عبثا؛ ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

[٧] ولو نظروا في آيات الله، وعرفوا ربهم من خلالها، وآمنوا بأسمائه الحسنى، لما كذبوا.

لو كانت نظرة الإنسان إلى الخلق من حوله سليمة لعرف صدق رسالات الله، لأنها تعبير

(١) الكافي: ج٤ ص١٩٨.

صادق عن سنن الله في خلقه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ سر في الأرض، واطلع على حقل ناضر، وقف عند شجرة مثمرة، ماذا ترى؟ أنها جد متكاملة، تضرب بجذورها في الأرض، وتقوم على ساقها الغليظة. وتنشر فروعها من حولها بتناسق، وتتحدى الرياح و الأنواء والآفات بعشرات من الأنظمة التي أودعها الرب فيها، ثم ماذا ترى؟ ترى أن هذه الشجرة - بالرغم من تكاملها الكريم - بحاجة إلى زوج تتكامل به. كيف جعلها الله غنية وكريمة من كل جانب، وكيف جعلها محتاجة إلى غيرها في هذا الجانب بالذات.

أو ليس في ذلك دليل يهدينا إلى ربنا، وإلى أنه رحيم، وآية رحمته تكاملية نعمه وشموليتها، وأنه عزيز وآية عزته أنه جعل كل شيء في الخلق محتاجا إلى غيره، فخلق من كل شيء زوجين اثنين ليهدينا إلى أنه وحده العزيز الغني سبحانه.

[٨] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ إنها تكفي الإنسان حجة لو بحث عن الحجة، ودليلا لو أنه اهتدى بدليل، ولكن أكثر الناس لا يبحثون عن حجة، ولا يريدون دليلا.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فلا تنتظر إيمان الناس حتى تؤمن معهم، إنما بادر إلى التسليم للحق.

[٩] إن عزة الله تتجلى في سنة (الزوجية) بينما تتجلى رحمته في الكرامة التي أسبغها على الأشياء، فلم يمنع عن الناس حاجاتهم، بل أودع في الأرض ما ينفعهم، وكما خلق حاجة في هذا الطرف خلقها في الطرف الثاني، فلم يزل هذا بذاك، وذاك بهذا.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ والنفس المؤمنة تعيش التوازن بين اسمي العزة والرحمة، أي بين الخوف من غضب الله، والرجاء لرحمته، وأكثر الناس تغرهم رحمة الله، فيغفلون عن عزته، يقول الدعاء: «**إِلَهِي أَذْهَلَنِي عَنْ إِقَامَةِ شُكْرِكَ تَتَابُعُ طَوْلِكَ وَأَعْجَزَنِي عَنْ إِحْصَاءِ ثَنَائِكَ فَيْضُ فَضْلِكَ وَشَغَلَنِي عَنْ ذِكْرِ مَحَامِدِكَ تَرَادُفُ عَوَائِدِكَ**»[١].

وجاء في دعاء آخر: «**وَيَحْمِلُنِي وَيُجَرِّئُنِي عَلَى مَعْصِيَتِكَ حِلْمُكَ عَنِّي وَيَدْعُونِي إِلَى قِلَّةِ الْحَيَاءِ سَتْرُكَ عَلَيَّ وَيُسْرِعُنِي إِلَى التَّوَثُّبِ عَلَى مَحَارِمِكَ مَعْرِفَتِي بِسَعَةِ رَحْمَتِكَ وَعَظِيمِ عَفْوِكَ**»[٢].

إنما المؤمنون يقاومون هذه الغفلة بذكر نعماء الله، والتنبه إلى احتمالات ذهابها.

(١) الصحيفة السجادية: مناجاة الشاكرين.

(٢) البلد الأمين: ص٢٠٦. من دعاء أبي حمزة الثمالي.

[١٠] و من آيات رحمة الله أنه بعث أنبياءه إلى عباده الظالمين، أو ليس الظلم ينغص النعم، ويستدرج العذاب؟ فمن أولى من الرب الرحيم بأن يبعث إلى عباده من ينذرهم عاقبة ظلمهم ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ النداء الواضح الذي لا يرتاب فيه السامع، ولا يختلط بحديث النفس أو وساوس القلب، يهبط هذا النداء إلى موسى من الرب الذي لا تزال نعمه تتواتر على البشر، طوراً فطوراً، ومرحلة بعد أخرى.

[١١] والهدف واضح هو مقاومة الظلم، ليس لمصلحة المظلومين فقط، وإنما أيضا لمصلحة الظالمين الذين سيهلكهم ظلمهم.

لقد عاش موسى ردحا من عمره بين أولئك الظالمين، دون أن يحمل رسالة، إنها -إذا- رسالة الله، وليست من عبقرية موسى.

﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ هؤلاء الذين يظلمون الناس لماذا لا يخشون عذاب ربهم ويتقونه؟!.

[١٢] وأول ما يخشاه الإنسان قبل أن يشرع في العمل هو الفشل، فكثير من الناس يتركون العمل لمجرد الخشية من فشلهم فيه، ولأن القرآن يعالج كل أمراض البشر، ولأن هذه السورة المباركة برنامج عمل متكامل للدعاة إلى الله، فإنها تفصل القول في العقبات التي لا بد من تذليلها عبر قصة موسى وهارون. كيف دعوا إلى الرب.

وتهدينا هذه الآية:

أولاً: إلى ضرورة مقاومة خوف الفشل، الذي يعتري حتى الأنبياء قبل اعتصامهم بالله ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ وتأتي في نهاية السياق معالجة هذا الخوف بقوله سبحانه: ﴿كَلَّا ﴾.

[١٣] ثانياً: حمل رسالات الله إلى الظالمين لا يتم بسهولة، إنما يسبب المزيد من الصعاب لحاملها، و بالرغم من أن قدرات الفرد تتسع لكل تلك الصعاب إلا أن المقياس هو مدى قدرة استيعاب صدره لمشاكل العمل ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾.

ثالثاً: لعل شدة تكذيب الناس تكون سببا في انعقاد اللسان، أو أن هذا التكذيب بحاجة إلى لسان طلق بليغ.

وقالوا: كان موسى عليه السلام ألثغا، حيث لم يكن قادرا على الإفصاح عن بعض الحروف. وإذا كان الأمر هكذا فإن الدرس الذي يعطيه السياق هنا هو: إن هناك معوقات جسمية قد

تقف حاجزا دون القيام برسالة الله، وعلينا تحديها.

﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ إن حمل رسالات الله بحاجة إلى إعلام قوي، وكان موسى عليه السلام يعلم مدى صعوبة الأمر، فبادر إلى طلب المساعدة في هذا الحقل بالذات.

[١٤] رابعاً: ليس بالضرورة أن يكون حامل الرسالة مقبولا حسب الأعراف والقوانين المرعية في البلد، وليست تلك عقبة كأداء لا يمكن تجاوزها. إذا استصغرك القوم، أو استهزؤوا بك، أو حتى إذا اعتبروك مجرما فلا تأبه، وامض في طريقك، فهذا النبي العظيم موسى بن عمران يعتبر من الناحية القانونية خارجا على الشرعية، وهو من عنصر مستضعف ومستعبد، وقد قتل منهم واحدا، مما يعرضه للقصاص حسب قوانينهم، ومع ذلك يؤمر بحمل الرسالة.

لقد قال موسى وهو يعبر عن هذه العقبة: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

[١٥] تلك كانت العقبات اجتمعت أمام موسى. دعنا نستمع إلى الرب و هو ينسفها بكلمته نسفا: ﴿قَالَ كَلَّا﴾ إنها ليست عقبات في الواقع بقدر ما هي مخاوف في النفس، لا تلبث أن تتلاشى بالتوكل على الله.

أولست أنت وأخوك تحملان رسالات الله فلماذا الخوف إذا؟!.

﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ ذلك هو ضمان الانتصار.

فمن كان مع الله كان الله معه، ومن كان الله معه فلا قوة في الأرض تقف أمامه.

وأنت أيها الداعية الكريم تجرد عن ذاتك في الله، وهب لله نفسك وما تملك تجد الله نعم المولى ونعم النصير.

إنا رسول رب العالمين

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ[1] بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ[2] فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

هدى من الآيات:

يحاور موسى برسالات ربه فرعون وقومه، بينما يجادل فرعون معتمداً على منطق القوة.

يذهب موسى وأخوه إلى فرعون بأمر ربهما قائلين: إنا رسول رب العالمين، مطالبين بتحرير بني إسرائيل ويجادل فرعون بحجج ثلاث:

---

(١) عبَّدت: عبده وأعبده إذا اتخذه عبد وعبدت أي جعلتهم عبيداً مضطهدين.

(٢) ونزع يده: أي أخرجها.

أولاً: أنه ولي نعمته، فكيف يخرج من طاعته؟!.

ثانياً: أنه قد قتل منهم وهو كافر (به أو بقوانين بلاده) فيرده موسى بأنه لم يكن كافرا، بل كانت تنقصه هداية الرب ورسالاته، وإنما هرب منهم خشية بطشهم، أما الآن فالأمر مختلف، لقد وهب الله له حكما فأصبح قائدا وعلى فرعون طاعته، وجعله مرسلا وعلى الناس طاعته، و أضاف: إن استعباده لبني إسرائيل (وكان منهم) ليس منة يمنها عليه، و بالتالي ليس من الصحيح أن يمن عليه بأنه لبث عنده من عمره سنين.

ثالثاً: يجادل فرعون حين يسأل عن رب العالمين -ولعله سأله عن ماهيته- فيجيبه موسى: بأنه ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولكنه استهزأ قائلا لمن حوله: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ إشارة إلى عدم اقتناعه، فأضاف موسى: بأن الله ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فعاد فرعون يسخر منه قائلا: إنه ﴿لَمَجْنُونٌ﴾، واستمر موسى قائلا: إن الله ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾.

فلما رأى قوة منطق موسى توسل بمنطق القوة وقال: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾.

وتحدى موسى إرهابه قائلا: إني أملك برهانا، فلما طالبه به ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، وأخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء للناظرين.

تلك هي رسالات الله، وذلك منطقهم الحق.

بينات من الآيات:

منطق الرسل

[١٦] لقد استجاب الرب لطلب موسى بأن يجعل له وزيرا من أهله، فبعثه هو وأخاه هارون إلى فرعون.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لقد كانت رسالة واحدة، يحملها اثنان، ولعله -لذلك- جاء التعبير هكذا: ﴿إِنَّا رَسُولُ﴾ ولم يأت (إنا رسولا) و لقد كان الرسول هو موسى، بينما كان هارون وزيره، والوحي كان يهبط عليه دونه، وكان ينوب عنه عند غيابه.

وجاء في حديث طويل مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام عن كيفية ذهاب موسى إلى باب قصر فرعون، تقول الرواية: «... **فَغَدَا إِلَى فِرْعَوْنَ فَوَ اللهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ طَوِيلَ الْبَاعِ ذو [ذَا]**

شَعْرٍ آدِمَ عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ عَصَاهُ فِي كَفِّهِ مَرْبُوطٌ حِقْوُهُ بِشَرِيطٍ نَعْلُهُ مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ شِرَاكُهَا مِنْ لِيفٍ فَقِيلَ لِفِرْعَوْنَ إِنَّ عَلَى الْبَابِ فَتًى يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِصَاحِبِ الْأَسَدِ: خَلِّ سَلَاسِلَهَا. وَكَانَ إِذَا غَضِبَ عَلَى أَحَدٍ خَلَّاهَا فَقَطَعَتْهُ فَخَلَّاهَا، وَقَرَعَ مُوسَى الْبَابَ الْأَوَّلَ وَكَانَتْ تِسْعَةُ أَبْوَابٍ فَلَمَّا قَرَعَ الْبَابَ الْأَوَّلَ انْفَتَحَ لَهُ الْأَبْوَابُ التِّسْعَةُ فَلَمَّا دَخَلَ جَعَلْنَ يُبَصْبِصْنَ تَحْتَ رِجْلَيْهِ كَأَنَّهُنَّ جِرَاءٌ فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِجُلَسَائِهِ: رَأَيْتُمْ مِثْلَ هَذَا قَطُّ...»[1].

[١٧] لرسالات الله شواهد منها عليها، ومن شواهدها تحدي أكبر فساد في المجتمع، دون خلاف أو مداهنة، لقد تحدى نوح عليه السلام الطبقية، وإبراهيم عليه السلام الوثنية، ومثله فعل النبي محمد صلى الله عليه وآله ولوط تحدى الفساد الخلقي، بينما واجه شعيب الفساد الاقتصادي وهكذا، أما موسى عليه السلام فقد حارب العنصرية، و طالب فرعون بتحرير بني إسرائيل الذين كان قد استضعفهم قائلا: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

منطق الطغاة

[١٨] يبدو من السياق أن فرعون - شأنه سائر شأن الطغاة - حاول أن ينسب نعم الله إلى نفسه، ويمن على موسى بأنه أنعم عليه بالتربية و التغذية ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ فلماذا خرجت على أسس المجتمع وقيمه ما دمت تربيت في أحضانه، و تغذيت من أفكاره وثقافته، ولعلنا نستوحي من هذه الآية مدى اعتماد الطغاة على عامل التربية في إفساد ضمير الناس، وبالرغم من أهمية هذا العامل إلا إن رسالات الله تتحداه، فإذا بموسى الذي كان ينسب إلى فرعون عند الناس حينا يخرج عليه، ويهدم سلطانه، وإذا بمؤمن آل فرعون يعيش في بلاطه ثم يثور عليه، وإذا بزوجته آسية بنت مزاحم تكون نصيرة الحق، وتضحي بنفسها في سبيل الله، وإذا بأصحاب الكهف وهم وزراء طاغوت دهرهم (دقيانوس) ينقلبون إلى ربهم.

ثم قال فرعون: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ وهكذا يقول الطغاة: ألم نعبد الشوارع، ونبني المستشفيات. ألم يتخرج من جامعاتنا كذا طالب، ألم يتقدم اقتصاد بلادنا؟!.

إنهم يخطئون مرتين:

أولاً: حين يجعلون التقدم المادي دليلا على سلامة نهجهم، بينما التقدم المادي قد يكون وليد عوامل أخرى كانبعاث آبار البترول، أو جودة موسم الزراعة، أو حتى جهود الناس من علماء، و مدراء، وتجار، وعمال، وفلاحين. الناس يعملون والحكام يفتخرون، وإنما فخر الحكام

(١) بحار الأنوار: ج١٣، ص١٣٣.

بإشاعة العدل، والمحافظة على الحرية، وتوفير فرص الكمال الروحي.

ثانياً: حين يعطون الناس أرقاما خاطئة، ويذكرون فقط الجوانب المشرقة ويسكتون عن الجوانب السلبية، ويرهبون من يتحدث عنها حتى لا تبدو فضائحهم.

لقد من فرعون على موسى أنه سمح له بأن يعيش مستضعفا في بلاده، و كأن القاعدة كانت تقضي بقتل موسى، أما أن يبقي حيا يتنفس فإنها نعمة يمن بها عليه.

[١٩] وذكره بقتل القبطي، واعتبرها جريمة كبيرة تجعل صاحبه في مصاف الكفار، فقال: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

إن حكام الجور يضعون قوانين يحكمون بها سيطرتهم على الناس، ثم يعتبرون الخروج عليها جريمة بل كفرا -ولعل فرعون أراد أن يعير موسى بأنه لم يكن يومئذ يؤمن بالله- ويفتشون في ملف الثائرين ليجدوا فيها ثغرة يدخلون منها عليهم، وينسون أن بقاءهم في السلطة رغما على الناس أكبر جريمة، وأعظم كفرا.

وقد يكون القانون سليما، ولكن لا يحق للسلطان الجائر أن يكون منفذا له. إذ إن سلطته ليست شرعية، وحين ينفي الثائر شرعية السلطة لا ينبغي الحديث عما يترتب عليها من الأنظمة السائدة.

ولكن الطغاة يريدون تضليل الناس بذلك، وعلى الرساليين ألا يأبهوا بذلك أبدا، ويعيدوا إلى أذهان الناس أصل وجود النظام، والذي لو لم تثبت شرعيته لا يحق له تنفيذ القانون، بل تنفيذ القانون بذاته يصبح جريمة تسجل عليه وعلى أركانه.

[٢٠] لقد قتل موسى القبطي الذي أراد سخرة الإسرائيلي، ولعله كان يقتله إن لم يقبل بسخرته، وبذلك كان الرجل يستحق القتل بحكم القيم الحق التي فطر الله الناس عليها، وجاءت بها شرائع الله. أوليس من قتل دون نفسه أو عرضه أو ماله فهو شهيد؟.

ويبدو أن موسى تجاوز الحديث عن مقتل القبطي، وركز على أمرين:

الأول: أنه لم يكن كافرا بالله يومئذ (إن كان مراد فرعون بقوله: ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الكفر بالرب) وإنما كان ضالا بسبب فقدانه للرسالة التي هي الهدى والضياء عن سبل هداية قومه بالرسالة، فقال: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ إن الضلال ليس كالجحود والكفر إنما هو عدم الهدى وهو ليس عيبا، و قد قال ربنا عن نبيه الأكرم ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] ولم يكن الرسول ضالا، إنما لم يكن يحمل رسالة فهداه الله إليها.

وكل أنبياء الله بشر يفقدون درجة من العلم والحكم قبل النبوة والرسالة، وإنها يتميزون على سائر الناس بالوحي، وليس بعنصر إلهي يتداخل فيهم، والقرآن حافل ببيان هذه الحقيقة تصريحا أو بالإشارة، وقد قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

ودليل صدقهم أساسا هو أن الوحي يحدث تحولا فجائيا فيهم، فبينها الرسول يلبث في قومه دهرا، لا يدعوهم إلى شيء، تراه يبعث إليهم برسالة متكاملة، من المستحيل أن يكون قد ابتدعها من نفسه بين عشية و ضحاها.

وهذا بخلاف العلماء والباحثين الذين تتكامل أفكارهم وبحوثهم يوما بعد يوم.

ولعل في قوله: ﴿إِذًا﴾ دلالة على أنه رد التهمة أساسا، وأجابه: أنه إذا سلم بوجود نقص عنده -جدلا- فإنما هو الضلال، وعدم الوحي.

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الرضا عليه السلام: «إِنَّ فِرْعَوْنَ قَالَ لِمُوسَى لَمَّا أَتَاهُ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ - بِي، قَالَ: مُوسَى - ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ عَنِ الطَّرِيقِ بِوُقُوعِي إِلَى مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِكَ..»(١).

[٢١] و قد فر موسى عن مدائن فرعون خشية عنصريته، التي كان يدين -بموجبها- أي واحد من بني إسرائيل بمجرد الصراع بينه وبين الأقباط.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ والآية تدل على أن الفرار من الظلم فضيلة، أو لا أقل لا بأس به.

ونستوحي أيضا من الآية: أن التمرد على قوانين الأنظمة غير الشرعية عمل شريف.

ولأن موسى نصر الحق، و رفض الخضوع لنظام الطاغوت، ولأنه توكل على الله، وهاجر عن بلاد الكفر، فإن الله أكرمه بالنبوة والرسالة.

﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ إن حرف الفاء يوحي إلينا بأن هناك علاقة بين فراره من ظلم فرعون و بين الحكم الذي وهبه الله له، ولعل الحكم هو العلم، ولعله النبوة التي تسبق الرسالة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ونستوحي من كلمة ﴿وَجَعَلَنِي﴾ أن صاحب الرسالة هو الحاكم والخليفة في الأرض، وأن هذا المنصب بحاجة إلى قرار وجعل وتنصيب.

[٢٢] ورد موسى جدل فرعون إذ قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾: بأن استعبادك لبني

---

(١) بحار الأنوار: ج١١، ص٨١.

إسرائيل، وذبح أبنائهم، واستحياء نسائهم، واستخدام بعضهم لتربية البعض الآخر كرها، أعيب عليك ذلك، وأين تلك من هذه، تمن علي التربية ولكنني أعيرك بما فعلت ببني إسرائيل.

من الذي ربى موسى؟ أليس بني إسرائيل أنفسهم بأمر من فرعون، ثم ما الذي ألجأ أم موسى لتجعله في التابوت، ثم تقذفه في اليم، وما الذي أعطى الحق لفرعون أن يقتل هذا ويعفو عن ذلك، ويسرق أموال هذا و يضعها عند ذاك. أوليس كل ذلك جريمة لا بد أن يعاقب عليها فرعون، ذو الظلم والطغيان، وليس ثمة نعمة يشكر عليها ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ونستوحي من الآية فكرتين:

الأولى: أن فراعنة كل عصر يجب أن يلقموا حجرا كلما زعموا أن عليهم منة على الناس، ذلك أن جميع تقلباتهم في البلاد وتصرفاتهم في شؤون العباد جرائم لأنها ليست بإذن الله، ولا بتخويل من الناس.

الثانية: أن موسى تجاوز نفسه وتحدث عن كل بني إسرائيل، كما تجاوز الحديث عن قضية محدودة إلى بيان جذرها، وهكذا ينبغي ألا يقع الفرد الرسالي في الخطأ بالحديث عن ذات القضية التي يتحدث عنها الظالمون، ولا بالحديث عن أنفسهم بل يتحدثوا عن جذور المشكلة حسب نهجهم الإعلامي المستقل، وعن آلام الشعب جميعا. إنهم -وحدهم- ممثلو الناس، وعليهم أن ينطقوا باسمهم وعن مشاعرهم.

[٢٣] لم يجد فرعون نفعا توسله بالقضايا الجانبية، لأن موسى جاء بحجة أبلغ، فاضطر إلى الجدل حول جوهر الرسالة، ويبدو من سياق الحديث أنه اتخذ نهج الاستهزاء وسيلة لجدله ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ لم يقل: ومن رب العالمين لجهله المفرط، وأسلوبه الساخر، ولعله سأل عن طبيعة الله، فلم يسترسل موسى معه، لأن معرفة الذات مستحيلة.

[٢٤] إنما مضى موسى قدما في دعوته إلى الله عبر آياته، وبين أن جهلهم بالله آت من نقص في أنفسهم ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ وهكذا ينبغي أن يستدل المؤمن على ربه بآياته وأفعاله، مقتديا بنهج أنبياء الله.

جاء في حديث مأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام، في صفة الله سبحانه: «**الَّذِي سُئِلَتِ الْأَنْبِيَاءُ عَنْهُ فَلَمْ تَصِفْهُ بِحَدٍّ، وَلَا بِبَعْضٍ، بَلْ وَصَفَتْهُ بِفِعَالِهِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ بِآيَاتِهِ**»[١].

وحين قال موسى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أشار إلى أن الإيمان بالله لن يبلغه من لا يجهد ولا

(١) الكافي: ج١ ص١٤١.

يبحث عن علم ويقين، وأن جهلهم بربهم ناشئ من نقص فيهم، حيث سدوا منافذ قلوبهم عن نور المعرفة.

[٢٥] كان الحديث بين موسى وفرعون، فأدار فرعون رحاه باتجاه الملأ من حوله، لماذا؟ هل خشي أن ينقلبوا عليه، أم أراد أن يتظاهروا على موسى حين شعر بضعف حجته؟

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ أسأله عن شيء فيجيبني عن شيء آخر. وفي حديثه نبرة استهزاء، و كأنه يقول: إن حجته ضعيفة.

[٢٦] لم يأبه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بسخريته، والتزم نهجه القويم في التذكرة بالرب، وتحطيم أغلال الجهل عن أنفسهم.

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فهو الله الذي كان على آبائكم التسليم له، فلا يجوز التسليم لآبائكم إن كانوا كافرين به، ولا ينبغي تقديسهم، والجمود على أفكارهم البالية، وإذا شمل آباءكم العذاب بسبب كفرهم بالرب فإن ذات العذاب سينزل عليكم لذات السبب، هكذا فك غل عبودية الآباء عنهم، وحذرهم من مغبة الجحود.

[٢٧] و خرج فرعون عن طوره، واتهم موسى بالجنون، مستخدما أسلوبه الساحر، إذ وجه الخطاب إلى الملأ كي يثير فيهم العصبية.

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ هكذا بلغت الرعونة عند فرعون ذروتها حيث أنه اتهم رسول الله رب العالمين بالجنون.

[٢٨] أما موسى الذي لم يرهب إعلام فرعون التظليلي، ولم يغضب لنفسه، فقد مضى في سبيله يدعو إلى ربه بالتذكرة تلو التذكرة ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وهذا بذاته دليل صدق دعوته أنه لم يقم لنفسه بل لربه، ولا يدعو إلى ذاته بل إلى الله، وهكذا ينبغي أن يتحمل الرساليون كل أذى، ولا ينهاروا بسبب تهم الطغاة أنى كانت كبيرة.

[٢٩] و انقلب فرعون خائبا من أسلوبه التضليلي الساحر، فاتجه إلى التهديد: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ إن الطغاة يرهبهم قوة المنطق فيلجئون إلى منطق القوة، ويخافون على عروشهم فلا يتورعون عن ارتكاب أية جريمة.

ولكن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وكل الدعاة إلى الله سوف يبلغون مستوى عاليا من النصر عندما يعرون النظام من لباس التضليل، ويلجئونه إلى استخدام آخر وسيلة لهم للسيطرة ألا وهي الإرهاب.

[٣٠] وكما الجبل الأشم صمد موسى أمام تهديد فرعون، كما صمد آنفا أمام سخريته وتهمه، فلم يزل يواجهه بسلاح المنطق ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ فيه دلالة ملموسة، تكون أقرب إلى عقولكم المغلقة الجامدة.

[٣١] وهنا أيضا خسر فرعون الموقف، إذ طالبه فعلا بذلك الشيء المبين، ماضيا في غروره وظنه أن الباطل لا يغلب ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

[٣٢] استجاب النبي موسى للتحدي فورا ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ كان ثعبانا ضخما، قد فغر فاه، كاد يلتهم قصر فرعون بما فيه.

[٣٣] ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ وبهت فرعون، وفلحت حجة موسى، وظهر برهانه.

فألقي السحرة ساجدين

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ[1] (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ[2] وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ[3] إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥١)﴾.

هدى من الآيات:

ازداد الصراع احتداما، وحاول فرعون أن يتهم موسى بالسحر، وأثار فيهم حب الوطن زاعما: أنه يريد أن يخرج الناس من أرضهم، واستمالهم بالتشاور معهم لمعرفة رأيهم في مصير

(١) حاشرين: هم الذين يحشرون السحرة ويجمعونهم.
(٢) من خلاف: كأن يقطع الرجل اليمنى واليد اليسرى أو العكس.
(٣) لا ضير: أي لا ضرر علينا فيما تفعله بنا.

موسى، فأشاروا عليه بحبسه، وبعث عيونه إلى أطراف البلاد لجمع السحرة الماهرين، فلما حشروا ليوم عيد دعوا الناس للاجتماع، محددين هدفه سلفا باتباع السحرة، وجاء السحرة طالبين من فرعون أجرهم فبالغ في إعطاء الوعود لهم، فقال لهم موسى: ألقوا حبالكم، فلما فعلوا أقسموا بعزة فرعون أنهم هم الغالبون.

وقد ترددت كلمة الغلبة في الآيات اشارة -في ما يبدو- إلى حدة الصراع و مصيريته.

وألقى موسى عصاه فإذا بها تلتهم إفكهم، ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ وانقلب السحر على الساحر.

أما فرعون (الذي لم ينقصه العناد) فقد قال لهم: لماذا آمنتم به قبل أن آذن لكم؟ (واحتوى الهزيمة سريعا) وقال لهم: إنه قائدكم، وأنتم تشاركون معه في الثورة، وهددهم بأنه سوف يقطع أيديهم وأرجلهم، و ليصلبنهم أجمعين.

ومرة أخرى أثبتت الرسالة قوتها حيث قال السحرة: ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ الذي نطمع أن يغفر لنا خطايانا، و أن يجعل مبادرتنا إلى الإيمان كفارة لذنوبنا.

بينات من الآيات:

جمع السحرة

[٣٤] لا بد أن يكون صاحب الرسالة مستعدا أبدا لتطورات الصراع، و مضاعفة التحديات، حتى تبلغ الذروة، فهذا النبي العظيم موسى افتتح دعوته بقول لَيِّنٍ، واستمر على ذلك النهج بالرغم من استفزاز فرعون بسخريته اللاذعة، ولكن فرعون توعده بالسجن فجاءه موسى بشيء مبين، ومضى فرعون في طريق العناد فاتهم موسى بالسحر.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ويبدو أن السحر كان منفورا منه بالرغم من انتشاره بين الناس يومئذ، وقد ألصق تهمة السحر بموسى ولكنه ما لبث أن استعان بالسحرة ووعدهم بأن يجعلهم من المقربين إليه، ثم لما آمنوا عاد واتهم موسى بأنه كبيرهم.

وهكذا يتقلب الطغاة حسب مصالحهم، وهذا التقلب -بذاته- دليل زيفهم.

[٣٥] جبل الإنسان على حب أرضه التي نبت منها، ويستغل الطغاة هذا الحب بصورة قذرة، ويدعون أبدا أنهم حماة الأرض، ودعاة الأمن من الخطر الخارجي أو الداخلي.

وهكذا اتهم فرعون موسى بأنه مخل بالأمن، وأن هدفه النهائي طرد المصريين من أرضهم. فقال: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ ﴾ ولم يكن فرعون يأبه بآراء الناس لأنه كان يزعم أنه الأهم، وربهم الأعلى، وكيف يجوز للرب أن يستشير المربوبين؟!.

ولكنه حين خاف انهيار عرشه بادر إلى المشورة، لا لكي ينتفع بعقولهم وتجاربهم، أولا ترى كيف كان يبادر بالجواب قبلئذ دون استشارة ؟ وإنما يستميلهم، ويمنع من تأثير حجج موسى البالغة فيهم، وأيضا لكي يشاركوه في جريمته التي نوى ارتكابها بحق النبي موسى فلا تأخذهم به رأفة من بعد تنفيذها.

هكذا خاطب من حوله قائلا: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ وهكذا الطاغوت أبداً لا يريد آراء الناخبين ليخضع لها، بل بحثا عن الأهداف التالية:

ألف: الإيحاء إلى الناس بأنهم يضعون القرار لأنفسهم حقا، وليس هو وحده.

باء: سبر نبض الشعب، ومعرفة مدى تأثير إعلامه فيهم، ومدى قوة معارضيه، ومكامن نفوذهم ليقوضهم.

جيم: لإضفاء الشرعية الكاذبة على حكمه، كذلك تراهم يبادرون إلى الانتخابات إذا بلغ بهم الخوف مداه، وعلى الرساليين أن يعوا هذه اللعبة، و أن يقوموا بتوعية الناس سلفا بما يقوم به الطغاة لخداعهم، والاستمرار في التسلط عليهم.

[٣٦] كانت الثقافة الفاسدة، والإعلام المضلل ولا زالت أعظم ركيزة لسيطرة الطغاة، ولقد كانت آثار الإغواء والفتنة والتضليل أبلغ بكثير من آثار السجن والقتل والتعذيب.

ويبدو أن نظام فرعون كان يستخدم السحر وسيلة لتكريس سلطته، و قد كان السحر منتشرا بين الأقباط يومئذ، والسحر نهاية مطاف الحضارة، و انتشاره يدل على وصول الناس إلى أدنى مستوى من العلم والمعرفة، إنه ليس إلا إثارة للخيال عبر مجموعة حركات وأصوات وألعاب خادعة، ولا يتأثر به إلا من سلم نفسه لتأثيراته.

ويبدو أن مركز تأثير السحر هو أعصاب الناس عبر منبهات صوتية، و حركات متناغمة، وحركات بهلوانية.

هكذا أشار الملأ من حول فرعون عليه أن يستغل السحرة لمواجهة آية موسى بعد اعتقاله وأخاه.

﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ ﴾ أي أبقهما رهن الاعتقال، وبالرغم من أن مستشاري فرعون لم ينصفوا رسولهم، ولكنهم كانوا أقرب رشدا من مستشاري نمرود حيث أمروه رأسا بحرق نبيهم إبراهيم عليه السلام وفي الحديث عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «كَانَ فِرْعَوْنُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابُهُ لِغَيْرِ رِشْدَةٍ فَإِنَّهُمْ قَالُوا لِنُمْرُودَ: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ -وَكَانَ فِرْعَوْنُ مُوسَى وَأَصْحَابُهُ لِرِشْدَةٍ فَإِنَّهُ لَمَّا اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ فِي مُوسَى قَالُوا:- ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴾»(١).

﴿ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ أرسل إلى أطراف البلاد من يجمع السحرة، وهكذا أعلن فرعون -حسب هذا الرأي- حالة الاستنفار القصوى لجهازه الثقافي والإعلامي لإحساسه بمدى خطورة التحدي.

[٣٧] وهكذا أمروه بتعبئة كل المهرة من السحرة ﴿ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴾.

فوقع السحرة ساجدين

[٣٨] ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴾ ولعله كان يوم عيد قومي لهم.

[٣٩] كان بإمكان فرعون أن يجري الصراع على حلبة قصره، بين النبي موسى والسحرة من أنصاره، ولكنه دعا الناس جميعا ليشهدوا المنافسة، كما فعل من قبل نمرود حيث لم يكتف حين أراد حرق إبراهيم عليه السلام بقليل من الحطب، بل أشعل نارا كانت تلتهم الطير على بعد أميال؟ لماذا؟.

لأن الطغاة يعيشون أبدا حالة الهلع، فإن قلوبهم تهتز من أدنى معارضة، فيتظاهرون بالقوة لتعديل توازن أنفسهم، ولكي يرهبوا الناس أن يتأثروا بإعلام المعارضة، وهكذا فعل فرعون: ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴾ كان التعبير -هذه المرة- رقيقا، لما أحس به فرعون من خطر محدق، فأراد استمالة الجماهير.

بلى؛ إن الطغاة يريدون تمرير قراراتهم من خلال رأي الناس، لكي يوهموهم أنهم هم أصحاب القرار، ومسكينة هذه الشعوب الجاهلة كم وكم تمرر عليها هذه اللعبة، ليس في التاريخ الغابر، بل في التاريخ المعاصر أيضاً.

[٤٠] لم يكن هدف حشد الناس جعلهم الحكم بين الناس والمعارضة، ليختاروا ما

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٧٢، بحار الأنوار: ج١٢، ص٣١.

يرونه حقا. كلا.. إنما كان الهدف تكريس سلطة فرعون، لذلك قالوا: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ ولعل هذه الآية تشير إلى الهجمة الإعلامية التي قامت بها أجهزة السلطة ضد موسى عليه السلام وصنعت أجواء رفض رسالة الله، و اتباع السحرة حتى قبل نزولهم إلى حلبة التنافس.

[٤١] وجاء السحرة، واجتمع الناس، وعبئت الأجواء لتأييد فرعون، وتكونت فرق التشجيع على أطراف الحلبة لصالح السحرة، ودقت الطبول، واستعد الجلادون لإنزال أقسى العقوبات بموسى وأخيه، والتنكيل ببني إسرائيل، وخنق كل صوت للمعارضة، وتمثل السحرة أمام فرعون يطلبون أجرا. أوليسوا قد سخروا طوال الفترة للعمل في البلاط بلا أجر، أو لم يكن عمل السخرة شائعا في عهد فرعون، أو لم تنتشر على أطراف أهرامات مصر التي بناها الفراعنة قبور المحرومين على امتداد أميال، من أولئك الذين كان يجمعهم النظام من أطراف مصر ليبنوا مقابر لأركانه، وليعلو بذلك مجده، ثم يسخرهم بلا أجر في ظروف قاسية، فإذا ماتوا أهال عليهم حفنة من التراب و جاء بغيرهم؟! آه كم استخف الظالمون بأرواح البشر، وإلى اليوم، وإلى متى؟!.

كلا.. هذه المرة نطالبه بأجر. فرعون هذا اليوم يختلف عنه بالأمس، إنه مضطرب. دعنا نستغل ذلك لمطالبته بأجر على الأقل.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ فإذا كان الأمر كذلك فسوف نبذل المزيد من الجهد للغلبة.

لقد اهتز ضميرهم منذ اللحظة الأولى التي واجهوا فيها موسى.

فمن هذا الراعي الذي جاء بعصاه يتحدى أكبر طاغوت، وأعظم إمبراطور، ولماذا عجز فرعون عن التنكيل به كما ينكل بألوف الناس من بني قومه؟!.

وجاء في تفسير علي بن إبراهيم: «وَأَقْبَلَ مُوسَى يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَتِ السَّحَرَةُ لِفِرْعَوْنَ: إِنَّا نَرَى رَجُلًا يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ وَلَمْ يَبْلُغْ سِحْرُنَا السَّمَاءَ»[1].

[٤٢] فرعون يعرف -كما سائر الطغاة- بأن العرش إنما يصنعه هؤلاء (أدعياء الدين والعلم) الذين يسرقون سلاح الرفض من أيدي المحرومين، و يزرعون فيهم الخوف والخنوع، وأنه لا بد من شراء ضمائر هذه الطائفة المخاسرة بأي ثمن. لذلك...

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص١١٨، بحار الأنوار: ج١٣ ص١٢٠.

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ إن القيمة الحقيقية لهذه الضمائر الخائنة هي المشاركة في الملك، وهذا ما تبرع به فرعون، ووعد به السحرة، أو ليسوا قد شاركوا في صنع العرش وفي كل الجرائم التي يرتكبها صاحبه، فلماذا لا يشاركونه في غنائمه.

ولكن العلماء الفسقة لا يعرفون عادة القيمة الحقيقية لما يبيعونه، فتراهم يرضون بالثمن الزهيد، فيخسرون الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

[٤٣] من أعظم صفات الأنبياء عليهم السلام التي تشهد بصدقهم: تحديهم لقوى أعظم منهم -كبشر- أضعافا مضاعفة، مما يشهد باعتمادهم على رب القدرة والعظمة سبحانه.

هكذا تحداهم موسى ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ وما عسى أن ينفعكم ما تلقون أمام قدرة الرب؟!.

[٤٤] و لم يكن يملك أولئك البؤساء غير مجموعة حبال وعصي فألقوها ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ﴾ وقد استنفذوا كل جهدهم بذلك، وأضافوا إليه القول قسما: ﴿ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ كانت عزة فرعون -في زعمهم- منتهى القوة الموجودة في الأرض، فأقسموا بها، وحين يصل الإنسان إلى الاعتزاز بقوة مادية بهذه الدرجة التي يحلف بها فإن نهايته قد آنت. أوليس من أعتز بغير الله ذل؟!.

جاء في الحديث القدسي: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ**»[1].

[٤٥] هنالك أمر الله موسى بأن يلقي عصاه ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾.

[٤٦-٤٧] خلق الإنسان على الفطرة التي تتجلى فيها آيات الله، ولو لم تلوث الصفحة البيضاء، التي يتكون منها قلب البشر بالتربية الفاسدة، والنظام الفاسد، والشهوات و.. و.. فسوف تنعكس عليها تجليات الرب.

وحتى لو تورط الإنسان في الذنوب فإن نفسه تظل تلومه، وفي لحظات خاصة يتعرض القلب لشلال من نور الحقيقة يكاد ينصدع به، حيث يستيقظ فيه ذلك الوجدان، وينهض متحديا حجب الذنوب، وإذا وفقه الله حدث فيه تحول مبارك وعظيم.

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٠، ص ١٩٢.

وهكذا خر السحرة ساجدين لله، في وسط دهشة الجميع ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ هكذا ينبغي على من يحمل مشعل الثقافة الرسالية ألا يهن، ولا يني يهاجم الظلام الشيطاني. ذلك أن النور سيطوي الظلام أنى كان متراكبا.

[٤٨] ولأن السحرة آمنوا بالله بدلالة موسى، وحيث تجلت آية الله على يده، فإنهم ذكروه، ولأن هارون -بدوره- كان وزيرا لموسى فقد جاء ذكره عند هذه اللحظة. لحظة المفاجأة الكبرى.

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ هكذا يقدر الرب أعمال عباده الصالحين.

[٤٩] كان فرعون موغلا في الضلالة والجحود، فلم يهتد بكل تلك الآيات، بل ظل يعاند بما أوتي من قوة.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وتوعدهم بالعذاب الأليم، حيث لم يبق أمامه حجة يبرر بها مخالفته للرسالة، فقال: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ يدا من اليسار، ورجلا من اليمين ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

[٥٠] كان العقاب شديداً، ولكن التقدير قضى أن يستقبله أولئك الذين كانوا إلى عهد قريب من ركائز النظام، لكي لا يرتاب أحد في صدق إيمانهم، وبالتالي صدق الرسالة، وتتم حجته على الناس.

﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ كيف بلغ السحرة هذه الذروة من الإيمان بالله ورسالاته في لحظة، كيف أيقنوا بالنشور إلى درجة استساغوا الشهادة، واعتبروها عودة إلى الله؟!.

حين تتساقط حجب حب الذات، وعبادة الأهواء، والخضوع للطاغوت، فإن الحقائق تتجلى مباشرة للقلب، ويكون العلم بها علما شهوديا، و اليقين صادقا.

[٥١] ثم لأن السحرة طالما مشوا في أرض الله، وانقلبوا في نعمه، يأكلون رزقه، ويعبدون غيره، فلما تذكروا كانت الصدمة في نفوسهم قوية فأرادوا تكفير ذنوبهم التي أحسوا الآن بثقلها على كواهلهم، وتطهير صفحة حياتهم بدم الشهادة، فقالوا: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ونستوحي من هذه الآية أن هناك مؤمنين آخرين اتبعوا نهج السحرة التائبين، وإنما كان هؤلاء طلائع في مسيرة الإيمان.

كذلك وأورثناها قوما آخرين

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ[1] قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا[2] ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

تتابع آيات سورة الشعراء في بيان الصراع الحضاري الذي كسبه رسل الله بأيدي الرب، لما تتجلى فيه صفتا العزة والرحمة الإلهيتان.

هكذا أوحى الله إلى موسى بالهجرة الجماعية، فقاد بني إسرائيل ناحية البحر، وأنبأهم بأن فرعون يتبعهم.

أما فرعون فقد عبأ كل قواه، حيث حشر جنوده من مدائنه، وأضلهم بالقول: إن بني إسرائيل خليط مختلف وقليل، وإنهم أغضبونا بتصرفاتهم (سرقوا أموالنا، وخرجوا عن ديننا)

(١) لشرذمة: الشرذمة العصبة الباقية، من عصب كثيرة، وشرذمة كل شيء بقيته القليلة.
(٢) وأزلفنا: والازدلاف الادناء والتقريب، ومنه المزدلفة.

فأخرجناهم من بلادنا التي تتمتع بالبساتين والعيون وموارد ومساكن محترمة. بلى؛ ولكن الله أعاد بني إسرائيل إليها، وأورثهم إياها.

فزحف جيش فرعون تلقاء بني إسرائيل عند الشروق، فلما اقترب الجمعان قال أصحاب موسى: إنهم سيدركوننا بقواتهم العظيمة، قال لهم موسى: كلا.. إن الله معي، وهو سيهديني طريق النجاة، فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر الذي وصلوا إليه، فلما ضربه بعصاه انقسم البحر، وانكشفت فيه طرق يابسة، فاستدرج الرب آل فرعون في البحر أيضا، ولكنه أنجى بني إسرائيل (الذين خرجوا من الطرف الآخر) وأغرق الآخرين (الذين لم يزالوا فيه حين عادت المياه إلى طبيعتها).

إن في هذا الإعجاز آية لعظمة الرب وقدرته، كما لرحمته وعطفه، و لكن أكثر الناس لا يؤمنون.

وإن الله عزيز ينتقم من الجبارين، ورحيم ينصر المستضعفين.

بينات من الآيات:

وكانوا هم الوارثين

[٥٢] لقد فشل فرعون في مواجهة الرسالة بتضليله، وبالرغم من تعبئة كل إمكاناته الإعلامية لذلك، فعقد العزم على التنكيل بهم، ولكن هدى الله سبق كيده، وهزم مكره، حيث أمر الله نبيه بأن يقود بني إسرائيل في سبيل الهجرة ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

إن ثقافة الشعراء التي تمثلت هنا بثقافة السحرة تخدم الطغاة، وتضلل الناس، وهي أداة بيد الجبارين لقهر المحرومين، بينما رسالات الله تبين للناس الحقائق، وفيها قرارات واضحة تهدف نجاة المحرومين من أيدي الظالمين، فلقد جاء الأمر بالهجرة، وبين سبب هذا الأمر وهو وجود خطر يحدق بالناس، هذا نموذج لرسالات الله.

[٥٣] و بعث فرعون رسله إلى مدائن مصر الكثيرة والمتفرقة، وكان هدفه تعبئة قواه العسكرية لمواجهة خطر بني إسرائيل، ويبدو أنه قام بالنفير العام، ولكن لماذا؟.

هل إنه حين أضمر السوء ببني إسرائيل فخرجوا أحس بالخطر من أن يكون خروجهم تمهيدا لمقاومته عسكريًا، فاستنفر جيشه؟ أم إنه قرر ذلك قبل خروج بني إسرائيل، وإنما أراد

بحشد قواه التظاهر بالقوة لكي لا يفكر أحد بمعارضته، فلربما كانت في مصر قوى معارضة أخرى تنتظر دورها في الثورة ضد فرعون؟.

من خلال السياق يبدو أن الاحتمال الأول هو الأقوى، نعم مع كلا الاحتمالين أن المجتمع القبطي يخسر بخروج بني اسرائيل القوة البشرية العاملة (السحرة) مما يهدد اقتصادهم.

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ أي من يجمع له القوة العسكرية.

[٥٤] فلما عبأ جيشه ماديا بدأ بتعبئتهم معنويا بالأساليب التالية:

أولاً: هون في نظرهم قوة المعارضة، وقال: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ فهم ليسوا قوة متماسكة، وفي ذات الوقت فهم قليلون.

ولا ريب أن تهوين شأن العدو من أساليب التعبئة المعنوية، والذي يقوم به أبدا الطغاة ضد المؤمنين الرساليين.

[٥٥] **ثانياً**: بين سبب محاربته لبني إسرائيل. إذ إن الطغاة يبحثون أبدا عن تبرير لإشعال نار الحرب ضد معارضيهم، فقال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾.

فقد أثاروا غيظنا، بسبب تمردهم علينا، و خروجهم عن ديننا، ولأن بني إسرائيل استعاروا من قبل الحلي من أهل مصر، وذهبوا به كما يقول المفسرون، أو لأن خروجهم سيسبب خسائر اقتصادية كبيرة غير محتملة.

[٥٦] **ثالثاً**: كشف فرعون لهم عن مدى استعداده لمقاومتهم، وأنه يحذر غلبتهم بالرغم من قلة عددهم الآن.

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ أي نحن جميعا نستعد لمواجهتهم، ولعله أراد بذلك إبعاد خوف الهزيمة عن جنوده بأنهم قد استعدوا جميعا لمقاومة هذا العدو، وأن على كل فرد أن يقوم بدوره في مواجهة الخطر المحدق.

[٥٧] **رابعاً**: طفق يبين خيرات بلاده، التي يجب الدفاع عنها، فقال: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

إنه زعم امتلاكه لكل مقومات الحضارة، من زراعة تروى بالعيون مما تجعلها بعيدة عن الأخطار المحتملة، ومن المعروف أن حضارة آل فرعون كانت زراعية، وكانت متقدمة بالقياس إلى موازين تلك الحقبة القديمة، وكان يعتز بها فرعون كثيرا، ويعتقد بأنها دليل سلامة نهجه.

[٥٨] ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ إن وجود ذخائر مالية مثل العملة الصعبة اليوم والكنوز قديماً، معلم من معالم التقدم الحضاري، كما أن المساكن الآمنة التي يحترم أهلها، و يكرمون فيها معلم آخر من معالم الحضارة التي افتخر بها فرعون.

ولعل في التعبير بـ ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم﴾ تهديداً ضمنيًّا للجيش، بأن من لا يطيع الأوامر يفقد هو الآخر هذه المكاسب.

ويبدو أن الجنات والعيون يعكس الوفاء[1] بالضروريات، بينما الكنوز والمقام الكريم، يعكس التقدم الذي يوفر الأمن الاقتصادي والسياسي.

[٥٩] رسالات الله لا تعارض التقدم الحضاري، إنما تعارض الظلم الذي يرتكب باسمه، وإنما التقدم الحضاري الثابت والمستقر حق لأهل الحق، لأنهم هم الذين يضعونه فيسرقه الطغاة منهم، فيعيده الله عليهم. هكذا أنبأنا الله سبحانه، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هكذا قال فرعون لقومه، وهكذا اعتز بما يملك، ولكن كيف كانت العاقبة؟ اسمعوا: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ لقد أهلك الله آل فرعون، وتنعم بنو إسرائيل بالجنات، والعيون، والكنوز، والمقام الكريم، وهكذا يورث الله الأرض لعباده الصالحين، فلا ينخدع المحرومون بما في أيدي الطغاة، ولا يذلوا أنفسهم لقاء فتات الطعام، أو فضالة الشراب، إن الخير كل الخير لهم، وعليهم أن يقطعوا أيدي السارقين حتى يهنؤوا به.

[٦٠] كان فرعون المبادر إلى الحرب، فهو الذي هاجم بني إسرائيل عند الشروق ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾.

[٦١] جد جيش فرعون في السير حتى لحقوا بهم، وصار على مقربة منهم، يرى كل فريق الفريق الآخر. عندئذ أحس قوم موسى أن الخطر قد أحدق بهم ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾.

[٦٢] عندما بين النبي موسى عليه السلام لربه جوانب ضعفه في حمل الرسالة، سمع من الله كلمة عظيمة هي: ﴿كَلَّا﴾ وها هو يكررها لقومه عندما أحسوا بضعفهم في مواجهة فرعون وقومه ﴿قَالَ كَلَّا﴾.

هناك أخبره الله بأنه معه هو وأخيه هارون، يسمع ويرى، وهنا أيضاً أنبأهم موسى بأن الله معه.

---

(١) الوفاء من وفى الشيء وفاء فهو وافي.

﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ ما أعظم إيمان موسى بربه، وما أشد يقينه بنصر الله، وما أجدر بنا أن نقتبس من قصة حياته ومضة يقين، و نفحة إيمان. أمواج البحر أمامه و أمواج الجيش الكافر وراءه، وهو لا يملك سوى قوم مستضعف فيهم النساء والأطفال والعجزة، وقد انهارت إرادتهم بفعل طول الاستعباد، ولكنه يتحدى كل خوف متوكلا على الله، واثقا من نصره. أوليس الله معه فلماذا يخشى، بل كيف يتسرب الخوف إلى قلب موقن بأن الله معه؟!.

[٦٣] وهبط الوحي على قلبه الشريف: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ انقسم البحر على نفسه ليكشف عن اثني عشر سبيلا، مستقلا لاثني عشر سبطا من أسباط بني إسرائيل ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ كل جانب منه كان كما الجبل العظيم، تراكمت المياه على بعضها، و تجمدت الأمواج فوق الأمواج.

[٦٤] ودخل بنو إسرائيل السبل التي فتحت لهم في البحر الذي لا يدرى هل هو النيل أم أنه البحر الأحمر؟.

وبلغ آل فرعون البحر فوجدوا أعداءهم في منتصف الطريق، فاندفعوا وراءهم - سبحان الله- كيف يهبط الإنسان إلى هذا الدرك الأسفل من العصبية. إنه يرى المعاجز رأي العين، فلا يتبصر بل يستمر في غيه، لقد رأى فرعون آية العصا والتي أسجدت السحرة لله، ورأى آية اليد البيضاء و سبع آيات أخرى، والآن يجد البحر قد انفلق، وتراكمت مياهه كالجبال ولا يزال يعاند، كيف يمكن ذلك؟!.

الواقع: أن الذنب يقسي القلب، وكلما زادت الذنوب كلما تحجرت القلوب أكثر فأكثر، والله سبحانه يعاقب المذنبين لقسوة قلوبهم، و يستدرجهم إلى مصيرهم الأسود، وهكذا يقول ربنا: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ﴾ لقد أهلكهم الله في البحر أجمعين، ولكن لم أهلك الله كل الجيش، ولم يهلك فقط فرعون وهامان؟.

الجواب: أن الدنيا دار ابتلاء لجميع الناس، حاكمين ومحكومين، واتباع المحكومين للطغاة يوردهم موردهم، بل سكوتهم عنهم يشركهم في جرائمهم و عقوباتهم.

ولقد وفر الله لقوم فرعون أسباب الهداية، إذ وقع السحرة لربهم ساجدين، وأخذهم الله جميعا بألوان البلاء لعلهم يتضرعون، وإذ وقفوا على شاطئ البحر ينظرون إلى القوم المستضعفين، يقودهم راعي غنم لا يحمل إلا عصا، وقد انفلق البحر لهم بهذه الصورة، فهل بقيت حجة لهم، كلا.. بل لله الحجة البالغة عليهم، فإن أهلكهم فإنما بعد البينة وإتمام الحجة .

[٦٥] المعجزة كانت واحدة وهي انفلاق البحر ولكن العاقبة اختلفت، حيث يقول الرب سبحانه ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾.

[٦٦] ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴾ فهل هي صدفة أن تقع ظاهرة واحدة ترحم هؤلاء، وتعذب أولئك؟!

[٦٧] ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بالرغم من قوة الحجة فإن العيون مغلقة، والقلوب محجوبة، ولا يجوز أن نجعل الناس مقياسا للحق والباطل.

جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام **أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ : «لَا تَكُونُ إِمَّعَةً تَقُولُ أَنَا مَعَ النَّاسِ وَأَنَا كَوَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ»**[1].

[٦٨] ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ عزيز ينتقم من الكفار، ورحيم ينصر المؤمنين.

(١) بحار الأنوار: ج٢، ص٨٢.

بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ(١) ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ(٢) ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟(٣) فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

---

(١) وأزلفت: أي قربت.
(٢) وبُرِّزت: والتبريز الإظهار.
(٣) فكبكبوا: أصله كببوا، أي دهدهوا.

هدى من الآيات:

في سياق تبيان الصراع بين رسالات الله وثقافة الشعراء يضرب لنا الرب مثلا من قصة إبراهيم وقومه، وكيف أوحى الله إليه بمقاومة الفساد العريض الذي تردوا فيه، فعبدوا الأصنام، وحين سألهم عن ذلك إبراهيم لم يملكوا حجة، بل قالوا: إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، فأعلن البراءة منهم و من آبائهم ومن أصنامهم، وتوجه إلى عبادة رب العالمين، الذي أعطاه خلقه وهداه، وطعامه وشرابه وشفاه، وهو يميته ويحييه، ويرجو مغفرته يوم يلقاه، وتضرع إليه: أن يهب له الحكم، ويلحقه بمن مضى من الصالحين، ويجعله فاتحة عهد صالح، وأن يرزقه الجنة، ويغفر لأبيه لأنه كان من الضالين، ولا يخزيه يوم البعث بالنار، إنه يوم لا تنفع الأصنام، كما لا يغني اتباع الآباء شيئا، فلا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. في ذلك اليوم تزلف الجنة ليدخلها المتقون، وتبرز النار ليدخلها الغاوون، الذين يسألون: أين ما كنتم تعبدون من دون الله، فأين ذهبت أصنامكم، وأين تولى آباؤكم. هل هم قادرون اليوم على نصركم أو نصر أنفسهم؟! فلما لم يحيروا جوابا أقحموا في النار مع الغاوين، وجنود إبليس اجمعين.

وهناك تبين مدى ضلالتهم، حيث اختصموا في النار، فقال الكفار لأوليائهم: إنا كنا في ضلال مبين إذ نجعلكم سواء مع رب العالمين، وأنحوا باللائمة على الذين أضلوهم - لعلهم عنوا بهم أدعياء الدين والعلم - و نعتوهم بالإجرام، وقالوا: لا أحد يشفع لنا ولا يصدقنا، ويهمه أمرنا، و تمنوا لو كانت لهم كرة حتى يكونوا مؤمنين.

ويختم القرآن هذا الدرس، كما ختم قصة موسى عليه السلام بأن كل ذلك آية، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، ثم يذكرنا باسمي العزة والرحمة لربنا العظيم .

بينات من الآيات:

[٦٩-٧٠] نستوحي من قصص سيدنا إبراهيم عليه السلام أن فطرته الإيمانية تجلت حتى قبل أن يوحى إليه، فإذا به يواجه أكبر فساد استشرى في قومه وهو عبادة الأصنام، واتباع الآباء وتقليد الأجيال السابقة على غير هدى.

يبدأ انحراف البشر بسبب همزات الشيطان، ودفعات الشهوات، ولكنه سرعان ما يلبس ثياب الشرعية، ويضفي عليه أدعياء الدين والعلم ويأمر من المترفين القداسة الدينية، وكذلك كانت عبادة الأصنام عند قوم إبراهيم ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا

﴿تَعْبُدُونَ﴾ إن إبراهيم يتحدى أولاً أباه، الذي لم يكن والده إنما كان عمه آزر الذي تبناه، ولعل السبب يتلخص في أمرين:

أولاً: أن أباه كان هو المسؤول المباشر عنه، والذي كان ينفذ عليه تعاليم مجتمعه، ومن خلاله كان يتعرض إبراهيم لضغط المجتمع الفاسد، و دفعه باتجاه عبادة الأصنام.

ثانياً: أن إبراهيم كان في مجتمع رجعي يقلد الآباء، ولذلك كان ينبغي أن يبدأ تحديه لهم حتى يصبح قدوة لكل من يعيش في مثل هذا المجتمع المتخلف.

[٧١] لقد اعترفوا بفسادهم، وأنهم إنما يعبدون أصناما لا تضر ولا تنفع.

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ نصلي لها، ونديم عبادتها، ولعل هذا التعبير يوحي بأنهم كانوا في شك من جدوائية عبادتهم لها، وإنما مضوا عليها اقتداء بالسابقين.

[٧٢] إن نظام الحياة قائم على النفع والضر، وإن فطرة الإنسان تهديه إلى الرب في أوقات الشدة وعند الحاجة، وهكذا سألهم إبراهيم: هل تستجيب هذه الأصنام عند الشدة، حيث ينقطع رجاء الإنسان من الوسائل المتاحة له (كما يستجيب الرب سبحانه) أو هل تنفع أو تضر في الأوقات العادية؟!.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ في حالة الشدة تتساقط الأوهام، ويتعلق القلب بالخالق فلا يدعو غيره، و هذا أكبر برهان على بطلان عبادة الأصنام.

[٧٣] ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ هكذا ألقى إبراهيم حجرا كبيرا في محيط قلوبهم الراكد، وأحدث فيها أمواجا متلاحقة من الشك، والواقع: أن زرع الشك في القلب بالنسبة إلى الوضع الفاسد خصوصا عند أولئك الجامدين يعتبر أكبر إنجاز.

ففي حوار بين طبيب هندي ملحد، والإمام الصادق عليه السلام يلقي الإمام الشك في روعه فيما يتعلق بعقائد الطبيب الفاسدة، فيقول: لا أدري لعل في بعض ما ذكرت مدبراء وما أدري لعله ليس في شيء من ذلك؟.

فيقول له الإمام: «**أَمَّا إِذْ خَرَجْتَ مِنْ حَدِّ الْإِنْكَارِ إِلَى مَنْزِلَةِ الشَّكِّ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَخْرُجَ إِلَى الْمَعْرِفَةِ**»[1].

[٧٤] ولم يملك القوم حجة، فأحالوا القضية إلى التراث الذي هو آفة المتدينين، حيث

(١) بحار الأنوار: ج٣ ص١٥٥.

يختلط بالدين في ذهن الناس بما يصعب فكاكه عنه من تراث البشر وخصوصاً الأقدمين ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾.

[٧٥] هناك تجلى تحدي إبراهيم لقومه، فأعلنها صراحة: إنني براء منكم ومما تعبدون، لأن تلك الأصنام عدوة لي: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ وهذا التعبير بالغ درجة كبيرة من الاستخفاف والسخرية.

[٧٦] ﴿ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴾ أي إنني لا أتحدى فقط آباءكم القريبين إليكم، بل حتى أولئك الأكثر قداسة عندكم وهم الأقدمون. أليس المجتمع الرجعي يكتسب فيه القديم قيمة تتنامى مع مرور الزمان كأنه الخل أو الخمر؟!.

[٧٧] ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ ﴾ إنني أعاديه بصراحة، لأنه هو الذي يعاديني.

لقد كانت تلك كلمة البراءة، أزال بها إبراهيم الحصانة التي خلعها أولئك الرجعيون على الأصنام، ولعل إبراهيم عليه السلام استهدف أيضا من ذلك أمرين آخرين:

أولاً: إثبات عدم قدرة الأصنام على الإضرار بأحد أثبت ذلك عمليا، حيث كان أولئك الجهلة يحذرون الأصنام، ويتهيبون ترك عبادتها، فكان قدوة في الرفض، وهكذا من يتبع نهج إبراهيم من المؤمنين الصادقين، يرفضون التسليم للطغاة، ويصبحون قدوة في ذلك، حيث يثبتون بعملهم أن الطغاة ليسوا بمعجزين في الأرض.

ثانياً: أن الأصنام رمز النظام السياسي والاقتصادي، وتقديسها يعتبر حجر الزاوية في البناء الثقافي للمجتمع الجاهلي، وإن الاستمرار في عبادتها يعني استمرار الوضع الفاسد الذي يضر بالإنسان، فالأصنام عدوة للإنسان فعلا، وعلى الإنسان أن يتخذها عدوا.

ولا يكفي رفض الأصنام، بل لا بد من التوجه إلى الله، لذلك قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

[٧٨] ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ لقد خلق الله كل شيء خلقا متينا، وأجرى فيه سننا بالغة الدقة، و هدى الإنسان إلى تلك السنن بالغرائز، والفطرة، والعقل، والوحي، و تطابق الوحي والسنن أكبر شهادة على صدق الرسالة، وأبلغ حجة على حكمة الرب، وحسن تدبيره سبحانه.

[٧٩] والبشر مفطور على تقدير من يطعمه ويسقيه، ولكن يخطأ في معرفة المصدر الحقيقي للطعام والشراب. إنه ينظر إلى الوسيلة ولا ينظر إلى المصدر، يرى الرافد ويغفل عن الينبوع، يحس بيد الخباز ولكنه يجهل أو يتجاهل عشرات الأيدي من قبلها ويد الغيب من

ورائها جميعا.

أما صاحب الفطرة النقية التي تتحدى سلطة المجتمع، ولا يضيع إنسانيته بالتسليم للفساد الثقافي السائد عليهم، فهو الذي يهتدي إلى لب الحقائق، وغيب الظواهر، كمثل إبراهيم إذ قال: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾.

[٨٠] لقد جعل الله في جسم الإنسان نظام مناعة، يقاوم الجراثيم، و يساعد على التغلب على المرض، ومدى قدرة هذا النظام أو ضعفه، و مدى قدرة الجرثومة وضعفها خاضع لتقدير الله سبحانه، وهكذا يموت أو يطيب المريض بما لا يتحكم فيه البشر مهما أوتي من علم.

ولو أفقد الله الجسم مناعته، فلا أحد قادر على حفظه حتى ولو شرب أطنانا من الأدوية المضادة.

هكذا عرف إبراهيم بفطرته النقية الحقيقة هذه، فقال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ إن الشفاء بيد الله، والله أودع في جسم الإنسان ما يتغلب به على المرض، وأفضل العلاج مقاومة المرض بقوة الجسم، وقد أكدت النصوص الإسلامية على هذه الضرورة، فقد جاء في الحديث: «امْشِ بِدَائِكَ مَا مَشَى بِكَ»[(١)].

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ ظَهَرَتْ صِحَّتُهُ عَلَى سُقْمِهِ فَيُعَالِجُ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ فَمَاتَ فَأَنَا إِلَى الله مِنْهُ بَرِيءٌ»[(٢)].

وربما لكي يتحمل آلام المرض، ولا يسرع إلى مقاومته مما يفقده مناعته، جاءت نصوص تؤكد ثواب المرض للمؤمن. جاء في حديث مأثور عن عبد الله بن مسعود أنه قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله إذ تبسم فقلت له: ما لك يا رسول الله؟ قال: «عَجِبْتُ مِنَ الْمُؤْمِنِ وجَزَعِهِ مِنَ السُّقْمِ ولَوْ يَعْلَمُ مَا لَهُ فِي السُّقْمِ مِنَ الثَّوَابِ لَأَحَبَّ أَنْ لَا يَزَالَ سَقِيماً حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ عَزَّ وجَلَّ»[(٣)].

وندب الشرع كتمان الألم ثلاثا، وأنبأنا أن في ذلك ثوابا عظيما، فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى مَا مِنْ عَبْدٍ ابْتَلَيْتُهُ بِبَلَاءٍ فَلَمْ يَشْكُ إِلَى عُوَّادِهِ إِلَّا أَبْدَلْتُهُ لَحْماً خَيْراً مِنْ لَحْمِهِ ودَماً خَيْراً مِنْ دَمِهِ فَإِنْ قَبَضْتُهُ قَبَضْتُهُ إِلَى رَحْمَتِي وإِنْ عَاشَ عَاشَ ولَيْسَ لَهُ ذَنْبٌ»[(٤)].

(١) نهج البلاغة: حكمة ٢٧ قصار الحكم.
(٢) وسائل الشيعة: ج٢ ص٤٠٩.
(٣) وسائل الشيعة: ج٢ ص٤٠٢.
(٤) الكافي: ج٣ ص١١٥.

[٨١] في خضم المشاكل اليومية التي يواجهها البشر ينسى الحقائق الكبرى، كمن يعالج شجرة في طريقه فتحجبه عن الغابة، وإنما المهديون من عباد الله يتذكرون أبدا تلك الحقائق الكبيرة. من أين وإلى أين ومن المدبر؟.

والموت والحياة هما أخطر ظاهرتين يمر بهما البشر، وإذا كشفت عن بصره غشاوة الغفلة فإنه يهتدي إلى من يقهر الناس بالموت، ثم يبعثهم للحساب، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾.

[٨٢] علاقة البشر بأي شيء أو شخص تنتهي بالموت، ولكنها تستمر مع الرب إلى يوم الدين، حيث لا تنفع علاقة أخرى.

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ إن القلب الواعي تنكشف له الحقائق حتى يبلغ ذروتها، المتمثلة في اليقين بالبعث والنشور، وهكذا كان عند إبراهيم عليه السلام.

[٨٣] لقد تجلت الحقائق لقلب إبراهيم عليه السلام حيث سلم لرب العالمين، ففاضت يقينا وسكينة، ونطقت بتطلعات سامية من وحي تلك الحقائق، فمن آمن برب العالمين، وعرف أنه الخالق الهادي، والمطعم الساقي، والشافي، والمحيي المميت، والغافر للذنوب فلا يملك نفسه أن يتضرع إليه، ويطلب حاجاته.

وتطلعات الإنسان كبيرة، لأن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، و أكرمه، وفضله، وأودع في نفسه روح النمو والتسامي إلا إن عبادة الأصنام تكبت النفس وتذلها وتميت تطلعاتها، أما إبراهيم عليه السلام الذي تحرر من هذه العبادة فقد انفتحت قريحته بالدعاء، وأعظم به وأعظم بمن دعا وأعظم بما دعا، إذ قال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا ﴾ هذا طلب عظيم أن تسأل الله أن يجعلك خليفته في الأرض، ويبدو أن الحكم هنا النبوة أو العلم، ومما يدعو المؤمنون به قولهم: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[الفرقان: ٧٤].

﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ وأكرم الصالحين هم الأنبياء، ويبدو أن إبراهيم عليه السلام طلب بذلك الاستقامة على الطريقة حتى النهاية ليلتحق بالصالحين، وذلك لعلمه أن الأمور بخواتيمها، وعلى الإنسان أن يوطن نفسه لمقاومة الضغوط حتى يحظى بعاقبة حسنى.

[٨٤] قد ينتهي الإنسان، ويمحى أثره، وينسى ذكره إلا إن النفس السوية تتطلع إلى بقاء ذكره الحسن من بعده، كذلك قال إبراهيم: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله هو دعوة إبراهيم كما قال، فهو -إذا- لسان صدق في الآخرين،

حيث جدد شريعته، وأعلى ذكره، كما فعل ذلك الإمام علي عليه السلام حيث جاء في تفسير علي بن إبراهيم في تفسير هذه الآية أنه أمير المؤمنين عليه السلام (١).

وقد حرض الإسلام على البحث عن الذكر الحسن ليس باعتباره تطلعا مشروعا فقط، وإنما أيضا لأنه يعكس كمال النفس وتكامليتها. جاء في نهج البلاغة أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «أَلَا وإِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ يَجْعَلُهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لَا يَحْمَدُهُ»(٢).

[٨٥] ما شر بشر بعده الجنة، ومنتهى رغبة النفس السوية الحصول على الجنة، التي هي دار من ارتضاه الرب وأرضاه ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾.

[٨٦] أول من تحدى إبراهيم عليه السلام هو أبوه آزر، ولعله كان يشعر أن له عليه حقا، فلا بد من أن يبر إليه، فدعا له بالهداية ثم بالمغفرة، فقال: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾.

ولعل الاستغفار للضال الذي لم يبلغ درجة الجحود حسن، لا سيما إذا كان له حق، ومعنى الاستغفار هنا هدايته في ما يبدو.

وكان إبراهيم قد وعد أباه بأن يستغفر له، فقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[مريم: ٤٧].

ولكن إبراهيم تبرأ منه لما تحول من الضلالة إلى العناد والجحود، فقال ربنا سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

[٨٧] لم يكن إبراهيم مذنبا، إنه كان نبيا عليا، عصمه الله من الذنوب، ولكنه حين وجد نفسه في حضرة ربه وجدها حافلة بالنقص، فلم يملك سوى الاستغفار، وطلب المزيد من الطهارة والكمال، وليست هناك لغة بين القلب والرب أبلغ في الحب والهيام من لغة كلغة التذلل والاعتراف و طلب العفو. فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ إن الخزي ثمة بالنار حيث يقول المؤمنون: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

---

(١) بحار الأنوار: ح٣٦، ص٥٧: ابْنُ مَرْدَوَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام قَالَ: «هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام عُرِضَتْ وَلَايَتُهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَقَالَ. اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْ ذُرِّيَّتِي فَفَعَلَ اللهُ ذَلِكَ».

(٢) نهج البلاغة: خطبة: ١٢٠.

[٨٨] ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾ وأعظم ما يستعبد البشر في الدنيا حب المال والبنين، فإذا تحرر من عبادتهما فقد فاز.

[٨٩] ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ فإذا سلم القلب سلمت الجوارح، وسلامة القلب بتطهيره من حب الدنيا، لأن «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»[1] كما أخبر الرسول ﷺ. وجاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير آية: «الْقَلْبُ الَّذِي سَلِمَ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا»[2].

[٩٠] في ذلك اليوم تؤتى الجنة وتزف إلى المتقين كما العروس تزف إلى زوجها، أما النار فتبرز للكفار ويعلمون أنهم مواقعوها ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

[٩١] ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ الذين ضلوا وأضلوا بعد علم.

[٩٢] الوحي يفك العلاقات الاجتماعية الفاسدة التي قد تتحول إلى أقفال في القلب وأمراض، وتمنعه السلامة، ولكي ننظم علاقاتنا على أحسن وجه لا بد أن نجعل يوم القيامة المقياس، ونتساءل: هل نستفيد من هذه العلاقة فنحافظ عليها، أم لا فنتحرر منها، قال الله: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾.

[٩٣] ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾ كلا.. فلا ينصرون أحدا، ولا هم أنفسهم ينصرون.

[٩٤] تتلاحق أمواج الكفار وراء بعضها لتلقي في جهنم الذين ضلوا و الذين أضلوهم، لا أحد ينصر أحدا.

﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾ أي دهدهوا، وطرح فيها بعضهم على بعض.

ويبدو أن هناك ثلاث فرق هم الجماهير، والطغاة، ومن يؤيدهم. جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «هُمْ قَوْمٌ وَصَفُوا عَدْلًا بِأَلْسِنَتِهِمْ ثُمَّ خَالَفُوهُ إِلَى غَيْرِهِ»[3].

[٩٥] ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ﴾ وهذا الفريق -كما يبدو- هم الذين أيدوا الطاغوت، فالذين يكبكبون في النار -بالتالي- ثلاث فرق: من اتبعوا من عامة الناس، ومن اتبعوا من ولاتهم، ومن ساعدوا من جنودهم.

---

(١) بحار الأنوار: ج٥١، ص٢٥٨.
(٢) مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٤٠.
(٣) الكافي: ج١ ص٤٧.

[٩٦-٩٧-٩٨] وتتقطع في يوم الحسرة أسباب العلاقة بين التابعين والمتبوعين، بل تجدهم يتلاومون ويتلاعنون ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لقد اعترفوا بمدى ضلالتهم عن الحق وبعدهم عن الصواب، إذ جعلوا أندادهم سواء مع رب العالمين.

[٩٩] ولكن من المسؤول عن ضلالتهم هذه؟ أنى كان فهو قد ارتكب جريمة كبرى بحقهم ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ اختلف المفسرون في المجرم فقالوا: الذين اقتدوا بهم من الطغاة، أو الشياطين، أو الكفار السابقين، الذين دعوهم إلى الضلال.

والواقع: أن كل أولئك ينطبق عليه هذا الوصف، ولكن أحقهم جميعا بهذه الصفة هم أدعياء الدين والعلم الذين يشتغلون بتضليل الناس.

[١٠٠] واليوم أين أولئك المجرمون؟! ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾.

[١٠١] ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ فلا أحد من هؤلاء المجرمين يشفعون لبعضهم، ولا حتى الصداقات الحميمة تنفع ذلك اليوم.

بلى؛ إن المؤمنين يشفع بعضهم لبعض كما جاء في نصوص صريحة.

فالنبي صلى الله عليه وآله يشفع لأمته، والأئمة عليهم السلام يشفعون لشيعتهم، والمؤمنون يشفعون لبعضهم. جاء في الحديث عن أبان بن تغلب قال: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام يَقُولُ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَهْلِ بَيْتِهِ فَيُشَفَّعُ فِيهِمْ حَتَّى يَبْقَى خَادِمُهُ فَيَقُولُ فَيَرْفَعُ سَبَّابَتَيْهِ يَا رَبِّ خُوَيْدِمِي كَانَ يَقِينِي الْحَرَّ وَ الْبَرْدَ فَيُشَفَّعُ فِيهِ»(١).

[١٠٢] ثم تقطع الحسرة نياط أفئدتهم أن لو كانت لديهم فرصة أخرى حتى يكونوا مؤمنين ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

[١٠٣] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالرغم من تضافر الآيات.

[١٠٤] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هذه هي الحقيقة التي نستوحيها من كل تلك القصص التي يقصها ربنا في سورة الشعراء. هدى ونورا. إن ربك عزيز يأخذ الكافرين بقوة، وهو رحيم ينصر المؤمنين بفضله ومنه.

---

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص٦١.

وما أنا بطارد المؤمنين

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ (١) ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ (٢) بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

هدى من الآيات:

الصراع الدائر بين رسالة الله، وثقافة الأرض، صراع ممتد عبر الزمن، لأن رسالات الله تهدف تغيير كل القيم الجاهلية، وإقامة كيان ثقافي جديد، فحين يدعو نوح قومه إلى التسليم والإيمان بالله، فإنه يدعوهم في ذات الوقت إلى التسليم لكل القيم الإلهية التي تحمل التحضر والتمدن لأولئك الناس الذين سلموا لخرافات الماضي، وفساد الواقع، وبالرغم من أن الرسل عليهم السلام قد تحملوا الصعوبات في سبيل تبليغ رسالاتهم، إلا إنهم استطاعوا أن يغيروا أفكار البشر، حتى إن الأفكار الصحيحة التي نجدها في الأقوام الجاهلية لا بد أن يكون مصدرها الرسل.

---

(١) الأرذلون: هم السفلة والأوضاع والرذل الوضيع، والرذيلة نقيض الفضيلة.

(٢) فافتح: الفتح الحكم، والفتاح الحاكم لأنه يفتح على وجه الأمر بالحكم الفصل.

لأن الرسل كانوا بحق المحرك الأساسي للبشرية، وإلا فإن البشرية كانت تسير بشكل طبيعي نحو النهاية.

ومن الصعب على بشر عادي، أن يربي جيلا كاملا، ويرفعه إلى سماء القيم، لأن ذلك يستوجب أن يبث فيهم وعيا وثقافة وروحا إيمانيا يستحيل على البشر العادي امتلاكه، فكيف يبثه في جيل كامل، وعليه أيضا أن يتحدى الثقافة الموجودة، ومن يقف خلفها.

ويجب أن نقف إجلالا لذلك الفكر الذي يصيغ أجيالا مؤمنة. أن نقف إجلالا أمام صبر الرسل وتضحياتهم كنوح عليه السلام.

كان يعيش مجتمع نوح الطبقية والتجبر في الأرض، فكانوا يحتجون على نوح عليه السلام بقولهم: كيف نؤمن لك واتبعك الأرذلون؟! وكانوا يهددون نوحا عليه السلام ومن اتبعه بالرجم تجبرا وعلوا في الأرض.

واتباع الأرذلين لنوح ليست مبررا لعدم الإيمان، فإن كانوا أرذلين، فربهم أولى بحسابهم، وعلى كل حال فلم تكن نهاية قوم نوح بأفضل من نهاية قوم فرعون أو قوم إبراهيم حيث دعا نوح ربه عليهم، وسأله أن يفتح بينه وبينهم فتحا، فأغرقهم الله ونجى نوحا ومن معه من المؤمنين.

ومرة أخرى تجلت عزة الله بالانتقام من قوم نوح، كما تجلت رحمته بنجاة المؤمنين، وكان في ذلك أعظم آية، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.

بينات من الآيات:

[١٠٥] ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأنبياء خط واحد ومتكامل، أرسلوا كلهم من قبل رب واحد، وتقف رسالاتهم جميعا، من ناحية المبادئ العامة، وتفترق في المحتوى الاجتماعي، فموسى جاء لإزالة طاغوت زمانه، وإنقاذ أمة مستضعفة، و نوح جاء لإزالة الطبقية والتجبر، ومجرد التكذيب برسول واحد يقتضي التكذيب بسائر الرسل جميعا.

وربما معنى هذه الآية أن الله أرسل في قوم نوح أنبياء كثيرين كان آخرهم نوح عليه السلام.

[١٠٦] لقد أرسل الله إلى قوم نوح الجبارين أخا لهم في النسب لكي لا تمنعهم عصبيتهم من اتباع رسالات الله، وفي هذا غاية المنة عليهم.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ألا تحفظون أنفسكم من غضب الرب بترك الفساد،

ويبدو أن قومه كانوا قد بالغوا في عمل السيئات.

[١٠٧ ١٠٨] ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أمرهم بطاعته باعتباره رسول الله إليهم. وهكذا الرسل هم قادة فعليون للمجتمع، ويعارضون القيادات الفاسدة.

[١٠٩] وفرق كبير بين قيادة الرسول لقومه والقيادات الأخرى، إذ إنه -بخلافهم- لا يكتسب شيئا من قومه ولا يطلب أجرا ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

[١١٠-١١١] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ هذه هي الطبقية، أن يتحول المستضعفون إلى أراذل، ويمتنعون عن الإيمان لمجرد أن هؤلاء قد بادروا إليه.

وجاء في تفسير علي بن إبراهيم: إنهم عنوا بالأرذلين الفقراء، وجاء في تفاسير أخرى معان مشابهة كأصحاب المهن الدنيئة أو المساكين.

[١١٢-١١٣] ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي إني لا أعلم عنهم إلا خيرا، فقد دعوتهم فاستجابوا لي، وما أنا بمحاسبهم إن حسابهم إلا على ربي.

[١١٤] ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لست مستعدا للخضوع إليكم بطرد المؤمنين، وإنما أنا نذير لكل الناس .

وهنا نلاحظ أن نبي الله نوح عليه السلام رفض أن يكون دينه دين المستكبرين، فالمستضعفون إن كانوا مؤمنين مخلصين فهم خير من المستكبرين، و الدين ليس ملكا لنوح عليه السلام إنه ملك لله، فلا يحق له طرد المؤمنين.

[١١٥] ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ هذه حدود مسؤولياتي، ما أنا إلا نذير مبين، و من دخل في رحاب الله فالله أولى به.

[١١٦] ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ انتهى دور الحجة، وجاء دور التهديد، فهددوه عليه السلام بأنه إن لم يكف عن دعوته ليكونن من المرجومين، لأنه يلحق الضرر بكيانهم الاقتصادي، والاجتماعي - في زعمهم - إذ كان يحرض -فيما يبدو- صغار القوم على كبارهم - لأنه كان ينادي بإزالة الطبقية، ويبدو- أنهم كانوا حساسين كما غيرهم من الكفار تجاه الرسالة وأفكارها، فلذلك ناصبوها العداء.

[١١٧-١١٨] ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي اقض بيننا قضاء بالعذاب.

[١١٩] ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام أن المراد من الفلك المشحون: «الْمُجَهَّزُ الَّذِي قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا رَفْعِهِ»[1].

[١٢٠] ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ بعد أن يستيئس الرسل ومتبعوهم، أو يظنوا يقينا أنهم كذبوا آنئذ يأتيهم نصر الله، لأن إرادة الله اقتضت أن ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا، ويعذب من كذب، ولكن الله لا ينصر إلا بعد جهد جهيد، وهذه سنة الله.

[١٢١-١٢٢] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ إن الله لا تغره كثرة الكافرين، وإن أغلب الناس لا يتعظون بالعبرة، ولا يؤمنون بالرسل، ولا يستفيدون من أخطاء الماضين.

ومرة أخرى تتجلى العزة الإلهية بإغراق الكافرين، كما تتجلى الرحمة الإلهية بنجاة المؤمنين.

(١) تفسير القمي: ج٢ ص١٢٥.

وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ[1] ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

بعث الله لعاد من أنفسهم رسولهم هودا، فكان يدعوهم إلى رسالات الله، ونبذ قيم الأرض -وثقافة الشعراء- وبالرغم من أن هودا كان من نفس الوسط الاجتماعي لقوم عاد إلا إنه كان حنيفا عن ثقافة قومه، ولم يتأثر بها لأنه اتصل مباشرة بالوحي، فتحول من بشر عادي إلى بشر رسول.

ولقد أعطى الله لقوم عاد نعما وقوة، فكانوا ينحتون من الجبال بيوتا، و يتخذون مصانع لعلهم يخلدون، فطغوا وبغوا، فكانوا إذا بطشوا بطشوا جبارين. وفي مقابل عاد كانت الجزيرة

(١) خلق: أي عادة من أخلاق.

العربية مليئة بقبائل لا تستطيع أن تؤمن معيشتها.

وفي نهاية القصة يتعرض القرآن إلى نفس العاقبة التي يختتم بها القصص في هذه السورة، ومن ثم تستنتج نفس العبرة وهي أن الله عزيز رحيم.

بينات من الآيات:

[١٢٣] ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ كما أسلفنا إن التكذيب برسول يعني التكذيب بسائر الأنبياء، فخط هود هو خط كل الأنبياء من قبله، مع الاختلاف في المحتوى الاجتماعي لكل رسالة بسبب اختلاف الظروف، وليس اختلاف رسالات الله.

[١٢٤] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ كان هود من وسط قومه، فلذلك سمى الله هودا أخا لقومه.

[١٢٥] ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أحمل رسالته إليكم بأمانة وصدق. والأمين كلمة تتميز عن كلمة حفيظ، فالحفيظ هو الحافظ للشيء، بينما الأمين هو الذي يؤتمن ويحفظ ويؤدي.

[١٢٦] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أوصاهم بتقوى الله، وتطبيق مناهجه، والتسليم لولايته وقيادته.

[١٢٧] ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي لا أطمع في التسلط عليكم، ولا أريد منكم أجر تبليغ رسالة الله.

[١٢٨] ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ الريع هو المرتفع من الأرض، وجمعه رياع، وكانوا يتخذون لهم بيوتا عالية للهوهم وعبثهم على المرتفعات من الأرض.

[١٢٩] ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ كانوا يشيدون المصانع (القصور) كما في اللغة، وبمراجعة مشتقات الكلمة (صنع - يصنع - صنعا - مصنوع - صانع) يتبين أن قوم عاد قد بلغوا نوعا من التقدم، وقد بين الله سبحانه ذلك في سورة الأحقاف حينما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

ويبدو أن الآلة كان لها أثر كبير على حضارة قوم عاد، واستخدام الآلة في خدمة الإنسان أو في تسخير الطبيعة شيء حميد، إلا إن الاستخدام السيئ للآلة هو استخدامها بغرض الخلود.

[١٣٠] وتمني الخلود أو مجرد تصوره يدعو الإنسان إلى الطغيان، فلذلك بنى قوم

عاد مساكنهم على الأرياع، وشيدوا لهم القصور، فاغتروا بما صنعوا، وعندما اغتروا تجبروا وتكبروا، فوجهوا قولهم وبطشهم لمن حولهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ إن بطشكم ليس على المخطئين، ولكن بطشكم من أجل نشر تسلطكم، و نشر الرعب في قلوب الآمنين.

[١٣١] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرر الله عن لسان هود عليه السلام كلمة التقوى أربع مرات، وهذه الآية هي المرة الثالثة، وربما يتساءل البعض: لماذا كرر الله التقوى أربعا؟.

والجواب: إن التقوى كلمة ليست ذات بعد واحد، فأمام كل ذنب تقوى، فالتقوى في الكذب ترك الكذب، وفي الكفر الإيمان، وفي الإجرام الترك، وفي الاعتداء التورع.

وعلى هذا فالتقوى في هذه الآية تتمثل في ترك العبثية، وإبعاد فكرة الخلود، واجتناب البطش بالناس نكاية بهم، وهكذا قوم هود كلما ذكر انحراف عندهم أمرهم بالتقوى في الله لأن الانحراف يؤدي إلى العذاب الإلهي الذي لا بد من اجتنابه، أما التقوى في الآية التالية فلعل المراد منها الشكر، و ترك الكفر بنعم الله بعدم أداء حقوقها.

وقد أرفق هود بكلمة التقوى كلمة ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ للدلالة على أن الإصلاح يمر عبره، لأنه يمثل خلافة الله في الأرض.

[١٣٢-١٣٣] ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ ربما تشير هاتان الآيتان إلى مرحلة البداوة التي مر بها قوم عاد، و يشير الله إليها بقوله: ﴿بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ وهذه النعم عادة ما تكون لأهل الصحراء.

[١٣٤] أما المرحلة الثانية التي مر بها قوم عاد فهي مرحلة التحضر، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ حيث إن الزراعة نوع من التقدم في مسيرة البشرية.

[١٣٥] ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أشفق هود على قومه أن يحل عليهم عذاب يوم عظيم، ولعل الفرق بين العذاب العظيم وعذاب يوم عظيم الذي ذكره القرآن هو: أن العذاب إذا نسب إلى اليوم فكأنه يستوعبه، ويستمر بامتداده، ولعله يكون أكثر من نوع واحد من العذاب. فحذرهم ذلك اليوم.

[١٣٦] ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ كلاهما سواء، وعظت أم لم تعظ، لن نؤمن لك.

[١٣٧] ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ وسم قوم عاد نبيهم هودا عليه السلام بالرجعية، والأفكار

المتخلفة عندما قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وذلك لأن نبي الله نوح عليه السلام أوصى بنيه بأن سيكون بعده نبي من ذريته، وأعلمهم صفاته، وأوصاهم بطاعته، فكانت هذه الوصية تراثا يتوارثها الأجيال، وكان عندهم عيد يقيمونه كل عام، يذكرون أنفسهم بوصية جدهم نوح وعندما جاءهم هود كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إِنَّ نُوحاً عليه السلام لَمَّا انْقَضَتْ نُبُوَّتُهُ واسْتُكْمِلَتْ أَيَّامُهُ أَوْحَى اللهُ عَزَّ وجَلَّ إِلَيْهِ أَنْ يَا نُوحُ قَدْ قَضَيْتَ نُبُوَّتَكَ واسْتَكْمَلْتَ أَيَّامَكَ فَاجْعَلِ الْعِلْمَ الَّذِي عِنْدَكَ والْإِيمَانَ والِاسْمَ الْأَكْبَرَ ومِيرَاثَ الْعِلْمِ وآثَارَ عِلْمِ النُّبُوَّةِ فِي الْعَقِبِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ فَإِنِّي لَنْ أَقْطَعَهَا كَمَا لَمْ أَقْطَعْهَا مِنْ بُيُوتَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام الَّتِي بَيْنَكَ وبَيْنَ آدَمَ عليه السلام ولَنْ أَدَعَ الْأَرْضَ إِلَّا وفِيهَا عَالِمٌ يُعْرَفُ بِهِ دِينِي وتُعْرَفُ بِهِ طَاعَتِي ويَكُونُ نَجَاةً لِمَنْ يُولَدُ فِيمَا بَيْنَ قَبْضِ النَّبِيِّ إِلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ الْآخَرِ**».

قال عليه السلام: «**بَشَّرَ نُوحٌ سَاماً بِهُودٍ عليه السلام**»(١).

[١٣٨] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي لسنا بمعذبين لكرامتنا عند الله، وربما تصوروا أنهم ليسوا بمعذبين لاستحالة العذاب.

[١٣٩] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ يختصر الله المسافة بين التكذيب والإهلاك بقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ لأن هذه الفترة ينساها من يحل عليه العذاب، فتكون عنده الحياة يوما أو بعض يوم، ولحقارتهم أيضا عند الله عمهم بالجملة، مختصرا كل حياتهم و ما بنوا وما بطشوا وما كفروا في هاتين الكلمتين: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي في إهلاكهم آية، ولكن أكثر الناس عندما تمر عليهم مثل هذه العبر لا يؤمنون بها، فيجري عليهم الله سنته بأن يهلكهم بعد الإنذار.

ولكن الذي يستفيد من العبر هو من آمن، وخاف وعيد الله، وصدق بأن لله عقابا.

[١٤٠] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تتجلى عزة الله بأن أخذ قوم عاد أخذ عزيز مقتدر، وتتجلى رحمته أنه نجى هودا ومن آمن معه.

---

(١) الكافي: ج٨ ص١١٥.

ولا تطيعوا أمر المسرفين

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ (١٤٦) فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ (١٤٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا[1] فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٥٩)﴾.

هدى من الآيات:

عاش قوم ثمود، وهم عشر قبائل في أطراف الجزيرة العربية، في إحدى الواحات، عند سفح جبل منيع (مدائن صالح) وصنعوا بيوتهم فيه، و كانوا يزرعون أسفل الوادي، فازدهرت حضارتهم، وانحرفوا عن فطرتهم بعد ما بطرت معيشتهم، والبطر جعل قوم ثمود طبقتين: طبقة غنية متسلطة، وأخرى فقيرة مسحوقة، ففسدوا وأفسدوا معهم المستضعفين.

فجاء نبيهم صالح عليه السلام لينهى الناس عن إطاعة أمر المسرفين، المفسدين في الأرض،

---

(١) فعقروها: العقر هو قطع شيء من بدنِ الحي.

الذين لا يصلحون، وآنئذ اتهموه بأنه من المسحرين، فأت بآية إن كنت من الصادقين، فجاءهم بالناقة لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، خانوا الله فيها فعقروها فأصبحوا نادمين.

وأخيرا يوصلنا الله لنفس النتيجة التي يكررها في كل درس.

بينات من الآيات:

خصائص الرسول

[١٤١] ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذي يكذب برسول ما، لو فكر قليلا لرأى أن سنة الله في الحياة أن يبعث رسلا، وإرسال صالح إلى قومه ثمود لم يكن خارجا عن تلك السنة، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

[١٤٢] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ و التقوى هنا الحذر من العذاب الذي يتوقع نزوله بسبب فسادهم في الأرض.

ولعل تكرار استخدام هذه الكلمة في هذه السورة يهدف زرع نبتة التقوى في القلب، إذ إن السياق يربط بين هلاك القوم بذنوبهم وبين أعمالهم، لعل التالي للذكر -أنا وأنت- يزداد إيمانا بهذه الحقيقة: إن الجزاء سيتبع العمل، فلا يختار عملا سيئا مهما كان صغيرا، ذلك أن سنة الله واحدة في الحقائق الكبيرة والصغيرة، فالنار هي النار، طبيعتها واحدة في قليلها وكثيرها.

[١٤٣] و للداعية إلى الله شرطان: رسالة يعيها تماما، وأمانة يحافظ عليها ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

[١٤٤-١٤٥] وهكذا تنتظم الحياة اليوم بفقه الدين (الرسالة) و الالتزام به، والاتسام بالعدالة الشرعية (الأمانة).

ومسؤولية الناس تجاه الرسالة تقوى الله، وتجاه حامل الرسالة طاعته. ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تأكيد الله -سبحانه وتعالى- على هاتين الآيتين في هذه السورة يبين لنا أن من صفات الرسل أنهم يتخذون رسالتهم وسيلة للتقرب إلى الله، بيد أن الشعراء يتخذون شعرهم وسيلة للاكتساب.

[١٤٦-١٤٧-١٤٨] ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ أتحسبون أنكم متروكون.. تتمتعون بالنعم والأمن، وحولكم جنات و عيون، وزروع ونخيل طلعها جيل جذاب ومنسق.

فلا تحسبوا أن النعم والأمن تدوم لكم، وأنتم مخلدون فيها، فقد يأخذكم عذاب بئيس، فلا تستطيعون صرفا ولا نصرا.

[١٤٩] وكذلك لا يأخذكم الغرور بقوتكم لأنكم تبنون لكم بيوتا فارهة، غاية في القوة والمتانة والإبداع ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ لقد بلغت حضارة ثمود مبلغا من التقدم، حيث اهتموا بالزراعة، كما اهتموا ببناء المصائف والمدن الجبلية، وقد وصف الله بيوتهم التي ينحتونها بأنها فارهة، وهذه ليست من عادة المناطق الجبلية، وإنما يبنون الواسع من البيوت في سفوح الجبال لأنهم استكبروا في الأرض.

[١٥٠-١٥١] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ للإسراف أبعاد: إما في المال، أو في الظلم، أو في المعاصي، وهذا يؤكد أنه كان في قوم ثمود كثير من الطواغيت المتكبرين.

والملاحظة الأخرى أن الطبقية كانت منتشرة فيهم، إذ قال نبيهم صالح عليه السلام لهم: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ حيث يبدو أن هذه الطبقة أضحت طائفة خطيرة تزحف نحو القيادة.

وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام أطيعوني، ولا تطيعوا أمر المسرفين، وقد سبق طاعته بتقوى الله وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لكي يبرر طاعته للناس بأن طاعته امتداد لطاعة الله.

ويبدو أن جوهر الفساد، أو العامل الرئيسي له هو الإسراف، فإذا زادت النعمة على الإنسان أسرف في تلك التي أعطاها الله إياها، وبالتالي جعلها مادة لفساده، فقد يعطي الله إنسانا نعمة الجمال فيفسد بها، أو نعمة الجنس فيفسد بها، أو نعمة المال والولد فيتجبر بهما ويطغى على من هو دونه... وهكذا.

فبدل أن يصل بهذه النعم إلى رضوان الله، وإصلاح المجتمع، وعمارة الأرض، إذا به يصل إلى عبادة ذاته، وبالتالي الإفساد في الأرض.

إن الله يرزقنا النعم كي نستفيد منها في عمارة الأرض، والبلوغ إلى جنانه ومرضاته - سبحانه- فقد رزقنا الله اليد لنأخذ بها حقنا لا أن نبطش بها، والعين لنبصر بها لا أن ننظر إلى الحرام، واللسان كي نسمع الناس الحكمة لا أن نتطاول به بالغيبة والبهتان والسباب... وهكذا.

وفي يوم القيامة يحتج الله على العباد، فيأتي بيوسف حجة لمن فسد بجماله، وبمريم لمن باعت نفسها، وبأيوب لمن لم يصبر عند البلاء.

[١٥٢] من هم المسرفون؟.

بعد أن كانت ثمود تعمر الأرض بالزراعة والبناء، نمت فيها طبقة المسرفين الذين أصبحوا بؤرة الفساد، وعندما تنحرف مسيرة المجتمع، و يتسنم ذروة القرار فيها أناس همهم الإفساد، فإن خطاهم نحو النهاية سوف تتسارع، وفي هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ الأمم يبعث الله رسله لعلهم يتوبون إليه، ويتقونه ويطيعون رسله.

﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ وإذا غلب على الإنسان حالة الإفساد فإنه لن يكون مصلحا، وما يتظاهر به من الدعوة إلى الإصلاح فهو كذب وهراء، وهذا شأن المسرفين.

﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ واليوم يصنع المستكبرون وسائل إبادة البشرية جميعا، ثم ينادون بالسلام أو بحقوق الإنسان وهم كاذبون.

ولعل من معاني الإسراف بالإضافة إلى الإسراف بالمال، الإسراف بالفساد، وسفك الدماء. جاء في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «**الْمُسْرِفُونَ هُمُ الَّذِينَ يَسْتَحِلُّونَ الْمَحَارِمَ، وَيَسْفِكُونَ الدِّمَاءَ**»[1].

[١٥٣] ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ أي أنه قد أصيب بسحر، ويبدو أن هذا الكلام تهمة خفيفة بالجنون.

فأتِ بآيةٍ

[١٥٤] ﴿ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أنت بشر مثلنا، وصحيح أن الرسول بشر مثلهم إلا إنه يوحى إليه، و قد كانوا يتصورون -كما فرعون وكفار قريش- أن الرسول يجب أن يكون متميزا عليهم، بأن يكون معه الملائكة، أو يلبس الذهب، أو يملك الخزائن، أو أنه من جنس آخر غير جنس البشر، وإنما أرسل من جنس البشر لكي يكون الإيمان به بحرية، وعن يقين وعلم تامين، فلو أرسل الله الرسل كما يتصورون إذا لانتفى أساسا الاختبار.

﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ يؤمن بعض الناس بمجرد رؤية شواهد الرسالة، كأن يؤمنون لأن رسلهم السابقين أشاروا إلى هذا النبي، بينما يؤمن بعضهم لما يراه من صفات الرسل، وهناك أناس لا يؤمنون إلا بالمعجزة، ويبدو أن قوم ثمود كانوا يعرفون رسولهم، ولكنهم يفقدون الثقة به، فهم يحتاجون إلى دليل صارخ على صدقه.

---

(١) التبيان، الشيخ الطوسي: ج٣، ص٥٠٤.

[١٥٥] ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أتى لهم صالح بمعجزة الناقة وفصيلها التي تشرب الماء يوما، و يشربون الماء يوما، وفي اليوم الذي تشرب فيه تدر عليهم اللبن.

[١٥٦] ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وأمرهم بأن لا يمسوا الناقة بسوء، فيأخذهم الله بعذاب يوم عظيم.

فالانضباط، والتزام الأوامر لها الفضل الأكبر في ديمومة الحضارة، و بعكسها التسيب والاعتداء، لأنها يخالفان سنن الحياة الطبيعية.

[١٥٧] ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾ إنهم شعروا بالندم على قتلهم الناقة (والقتل من الذنوب التي تورث الندم)[1] كما في الحديث الذي استدل بقوله في قصة ابني آدم فقتله ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

[١٥٨] ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ نزل بهم العذاب، وكان طاغية عليهم. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فهل من معتبر؟! فبالرغم من أن إهلاك القوم نذير صاعق إلا إن آذان أكثر الناس تصم دون هذا النذير.

[١٥٩] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ جمع في نفسه العزة والرحمة، فهو شديد العقاب، ولكن رحمته سبقت عذابه إلا على القوم الكافرين عندما يسلط عليهم العذاب، فآنئذ لا محل لرحمته.

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٢٨١: عَنْ أَبِي خَالِدٍ الْكَابُلِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ زَيْنَ الْعَابِدِينَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام يَقُولُ. «الذُّنُوبُ الَّتِي تُغَيِّرُ النِّعَمَ الْبَغْيُ عَلَى النَّاسِ وَالزَّوَالُ عَنِ الْعَادَةِ فِي الْخَيْرِ وَاصْطِنَاعُ الْمَعْرُوفِ وَكُفْرَانُ النِّعَمِ وَتَرْكُ الشُّكْرِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ وَالذُّنُوبُ الَّتِي تُورِثُ النَّدَمَ قَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: -فِي قِصَّةِ قَابِيلَ حِينَ قَتَلَ أَخَاهُ هَابِيلَ فَعَجَزَ عَنْ دَفْنِهِ ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ وَتَرْكُ صِلَةِ الْقَرَابَةِ حَتَّى يَسْتَغْنُوا، وَتَرْكُ الصَّلَاةِ حَتَّى يَخْرُجَ وَقْتُهَا، وَتَرْكُ الْوَصِيَّةِ وَرَدُّ الْمَظَالِمِ وَمَنْعُ الزَّكَاةِ حَتَّى يَحْضُرَ الْمَوْتُ......».

أتأتون الذكران من العالمين

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ[1] (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)﴾.

هدى من الآيات:

في سياق بيان رسالات الله وأهدافها الإصلاحية يبين ربنا قصة قوم لوط الذين انحرفوا جنسيا، فأرسل الله إليهم رسولا أنبأهم بأنه يحمل إليهم رسالة ربهم بأمانة، وأمرهم بتقوى الله وطاعته وقال: بأنه لا يطلب منهم أجراء، ولكنه يعمل لهم في سبيل الله الذي يرجو أن يعطيه الأجر الوافي، ثم واجه انحرافاتهم الكبرى وهي الإباحية والشذوذ الجنسي، حيث كانوا يأتون الذكران من أي قوم كانوا، ويذرون ما خلق الله لهم من أزواجهم، ونعتهم بالتعدي عن الحق والجور.

فهددوه بالإخراج إن لم ينته من معارضتهم، ولكنه تبرأ من عملهم، وسأل الله أن ينقذه

(١) القالين: القالي هو المبغض.

من ذلك العمل القبيح، فنجاه الله و أهله جميعا سوى زوجته العجوز التي هلكت وأضحت عبرة.

ودمر الله الآخرين، وذلك بأن أمطر عليهم مطر السوء، و بئس المطر كان لأولئك الذين تم سلفا إنذارهم وبقيت من قصتهم آية وعلامة لعل الناس يهتدون، إلا إن أكثر الناس لا يؤمنون. وخلاصة الحقيقة التي يمكن معرفتها بهذه الآية هي أن الله عزيز رحيم.

وهكذا تختلف صور الفساد ونهايته واحدة مهما اختلفت صوره، ولعل السبب الرئيسي للفساد هو الإسراف.

بينات من الآيات:

اتأتون الذكران؟

[١٦٠-١٦٤] ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الكلمات ذاتها، والنبرة ذاتها نسمعها من لوط عليه السلام، لأن جوهر الانحراف عند كل قوم واحد، بالرغم من اختلاف صوره، فلا بد أن يكون جوهر الرسالات واحدا، بالرغم من اختلاف كل رسالة عن غيرها في مجال الإصلاح الذي يستتبع نوع الانحراف.

ويبدو أن نسبة لوط إلى القوم: ﴿أَخُوهُمْ﴾ لانه مكث فيهم طويلاً وصاهرهم حتى أصبح معدوداً منهم.

[١٦٥] ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ولعل هذه الآية تشير إلى طبيعة فساد الإباحية والشذوذ الجنسي حيث إنه ينتشر ويتعدى حدود البلد، وقد انتشر فعلا الفساد الخلقي عند قوم لوط حتى قال آسفا: أليس منكم رجل رشيد ؟!، وتعدى فعل الفاحشة إلى كل العالمين.

[١٦٦] ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ عادون: أي تتعدون.

كان تركهم الأزواج وإقبالهم على الذكران تعديًا وتجاوزاً، بل و تمردا على الفطرة التي فطر الناس عليها، ولم يكن هدفهم -والله أعلم- إشباع شهوتهم، بالرغم من أن الله يلقي على

الملاط به، والعياذ بالله شهوة النساء، فمقاربة النساء أكثر شهوة من مقاربة الرجال، ولذا سماهم الله سبحانه بالعادين.

والزواج في الإسلام ضمان من الانحراف، وهو صمام أمان لمثل هذه الانحرافات و التي صارت تجتاح البشرية بشكل مريع.

إني من القالين

[١٦٧] ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ هددوا نبيهم بالنفي والإخراج، لأنهم صاروا لا يتحملون كلمة وعظ أو إرشاد، بل إن الشذوذ الجنسي صار عرفاً اجتماعيًّا، وكل من ينتقد هذا العرف يعتبر شاذا، فالغارق في الشهوة، لا يحب من يكدر صفو شهوته.

[١٦٨] ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ رافض لعملكم، متحد لعاداتكم. فهو أراد الابتعاد النفسي عن عملهم، ومعروف أن من رضي بعمل قوم حشر معهم، ومن رفض عملهم لن يحشر معهم.

والميل النفسي المجرد لعمل قبيح سبب من أسباب ممارسته، بينما تقبيح العمل، والعزوف النفسي عنه يمنعان من ممارسته، و الانغماس فيه.

والتحدي من صفات الأنبياء العظام عليهم السلام، إذ إنهم يتحدون الانحرافات بقوة وصراحة، ولا يخشون بطش مجتمعاتهم.

[١٦٩] ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ تبرأ إلى الله سبحانه من عملهم، ورجاه بأن لا يكونوا شركاء قومه في فواحشهم، فهو يخاف على عائلته أن يصيبهم مثل ما أصاب قومه، فلوط ذلك الأب الذي يحاول أن يجنب أهله الفساد، ويحصنهم بالتربية، وليس هو ممن يترك لأولاده الحرية المطلقة، ويترك تربيتهم على أمثالهم أو على الناس.

[١٧٠-١٧١] ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ لكن زوجه ليس من أهله، وإنما أهل النبي من ينتظم في أمره. و﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد لم ينقضه الإستثناء إذ هو منقطع شبيه بدفع التوهم.

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ عندما يأتي الضيوف للوط عليه السلام -وكان مضيافا- كانت امرأته تشعل النار على سطح بيته ليلا، أو تنفخ الدخان نهارا، لتعلم قومها بأن في بيتها ضيوفا، فيهرع قومه إلى بيته، يطلبون الفاحشة من ضيوفه، وكان لوط يستغل مثل هذه المناسبات ليعظ قومه من أجل ذلك كانت زوجته في الغابرين، والغابر من الغبار المتخلف عن الكنس، ونستوحي

من هذا التعبير أنها ألقيت في مزبلة التأريخ.

[١٧٢] ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ التدمير هو الإبادة التامة، وكان تدمير الله لهم قويا، بحيث إنه لم يترك حجرا على حجر، وكانت قرى لوط سبعا.

[١٧٣] ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ ما هو هذا المطر؟.

يبدو أن هذا المطر أحد شيئين، إما حجارة من السماء كالنيازك والشهب، وهو أمر مستبعد نوعا ما، لأن السماء لا تسقط بهذه الكثافة من الحجارة حتى تدمر سبع قرى كاملة، وإن كان ذلك ليس على الله ببعيد. أو أن المطر هو انفجار بركاني، من قمة جبل قريب منهم، وهو احتمال يمكن أن يكون صحيحا.

[١٧٤-١٧٥] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ما أرحم الله بعباده، حتى بعد انحرافهم وفسادهم لا يأخذهم حتى يبعث فيهم رسولا، ويقيم عليهم الحجة بعد الحجة.

وما أعزه من إله مقتدر جبار، يأخذهم إذا تمردوا على رسله بأشد العذاب في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى.

ومع كل تلك الآيات ترى أكثر الناس لا يؤمنون، حتى يحل بهم العذاب مباشرة.

ولا تعثوا في الأرض مفسدين

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٨٠) ۞ أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا[1] ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا[2] فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَٱتَّقُوا ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ[3] ٱلْأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٩١)﴾.

هدى من الآيات:

وأصحاب الأيكة أيضا كذبوا الرسل، إذ قال لهم نبيهم شعيب عليه السلام: أوفوا الكيل ولا تكونوا من المفسدين، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، فكذبوا رسولهم، و تحدوه أن يأتيهم بآية، فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم.

---

(١) ولا تبخسوا: لا تُنقصوا، والبخس هو النقص فيما يجب على الإنسان إعطاؤه.
(٢) ولا تعثوا: العثيّ أشد الفساد.
(٣) الجبلة: الخليقة.

وأصحاب الأيكة هم قوم يسكنون جانبا من غابة خضراء، و الأيكة هي الأشجار الملتفة حول بعضها.

إنهم أصبحوا سباعا على بعضهم البعض، كل يبحث عن الرزق من غيره، فبدل أن يتعاونوا مع بعضهم من أجل استخراج خيرات الطبيعة، واستثمار تلك الغابات أصبحوا يطففون الميزان، و عصوا رسولهم شعيب.

بينات من الآيات:

وزنوا بالقسطاس المستقيم

[١٧٦] ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الأيكة وجمعها أيائك وهي الغياط والحدائق الكثيفة.

[١٧٧-١٨٠] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كل الأنبياء جاؤوا بمحتوى عقائدي واحد، ولذلك فالتكذيب برسول تكذيب بكل الرسل، ولعل تأكيد الأنبياء على أنهم لا يطالبون بأجر يعتبر بمثابة إسقاط حقوقهم سلفا.

[١٨١-١٨٢] ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ زنوا بالعدل والقسط، والقسطاس هو الميزان، وليس ميزانا فحسب بل ميزانا مستقيما، ويبدو أن الواجب هو العطاء بمقدار الوزن لا زيادة ولا نقصان، وجاءت الروايات لتجعل الوفاء بالميزان من المستحبات، فواجبك أن تعطي مستقيما، ولكن من المستحب أن تزيد في الكيل.

[١٨٣] ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ كانت علاقة أصحاب الأيكة ببعضهم علاقة إفساد، فبدل أن يتعاونوا على الإنتاج إذا بهم يفسدون في الأرض، وكان البعض يأكل من الآخر، فكان الزارع لا يعتمد على زراعته، والمنتج لا يعتمد على إنتاجه، لأنهما كلما زرعا وأنتجا أكل ريعهما الأثرياء الجشعون، فكانوا مضطرين إلى أن ينضموا إلى هذا الكيان الفاسد اقتصاديا، ويبدو أن السلطة كانت للسارقين، شأنهم شأن كل الأنظمة الفاسدة والواقع: نفسية الحريص هي نفسها نفسية الفاتح العسكري، الإمبراطور و...، ونفسية هؤلاء وغيرهم هي نفسية الاستعلاء، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وهذه النفسية قد تكون عند الفقير، كما جاء في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام: «الْكِبْرُ قَدْ

يَكُونُ فِي شِرَارِ النَّاسِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ، والْكِبْرُ رِدَاءُ اللهِ، فَمَنْ نَازَعَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ رِدَاءَهُ لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلَّا سَفَالاً. إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ وسَوْدَاءُ تَلْقُطُ السِّرْقِينَ فَقِيلَ لَهَا: تَنَحَّيْ عَنْ طَرِيقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّ الطَّرِيقَ لَمُعْرَضٌ فَهَمَّ بِهَا بَعْضُ الْقَوْمِ أَنْ يَتَنَاوَلَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا جَبَّارَةٌ[1].

[١٨٤] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ اتقوا الله الذي خلقكم والذين من قبلكم، ولا تتعاملوا بينكم بالتطفيف.

[١٨٥] ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ لماذا قالوا إنك من المسحرين، أي المسحورين؟.

قالوا ذلك لأنهم كانوا يحترمون شعيبا عليه السلام وكان فيهم مرجوا، و كانوا يعقدون الآمال عليه لسعة عقله.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[هود: ٨٧].

فما نسبوه إلى الجنون، وإنما قالوا: أنت متأثر بسحر الآخرين.

[١٨٦] ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أنت بشر مثلنا، فهل يمكن أن تكون رسولا؟! إنا نظنك من الكاذبين.

[١٨٧] ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لم يصدقوا أن الله قادر على أن يزيل النعم عنهم، فتحدوا رسولهم أن يسقط عليهم كسفا من السماء، فكيف يؤمن من عاش محاطا بالنعم بعذاب من عند الله؟!.

ويبدو أن شعيبا عليه السلام خوفهم عذاب الله، وهل هو إلا نذير بين يدي عذاب مبين؟!.

[١٨٨] ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لم يدع على قومه بالعذاب، وإنما أوكل أمرهم إليه سبحانه، فهو أعلم بهم، وأعلم بما هو الأصلح، إن شاء هداهم وإن شاء عذبهم.

[١٨٩] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فلما كذبوا رسولهم أخذهم الله بعذاب يوم الظلة، إذ أصيبوا بحر شديد، واستمر ذلك الحر ستة أيام، فمات الكثيرون، ولم تنفعهم أيانكهم وغياطهم، فلما كان يوم السابع، أرسل الله عليهم سحابه

(١) الكافي: ج٢، ص٣٠٩.

تظللهم، فصاروا يمشون معها كلما مشت، فلما توسطوا الصحراء، أنزل الله عليهم من السحابة صاعقة، فإذا هم خامدون، نعم كلما أحدث الناس ذنبا أحدث الله لهم بلاء مناسبا لذلك الذنب، ويبدو أن نوع العذاب الذي نزل على أصحاب الأيكة كان متناسبا مع ذنبهم، حيث انخدعوا بالسحابة بمثل ما غشوا بعضهم، و طففوا في الميزان.

[١٩٠] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كل انحراف في أية أمة يتبعه نوع محدد من العذاب، وكل انحراف في الماضي هناك ما يشابهه في الحاضر، وكل عذاب هو آية لمن يمارس نفس الانحراف.

[١٩١] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ العزيز آخذ بناحية من يخرج عن سلطانه، ورحيم يُمهل ولا يعاجل بالعقوبة ويبعث رسولاً لعلهم يرجعون.

نزل به الروح الأمين

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)﴾.

هدى من الآيات:

محتوى رسالات الله واحد، وإنما اختلفت حسب الظروف، لأن كل رسالة استهدفت إصلاح الفساد المستشري في المجتمع الذي أنزلت فيه، وكذب كل قوم رسولهم، فانتصر الله للرسول و للمؤمنين، وأهلك الآخرين بعذاب شديد.

هذا ما استوحيناه مما مضت من آيات ربنا، أما هذا الدرس الذي هو خلاصة حقائق السورة -هو والدرس التالي والأخير- فإنه يحدد معالم الرسالة الإلهية وخصائصها المميزة:

ألف: لا تخص رسالات الله بقوم أو أرض أو زمن. أليست هي من رب العالمين فهي

كالغيب تشمل بركاته كل بقعة؟.

بـــاء: إنها رسالة حق تعكس حقائق الحياة المشهودة والمغيبة، المادية والمعنوية، وتمتد من الدنيا إلى الآخرة، وتتجاوز المصالح العاجلة إلى المنافع الآجلة، أليس قد نزل بها الروح الأمين؟.

جيم: إنها تهدف الإصلاح الجذري الذي، يتم باقتلاع جذور الفساد والانحراف.

دال: وتخاطب الناس بلغتهم، ولغتها ليست كلغة الشعراء غامضة معقدة، إنما هي لغة الواقع التي تكشف الحقائق جلية واضحة ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

هاء: خطها ممتد عبر العصور من آدم عليه السلام إلى النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وآله فهي في زبر الأولين، ويعلمه علماء بني إسرائيل.

وإنما يتمرد عليها الجاهلون بعصبيتهم، فلو أنزل على بعض الأعجمين ما كانوا به مؤمنين.

وشأنها شأن الرسالات الأولى، لا يؤمن بها المجرمون حتى يروا العذاب الأليم، الذي يأتيهم فجأة فيطلبون فرصة أخرى بينما هم اليوم يستعجلون عذاب الرب.

وحتى لو تطاول بهم العمر سنين فماذا ينفعهم حين يأتيهم العذاب، ويختم عمرهم بسوء؟.

ولكن الرب لا يعذبهم حتى يبعث من ينذرهم، كذلك سنة الله في كل قرية يعذبها، وما كان الله ظلاما للعبيد.

وليست الرسالة من وحي الشياطين، ولا يتناسب معهم، ولا يقدرون على ذلك، لأنهم معزولون عن السمع.

بينات من الآيات:

[١٩٢] من أعظم شواهد الحق في رسالات الأنبياء أنها تتجاوز الحواجز المادية بين الإنسان ونظيره الإنسان، مما يشهد على أنها تنزيل من الله الذي خلق العالمين ودبر أمره.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الضمير المتصل في ﴿إِنَّهُۥ﴾ يرجع إلى القرآن أو إلى الوحي، الذي هبط مرة على آدم ومن بعده نوح، وهود وصالح، و إبراهيم، و.. و..، لأن جوهر الرسالات واحد، وأما تفضيل القرآن عليها جميعا، فلأنه خاتم للرسالات، ومهيمن عليها جميعا .

[١٩٣] ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ نزل به جبرائيل عليه السلام الذي كان أمينا على وحي الله.

ولعلنا نستوحي من هذه الكلمة: أن الرسالة هي فوق مادية، وأنها دقيقة حيث تعكس الحقائق بلا أية زيادة أو نقيصة.

[١٩٤] ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ الإنذار هو محاربة الوضع المنحرف بقوة، والإنذار هو التخويف مع التحذير، فالقرآن جاء منذرا قبل أن يكون مبشرا، و قد جاءت بعض الآيات تحصر عمل النبي في الإنذار.

[١٩٥] ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ تأكيد الله على كلمة العربي للقرآن، يدل على أهمية هذه اللغة و ضرورة تعلمها، لأنها لغة القرآن، والعربية هي أوسع اللغات لاستيعاب معاني القرآن وآفاقه.

وقد جاء في معاجم اللغة: أن إعراب الكلام إيضاح فصاحته، و العربي المفصح، والإعراب -بالكسر- البيان.

وفي الحديث عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ قال: «يبِينُ الْأَلْسُنَ ولَا تُبِينُهُ الْأَلْسُنُ»[1]. ولعل معناه أن اللغات لا تترجم -بدقة- العربية وليس العكس.

[١٩٦] ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ إن من شواهد صدق رسالة النبي ﷺ توافقها مع رسالات الله السابقة، وتبشير الأنبياء بها، وتعاهد المؤمنين على التواصي بها جيلا بعد جيل.

[١٩٧] ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أوليس دليلا كافيا أن يؤمن به بعض علماء بني إسرائيل؟ وإيمان مثل هؤلاء حجة قوية:

أولاً: لأنهم من بني إسرائيل.

ثانياً: لأنهم من علمائهم وثقاتهم، وقد أكد الله في سورة الأحقاف مضمون هذه الآية عندما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٠].

[١٩٨-١٩٩] وبعد أن يبين السياق شواهد الصدق في رسالة الإسلام شرع يبين عوامل الكفر بها من قبل أولئك الجاهلين، ومن أبرزها:

أولاً: العصبية

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ لو نزل هذا

(١) الكافي: ج٢ ص٦٣٢.

القرآن على نبي أعجمي ما كانوا ليؤمنوا به إذ تستبد بهم العصبية، فمن الله عليهم إذ أرسل فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته، وجاء في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال في تفسير الآية: «**لَوْ نُزِّلَ الْقُرْآنُ عَلَى الْعَجَمِ مَا آمَنَتْ بِهِ الْعَرَبُ، وَقَدْ نُزِّلَ عَلَى الْعَرَبِ فَآمَنَتْ بِهِ الْعَجَمُ فَهَذِهِ فَضِيلَةُ الْعَجَمِ**»[1].

ثانياً: ارتكابهم الجرائم

[٢٠٠] ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الجريمة من أهم الأسباب التي تمنع قبول الرسالة، لأن الذي سقط في وحل الجريمة، وسمح لنفسه أن يكون طعمة للشهوات الرخيصة لا يؤمن بالرسالة، لأن الرسالة أعلى من أن يطولها، كمن هو في بئر عميقة ظلماء، كيف يرى نور الشمس، بل كيف يستوعب معنى نور الشمس؟!.

فحينما يكون عقل الإنسان محكوما بشهواته، ومضروبا على قلبه بالأسداد، مليئا بالهوى، ينزاح عنه الحق لأن قلبه أصلد من أن يستقبلها.

وقال بعض المفسرين: إن معنى الآية، كما أنزلنا القرآن عربيا مبينا أمرناه وأدخلناه وأوقعناه في قلوب الكافرين، بأن أمرنا النبي صلى الله عليه وآله حتى قرأه عليهم وبينه لهم[2].

ويبدو أن سياق الآيات يوحي بالتفسير الأول كما جاء في آية كريمة: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وكما جاء في آية أخرى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٨]، و هكذا تكون كلمة سلكناه أجريناه بحيث أصبحت تلك سنة تجري لا فكاك منها!.

[٢٠١-٢٠٢] فطبيعة المجرمين أنهم لا يؤمنون بهذا الرسول العربي -بغض النظر عن الأعجمي-، هناك يتساءل المجرمون هل هناك فرصة أخرى لنا فهم: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

[٢٠٣-٢٠٤] ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أما اليوم فتراهم لا يؤمنون حتى يأتيهم العذاب وكأنهم يستعجلون العذاب.

[٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧] ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص١٢٤، بحار الأنوار: ج٩ ص٢٢٨.
(٢) مجمع البيان: ج٧ ص٢٦٦.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ لو أخرنا عنهم العذاب، ومتعناهم سنين، وجاءهم العذاب، هل تنفعهم هذه السنين وهذا التمتع، فما الله بمزحزحهم من العذاب أن يعمروا ألف سنة، والله بصير بما يعملون.

لقد عمر نوح عليه السلام ثلاثة آلاف سنة، ولم يبن له إلا كوخا يستر نصفه، فجاءه عزرائيل وسأله: لِمَ لَمْ تبن لك بيتا يسترك؟ قال: إن الذي أنت وراءه كيف يبني بيتا.

[٢٠٨] ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ إن الله لا يعذب قرية إلا بعد أن يرسل إليها منذرين، وبذلك تتجلى رحمة الله بأظهر ما يكون. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[الإسراء: ١٥].

[٢٠٩] ﴿ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وحين يعذبهم الله فليس بظالم، لأنه قد أرسل إليهم رسلا من قبل.

[٢١٠-٢١١] إن جوهر الفكرة التي يوحي بها الله تختلف عن جوهر الفكرة التي يلقيها الشيطان، ويتناقض معه تناقضا كليا، فمصدر هذا الهوى، ومصدر ذاك نور الله، وهذا يضل، وذاك يهدي، وهذا يستثير الشهوات، ويأمر بالفحشاء والمنكر و البغي، وذاك يثير العقل، ويأمر بالعدل. فكيف يختلطان؟.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ لم تنزل الشياطين ومن اتبعهم من أدعياء المعرفة مثل هذا القرآن، وما ينبغي لهم لأنه لا يتناسب وطبيعتهم، ولا يستطيعون ذلك لأنهم.

[٢١٢] ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ أي سماع الوحي من الله سبحانه. وبهذا نميز بصائر الوحي عن تخرصات الشياطين. إن الطريق للتمييز بينهما يتم بمعرفة مصدرهما، وكذلك بمعرفة آثارهما.

فبصائر الوحي التي من عند الله أو من عند رسوله وأولي الأمر من بعده تبعث فيك المسؤولية، وتنير لك الطريق، وتهديك صراطا مستقيما، بعكس تخرصات الشياطين التي تبعث فيك التكذيب والاستهزاء والحقد، والأنانية و...

وأنذر عشيرتك الأقربين

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (١) ﴿٢٢٧﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

تختم سورة (الشعراء) ببيان الفوارق الكبيرة بين رسالات الرب وما يوحيه الشيطان، ويبين السياق هنا أن محور رسالات الله التوحيد، ويمضي قدما في بيان صفات الرسول النابعة من هذا المحور، فالرسول نذير لأقرب الناس إليه وهم عشيرته، و هو بالمؤمنين رؤوف رحيم، ويعلن براءته من العصاة متوكلا على العزيز الرحيم، ويتهجد بالليل (وقد انحدر من سلالة طيبة) والله يسمعه ويعلم خبايا شؤونه.

وفي الجانب الآخر يهبط الشيطان إلى كل كذاب فاجر، ويوحي الشياطين في أسماع

(١) أي منقلب ينقلبون: أي مرجع يرجعون، وأي منصرف ينصرفون.

تابعيهم وأكثرهم كاذبون.

أما الشعراء فإن حزبهم التابعين لهم هم الغاوون، الذين يتبعون أهواءهم، وكلامهم غير مسؤول، فتراهم في كل واد يهيمون، ضالين ضائعين، وهم يقولون ما لا يفعلون.

بلى، هناك فئة من الشعراء مؤمنة صالحة، ويذكرون الله كثيرا (لكي لا يخدعهم الشيطان) وإذا ظلمهم الجبارون لقولهم الحق فهم ينتصرون، وإن عاقبة الظلم الخيبة، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

بينات من الآيات:

[٢١٣] توحيد الله صبغة رسالاته، فهو في السياسة: العدل، و الإحسان، والشورى، والأمن، والحرية، وهو في الاقتصاد الإنصاف، والقوام، وفي السلوك: الفضيلة، والتقوى، وفي الثقافة: التثبت، واتباع أحسن القول، والاستماع إلى الناطق عن الله دون الناطق عن الشيطان.

ومن شواهد صدق رسالة النبي ﷺ دعوته الخالصة للرب، و حبه الشديد، وتفانيه في سبيل الله ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾.

[٢١٤] ومن خصائص الرسول وشواهد صدقه تعاليه عن الضغط من أي مصدر يأتي، ولذلك فهو يؤمر بإنذار عشيرته أولاً.

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ وهكذا فعل الرسول وتحدى أول ما تحدى عشيرته الأقربين، كما فعل إبراهيم عليه السلام إذ واجه برسالة الله أباه أولاً. دعنا نستمع إلى حديثين في هذا الشأن:

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ أَيْ رَهْطَكَ الْمُخْلَصِينَ دَعَا رَسُولُ الله ﷺ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَهُمْ إِذْ ذَاكَ أَرْبَعُونَ رَجُلًا يَزِيدُونَ رَجُلًا أَوْ يَنْقُصُونَ رَجُلًا، فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَكُونُ أَخِي وَوَارِثِي وَوَزِيرِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ بَعْدِي؟!. فَعَرَضَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ رَجُلًا رَجُلًا كُلُّهُمْ يَأْبَى ذَلِكَ حَتَّى أَتَى عَلَيَّ فَقُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ ﷺ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ هَذَا أَخِي وَوَارِثِي وَوَصِيِّي وَوَزِيرِي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ بَعْدِي، فَقَامَ الْقَوْمُ يَضْحَكُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَيَقُولُونَ لِأَبِي طَالِبٍ: قَدْ أَمَرَكَ أَنْ تَسْمَعَ وَتُطِيعَ لِهَذَا الْغُلَامِ**»[1].

وفي رواية أخرى: وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ صَعِدَ رَسُولُ

(١) بحار الأنوار، ج١٨، ص١٧٨.

الله ﷺ ذَاتَ يَوْمِ الصَّفَا فَقَالَ ﷺ: يَا صَبَاحَاهُ، فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ فَقَالُوا: مَا لَكَ؟. قَالَ: **أَرَأَيْتُكُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُصْبِحُكُمْ أَوْ مُمْسِيكُمْ مَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي؟.**

قَالُوا: بَلَى. قَالَ ﷺ: فَإِنِّي ﴿نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبّاً لَكَ أَلِهَذَا دَعَوْتَنَا؟!. فَنَزَلَتْ سُورَةُ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾»(١).

ونستوحي من هذه الآية أن عامل الرسالة الإلهية لا يعتمد على أية قوة أرضية في إبلاغ رسالات ربه، إنما يتوكل على الله، لذلك يستطيع أن يتحدى انحرافات الناس جميعا، حتى ولو كانوا عشيرته الأقربين.

كما تشير الآية إلى أن مجرد القرابة من رسول الله لا يخلص الإنسان من نار جهنم. بالرغم من أن النبي ﷺ يشفع في أمته، و قد قال له الرب سبحانه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ أي من الشفاعة.

جاء في خبر مأثور عن أبي أمامة، في ما أخرجه الطبراني و أبو مردويه قال: «لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ جمع رسول الله بني هاشم فأجلسهم على الباب، وجمع نساءه وأهله، فأجلسهم في البيت، ثم اطلع عليهم، فقال ﷺ: «**يَا بَنِي هَاشِمٍ! اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، وَاسْعَوا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ، وَافْتَدُوهَا بِأَنْفُسِكُمْ مِنَ اللهِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً.** ثم أقبل على أهل بيته فقال ﷺ: **يَا عَائِشَةُ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، وَيَا حَفْصَةُ بِنْتَ عُمَرَ، وَيَا أُمَّ سَلَمَةَ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، وَيَا أُمَّ الزُّبَيْرِ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ! اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللهِ، وَاسْعَوا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَلَا أُغْنِي..**»(٢).

[٢١٥] و في الوقت الذي ينذر عشيرته الذين هم أقرب الناس إليه، يؤمر بالرحمة للمؤمنين، حتى ولو كانوا بعيدين عنه، فهو كالطائر الذي يخفض جناحيه لأولاده الصغار.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إن هذا السلوك يساهم في صنع المجتمع المبدئي المتسامي عن العلاقات المادية، ونستوحي من هذه الآية أهمية التواضع و بالذات عند من يحمل رسالة ربه.

جاء في كتاب مصباح الشريعة المنسوب إلى الإمام الصادق ﷺ: «**وَقَدْ أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعَزَّ خَلْقِهِ، وَسَيِّدَ بَرِيَّتِهِ مُحَمَّداً ﷺ بِالتَّوَاضُعِ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ

---

(١) بحار الأنوار: ج١٨، ص١٩٧.

(٢) إرشاد القلوب للديلمي: ج١ ص٣٢.

﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وَالتَّوَاضُعُ مَزْرَعَةُ الْخُشُوعِ، والْخُضُوعِ، والْخَشْيَةِ، والْحَيَاءِ، وإِنَّهُنَّ لَا يَنْبُتْنَ إِلَّا مِنْهَا وفِيهَا، ولَا يَسْلَمُ الشَّوْقُ التَّامُّ الْحَقِيقِيُّ إِلَّا لِلْمُتَوَاضِعِ فِي ذَاتِ الله»[1].

[٢١٦] و تتجلى مبدئية الموقف في التبرؤ ممن يخالف الشرع الإلهي ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ إن الرسول لا يقدم تنازلات أمام رسالات ربه، وقد كان ﷺ شديدا إذا عصي الله، وكان يغضب بشدة على من يحاول أن يشفع عنده في حد.

وكذلك كان خلفاؤه الراشدون، فهذا أمير المؤمنين ﷺ يقدم عليه أشراف قومه، وقيادات جيشه، يعرضون عليه العفو عمن ارتكب منه ما يستحق الحد، فيعدهم بأن يعطيهم ما يملك، ثم يقدمه ويضر به الحد، وحين يسألونه يقول: هذا مما لا أملكه.

[٢١٧] و لكي يتابع مسيرة الإصلاح بحزم واستقامة يتوكل الرسول على ربه الذي يؤيد بقوته المؤمنين على الكافرين.

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إن التوكل على الله لب استراتيجية أصحاب الرسالة، وكلما كان إيمانهم برسالتهم أعمق، كلما كان للتوكل على الله في استراتيجيتهم نصيب أكبر.

ومن الواضح أن اسمي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ذكرا في فاتحة هذه السورة، وأيضا بعد بيان كل قصة من حياة النبيين عليهم السلام.

[٢١٨] لقد جاء الجواب واضحا عندما عدد موسى عليه السلام عند نزول تباشير الوحي على الله الصعوبات، وتبعهم فرعون وجنده ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ جاء الجواب قويا وقال موسى لهم: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢].

وهنا حين أمر الله رسوله بالتوكل على العزيز الرحيم أنبأه بأنه مهيمن عليه، يراه حين يقوم للتبتل إليه، وحين يقوم بمهامه الرسالية ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾.

[٢١٩] و هكذا يراه حين يقوم للصلاة ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ جاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية: «فِي أَصْلَابِ النَّبِيِّينَ»[2].

واعتمادا على هذه الرواية فإن الآية توحي بطهارة مولد الرسول وآبائه وأمهاته، فقد اختار الله لنور محمد ﷺ أنقى الأصلاب، وأطهر الأرحام، إيمانا وشرفا وفضيلة.

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١١ ص٢٩٨.

(٢) تفسير القمي: ج٢ ص١٢٥، بحار الأنوار: ج٦٨ ص١١٨.

[٢٢٠] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فالتوكل على الله تعالى لأنه:

١- العزيز الرحيم.

٢- هو السميع العليم.

فهو تعالى عزيز قادر على نصر رسله، ورحيم يمُن عليهم برعايته. وهو عليم بأحوالهم فرعايته دقيقة وشاملة حتى في عالم الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة.

الأفاكون والشعراء

[٢٢١] كما لرسالات الله خصائصها ومعالمها وشواهدها كذلك الثقافات المادية، والأفكار الجاهلية، وإذا تبصر الإنسان بسمات هذه وتلك اهتدى الصراط السوي، إذ أضحى قادرا بتوفيق الله ونوره أن يميز بين فكرة خاطئة يوحي بها الشيطان، وحقيقة يهتدي إليها بالوحي والعقل.

والحق والباطل يختلطان في الدنيا لتكون الدنيا دار ابتلاء، ليس فقط لإرادة البشر، وإنما أيضا لوعيه، فمن عرف كيف يميزهما عن بعضهما أمن شر الضلالة، وأكثر الناس يضلون بأهوائهم.

دعنا نشرع من أصل تكون الفكرة ومصدرها: القلب كصفحة بيضاء تنعكس عليها حقائق الخلق بما أعطاه الله من نور العقل و العلم، ولكن قد يتراءى للقلب أشياء ولكن من دون أن تكون لها -أساسا- حقيقة خارجية. كيف يتم ذلك؟.

دعنا نضرب مثلا: إنك تعلم أن العين ترى الأشياء عبر الضياء، ولكن هل حدث لك أن اصطدمت بشيء فتراءى لعينك بريق شديد، أو هل أصابك دوار فرأت عينك مثل الأنجم. ما هذه؟ إنها ارتعاشة أعصاب العين، وليست أشعة الأشياء تنعكس عليها، إنها -بالتالي- حركة ذاتية للعين ترى حركتها الداخلية. أليس كذلك؟!.

ومثل آخر: هل أصبت بنزلة برد، وهل حدثت لديك قشعريرة شديدة؟ إن مصدرها الأعصاب في الداخل، وليست عاصفة ثلجية في الخارج.

وهؤلاء الذين يستخدمون المخدرات يرون أشياء كثيرة ليس لها واقع. إنما هي حركة أعصابهم من الداخل، كذلك في داخل القلب مصدران للأفكار لا يمتان إلى الحقائق بصلة:

أولاً: الأهواء: حيث إن السماح للهوى باحتلال كل القلب يجعله أسود لا يبصر نورا،

إنما يبتدع الأفكار ابتداعا، وهذا هو الإفك بذاته.

ثانياً: الخيال: الذي هو بدوره حركة ذاتية للقلب، لا شأن لها بالواقع الخارجي، إلا إنه أخف وطأة من الإفك.

ولعل السياق يشير إلى هاتين الطائفتين في فاتحة حديثه عن إيحاءات الشيطان، يقول ربنا:

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ الشيطان كما يبدو من التدبر في سياق الآيات - التي ذكر فيها- هو كل غاو يغوي البشر، سواء كان من الجن أو الإنس. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وجاء في آية كريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱدْخُلُوا فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [البقرة: ٢٠]. وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

[٢٢٢] ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ قال العلامة الطبرسي: «الأفاك الكذاب، وأصل الإفك القلب، والأفاك الكثير القلب للخبر، من جهة الصدق إلى جهة الكذب، والأثيم: الفاعل للقبيح، يقال: إنه يأثم إثما إذا ارتكب القبيح»[1].

[٢٢٣] ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ أي يلقون الأفكار المسمومة في قلب الأفاكين الآثمين. ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ ويبدو أن الأفاكين هم أئمة الكفر، وقادة فئات الضلال، وهم المغضوب عليهم، الذين نسأل الله ألا يجعلنا منهم، وهم الغاوون الذين يصفون العدل ولا يطبقونه، وهم بالتالي صانعو القرار في معسكر المستكبرين.

إن مصدر أفكارهم أهواؤهم التي يعبدونها، وانحرافهم و فسادهم إنما هو بوعي منهم، وسابق إصرار، والشياطين يوحون إلى هؤلاء لأنهم أولياؤهم.

جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام: «**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ يَوْمٍ وَلَا لَيْلَةٍ إِلَّا وَجَمِيعُ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ تَزُورُ أَئِمَّةَ الضَّلَالَةِ وَيَزُورُ إِمَامَ الْهُدَى عَدَدُهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ**»[2].

وبالرغم من وجود بعض الصدق في أقوالهم إلا إن الصفة العامة لأحاديثهم هي الكذب.

(١) مجمع البيان: ج٧ ص٢٧٠.

(٢) بحار الأنوار ج٦٠ ص١٨٤.

وهكذا نعرف طبيعة هؤلاء بأمرين:

الأول: قلبهم للحقائق.

الثاني: ارتكابهم الإثم.

[٢٢٤] والفئة الضالة الثانية هم الشعراء، الذين يستوحون خيالهم وتصوراتهم استيحاء. يقول ربنا عنهم: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ ولعل تسمية هذه الفئة بالشعراء جاءت:

أولاً: لأن طبقة الشعراء في ذلك العهد وأكثرهم في العصور التالية كانوا من هذه الفئة الضالة.

ثانياً: لأن الشعر يعتمد على الخيال والتصور.

حقا إن المراد من الشعراء في هذه الآية ليس خصوص من أنشد شعراء إنما يشمل كل من اتبع خياله وترك وحي الله، وكان من هذه الفئة الضالة: فلاسفة اليونان وتابعوهم الذين اعتمدوا على تصوراتهم في معرفة حقائق الكون، دون إثارة من علم أو اتباع لإمام حق.

والعرفاء والمتصوفة، وطائفة من المتكلمين، وبعض المتفقهين من علماء السوء -أنصاف المثقفين- الذين يتبعون أهواءهم وأهواء من يدفع لهم، ويشتري أقلامهم. كل أولئك وغيرهم من فئة الشعراء، وقد جاءت النصوص الإسلامية تترى في وصفهم، والبراءة منهم:

١ - قال أبو عبدالله عليه السلام **«نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ غَيَّرُوا دِينَ الله (وَتَرَكُوا مَا) أَمَرَ اللهُ ولَكِنْ هَلْ رَأَيْتُمْ شَاعِراً قَطُّ تَبِعَهُ أَحَدٌ إِنَّمَا عَنَى بِهِمُ الَّذِينَ وَضَعُوا دِيناً بِآرَائِهِمْ فَتَبِعَهُمُ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ»**[1].

٢- عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية قال في الشعراء: **«هَلْ رَأَيْتَ شَاعِراً يَتَّبِعُهُ أَحَدٌ إِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ تَفَقَّهُوا لِغَيْرِ الدِّينِ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»**[2].

٣- وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: **«هُمْ قَوْمٌ تَعَلَّمُوا وتَفَقَّهُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وأَضَلُّوا»**[3].

٤- و في حديث آخر عنه عليه السلام أنه قال: **«هُمُ الْقُصَّاصُ»**[4].

(١) تفسير القمي: ج٢ ص١٢٥، وسائل الشيعة: ج٢٧ ص١٣٢.
(٢) بحار الأنوار: ح٢، ص١٠٨.
(٣) وسائل الشيعة: ج٢٧ ص١٣٣.
(٤) وسائل الشيعة: ج١٧، ص١٥٤.

ومن هنا نعرف أن الذين يقولون الشعر دفاعاً عن الحق ليسوا ضمن هذا الإطار، فقد أثر عن الرسول ﷺ أنه قال لحسان بن ثابت (الشاعر): «لَنْ يَزَالَ مَعَكَ رُوحُ الْقُدُسِ مَا ذَبَبْتَ عَنَّا»[1].

[٢٢٥] ومن خصائص هؤلاء: استرسالهم في الكلام دون التقيد بحدود المعرفة أو المصلحة.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ والهائمة الضالة التي تمشي على غير هدى، ولعل الآية تدل على أنهم لا يملكون نهجا محددا في مسيرتهم.

[٢٢٦] ومن علاماتهم: أنهم يستعيضون الكلام عن العمل، و أن قولهم غير مسؤول.

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ إن دغدغة الأماني، وإثارة الخيال، وصنع الأحلام الوردية، كل ذلك من طبيعة الثقافات المادية، وعادة ما يكون أصحاب هذه الثقافات أقل الناس التزاما بما يقولون، والسبب أن الكلام هو بديل عن العمل في تصورهم.

[٢٢٧] وفي الآيات الأخيرة من هذه السورة يبين ربنا صفات صاحب الرسالة حقا، فيقول: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ إن صاحب الرسالة يتعرض لضغط التيارات الثقافية، والقوى الاجتماعية المختلفة، وعليه أن يذكر الله كثيرا لكي لا تخور عزيمته، ولا تشوش رؤيته، بل يبقى نافذ البصيرة برغم الشبهات والدعايات، وصامدا برغم همزات الشياطين، وذكر الله حقا هو ذكره في القلب عندما يعرض عليه الحرام فيجتنبه، و الحلال فينتفع به.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ ذَكَرَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ فِي السِّرِّ فَقَدْ ذَكَرَ اللهَ كَثِيراً إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يَذْكُرُونَ اللهَ عَلَانِيَةً ولَا يَذْكُرُونَهُ فِي السِّرِّ فَقَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ يُرَاؤُونَ النَّاسَ ولا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا»[2].

ولعل أظهر سمات صاحب الدعوة الإلهية تحمله مسؤولية الجهاد ضد الظلم، كما أن أبرز سمات الشعراء: أنهم يقولون مالا يفعلون.

﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ إن رفض الظلم وعدم الاستسلام للظالمين يلازم الرسالي الصادق، الذي يتخذ من رسالته سلاحا ضد المنحرفين.

(١) وسائل الشيعة: ج١٤، ص٥٩٤.
(٢) الكافي: ج٢ ص٥٠١.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ هكذا تختم سورة الشعراء بشحنة أمل مباركة تعطيها للمظلومين، وصعقة إنذار شديد يخوف بها الظالمين، ليبقى قلب المؤمن مستقيما بين الأمل والخوف، بين اسمي الرحمة والعزة لرب العالمين.

وقد تحققت هذه الآية الكريمة في حق ظالمي آل محمد ﷺ والمحاربين لهم أجمعين، حيث أهلك الله الظالمين، ورفع ذكر أهل البيت عاليا عبر العصور.

سُورَةُ النَّمْلُ

* مكية.

* عدد آياتها: ٩٣.

* ترتيبها النزولي: ٤٨.

* ترتيبها في المصحف: ٢٧.

* نزلت بعد سورة الشعراء.

فضل السورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُوَرَ الطَّوَاسِينِ الثَّلاثَ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ وفِي جِوَارِ الله وكَنَفِهِ ولَمْ يُصِبْهُ فِي الدُّنْيَا بُؤْسٌ أَبَداً وأُعْطِيَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْضَى وفَوْقَ رِضَاهُ وزَوَّجَهُ اللهُ مِائَةَ زَوْجَةٍ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ».

(وسائل الشيعة: ج٧ ص٤١١)

***

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «وَأُعْطِيتُ طه وَالطَّوَاسِينَ مِنْ أَلْوَاحِ مُوسَى».

(مجمع البيان: ج٧ ص٣١٨)

الاسم

ذكر (النمل) في قصة سليمان عليه السلام فجاءت السورة بهذا الاسم. أوليس طريفا أن يقارن أكبر ملك آتاه الله لواحد من عباده باسم النمل؟!. بلى؛ إن مملكة العدل الإلهي لا بد أن تكون بحيث يشعر النمل بالأمان في ظلها. إن هذا ما تبشر به رسالات الله، ولعله لذلك سميت هذه السورة باسم (النمل).

الإطار العام

من معطيات العدل الإلهي

لا تخرج موضوعات هذه السورة عن الإطار العام للطواسين الثلاث (الشعراء والقصص بالإضافة إلى سورةالنمل) وهو بيان خصائص الوحي مع التركيز على بيان الأمثلة من تاريخ رسالات الله الأولى، وكأنها جميعاًتفصيلات لما ذَكَّر به القرآن في سورة الفرقان.

تطلع علينا فاتحة السورة بذكر القرآن الذي جعله الله هدىً وبشرى للمؤمنين، أما الذين يكفرون بالآخرة فإن الله زين لهم أعمالهم و سلبهم بصائرهم، ولهم سوء العذاب (الآيات: ١-٥).

وأن الرسول يلقى القرآن من لدن حكيم عليم (الآية: ٦).

ويبدو أن هذين الاسمين الإلهين يتجليان في آيات هذه السورة كما تجلى اسما (العزيز الرحيم) في السورة السابقة (الشعراء).

و تلقي الآيات حزمة ضوء على قصة النبي موسى عليه السلام؛ كيف تلقى الوحي، حين آنس ناراً، فباركها الله ومن حولها،وناداه: إنه أنا الله العزيز الحكيم، وأعطاه معجزة العصى واليد البيضاء في تسع آيات، وأمره بإبلاغ فرعون رسالات ربه.

فلما جحدوا بها -بعد أن استيقنتها أنفسهم- نبذهم في اليم (الآيات: ٧-١٤).

وبعدئذ يفصل القول في قصة النبي سليمان عليه السلام، ويبدو أن هناك تقابلين فيها.

أولاً: بين فرعون، وهو أعظم ملك كافر، والنبي سليمان عليه السلام، وهو أكبر ملك عادل.

ثانياً: بين بلقيس؛ الملكة العربية التي آمنت، وثمود؛ القرى العربية التي كفرت فدمرها

الله شر تدمير.

ونقرأ في قصة النبي سليمان عليه السلام عن تسخير الجن والطير، وعن مملكة النمل التي شملها عدل سليمان عليه السلام، وعن استخدام الهدهد والريح وسيلتين حضاريتين، وأيضاً الانتفاع بالاسم الأعظم في نقل عرش بلقيس لتكتمل صورة مملكة الحق في الأرض.

أما في قصة بلقيس؛ فنقرأ استشارتها قومها، واتخاذها القرار الحكيم، إلا أن حكمتها لم تجدها نفعاً حين كفرت بالله العظيم، وسجدت للشمس من دونه، ولكنها بالتالي آمنت مع النبي سليمان بالله رب العالمين (الآيات: ١٥-٤٤).

أما في قصة ثمود؛ فنقرأ قصة الصراع بين المستضعفين والمستكبرين، وكيف أن الكفار تطيروا بالنبي صالح عليه السلام ومن معه من المؤمنين، وكيف فسد ثمة النظام القبائلي، وبدل أن يكونوا حماة الضعفاء تآمروا على نبيهم، ومكروا ومكر الله،ودمرهم أجمعين (الآيات: ٤٥-٥٣).

ويختم السياق قصص المرسلين بقصة قوم النبي لوط، الذين نهاهم نبيهم عن شذوذهم الجنسي، فلما أرادوا أن يخرجوه ومن معه أمطر الله عليهم مطر السوء (الآيات: ٥٤-٥٨).

ويبدو أن السورة تضرب لنا في القسم الأول (الآيات: ١-٥٨) أمثلة عن النظم الاجتماعية الفاسدة التي لابد أن تنزع عن فسادها (كما فعلت بلقيس) وإلا دمرت شر تدمير، ويقارنها بمثال رائع من النظام الإلهي في الأرض لابد أن تتطلع إليه البشرية متمثلاً في قصة النبي سليمان عليه السلام.

وأما في القسم الثاني؛ فإن الآيات تذكرنا بالقرآن بعد أن تهدينا إلى آيات ربنا في الخلق والتي تدل على أن الله واحد لاشريك له، لا في أصل الخلق ولا في تقديره وتدبيره (الآيات: ٥٩-٦٠).

الله هو الذي خلق السماوات والأرض وأجرى فيهما أنظمة لحياة البشر، وهو الذي يلجأ إليه المضطر فيجيبه ويكشف عنه السوء، ويهدي الناس في ظلمات البر والبحر، ويرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته (الآيات: ٦١-٦٤).

ثم يذكر بأنه عالم الغيب لا يعلمه إلا هو، وأنه مالك يوم الدين حيث يقف دونه علم الآخرين (الآيات: ٦٥-٦٦).

ويمضي السياق قدماً في التذكرة بالآخرة، ويأمر الذين كفروا بأن يسيروا في الأرض ليعتبروا بمصير المجرمين، ولايستعجلوا العذاب فعسى أن يكون قريباً منهم (الآيات: ٦٧-٧٤).

أما القرآن وخصائصه فهي التالية:

أولاً: يحتوي على علم ما يغيب عن الناس.

ثانياً: يحل الخلافات التي لا زالت عند أصحاب الكتب السابقة.

ثالثاً: إنه هدىً ورحمة للمؤمنين.

رابعاً: يقضي بين الناس بالحق (الآيات: ٧٥-٧٨).

ويأمر الله رسوله بالتوكل عليه، وألا يأبه بأولئك الجاحدين الذين يشبههم بالموتى والصم المدبرين، ويوجهه إلى المؤمنين الذين هم لربهم مسلمون (الآيات: ٧٩-٨١).

ويحذر من حلول العقاب في يوم يخرج الله لهم دابة من الأرض تكلمهم (الآية: ٨٢).

وحين يحشر بعض المجرمين ويُسألون: لماذا كذبتم بآيات الله؟ فيقع عليهم القول بما ظلموا (الآيات: ٨٣-٨٥).

ثم يُذَكِّر القرآن بالله تعالى وبآياته، وكيف جعل الليل سكناً والنهار معاشاً، ولكنه سوف يفزعهم بنفخة الصور، ولاينجو من ذلك الفزع العظيم إلا المحسنون، أما من جاء بالسيئة فهو يساق إلى النار على وجهه.(الآيات: ٨٦-٩٠).

وفي نهاية السورة يوجه الخطاب إلى الرسول باعتباره حامل رسالات الله، وأنه يعبد الله وحده، ويتلو القرآن، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، أما الضالون فإن الرسول لم يكلف إلا بإنذارهم.(الآيات: ٩١-٩٢)

وتختم السورة بحمد الله، وبإنذار مبطن لأولئك الجاحدين بأن آيات الله الخارقة ستأتيهم بحيث يعرفونها، وأن الله ليس بغافل عما يعملون.(الآية: ٩٣).

هدى وبشرى للمؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ(١) ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

هدى من الآيات:

تتمحور دروس سورة النمل -كما هي سورة الشعراء- حول الرسالات الإلهية، ميزاتها وخصائصها، وبالتالي الشواهد الفطرية والوجدانية التي تدل على صدقها.

وتبدأ السورة بالإشارة إلى القرآن الحكيم، ذلك الكتاب الذي تكفينا الإشارة إليه وإلى واقعه علما ومعرفة بحقيقته، لأننا لسنا بحاجة إلى أكثر من الإشارة للحقائق الواضحة في الكون - والتي حجبتنا عنها الأهواء و الغفلة - لكي نعرفها، بالذات إذا كنا ممن يلقي السمع وهو شهيد، لأن العقل والوجدان والفطرة، وبالتالي لأن الإنسان بما يمتلك من أدوات الفهم، ووسائل المعرفة، هو الذي ينبغي أن يتعرف على الحقائق، وأنها الهادي والمنذر والمذكر ليس عليه سوى البلاغ والتذكرة ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، وهكذا تبدأ كثير من سور القرآن الحكيم بالإشارة إلى القرآن ذاته.

إن في القرآن آيات وتشريعات، فهو من جهة علامات وإشارات تهدينا إلى الله، وإلى

(١) يعمهون: العمه عمى القلب أي يمشون في المعاصي كما يمشي الأعمى في الطريق لا يهتدي سبيلًا.

أسمائه الحسنى، وإلى السنن الكونية وغيرها التي أجراها في الحياة، وهو من جهة أخرى دساتير ثابتة، وقوانين مستمرة في حياة الإنسان التشريعية.

وفي البدء يهدينا القرآن إلى الله عن طريق إعطاء الأمل والهداية ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم يأمرنا بمختلف الفرائض كالصلاة والزكاة.

أما لماذا لا يؤمن فريق من الناس بالقرآن؟ فلأن أعمالهم السابقة -إجرامهم وفسقهم وضلالتهم- التي اكتسبوها باختيارهم تصبح حجابا بينهم وبين الحقيقة، والمشكلة الحقيقية إذا تحولت هذه الأعمال إلى عادة، ذلك أن حجاب العادة من أمتن الحجب وأصعبها أمام الإنسان، والذي ينتصر على عاداته وسابقياته الفكرية فإنه يتجاوز سائر الحجب والمشاكل بسهولة، إلا إن اختراق هذا الحجاب من أصعب الأشياء على البشر.

وفي الوقت الذي تشير هذه الآيات لهذا الحجاب تبين أن هذه سنة كونية جعلها الله في الحياة، فالذي يبدأ بالصلاة تخف صعوبتها عليه شيئا فشيئا حتى يصير من المستأنسين بها، وأما حين يقدم الإنسان على الفاحشة فإنه يستوحش منها ويلاحقه تأنيب الضمير بسببها في بادئ الأمر، ولكنه لو عاد إليها المرة تلو الأخرى فسوف تتحول إلى عادة عنده لا يحس حين ممارستها بأدنى تأنيب، ومثال على هذه الفكرة هو إدمان الجريمة لدى الطغاة، فهم أول ما يقدمون على جريمة القتل يكون الأمر بالنسبة إليهم صعبا، ولكن حينما تتكرر منهم الجريمة فإنها تصبح روتيناً يومياً بل و يستأنس بالجريمة، وتلك سنة إلهية أن يزين الشيطان للإنسان عمله.

والشجاع الحق هو الذي يغلب نفسه وهواه، فيخترق سد العادة ليصل إلى نور الحقيقة، ويتمسك بها حتى لو كلفه ذلك التنازل عن كل سابقياته الخاطئة.

ثم تشير الآيات إلى أن التدبر في القرآن يصل بالإنسان إلى معاني الحكمة والعلم التي يشتمل عليها، فآيات الحكمة وشواهدها واضحة في القرآن عبر الأحكام التي نجدها فيه، فكل حكم يراعي كل الجوانب والجهات من دون أن يحيف بأحد لحساب أحد، أو لجانب على حساب جانب آخر، و أما حقائق العلم فهي باطن آيات الحكم، ومن خلال هذا وذاك يعرف المؤمنون اسمي الحكيم العليم لربهم.

وفي نهاية هذه الآيات يضرب الله مثلا من واقع موسى عليه السلام فموسى كان طاهرا ونقيا، إلا أن الوحي أوقد مصباح عقله بنور الله، إذ نزل عليه في عمق الصحراء وفي الليل المظلم، حيث البرد والضياع والزوجة الحامل، و هكذا يهبط الوحي على الأنبياء عند لحظات النقاء والطهر والتجرد و التي ترافق لحظات الشدة والعسر.

إن الوحي الذي تلقاه موسى لم يكن ليعالج مشاكله الشخصية، بل جاءه الوحي ليعالج مشاكل الأمة كلها، وهذا دليل على أنه اتصال غيبي من الأعلى، فلو أن الرسالة التي جاء بها كانت من عنده كنا نجد فيها آثار الظروف الصعبة المحيطة به، وما كان ليهتم بمشاكل الأمة جميعا بل البشرية كلهم، لأن الثقافة الأرضية تنبع من وسط الإنسان وتتأثر به، أما موسى عليه السلام فإنه يسمع نداء في ذلك الحين: إنني أنا الله رب العالمين، و هنالك ينسى كل شيء، ويتوجه إلى ربه خالصا، ويهدف حل مشاكل أمته، متجردا عن ذاته إلى الله، وهذه هي خلاصة قصة الرسالة: من جهة الخروج عن الوسط الذي يعيشه الفرد، ومن جهة أخرى تلقي فكرة شاملة مطلقة لا تحدها الظروف الخاصة التي يعيشها الفرد ذاته، وعبر هذه القصة والقصص المشابهة يكشف لنا القرآن الحكيم عن حقيقة الوحي، و جوهر فرقه عن الثقافات البشرية.

بينات من الآيات:

[١] ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ «تلك» إشارة إلى ﴿طسٓۚ﴾ بأنها آيات القرآن الثابتة من جهة (فالكتاب هو الشيء الثابت) والواضحة من جهة أخرى، إذ عرفتها الآية بأنها مبينة.

[٢] ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يحمل القرآن في آياته الهدى والبشرى، ولكن ليس لكل أحد بل لمن يريد الهداية أي المؤمنين، وبالتالي البشرى، فمن ناحية تتحرك أنت نحو القرآن فيتحرك القرآن نحوك، لتلتقي أنت والسعادة والفلاح، أما إذا جلست دون حركة نحو القرآن فلن تتلقى الهدى ولا البشارة.

[٣] ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ الصلاة والزكاة رمزان لجانبين من أعمال الإنسان، فالأولى رمز للعبودية المطلقة لله، وبالتالي التحرر المطلق من قيود الذات والواقع السلبي، والثانية رمز للعطاء، وهذه هي العلاقة التي يجب أن تقوم بين الإنسان ونظيره الإنسان، والمفارقة بين العلاقتين واضحة، فمع الله تكون علاقة العبودية، ومع الناس تكون علاقة الإحسان لا الشرك، ويعبر القرآن عن هاتين العلاقتين في آية أخرى حين يقول: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء: ٣٦].

[٤] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ إن الذي يضع لنفسه هدفا بعيدا كالآخرة يكيف نفسه مع ذلك الهدف، فلا يتأثر بالعادات والظروف المحيطة به، لأنه يجعل سائر أعمال الحياة وسيلة لهدف أسمى، فلا يعبد ذلك العمل ولا يحبه أو يمارسه إلا من أجل الهدف الذي يؤدي هذا العمل إليه، أما الذي لا هدف له فهو يحب الوسيلة ويقف

عندها كالذين لا يؤمنون بالآخرة فهم يستمرون على أعمال الدنيا لأن عملهم محدود بالظواهر فقط، ولعل قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ إشارة إلى هذه الفكرة، فالكافرون لا ينظرون إلى الجوانب المختلفة من العمل، وإنما يربطون أنفسهم بالعمل ذاته فيعمهون أي (يعمون) عن عواقبه.

[٥] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ وإن أعمالهم لا تورث لهم إلا العذاب والخسران.

[٦] ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ الله يلقي الكتاب على قلب الرسول، والرسول يتلقاه بوعي وعلم، و الله حكيم والقرآن آية حكمته، وعليم يتجلى علمه في القرآن.

وهكذا كان ظاهر القرآن حكما صائبا لأنه من الله الحكيم، وباطنه علما لأنه من الله العليم.

بورك من في النار ومن حولها

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ[1] ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ[2] ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

هدى من الآيات:

جاء موسى عليه السلام في تلك الليلة الشاتية ليقتبس شهابا من تلك النار التي آنسها من بعيد، وليهتدي على أثرها، ويحمل الدفء والهدى إلى أهله، فإذا به يسمع نداء يبتدئ بالبركة،

(١) تصطلون: الاصطلاء الاستدفاء بالنار، من يصلي، وأصله اصتلى.

(٢) يعقبْ: أي لم يرجع ولم يلتفت، فكأن الراجع والملتفت يعقب الأمر السابق.

ولعلها تعبير عن التكامل والنمو.

إن لدى الإنسان صفات فطرية متنوعة وهي بحاجة إلى التنمية والتزكية لتنتهي إلى البركة، فهو يملك العلم والإرادة والصحة بالقوة -يعني أنه يملك إمكانية كل ذلك- والتربية هي التي تتعهد هذه الصفات بالتنمية والتزكية، فإذا بإمكانية العلم تتحول إلى علم، وإمكانية التعقل تتحول إلى عقل، وإمكانية الصحة إلى سلامة، وحسب التعبير الفلسفي يتحول الشيء من القوة إلى الفعل، وذلك بحاجة إلى منهج متكامل هو رسالات الله التي تفجر طاقات الإنسان وتنميها وتوجهها، لذلك تتكرر كلمة البركة في القرآن، فالقرآن بركة، والرسول بركة، والبيت الحرام مبارك، وهكذا.

وأول ما تلقى موسى عليه السلام من الوحي هو الإشارة بالبركة: ﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وربما يقصد بمن في النار تجلّي الله تعالى، ومن حولها موسى.

أما عن منطلق البركة في حياة الإنسان فهو الإيمان بالله سبحانه وتعالى، لذلك يأتي النداء الآخر بعد ذكر البركة -وفيه تعبير عن التوحيد- فالله هو منشأ كل خير في عالم الطبيعة، والإيمان بالله هو منشأ كل خير في عالم التشريع.

وبعد أن يشير السياق إلى الآيات التي تجلت على يد موسى عليه السلام يتناول قصة سليمان الذي ورث العلم والملك من داود، فأصبح ملكا نبيا، و ذلك ليبين لنا فكرة هامة هي: إن الالتزام بالرسالة لا يعني تحمل المشاق و المتاعب فحسب وإنما أيضاً تؤدي بأصحابها إلى النصر والملك.

والقرآن الحكيم كثيرا ما يبين لنا أحكامه وأفكاره عبر الأمثلة التاريخية و القصص، فبقصة يعقوب مع ولده يوسف عليه السلام يثير فينا عاطفة الأبوة، و بقصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل -حين أراد ذبحه- يبين تحدي الإنسان لهذه العاطفة، أما من قصة سليمان عليه السلام فإننا نستوحي أن الدنيا والآخرة يمكن أن يجتمعا على صعيد واحد، فبإمكان الرسالي صياغة حياة ملؤها الفضيلة والتقوى، ويجمع إليها القوة والنعم الدنيوية، والقصة تفيد أيضا أن التفكير السليم يمكن من جمع الدنيا والآخرة، حسب مستوى الإنسان و طموحه وقدراته، ويستشف من القصة معنى البركة الذي جاء ذكره في أول الآيات، فإنسان ما قد يصبح كسليمان نبيا، يتلقى الوحي من الله سبحانه مباشرة، وفي الوقت ذاته يكون ملكا بملك لا ينبغي لأحد من قبله ولا لأحد من بعده.

بينات من الآيات:

[٧] لكي لا يستغرب أحد كيف يتلقى الرسول الوحي من لدن حكيم عليم، ولكي يعرف المؤمنون مزيدا من خصائص الوحي وكيف يتلقاه الرسول، و ما هي ظروف التلقي!

يبين ربنا قصص الأنبياء، وها هو موسى عليه السلام يسير بأهله فيأنس نارا فيذهب ليأتي منها بخبر (عن الطريق) أو قبس ليصطلي ويستضيء به ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

[٨] ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ حين اتجه موسى عليه السلام نحو النار ووصل على مقربة منها ﴿نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قال البعض: إن من في النار هم الملائكة، ومن حولها هو موسى. وقال البعض: إن ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ هو الله الذي تجلى هنالك ببعض أسمائه، وقد قال ربنا: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و قد جاءت الخاتمة لبيان تقديس الرب من الحلول في مكان.

ويحتمل أن يكون المقصود بمن في النار هو موسى، ومن حولها الذين يقتبسون منه، وينتهجون خطه.

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي تعالى الله أن يكون حالا في النار، لأنه أكبر من أن يحده شيء.

[٩] إن النداء الذي تلقاه موسى عليه السلام هو المسؤولية التي تتمثل في الرسالة الإلهية المنزلة إليه، ينذر بها قومه، ويتحدى بها النظام الفاسد.

﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهذا هو المنطلق.

[١٠] ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ يقول المفسرون إن الجان هي الحية الصغيرة سريعة الحركة، ولكنا نعلم أن عصا موسى عليه السلام تحولت إلى ثعبان ضخم، وعليه فقد يكون التعبير بكلمة ﴿جَانٌّ﴾ و هي الحية الصغيرة لبيان معنيين:

الأول: جانب الخفة والسرعة في الحركة حتى كأن هذا الثعبان الضخم في خفته حية صغيرة.

الثاني: أنه كان في ضخامته كأنه الجن.

وموسى عليه السلام حين رأى هذا المنظر الرهيب: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي هرب ولم يلتفت إلى خلفه، أو لم يتعقب الأمر ويتابعه مرحلة فمرحلة ولحظة فلحظة، إلا إن العناية الإلهية تحوط موسى وتمده بالعون في كل حين، لذلك جاءه النداء تثبيتا له: ﴿يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾.

الرسالة هي عطاء إلهي جديد يضاف إلى الرسول، وليست نبوغا فطريا، ولا نموا طبيعيا في حياته، لذلك نجد موسى عليه السلام يخشى ويخاف من العصا التي ألقاها هو نفسه، إذ لم يكن يعلم أنها ستتحول إلى جان.

لقد سما موسى عليه السلام في لحظة إلى أفق النبوة، من حملة الرسالات الإلهية فأضحى ينفذ الأمر بلا خشية ولا تردد، حقا ما أعظم التحول الذي ينشئه الوحي في هذا البشر الضعيف. أن يعرج به إلى قوة تتسامى فوق كل قوة مادية لأنه يقربه إلى رب القدرة والجبروت.

والرسول يجب أن لا يخاف، لأنه يعتمد في تحركه على قوة غيبية مطلقة.

[١١] ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الذي ينبغي أن يخاف أمام الله ليس موسى عليه السلام ولا الأنبياء والمرسلون عليهم السلام، وإنما الظالمون بسبب ذنوبهم وسيئاتهم، ولماذا نخاف من الله وهو أرحم الراحمين؟! إلا إن المشكلة تبدأ منا وتنتهي إلينا بسبب الذنوب والمعاصي، فالطبيعة مثلا خلقها الله لنا فلا نخاف منها، بل نخاف من عدم قدرتنا على الاستفادة السليمة منها.

وحتى الظالم صاحب الذنوب يمكنه أن يتوب ليجد الله غفورا رحيما، فلا يبقى ما يقلقه أو يخيفه.

[١٢] ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ قد يصيب البياض يد الإنسان بسبب البرص وهذا سوء، ولكن يد موسى لم يكن بها ذلك المرض، وإنما خرجت بشعاع من نور.

﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ سبع منها آيات إنذار وعذاب وهي: الدم، والقمل، والجراد، والضفادع، والطوفان، والثعبان، وانفلاق البحر، واثنتان منها آيتان للرحمة وهما: اليد البيضاء، وانبجاس عيون الماء من الصخرة حين ضربها موسى عليه السلام بالعصا.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ والفسق هو تجاوز الحد، وانحراف السائر عن الطريق يسمى فسقا.

[١٣] ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ لآيات كانت جلية ولا تقبل الشك، ولكنهم اتهموا موسى عليه السلام بالسحر ليبرروا كفرهم بها، ولأنهم أرادوا ظلم الناس والاستكبار في الأرض فكانت الرسالة الإلهية تمنعهم منها لذا فإنهم اتهموا الرسالة بالسحر، وكفروا بها بعد أن أيقنت أنفسهم بصدقها، وأفسدوا، وأنهى الله كيانهم، وأغرقهم في اليم، وجعلهم عبرة للمؤمنين.

[١٤] ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لا يتم التكامل إلى درجة الإيمان بمجرد تراكم الخبرة أو تواتر الأدلة على الحق. وإنما الإيمان تحول نوعي عند من يعقد العزم على الاستجابة لتلك الخبرة والأدلة. والاستجابة

التي هي التسليم المطلق للحق لا يتحقق مع وجود حاجز الظلم في النفس (والبغي) والتكبر (والاستعلاء في الأرض) وهكذا نجد إن هؤلاء بالرغم من توافر مقدمات اليقين عندهم جحدوا بها استرسالاً مع صفتي الظلم والاستعلاء.

[١٥] إن فرعون وملأه استكبروا، وحاولوا فرض سيطرتهم الفاسدة على الناس، بينما داود وسليمان شكروا الله حينما منحهم العلم والهدى والسلطة، وهذا هو الفرق بين البركة الإلهية واتباع خط الشيطان في نعم الدنيا ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

[١٦] ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ وبهذه الكلمة أعلن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه ملك الناس. لماذا؟.

لأنه وصل إلى أرفع مستوى من العلم، حتى صار يعلم منطق الطير، ولأنه صار لديه كل ما يحتاجه الناس كالإدارة، وقيادة الحرب، وهذا يدل على أن الإسلام ينظر إلى القيادة من خلال الكفاءة لا النسب والحسب، فسليمان لم يرث الحكم لو لم تكن لديه الكفاءة.

[١٧] ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ وربما كانت مهمة الطيور إيصال الرسائل كالحمام الزاجل، أو التجسس كما فعل الهدهد.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يوزعون ويُرتَّبون حيث يقسم سليمان المهام على جنوده، والحشر لا يعني أنهم مجموعون بشكل فوضوي، بل أنهم موزعون بشكل منظم.

ويبدو أن الحضارة قد تطورت في عهد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنه كان خبيرا بلغات شتى.

جاء في تفسير علي بن إبراهيم عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أُعْطِيَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ عِلْمِهِ مَعْرِفَةَ الْمَنْطِقِ بِكُلِّ لِسَانٍ وَمَعْرِفَةَ اللُّغَاتِ وَمَنْطِقِ الطَّيْرِ وَالْبَهَائِمِ وَالسِّبَاعِ فَكَانَ إِذَا شَاهَدَ الْحُرُوبَ تَكَلَّمَ بِالْفَارِسِيَّةِ وَإِذَا قَعَدَ لِعُمَّالِهِ وَجُنُودِهِ وَأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ تَكَلَّمَ بِالرُّومِيَّةِ فَإِذَا خَلَا مَعَ نِسَائِهِ تَكَلَّمَ بِالسُّرْيَانِيَّةِ وَالنَّبَطِيَّةِ وَإِذَا قَامَ فِي مِحْرَابِهِ لِمُنَاجَاةِ رَبِّهِ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ وَإِذَا جَلَسَ لِلْوُفُودِ وَ الْخُصَمَاءِ تَكَلَّمَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ**»[1].

وجاء في حديث آخر: «**أَعْطَى دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَداً مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ مِنَ الْآيَاتِ، عَلَّمَهُمَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَلَانَ لَهُمَا الْحَدِيدَ وَالصُّفْرَ مِنْ غَيْرِ نَارٍ وَجُعِلَتِ الْجِبَالُ يُسَبِّحْنَ مَعَ دَاوُدَ**»[2].

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص١٢٩. بحار الأنوار: ج١٤ ص١١٢.
(٢) تفسير القمي: ج٢ ص١٢٦، بحار الأنوار: ج١٤ ص٣.

وجئتك من سبأ بنبأ يقين

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ[1] أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ (٢١) فَمَكَثَ[2] غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ[3] فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ (٢٥) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ (٢٦)﴾.

هدى من الآيات:

لقد ملك سليمان جنودا لم يملكها أحد قبله، ولن يملكها أحد بعده، و حشر له جنود منظمون من الجن والإنس والطير، وكانوا يسيرون في الأرض، ويسعون فيها عمرانا وبناءً. وفي

(١) أوزعني: أي ألهمني، من وزع بمعنى كف.

(٢) فمكث: المكث البقاء اليسير.

(٣) الخبء: الخبيء المخبوء، وهو ما أحاط به غيره حتى منع من إدراكه.

بعض أسفارهم مروا بوادي النمل فإذا بملكتهم تناديهم: أن يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم، فإن سليمان و جنوده قادمون، وأخشى أن يحطموكم بأقدامهم وحوافر خيولهم، فتبسم سليمان منها حين سمعها.

قد تكون للإنسان معارف وأفكار لا تستثار إلا بحوادث تطرأ على حياته، فينتبه لها، وقد يكون غافلا عن نفسه فإذا بظاهرة أو حادثة طارئة تثيره لتفتح له أبواب المعرفة والعلم، فقد بدأ العالم المعروف (نيوتن) أبحاثه عن الجاذبية لأنه شاهد تفاحة تسقط من الشجرة إلى الأرض، فتساءل: لماذا لا تصعد إلى السماء؟! وانتهى إلى نظرية الجاذبية.

وقد بلغ سليمان عليه السلام من القوة والسلطة شأنا بعيدا، فغفل أو تغافل حدود سلطانه -وهذا هو شأن الأنبياء والصالحين- فهم كلما زاد إيمانهم زاد تواضعهم لله، ولم يأبه سليمان عليه السلام بالجوانب المادية للملك ليخرجه عن توازنه وعبادته لله -كما هو شأن سائر الملوك- بل لم يكن الملك بالنسبة إليه وسيلة للتكبر والاستعلاء، بل وسيلة لإقامة العدالة على الأرض، فقد كان يقضي النهار صائما والليل قائما متعبدا لله سبحانه، ولم يتذكر عليه السلام مدى سلطانه إلى أن سمع خطاب النملة مما أثر فيه، فاندفع نحو ربه شاكرا له على نعمه المتوالية، وهذا يؤكد حقيقة هامة وهي: انعكاس ما يحدث للإنسان على العوالم المحيطة به، فالعدالة تشمل الإنسان و الطبيعة من حوله، وهكذا الظلم. وقد تعجب سليمان عليه السلام من خطاب النملة ! فكيف به وهو العبد الضعيف أن تبلغ قوته حدا يخشاه حتى النمل! لذلك اندفع نحو الشكر لله، خشية أن يكون شعوره بالقوة سببا للكفران بالنعم و الطغيان. لذلك بادر طالبا من الله التوفيق إلى شكره، ليس فقط شكرا نفسيا و لفظيا بل وعمليا أيضا، وذلك بأن يستخدم ما وهبه الله من القوة والمنعة و الملك في سبيل عمل صالح يرضيه تعالى، فليس كل عمل صالح بذاته يرضي الله، فلو انقطع شخص لله بالعبادة صياما وصلاة ولكنه انعزل عن الناس والكد على من يعولهم، فإن هذا العمل لا يرضي الله وإن كانت الصلاة في ذاتها عملا صالحا.

كما جرت لسليمان عليه السلام حادثة أخرى تكشف لنا عن ملكه وطريقته في الحكم، حينما غاب الهدهد فظن في بادئ الأمر أنه خالف قواعد الانضباط، فهدده وتوعده بالعذاب حتى يصير عبرة لسائر الجنود، فلا يفكرون في مخالفة النظام فتعم الفوضى في الجيش، وكان من عادة سليمان عليه السلام نتف ريش الطائر المخالف والمتخلف، إلا إن الهدهد فاجأ سليمان عليه السلام حين نقل له خبرا مفاده: أنه رأى مملكة سبأ في بلاد اليمن، ولم يكن لدى سليمان علم ظاهر بها، لأنه كان يعيش في فلسطين، إذ يجب أن تلتقي الحضارتان (وهذه سنة الحياة) وأضحى الهدهد هو الرابط.

بعد ذلك قرر سليمان عليه السلام أن يتبين الأمر، فإن صدق أكرمه وإلا أحل به العذاب، لذلك دفع إليه رسالة وأمره أن يلقيها إلى ملكة سبأ، وفي القصة عبر ودروس سنتعرض لها في البينات.

بينات من الآيات:

[١٨] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ ولم تقل النملة أن سليمان وجنوده لا يملكون الإحساس أساسا، وإنما قالت بأن اهتمامهم بأشياء أخرى قد يجعلهم لا يدركون بأن تحت أرجلهم شيئا وهذه إشارة للإنسان المقتدر بأن لا ينسى النملة بل يهتم بها، لأنها ذات روح وشعور. والحاكم العادل يأخذ حساباته حتى بالنسبة لهذه النملة، ولنستمع إلى كلمة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام وهو يومذاك حاكم على إمبراطورية عظمى: «**وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى**»[١].

أما الطغاة فإنهم يتجاهلون شعوبا بأكملها، فقوة عظمى هنا تقرر أن تضغط على قوة عظمى هناك ولكن عبر إنزال العقاب بدولة صغيرة تابعة لها. مادامت الأخرى تضغط عليها في دولة خاضعة لنفوذها، وفي كلا البلدين الصغيرين شعب مستضعف يُهضم، إلا إن المهم عند القوى الكبرى أن تتحقق مصالحهم ولو دُفع بملايين المستضعفين إلى الجحيم.

كما تزرع القوى الكبرى أسلحتها المرعبة بين ملايين البشر، وتسلبهم الراحة والاطمئنان، فالمهم عندهم أن يكونوا أقوياء، وهذا هو الفرق بين مملكة الإيمان وإرهاب الطغاة.

[١٩] ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ قيل: إن سليمان عليه السلام لما سمع كلام النملة، أمر الجيش بالتوقف في الصحراء حتى دخل النمل أجمعهم إلى بيوتهم، فأمرهم بعد ذلك بمواصلة المسير، وفي الوقت ذاته تعجب سليمان من كلام النملة، وعرف أنه وصل ذروة رفيعة من القوة والسلطة، وأنه استجيبت دعوته التي قال فيها: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]، لذلك توجه بالشكر إلى الله لكي لا تبطره النعمة فيطغى.

وهناك حديث شريف ينقل حوارا بين سليمان والنملة: في عيون الأخبار بإسناده إلى

(١) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٣٥٩.

داود بن سليمان الغازي قَالَ سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ مُوسَى الرِّضَا عليه السلام يَقُولُ عَنْ أَبِيهِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ أَبِيهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾، قَالَ: «لَمَّا قَالَتِ النَّمْلَةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ حَمَلَتِ الرِّيحُ صَوْتَ النَّمْلَةِ إِلَى سُلَيْمَانَ وَهُوَ مَارٌّ فِي الْهَوَاءِ وَالرِّيحُ قَدْ حَمَلَتْهُ فَوَقَفَ وَقَالَ عليه السلام: عَلَيَّ بِالنَّمْلَةِ. فَلَمَّا أُتِيَ بِهَا قَالَ سُلَيْمَانُ: يَا أَيَّتُهَا النَّمْلَةُ أَمَا عَلِمْتِ أَنِّي نَبِيُّ اللهِ وَأَنِّي لَا أَظْلِمُ أَحَداً؟. قَالَتِ النَّمْلَةُ: بَلَى. قَالَ سُلَيْمَانُ: فَلِمَ حَذَّرْتِنِيهِمْ ظُلْمِي، وَقُلْتِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾؟.

قَالَتِ النَّمْلَةُ: خَشِيتُ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى زِينَتِكَ فَيَفْتَتِنُوا بِهَا فَيَبْعُدُوا عَنِ اللهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ، ثُمَّ قَالَتِ النَّمْلَةُ: أَنْتَ أَكْبَرُ أَمْ أَبُوكَ دَاوُدُ؟. قَالَ سُلَيْمَانُ عليه السلام: بَلْ أَبِي دَاوُدُ. قَالَتِ النَّمْلَةُ: فَلِمَ زِيدَ فِي حُرُوفِ اسْمِكَ حَرْفٌ عَلَى حُرُوفِ اسْمِ أَبِيكَ دَاوُدَ؟!. قَالَ سُلَيْمَانُ: مَا لِي بِهَذَا عِلْمٌ!. قَالَتِ النَّمْلَةُ: لِأَنَّ أَبَاكَ دَاوُدَ دَاوَى جُرْحَهُ بِوُدٍّ فَسُمِّيَ دَاوُدَ وَأَنْتَ يَا سُلَيْمَانُ أَرْجُو أَنْ تَلْحَقَ بِأَبِيكَ ثُمَّ قَالَتِ النَّمْلَةُ: هَلْ تَدْرِي لِمَ سُخِّرَتْ لَكَ الرِّيحُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْمَمْلَكَةِ؟. قَالَ سُلَيْمَانُ: مَا لِي بِهَذَا عِلْمٌ!. قَالَتِ النَّمْلَةُ: يَعْنِي عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ لَوْ سَخَّرْتُ لَكَ جَمِيعَ الْمَمْلَكَةِ كَمَا سَخَّرْتُ لَكَ هَذِهِ الرِّيحَ لَكَانَ زَوَالُهَا مِنْ يَدِكَ كَزَوَالِ الرِّيحِ فَحِينَئِذٍ ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾»[1].

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لقد كان سليمان ملكا ونبيا، كما كان أبوه ملكا ونبيا، وأمه مؤمنة صالحة، وكان يعمل الصالحات التي يرضاها الله، ولكنه لم يكتف بتلك الصفات بل دعا الله أن يجعله مع الصالحين، فماذا ينفع الإنسان أن يكون أبواه صالحين إذا لم يكن هو كذلك كما ينبغي على من أوتي الحكم والنبوة و الصلاح أن لا يتخذ ما أوتي من الفضل أداة للتفرقة بينه وبين الصالحين الآخرين.

[٢٠-٢١] ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ ولعله خشي أن خروجه من غير إذن قد يشجع الآخرين على عدم الانضباط، لذلك توعده بالعذاب ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ إن كان غيابه لعذر، وإلا فالعذاب الشديد أو الذبح العاجل ينتظره.

[٢٢] ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ عاد الهدهد فبادره سليمان بالسؤال: أين كنت؟!.

﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ لا يقبل الشك.

[٢٣] ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ أي تحكمهم وتقودهم ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾

---

(١) بحار الأنوار: ج١٤ ص٩٢.

لديها أنواع الخير والملك ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ روي أن عرش بلقيس كان خمسة وعشرين ذراعا طولا وعرضا و ارتفاعا، وكانت مقلمته من الذهب، وكانت بلقيس بنت شرحبيل تحكم قومها بمجلس شورى، يضم أكثر من (٣١٣) رجلا، يمثل كل واحد منهم قبيلة.

[٢٤] ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الناس نوعان: نوع يعمل بعد التفكير، ونوع يعمل من دون تفكير، ولو كان هؤلاء يفكرون قبل أن يتعبدوا للشمس لاهتدوا إلى الصواب، ولكنهم عطلوا تفكيرهم، واكتفوا بالواقع الموجود أو المورث.

بلى؛ هو كما قال الإمام علي عليه السلام: «وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ وَلَكِنِ الْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ وَالْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ»[1].

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ عبر التبرير والتضليل ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ وكيف يهتدي من استسلم للشيطان، وجعله يفكر ويخطط بالنيابة عنه؟!.

[٢٥] ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وليس الشمس هي التي تخرج القوى والطاقات الكامنة حتى نعبدها ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

[٢٦] ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا يقاس به عرش بلقيس وسائر السلاطين حتى نخضع لهم من دونه، ولا بسائر المخلوقات كالشمس حتى نؤلهها ونتصورها ربا. هكذا كانت البداية للقاء حضارتين (حضارة عربية وأخرى عبرية).

دروس من القصة

١- إن الإنسان قد يتقدم ويتكامل في حياته إلى درجة معرفة منطق الطير، والاستفادة منه، وهذا يعني أننا من أجل الوصول إلى حضارة إنسانية متكاملة في المستقبل يجب أن نسعى للاستفادة من الأحياء والطبيعة من حولنا إلى أقصى حد.

٢- إن الانضباط ضرورة ولا سيما بالنسبة للجندي في الخط العسكري إلا إن للمبادرة أهميتها أيضا، فإذا بادر الجندي إلى مهمة ناجحة فعلى القائد أن يكرمه حتى لا تموت روح المبادرة عند الجيش.

٣- إن الطيور كما البشر يعرفون الطريق إلى الله، لذلك عرف الهدهد أن عبادة الشمس انحراف وضلال.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦١ ص٣٩.

الا تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً[1] أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

لقد ساعد غياب الهدهد على التقاء حضارتين عظيمتين في زمانهما، و هما الحضارة العبرية ويمثلها سليمان عليه السلام وهي الحضارة الإلهية التي تستمد قيمها من الوحي، والحضارة العربية وتمثلها بلقيس، وهي الحضارة الأرضية التي تستمد قيمها من عقل الإنسان حينا، وشهواته في الأغلب.

وكما أن جوهر رسالة الله يختلف عن واقع الثقافة الأرضية -حسب ما ذكرتنا به سورة الشعراء- فإن سلوكيات الرسل وشخصياتهم تختلف عن شخصيات وسلوكيات أصحاب ثقافة الأرض، فمع أن سليمان عليه السلام كان ملكا ومن عادة الملوك الاستعلاء والفساد استجابة لإغراءات الملك، إلا إنه كان ملكا صالحا مترفعا عن كل الرذائل، وهكذا يكون الملك حين

(١) قاطعة: ممضية أمراً.

يتصل بالرسالة الإلهية مثالا ساميا للسلوك الفاضل، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن قدرة الرسالة تفوق الظروف، وأن الروح المعنوية التي تبعثها في كيان الفرد، تجعله فوق المتغيرات والمؤثرات السلبية في الحياة، وإن شئت فقل فوق ما يسمى بالحتميات العلمية.

فلو نظرت إلى مصادر علم الاجتماع لوجدت قائمة من الحتميات الاجتماعية، وهكذا تجد أمثالها في علم النفس والتأريخ، ولكن قد يأتي إنسان ما فيتجاوز هذه الحتميات المدعاة، ويحدث في مجتمعه تغييرا يبدل مجرى التأريخ، ويخلق تيارا معاكسا لواقع المجتمع دون أن يخضع للمسيرة التأريخية -حسب نظرية ماركس- فبرغم انتمائه الطبقي والعائلي إلا إنه يصير شيئا آخر تماما، وهذه من ميزات النور الإلهي الذي ينفذ في قلوب الصادقين من عباد الله، ويضرب لنا الله مثلا بسليمان عليه السلام.

لقد عامل سليمان الهدهد -وهو طائر يعمل في خدمته- معاملة كريمة، حيث لم يعاقبه، بل منحه فرصة كي يكتشف مدى صحة ما جاء به، فكتب رسالة وسلمها له، وأخذها الهدهد وألقاها على عرش ملكة سبأ، فلما بصرت بها امتلكها العجب.

فشهرة سليمان عليه السلام كانت قد سبقت رسالته إليها، وكانت بلقيس على علم بما يجري في البلاد الأخرى، وهي تدري بأن بلاد فلسطين وبلاد الشام يحكمها ملك كريم، وعلى أثر استلامها كتاب سليمان جمعت أعضاء مجلسها الاستشاري، والذي كان حسب قول بعض المفسرين يضم (٣١٣) رجلا، وأخبرتهم بأنها استلمت رسالة كريمة مختومة بخاتم سليمان، وفي داخلها أوامر حكيمة ورشيدة، فيها دعوة للخضوع لملكه وسيطرته، و لكنه لا يفعل ذلك من أجل فرض سيطرته وهيمنته، ومن أجل ضم ملكها إلى ملكه، وإنما لنشر راية الحق والعدالة الإلهية.

ثم طلبت بلقيس من مجلسها أن يشير عليها بما يجب أن تفعله في أمر خطير كهذا، فترك المجلس المسألة إليها، وأبدوا استعدادا لتنفيذ كل ما تقرره وتأمر به، فكان القرار النهائي لبلقيس الاستسلام لسليمان، لأنها عرفت أنه أكثر نفوذا و قوة منها، وأنها إن لم تشتر استقلال بلادها بالتعاون مع سليمان، فإنه و جنوده سيدخلونها عنوة ويؤدي ذلك إلى خرابها ودمارها.

والقرآن الحكيم لا يبين لنا الأحداث التاريخية لمجرد العلم أو التسلية بها، وإنما يبينها للاعتبار والاتعاظ، كما إنه لا يحتوي على لغو وعبث، إذا فعلى كل جيل أن يستفيد منه بما يتناسب وقدرته للاستيعاب.

ونستفيد من القصة أن أفضل حكومة تقوم بين الناس هي الحكومة التي تجمع بين

المشورة في الرأي والحزم في القرار، ذلك لأن الذي يحرك العالم أمران: العلم والإرادة. فيجب على المرء أن يعرف الطريق ثم يقرر المضي فيه، إذ قد يكون القرار خاطئا ومهلكا بدون علم، والقرار الذي لا إرادة معه سيكون هشا، والسلطة يجب أن تكون مجسدة لهذين العاملين الأساسين لحركة التأريخ.

إن الحكومات النيابية التي يضيع فيها القرار بسبب اختلاف الأفراد لا تفرز قرارات حازمة، وأما الحكومات المستبدة الحزم موجود في قراراتها إلا إنها ينقصها الرأي الصائب أو القرار العلمي، لأن الفكر الواحد لا يستطيع استيعاب المزيد من المعارف والتجارب، وأما الحكومات التي تبقى فيها القرارات لأعلى سلطة أي للفرد الذي يمسك زمام الأمور بيده، ولكنه لا يتخذ القرار إلا بعد أن يستشير مجموعة من الناس، سواء كانت هذه المجموعة من الخبراء أو المستشارين أو النواب، فإنها تكون أقرب إلى الصواب، لأن هذا النوع من الحكومات يجمع بين علم المشورة وحزم القرار، ويتضح هذا النوع من الحكومات في الآية الكريمة التي تقول: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

إذ يخاطب الله رسوله مرشدا إياه إلى مشاورة المسلمين في أموره، على أن يبقى القرار حقا خاصا به.

ونستوحي سلامة هذا النوع من الحكم من خلال قصة بلقيس حيث شاورت الملأ من قومها واستشارتهم بقولها: ﴿أَفْتُونِي﴾ ففعلوا ولكنهم -بدورهم- خولوها حق القرار النهائي، وهذه نقطة مهمة في الحكم. إن بلقيس لم تكن لتفرض عليهم سيطرتها، بل هم الذين خولوها حق القرار، و من طرائف الحكم الإسلامي ولطائفه أن الناس بأنفسهم، وبملء إرادتهم، و كامل حريتهم يخولون شخصا حق القرار النهائي، وذلك عبر ولاية الفقيه، فالفقيه الحاكم والقاضي ولي أمرهم بإذن الله، وهو منتخب من قبل الناس بطريقة الانتخابات الإسلامية، ويخول حق اتخاذ القرار، فيسلم له الناس نفسيا قبل أن يتبعوه عمليًا.

وبالرغم من أن حكومة بلقيس كانت من أفضل أنواع السلطة إلا إنها حيث كانت بعيدة عن روح الإيمان وهدى الرسالة فقد كانت منحرفة فاسدة، فسلامة القوانين، وصحة الأنظمة، وحتى سلامة تطبيقها لا تدل على أن البشرية تصل بها إلى شاطئ السعادة والسلام، إنما القوانين بمثابة جسد يحتاج إلى روح، وروحها هدى الله، فعلى الرغم من أن حضارة العرب في مملكة سبأ كانت جيدة، وقوتهم كبيرة، إلا إنهم فقدوا الصلة بالله، فعبدوا الشمس من دونه، ولأنهم فقدوا روح الإيمان اضطروا للخضوع إلى سلطان يملك تلك الروح الإيمانية.

والفرق بين بلقيس وسليمان لم يكن سلامة الأنظمة أو عدم سلامتها، و صحة القوانين

أو عدم صحتها، إنما كان في الجانب الغيبي (الإيمان بالله) وحينما كانت بلقيس خلوا من هذا الجانب اضطرت إلى الخضوع لسليمان و هذا هو قانون الحياة، فلو كان هناك حاكم يملك الجانب الإيماني للقوة وهي التوكل على الله وآخر لا يملكه، وكانا متساويين في سائر الأمور فإن الأول هو الذي سينتصر بإذن الله. إذا نحن بحاجة من بعد المشورة (العلم) والعزم (الحزم) إلى قوة أخرى لإنشاء حكومة مثالية، وهي قوة التوكل على الله.

بينات من الآيات:

[٢٧] ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي سنستكشف صحة ما تقول عن طريق الأمر المخول إليك.

[٢٨] ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ كلف سليمان الهدهد بمهمتين حين بعثه بالكتاب:

أولاً: إيصال الرسالة.

ثانياً: التجسس.

﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ لمعرفة رد فعلهم تجاه الرسالة.

وبالفعل أخذ الهدهد الرسالة وطار بها، ولما وصل وجد بلقيس نائمة، فوضعها على نحرها، فانتبهت وقرأتها، وفي الحال دعت المستشارين للاجتماع بسرعة.

[٢٩] ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ الملأ: الأشراف، قالت لهم: لقد وصلني كتاب كريم يدل على أن مرسله رجل عظيم، وإن في الكتاب كرامة، ثم قرأته عليهم:

[٣٠] ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ويبدو أن شروط الرسالة الكريمة قد اجتمعت في كتاب سليمان لبلقيس، أوليس كتاب المرء رسول عقله؟!.

لقد افتتح الكتاب باسم الله الرحمن الرحيم مما عكس روح التوحيد، و معاني العطف والرحمة عند صاحب الكتاب، وقد كان من سليمان ذلك الذي طبقت شهرته الطيبة الآفاق، وكان مختوما، وقد حمله طير السعد من الفضاء، ووضعه بهدوء على نحرها، مما دل على مزيد من الاحترام لها.

[٣١] ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ لا تحاولوا أن تحاربوني، إنما تعالوا مسلمين. ولا ريب إن كتابا بهذا الإيجاز والأسلوب يحمل في طياته الوعيد.

[٣٢] ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ أفتوني: أي طلبت منهم الفتيا، وهي في الواقع حكم نابع من القواعد و الأصول العامة التي يلتزم بها، فلو طبقنا القاعدة المسماة بقاعدة البراءة الفقهية على حادثة معينة أو على حكم خاص فإنا نسمي هذا التطبيق بالفتوى، وملكة سبأ طلبت من الملأ المستشارين البت في المسألة وفق القواعد و التقاليد والأفكار السائدة، وتطبيق تلك القيم على واقع الحياة.

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ إنني لا أستطيع أن أتخذ قرارا حازما وقطعيا، ما لم تكونوا شهودا معي في اتخاذه. إنها كانت تتخذ القرار بعد أن تستفتيهم وتشهدهم عليه.

[٣٣] ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ نحن نملك القوة والإرادة للمقاومة، وهاتان هما الصفتان اللتان يجب توفرهما في الأمة، يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

إن القوة التي لا ينتفع بها في إنجاز عمل ما لا تنفع شيئا، وإن القوة بدون الاستعداد الفعلي للحرب تظل عقيمة، هناك أكثر من مليار إنسان مسلم يلتزمون ظاهرا بواجب الجهاد في العالم، ولكن حينما تعتدي فئة صغيرة من اليهود على المسلمين لا نحشد القوة لمواجهتها لأننا نعاني من عدم الاستعداد.

﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ الرأي رأيك، والأمر إليك. إنك لا تحكمين بالهوى، ولكن فكري جيدا ثم اتخذي القرار المناسب.

[٣٤] ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ لقد عبرت عن وجهة نظرها في الأمر قائلة: لو ذهبنا إلى مملكة سليمان لسلمت بلادنا منهم، ولكن لو جاءنا بجنوده لدمرت بلادنا تحت سنابك خيلهم، ذلك أن الملوك حينما يدخلون بلادا ما يحاولون الاستفادة من خيراتها، وبذلك يستنزفون مواردها لمصلحتهم فتخرب، فصاحب الأرض وأبناء البلاد بطبعهم يحرصون على موارد بلادهم وخيراتها، ويحز في أنفسهم أن يروا خيرات بلادهم نهبا للأجنبي المستغل، فالفلاح - مثلا- يحافظ على أرضه، ويهتم بها، ولا ينهكها بالزراعة، فيزرعها سنة و يتركها في السنة التي تليها لتستعيد التربة قوتها وخصوبتها، وحين يزرع الأرض يحتفظ بقسم من الحنطة - مثلا- كبذور، ويشتري بقسم منها سمادا للأرض، وهذا هو الأسلوب المعتاد، ولكن حين يغزو الأجنبي البلاد ينتزع كل الحنطة، ويترك الأرض يبابا، غير قابلة للإنتاج حتى ولو بعد عشر سنين.

إذا لو حافظنا على استقلالنا لاستطعنا أن نخطط لأنفسنا تخطيطا سليما، فنستخرج من

النفط بقدر ما يحتاجه بلدنا من نفقات، فنخصص قسما من الموارد التي تدرها علينا الصادرات النفطية للزراعة، و آخر للصناعة وعمارة الأرض، وقسما للمواصلات ولسائر نفقات البلاد، و لكن حينما تكون مواردنا وثرواتنا مرتبطة بالأجانب فلن نحصل منها على شيء، لأن هذه الموارد تذهب إلى خزائن الأموال الأجنبية لتصدر لنا السلاح والسلع ومنتجاتها إلى أن تغرق الأسواق، بالإضافة إلى امتصاصها ما نحصل عليه من أتعاب.

إن نفقات التسليح تفرض علينا فرضا، والسلع الكمالية وأسباب الإفساد تغزو بلادنا وأسواقها، لأن الأجنبي لا تهمه مصلحة البلد وشعبه، و لهذا فهو يفسد أهل البلاد وأرضها.

ولطالما سعى المستعمرون في سبيل إفساد المجتمع عن طريق أفراد المجتمع ذاته، وذلك بأن يبحثوا عن مجموعة من المنبوذين بسبب ابتعادهم عن قيم المجتمع، فيستخدمونهم لبث الفرقة والفساد بين أبناء الشعب الواحد.

إنهم لا يبحثون عن الشرفاء، لأن الشريف لا يرضى أن يسلم مقادير بلده للأجنبي، ويرفض التعاون معه، ولا يستسيغ رؤية بلاده وقد نهبت من قبل القوى الطاغية.

ولو خرج الأجنبي من البلاد فسيحكمها أبناؤها الملتزمون بالقيم الإسلامية، ويتحول المجتمع إلى مجتمع ملتزم بالإسلام وأحكامه، و شرائعه، وأخلاقياته، وبالتالي يصبح مجتمع الفضيلة، ولكن الأجنبي يفعل العكس، وكما يقول القرآن الحكيم: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وفي هذا المقطع من الآية تأكيد من قبل الله على الحقيقة التي طرحتها بلقيس عن الملوك.

وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن استشارت بلقيس قومها في أمر الرسالة التي جاء بها الهدهد، قالوا: إننا أولو بأس وقوة، ومستعدون للحرب، لكنها قالت: إننا سنشتري رضى سليمان بالهدايا الثمينة، فإن كان من الذين تستهويهم الدنيا قبل، وإن لم يكن كذلك، وكان نبيا فالأمر يختلف، ولا مجال

لدينا يومئذ لمعارضته.

والذي نستفيده من هذه العملية -حين بعثت بلقيس بالهدايا- أن من عقل هذه الملكة، و «مَنْ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا»[1]، أنها لم تحزم في القرار بالحرب أو السلم، إنما تركت لنفسها فرصة -حتى يعود الرسول- تفكر فيها، حتى لو اتخذت قرارا يكون قرارها سليما، وهكذا فإن القرار الناجح هو الذي يتخذه صاحبه بعد توافر كل مكوناته: (المعلومات والخبرات والتفكير السليم).

وهكذا تحرك رسول بلقيس حتى وصل إلى سليمان، فلما سلمه الهدايا استصغرها واستصغرهم أيضا، ولما عاد الرسول إلى بلقيس وأخبرها بما جرى عرفت أن سليمان ليس كسائر الملوك، ولما كان الرسول يحمل تهديدا بالزحف نحو مملكتها إن لم تأت بلقيس وقومها مسلمين، جمعت أمرها على المسير إلى سليمان، وقبل أن تتحرك من اليمن كان سليمان يبحث عمن يأتيه بعرشها الذي يبلغ (٢٥) ذراعا طولا وعرضا وارتفاعا و كان ذهبا، فقام عفريت من الجن وقال: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، فقام (آصف بن برخيا) وصي سليمان، وكان عنده علم الاسم الأعظم، فقال: أنا آتيك بعرشها قبل أن يرتد إليك طرفك، فأمره سليمان بذلك، فرأى العرش أمامه في لحظة وآنئذ أمر سليمان بإجراء تغيير بسيط فيه وذلك بأن تجعل مقدمته فضة بدل الذهب، وسأل بلقيس إن كان هذا عرشها، فنظرت إليه نظرة تفكر، ثم قالت: كأنه هو، وتدل إجابتها على رجاحة عقلها، إذ تعرفت على عرشها رغم تنكيره، ولم تتعجب من انتقاله من تلك المسافة البعيدة إلى قصر سليمان، ولكن الذي أثار دهشتها، أن عرشها كان في سبعة أروقة متداخلة، وكلها مغلق، ويحيطها الخدم، والجيش، ولم يكن قد طرأ تغيير في ملكها سوى انتقالها هي إلى مملكة سليمان عليه السلام فكيف انتقل عرشها؟! فعرفت أنه انتقل بقدرة قادر عظيم.

إن هدف سليمان من إحضار العرش هو تذكير بلقيس بأن معرفتها لم تنفعها، وأن قوتها ليست بكبيرة، وأن ما بنته ليس سوى نسج للعنكبوت، لأنه لا يستند على قوة الإيمان، ولكنها لم تفهم المغزى إذ كانت تفقد بصيرة الإيمان التي تهديها إلى بواطن الأمور -كما هو حال الكثير من المثقفين في عالم اليوم- ولكي يختبرها ويعرفها على الحقيقة أكثر أمر سليمان بأن يوضع عرشه في مكان ما، وأجرى بين عرشه والباب ماء، ووضع على الماء جسرا من الزجاج، جعل تحته بعض الأسماك، و الأحياء المائية، ثم أمر بإدخال بلقيس، فلما فوجئت بالماء، ظنت أن سليمان يريد إهلاكها غرقا، لكنها قررت اقتحام اللجة، فكشفت عن ساقيها تهيؤا للعبور، وإذا بها تصطكان

(١) نهج البلاغة: حكمة: ١٦١.

بجسر الزجاج، الأمر الذي جعلها تنتبه إلى أنها لا تملك علما بكل شيء، وأن كبرياءها خادع ومزيف، وأنها من الناحية العقائدية على خطأ، فأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

بينات من الآيات:

[٣٥] ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ قالت: إنني سأرسل إلى سليمان وحاشيته بهدية، وأنتظر رد الموفدين.

[٣٦] ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ وعندما وصل المرسلون إلى سليمان وقدموا هداياهم لم يأبه بها، وقال لهم: إنكم تريدون أن تغروني بالمال، وأنا لست بحاجة إليه، فالله منحني من الملك والمال ما هو خير من هديتكم التي لا قيمة لها. إن المال لا يفرحني ولا يسرني، ولكنكم أنتم الذين تفرحون بالمال، لأنكم عبيد الدنيا، ومتاع الدنيا لا قيمة له عندي، وإنما يفرح بالمال من اتخذه هدفا وغاية و معبودا.

بلى؛ إنه لم يغتر بزخارف زينة الحياة الدنيا، وفدى نفسه من أسرها، و لهذا فقد استصغر إغراءات الملكة وتابعيها لسببين:

١- فما يملكه أفضل من هدايا بلقيس بكثير، إذ أعطي ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، ولم يبلغه أحد قبله.

٢- ولأنه لم يكن يبحث عن الملك، بل كان يسعى لنشر الرسالة و الوعي، لذلك أجابهم: بأنكم أنتم الذين تفرحون بالهدية، أما نحن فلا نفرح بالدنيا وما فيها، وإنما هدفنا نشر الرسالة، وإقامة الحق.

[٣٧] ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لم تكن غاية سليمان المال، وإنما كانت غايته إرشاد الضالين إلى الطريق الصحيح، فلذلك أمر رئيس الوفد البلقيسي بالعودة إلى ملكته، و هددهم بالحرب، وتسيير جيش جرار إلى بلادهم لا يستطيعون مقاومته.

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ونخرجهم من أرضهم وهم مهانون ومحقرون، وهنالك فارق كبير بين بلد يفتح عنوة فيمتلكه الفاتحون بقيمة الدم الذي أراقوه، وبين بلد يصطلح أهله عليه، حينئذ تترك البلاد بيد أهلها فيتمتعون بحريتهم و كرامتهم أيضا.

هكذا عرفت بلقيس أن عليها أن تسير إلى سليمان طوعا قبل أن تساق إليه كرها، فلما

حزمت حقائبها، وعلم سليمان ذلك طلب ممن حوله إحضار عرشها.

[٣٨] ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ ثم التفت إلى من بحضرته من حاشيته، طالبا أن يتبرع أحدهم بإحضار عرش بلقيس قبل أن تأتي مستسلمة مع جماعتها.

[٣٩] ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾ قال جني قوي بأنه يستطيع أن يحمل عرش بلقيس إليه قبل أن ينقضي مجلسه، الذي اعتاد أن يجلسه للقضاء بين الناس، أي في غضون ساعات، وأنه سيأتي بالعرش بعظمته دون أن يسرق من مجوهراته وزينته شيئا.

كيف يقتدر الجن على حمل هذا العرش العظيم خلال ساعات من اليمن إلى فلسطين؟! هذا مما لم يتعرض له السياق القرآني، ولعل الأمثل بنا أن نتركه بعد أن نؤمن به إجمالا لعدم وجود ما يدلنا على استحالته.

[٤٠] ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ وقال الذي عنده علم من الكتاب -والكتاب هنا اللوح المحفوظ عند الله سبحانه- بأنه سيحضره قبل طرفة عين واحدة، وأحضره في الحال باسم الله الأعظم، وجاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام - أنه قال: **«إِنَّ آصَفَ بْنَ بَرخْيَا قَالَ لِسُلَيْمَانَ عليه السلام: مُدَّ عَيْنَيْكَ حَتَّى يَنْتَهِي طَرْفُكَ، فَمَدَّ عَيْنَيْهِ فَنَظَرَ نَحْوَ الْيَمِينَ، وَدَعَا آصَفُ فَغَارَ الْعَرْشُ فِي مَكَانِهِ بِمَأْرِب، ثُمَّ نَبَعَ عِنْدَ مَجْلِسِ سُلَيْمَانَ بِالشَّامِ بِقُدْرَةِ اللهِ قَبْلَ أَنْ يَرُدَّ طَرْفَهُ»**[1].

ويبقى سؤال: هل كان سليمان أعلم أم وزيره آصف بن برخيا؟.

و الجواب عن ذلك في حديث الإمام الهادي عليه السلام التالي:

رَوَى الْعَيَّاشِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ بِالْإِسْنَادِ قَالَ النَّقِى مُوسَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى وَيَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ فَسَأَلَهُ عَنْ مَسَائِلَ قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَى أَخِي عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام بَعْدَ أَنْ دَارَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنَ الْمَوَاعِظِ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى طَاعَتِهِ فَقُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنَّ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ سَأَلَنِي عَنْ مَسَائِلَ أُفْتِيهِ فِيهَا؟. فَضَحِكَ فَقَالَ: **فَهَلْ أَفْتَيْتَهُ فِيهَا؟**. قُلْتُ: لَا. قَالَ: وَلِمَ قُلْتُ لَمْ أَعْرِفْهَا، قَالَ: **وَمَا هِيَ؟**.

قُلْتُ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ سُلَيْمَانَ أَ كَانَ مُحْتَاجاً إِلَى عِلْمِ آصَفَ بْنِ بَرْخِيَا؟. ثُمَّ ذَكَرَ

(١) تفسير نور الثقلين: ج٤ ص٨٧.

الْمَسَائِلَ الْأُخَرَ قَالَ عليه السلام: اكْتُبْ يَا أَخِي؛ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَأَلْتَ عَنْ قَوْلِ اللهِ فِي كِتَابِهِ: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فَهُوَ آصَفُ بْنُ بَرْخِيَا وَلَمْ يَعْجِزْ سُلَيْمَانُ عَنْ مَعْرِفَةِ مَا عَرَفَهُ آصَفُ لَكِنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يُعَرِّفَ أُمَّتَهُ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ أَنَّهُ الْحُجَّةُ مِنْ بَعْدِهِ، وَذَلِكَ مِنْ عِلْمِ سُلَيْمَانَ أَوْدَعَهُ آصَفَ بِأَمْرِ اللهِ فَفَهَّمَهُ اللهُ ذَلِكَ لِئَلَّا يُخْتَلَفَ فِي إِمَامَتِهِ وَدَلَالَتِهِ كَمَا فُهِّمَ سُلَيْمَانُ عليه السلام فِي حَيَاةِ دَاوُدَ عليه السلام لِيَتَعَرَّفَ إِمَامَتَهُ وَنُبُوَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ لِتَأْكِيدِ الْحُجَّةِ عَلَى الْخَلْقِ»[1].

بلى؛ إن سليمان عليه السلام اختار آصف بن برخيا للقيام بذلك الدور من أجل أن يبين للناس أنه الوصي من بعده، وحين نقرأ تاريخ الأنبياء عليهم السلام نجد أنهم يختارون مواقف معينة يظهرون فيها أوصياءهم، حتى يكون واضحا عند الناس من هو الخليفة من بعدهم، وهكذا لا يرحلون إلا بعد أن يجعلوا لمستقبل الرسالة ضمانا.

ونستوحي من سورة النمل بأن الملك يقوم على ثلاثة أركان هي:

١- العلم؛ وأعلى مراتبه أن يستفيد الإنسان من خبرات الآخرين وعقولهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾.

٢- الحزم ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾.

٣- التوكل ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

ولقد اجتمع لسليمان عليه السلام الملك والقوة والطاعة من رعيته، وكان في جنده من يستطيع أن يحمل عرشا كعرش بلقيس، ويأتي به من بلد بعيد كاليمن -خلال طرفة عين- ولكن ذلك كله لم يكن أساسا حقيقيا لملكه، بل إن القوة الحقيقية التي استند عليها هي الإمداد الغيبي من الله، قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، والملاحظ أن القرآن قدم نصر الله على عون المؤمنين لأن الأول هو الأهم.

ونحن حين نبدأ بأي عمل ترانا نستعين ببسم الله الرحمن الرحيم، وسليمان بدوره استعان بقدرة الله وقوته -حين أرسل كتابه إلى بلقيس- إذ قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ليبين لها أن سلطانه ليس ماديا، وهكذا نجد نوحا يخاطب أصحابه قائلا: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١] لأن كل شيء لا يتم إلا باسم الله، ولولا اسم الله لم يستطع آصف بن برخيا إحضار عرش بلقيس في لحظة من اليمن إلى أرض فلسطين.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٤، ص١٢٧.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ فلما رأى سليمان عرش بلقيس أمامه، قال: إن إحضار العرش لم يتم بقوة مادية أو أرضية، ثم إن نعم الله على المرء ليست دليلا على سلامة النية بل إنها ابتلاء، فسلامة الجسم والغنى والأمان كلها نعم للابتلاء، و اختبار الإرادة، والفتنة، فلا ينبغي للمرء أن يغتر بها، إنما يجب أن يؤدي حقها بشكرها.

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ ومن شكر نعم الله، فإن فائدة الشكر تعود عليه.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ فلو أن جميع العالم كفر بالله، فإنه لا يضره من كفرهم شيئا، وتبقى رحمته تسعهم، ويظل يلطف بالكافرين، ويعطيهم الفرصة بعد الأخرى، لأن رحمته وسعت كل شيء.

[٤١] ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أي غيروا شكل عرشها ومظهره حتى يبدو مختلفا لنختبر عقلها، ونتعرف على طبيعتها، ونهديها إلى الحق والرسالة.

[٤٢] ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ وعندما جاءت بلقيس سئلت عن السرير الذي أتى به آصف بن برخيا، وهل يشبه سرير ملكها، فقالت: كأنه هو بعينه وهو جواب حصيف يكشف عن عقل متأمل ومتروي، ثم يقول سليمان: أنه تفوق على هذه المرأة بدرجتين: العلم وهي خلو منه، والإيمان وهي تفقده، وأساس الملك هو العلم المقرون بالإيمان.

[٤٣] ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ إن بلقيس كانت كافرة على دين آبائها وقومها، ولذلك عبدت الشمس والنجوم، ولم تعبد الله الذي خلقهن، وضربت تلك العبادة الخاطئة بينها وبين العلم حجابا منعها عن معرفة الله التي هي أول العلم، ومساق الآية شبيه بالاعتذار لبلقيس، فلم يكن كفرها عناداً بل غفلة بسبب البيئة الكافرة.

[٤٤] ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾، ﴿ٱلصَّرْحَ﴾: القصر الكبير الواسع، ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾: أي مياه عميقة، ورفعت ذيل ثيابها لئلا تبتل حين تخوض فيه.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، ﴿مُّمَرَّدٌ﴾: مستوي، وهي لفظة مأخوذة من الأمرد، والأمرد الذي ليس عليه شعر، وبلغت الأرض الزجاجية حدا من الاستواء بحيث لا يبدو فيها أثر للتعرج، ويبدو أن الزجاج كان معروف الصناعة على عهد سليمان عليه السلام وكانت صناعته متقدمة كالكثير من الصناعات الأخرى.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهنا عرفت بلقيس الحقيقة، وتبدد الضباب الذي كان يلف عقلها و يحجبها عن رؤية الحق ومعرفته، وأخذت تنظر إلى الحياة بمنظار جديد ليس فيه مكان للكبرياء.

لماذا حدث هذا التحول التام الذي يشبه لحظة الاعتراف عند المجرمين بعد طول المراوغة؟.

حينما يصطدم الإنسان بقضية ما كان يجهلها فإن هذه القضية تثير عقله، فيبدأ بإعادة النظر في أفكاره ومعتقداته، وتؤدي إعادة النظر هذه إلى انهيار النظام الفكري الذي كان يعتمد عليه، فيتحرر عقله من الأغلال القديمة، ويأخذ بالتفكير من جديد حتى ينتهي إلى الحقيقة.. هكذا آمن السحرة بموسى حين هزموا، وهذا ما حدث لبلقيس حين اصطدمت بما أعده لها سليمان من اختبار، حيث أخذت تجدد نظرتها للحياة، بعد أن وجدت أن نظرتها السابقة لها كانت غير صحيحة، فقررت أن تتبنى الفكر الصحيح الذي يستند على الإيمان بالله، ونبذ عبادة الأنداد، فآمنت وأسلمت وجهها لله رب العالمين.

إنا دمرناهم وقومهم أجمعين

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ[1] وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)﴾.

هدى من الآيات:

لقد تحدث القرآن الكريم في سورة الشعراء السابقة عن قصة نبي الله صالح عليه السلام وقومه ثمود، وهنا يذكر تلك القصة مرة أخرى وظاهرة التكرار واضحة في القرآن، فمثلا قصة نبي الله موسى عليه السلام مع فرعون ذكرت سبعين مرة، وإنما تتكرر قصص الأنبياء في القرآن حسب المناسبات، و في كل مرة بهدف متميز يختلف عن المرة السابقة، والهدف العام من ذكر القصص هو بث الروح الإيمانية فينا من خلال الحوار والصراع الجاري بين الأنبياء والجاهلين

(١) اطيرنا بك: أي تشاءمنا منك.

من قومهم، وتكرار الفكرة ذاتها يفيد التذكرة، لأن غفلة الإنسان وشهواته لا تنفك تحجبه عن الحقيقة حينا بعد حين، وحينما لا يتذكر الإنسان يغفل، فتهجم عليه حجب الشهوات لتحجب عقله، فهو بحاجة إلى التذكرة باستمرار.

إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والإنسان لا يكتفي بصلاة واحدة في اليوم والليلة، وإنما يجب أن يصلي خمس مرات في اليوم ليمحو آثار الشهوات، و ليرصد الشهوات الطارئة، ويطهر قلبه من آثارها.. وهكذا يستمر المرء يحارب بالصلاة حتى يختتم عمله وسلوكه بخير.

وكلما ذكرنا القرآن بالله سبحانه وبرسالاته، والصراع الأبدي بين الحق والباطل، والرساليين والجاهليين، كلما ضغطت علينا الظروف باتجاه تناسي ذلك الصراع، وجرتنا نحو الغفلة عما يجري في أنفسنا وفي الساحة الاجتماعية من صراع بين الكفر والإيمان، ويكرر الذكر الحكيم قصص المرسلين للتذكرة بهذا الأمر.

أما الهدف الخاص من تكرار القصص القرآنية فهو تبيان الفارق بين النور الإلهي الهابط من عند الله باسم الرسالة، وبين الثقافة الأرضية الموغلة في وحل الشهوات والأهواء. وبين هاتين الثقافتين فرق كبير جدا، وقد حدد القرآن الكريم هذا الفرق عبر التمييز بين من يحمل هذا النور الإلهي، وبين من يتأثر بالثقافة الأرضية، فبينما تجد الشعراء في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون مالا يفعلون، تجد الأنبياء على نقيض مما يفعله الشعراء، يتحملون مسؤوليتهم، ويتصدون للصراع.

وفي هذه السورة يتابع السياق تأكيد وإيضاح الهدف ذاته، ليبين لنا أن رسل الله على حق، ولكن يؤكد ذلك بعد صمود النبي أمام الإغراءات المادية، والضغوط المختلفة، لذلك نجد سليمان عليه السلام يصمد أمام الإغراءات المادية والسلطوية للملك، فلا يعتدي ولا يتجاوز حتى على حدود النملة و حقوقها، ومن ناحية أخرى نجد أن صالحا عليه السلام الذي أرسل إلى ثمود يقاوم ضغط التهديد، فيتآمرون على قتله، وهو منهم، وقوانين بلدهم لا تسمح لهم بذلك بأي شكل من الأشكال، فيخططون من أجل القضاء عليه عليه السلام بطريقة معينة، وهي أن تختار كل قبيلة من القبائل التسع المتواجدة في مدينة حجر - الواقعة بين الشامات والحجاز - رجلا منها فيقتلونه ثم ينكرون قتله، فيضيع دمه بين القبائل.. وهكذا أرادوا أن يشترك جميع أبناء البلد في دمه، وبذلك يتخلصون من وطأة القوانين التي تمنع قتله.

وفي تلك الليلة التي قررت فيها ثمود قتل نبيهم، أمر الله صالحا عليه السلام بالرحيل عن

المدينة، ولما رحل عنها جاء ثمود العذاب الشديد فدمرهم تدميرا، وتشبه قصة المؤامرة هذه قصة تآمر كفار مكة على قتل النبي ﷺ ليلة هجرته، ومبيت علي عليه السلام على فراشه، والتي باءت بالفشل بسبب هجرة النبي عن مكة.

إن هذه القصة هي قصة صراع وتحد، وهاتين الصفتين من سمات الرسالة الإلهية، ولهذا فإن الرسل يتحدون، ويقاومون الضغوط، و يتعرضون للأزمات، فهم يسعون من أجل تغيير الأوضاع باجتثاث الفساد من جذوره، ومن هنا نعلم أنه لا يمكن أن يكون الرسل ممن ينعزلون عن الأعمال الجهادية، ويتركون التحدي والمواجهة والتصدي.

بينات من الآيات:

[٤٥] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ إن الله سبحانه يبعث للناس أنبياء، يختارهم من بينهم، لكي يحدثوهم بلغتهم، ولتكون الحجة عليهم أبلغ، ولكي لا يقولوا: لو كان النبي من قومنا لآمنا به.

ولقد كانت رسالة صالح كرسالة سائر الأنبياء جاءت لتقول لهم: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ وفي هذه الآية تلميح إلى وجود الصراع بين طائفتين ممن أرسل إليهم الرسول، فإذا هم فريقان: فريق يؤمن برسالة صالح ونبوته، وفريق يكذبه ويكفر به، و الصراع في بدايته حوار وجدل ينتهي إلى مواجهة عنيفة، وعادة ما يركز القرآن على موضوع المواجهة، ونجده أكثر وضوحا في سورة القصص.

[٤٦] ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ لقد قال لهم صالح عليه السلام: إن مخالفتكم وتحديكم للرسالة دلالة على أنكم تستعجلون العقاب والعذاب قبل الثواب، وأنكم لا تعطون لأنفسكم فرصة لتجربة الرسالة، قبل رفضها وإنكارها.

وللإنسان فرصة لتجربة بعض الحوادث الجديدة، ولكن من الحوادث ما لا تستطيع تجربته، ولا بد أن تنتفع بعقلك، ولكن التجارب تختلف فقد تكون سلبية أو إيجابية.

شخص في غابة، يقال له: تعال اركب معنا، وإلا أكلتك الذئاب، فيقول: فلنجرب إن كان ما تقولونه صحيحا. هل تنفعه التجربة؟!.

كلا.. وكذلك الذين لا يؤمنون بالرسالة حتى يروا العذاب بأعينهم، و حينئذ لا ينفع إيمانهم شيئا. لماذا لم يجربوا الإيمان بعض الوقت إن كانوا يؤمنون بالتجربة؟!.

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إنكم أخطأتم وانحرفتم، فالأولى لكم أن تستغفروا ربكم عسى الله أن يغفر لكم ويرحمكم، فلا تصابون بآثار ذنوبكم، وآثار الذنوب قد لا ترى، فلو ذهبت إلى مستعمرة المجذومين، وأردت الدخول فيها، لوجدت من يقول لك: لا تدخل، ولو دخلت لانتقل إليك مكروب المرض، والحديث الشريف يقول: «**فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ**»[1].

فتصر على الدخول لتجرب ذلك، وبعد خروجك تجد نفسك سليما لم تصب بشيء، فتظن أنه لم يصبك الجذام، ولكن بعد فترة من الزمن تجد آثار الإصابة بالمرض بادية على جسمك، ويؤكد الطبيب ذلك، ولكنك قد لا تصدق أن المرض قد أصابك عند دخولك دار المجذومين، بل تزعم أن المرض أصابك بسبب آخر، والطبيب يعرف أن جرثومة الجذام تنتقل عن طريق العدوى من الشخص المصاب، ولكن لم يظهر أثرها إلا بعد تكاثرها.

والذنوب تشبه الجراثيم في آثارها فهي تؤثر في جسم الإنسان وروحه و عقله ومجتمعه ولكن بعد فترة من الوقت. ومشكلة الإنسان هي نسيانه للذنب الذي يرتكبه، ولا يدري أنه يخلف آثارا قد لا تمحى، فالرجل الذي زار دار المجذومين كان بوسعه أن يتقي المرض قبل ظهوره لو ذهب إلى الطبيب ليتحصن ضد المرض، وهذا يعني في لغة الدين الاستغفار، وحين يرتكب الإنسان ذنبا فعليه الإسراع إلى الاستغفار كي يتخلص من آثاره.

[٤٧] ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ ولعلهم تطيروا به لأنه كان ينذرهم عاقبة ذنوبهم، ومن طبيعة الإنسان الاستيناس إلى من يضحكه، ويزعم له أن درب الحياة مفروش بالورود، أما من ينذره و يذكره بعيوبه، ويبكيه، فهو ينفر منه و يتشاءم به.

قال أبو جعفر عليه السلام: «**اتَّبِعْ مَنْ يُبْكِيكَ وَهُوَ لَكَ نَاصِحٌ وَلَا تَتَّبِعْ مَنْ يُضْحِكُكَ وَهُوَ لَكَ غَاش..**»[2].

﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ فقال لهم صالح: إن الشؤم الذي لحق بكم هو بسبب ذنوبكم وخطيئاتكم، فأنتم مذنبون، والعذاب ينزل عليكم من عند الله، وهو الذي بعثني نذيرا.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ وإنكم لا تعلمون بأن الله حين أنعم عليكم بهذه النعم أراد أن يفتنكم بها، فالنعم ليست سوى ابتلاء، وهي ليست دائمة، ولا هي دائما خير، ولعل نعمة يكون وراءها شر مستطير.

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٢، ص٤٩.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٢، ص١٠٢.

[٤٨] و يبدو أن جماعة من قوم صالح كانت قد آمنت به، وكاد الإيمان ينتشر بين عامة الناس لولا منع أشرار ثمود عن ذلك.

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ وكان في المدينة تسعة شيوخ عشائر تسعى للإفساد ولا تصلح؟ إن النظام القبلي إطار للمجتمع البشري وهو بذاته ليس مضرا، إنما القوانين و الأعراف التي فيه - والتي تعكس روحه ووجهته - هي التي قد تفسد و تفسد، ويبدو أن قبائل ثمود قد بلغت هذا الدرك الأسفل، وإذا فسد النظام بدأت نهاية المدينة، فإذا تحول النظام الذي أنشئ من أجل حماية الحقوق، و منع الترهل، والمحافظة على القيم الحضارية إلى أداة للفساد، والاعتداء، والتجاوز فإن نهايته قد اقتربت.

[٤٩] ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ ﴾ حين تآمروا على قتله أقسموا بالله على ذلك، ولعل هذا يدل على أنهم كانوا يستخدمون الدين -أيضا- وسيلة لعدوانهم وفسادهم.

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي قرروا أن يذهبوا إلى داره ليلا فيقتلوه وأهله.

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ وبعد ذلك يقولون لقبيلته: إنهم لم يروا قتله، ويؤكدون أنهم صادقون فيما يقولون.

[٥٠] ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وحينما كانوا يخططون، كان الله سبحانه قد دبر لهم أمرا. إن الله يعلم ما في نفس الإنسان، بينما هو لا يعلم ما في نفسه سبحانه، ولا بد أن يخضع لربه شاء أم أبى.

[٥١] ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾ فقد أنهوا ولم يستفيدوا من الفرصة.

﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لماذا دمرهم الله وقومهم؟ لماذا استحق قومهم العذاب؟

والجواب: لأنهم رضوا بالكفر وسكتوا، ولم يتحدوا أو يثوروا ضده، فحينما جاء العذاب شملهم أجمعين، وكما قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥] فإذا جاء العذاب فإنه لا يشمل الكفار فقط وإنما من سكتوا عنهم، ورضوا بأعمالهم أيضا، وهكذا أيضا حال من يسكت -اليوم- عن ظلم الطغاة والمفسدين.

[٥٢] ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ كان أهل الجزيرة عادة ما يذهبون

إلى الشام، وفي طريقهم إليها يمرون (بمدائن صالح) وهي حجر، فيشاهدون بيوتهم الخاوية المنحوتة من الصخر، وإلى الآن آثارها شاخصة للعيان، ويقال: أنهم نحتوا بيوتهم من الجبال، ثم نزلوا إلى الصحراء، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم، وأهلكهم بما ظلموا، وقد جاء في الروايات الشريفة:

- «الظُّلْمُ فِي الدُّنْيا بَوارٌ وَفِي الْآخِرَةِ دَمَارٌ»[1].

- «مَنْ جَارَ أَهْلَكَهُ جَوْرُهُ»[2].

- «مَنْ عَمِلَ بِالْجَوْرِ عَجَّلَ اللهُ هُلْكَهُ»[3].

- «حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ لا يُعْصَى فِي دَارٍ إِلَّا أَضْحَاهَا لِلشَّمْسِ حَتَّى تُطَهِّرَهَا»[4].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إن في آثارهم شاهدا ودليلا للذين يعتبرون بالمثلات.

وهناك مفارقة بين قصة ثمود حيث أهلكهم الله وقصة بلقيس حيث أسلمت مع سليمان لرب العالمين، وهما حضارتان عربيتان، خضعت إحداهما للرسالة بالرغم من أن حاملها لم يكن يدعي أنه عربي وهو سليمان عليه السلام بينما تحدت الأخرى رسالات الله مع أن حاملها كان أخا لهم، شريفا بينهم، بل و حاولت اغتياله لولا نصر الله له.

[٥٣] ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أنقذ الله المؤمنين الذين يخشون ربهم من العذاب الذي أصاب ثمود، فكما أن الكفر والظلم سبب الدمار، فإن الإيمان والتقوى سبب للنجاة.

---

(١) غرر الحكم: حكمة: ١٠٤٣٧.

(٢) مستدرك الوسائل: ج١٢، ص٩٩.

(٣) غرر الحكم: الحكمة: ٨٠٤٧.

(٤) الكافي: ج٢ ص٢٧٢.

ءالله خير أم ما يشركون

﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم
تبصرون (٥٤) أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم
تجهلون (٥٥) ۞ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا
آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون (٥٦) فأنجيناه وأهله
إلا امرأته قدرناها من الغابرين (٥٧) وأمطرنا عليهم مطرا فساء
مطر المنذرين (٥٨) قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ءالله
خير أما يشركون (٥٩) أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم
من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن
تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون (٦٠) أمن جعل الأرض
قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين
حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون (٦١) أمن يجيب المضطر
إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله
قليلا ما تذكرون (٦٢) أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر
ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما
يشركون (٦٣) أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء
والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين (٦٤) ﴾.

هدى من الآيات:

كان قوم لوط من الذين أصيبوا بالشذوذ والإسراف في الشهوة الجنسية حتى تمردوا

على أوامر الله بسببها، وعندما نقرأ حياة الأنبياء مع أقوامهم تجد أن أساس الفساد لدى الجميع واحد وهو: ضعف الإيمان بالله، و بالتالي الشرك به، مهما اختلفت مظاهر الفساد من قوم لآخر، والشرك بالله هو السبب المباشر لضعف الإنسان، وانبهاره بزينة الحياة الدنيا إلى حد الانهيار أمامها، بينما كان عليه أن يسخرها لنفسه، ولقد أسجد الله الملائكة له تعبيرا عن خضوع الطبيعة، لأن الملائكة الموكلة بها سجدت له، ومن جانب آخر علم الله آدم الأسماء، وأعطاه العلم والعقل وسيلة لتسخير الحياة في صالحه.

ولكن الإنسان كثيراً ما يختار اتباع الهوى، والخضوع لطبائعه بسبب وساوس إبليس، ولا شك إن الذي يعجز عن السيطرة على نفسه، و إخضاع طبائعه لعقله وللعلم الذي أعطاه الله إياه، سوف لن يسخر الطبيعة من حوله، لأنه حينذاك سيصير جزءا منها، ولن يسخر البشر الطبيعة في صالحه إلا بالإرادة، والسيطرة على النفس، والنظريات التي تغفل جانب الإرادة في الإنسان هي التي تؤمن بالحتميات، وتسلب الثقة من الإنسان بنفسه أمام ضغط الظروف المختلفة.

فالنظرية الماركسية تقول: إن الاقتصاد يدير الحياة، وإن وسائل الإنتاج هي التي تصوغ المجتمع، وتسير التأريخ، وبدلا من أن يشرف الإنسان على الاقتصاد، يشرف الاقتصاد عليه، والنظرية الاجتماعية تقول: إن الوسط الاجتماعي، والمرحلة الاجتماعية التأريخية هي التي تصوغ حياة الإنسان، وإن التوافق الاجتماعي هو أقوى إحساس يدفع البشر نحو اتجاه معين. وهناك نظرية متطرفة في علم النفس وضعها فرويد ترى أن الإنسان يخضع لشهواته الجنسية مباشرة، أو عن ردود أفعال وإحباطات معينة ناتجة منها، وكل هذه النظريات قد تكون صحيحة، ولكن حينما يفقد البشر الإرادة والإيمان بالله، أما المؤمن فهو فوق كل هذه الحتميات عندما يسيطر على نفسه. فلا الشهوة الجنسية، ولا المجتمع الفاسد، ولا الاقتصاد، أو السياسة، أو أي عامل مادي آخر يستطيع إخضاعه والسيطرة عليه، وهذا هو جوهر الإسلام الذي تؤكده الآيات الأخيرة من هذا الدرس.

وأيها أفضل للإنسان أن يعبد الحجر ومثيله الإنسان، والطبيعة التي كلف بتسخيرها، أو أن يعبد الله؟ فعبادة الله هي التي تتوافق مع فطرة الإنسان وعقله، لأن الإيمان مغروس في البشر منذ عالم الذر، يوم قال الله لبني آدم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] إلا إن العوامل المختلفة وأهمها نفس الإنسان هي التي تحجب البشر عن هذه الحقيقة، ولا سبيل له للمحافظة على عهده مع الله إلا بترويض النفس والسيطرة عليها.

لا يجد الإنسان -مهما بلغ به الإلحاد ملجأ غير الله في لحظات الخطر، فلو ركب سفينة،

وهبت في عرض البحر عليها عاصفة فحطمتها، فإلى من سيلتجيء؟ هل سيلجأ إلى صنمه؟! أو إلى رئيسه الذي كان يخضع له من دون الله؟! لن يفعل شيئا من ذلك، وإنها سيشعر أن هناك قوة أعظم من كل ذلك، هي التي تحدد مصيره، وبيدها إنقاذه من الهلاك، وحينئذ يتجه نحوها يطلب الخلاص، وذلك هو الله رب العالمين.

وبالرغم من أنه لم يعبد الله بل عبد الطاغوت والشيطان الذي يتمثل في النفس الأمارة أو المجتمع المنحرف، إلا إن الله سبحانه يستجيب له، و ينقذه من ورطته، وعندما يتخلص من الهلكة ويصل إلى شاطئ الأمان يعود إلى انحرافه وخطئه، كما فعل بنو إسرائيل حين قالوا لموسى عليه السلام بعدما خرجوا من البحر: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وهذه من طبيعة الإنسان في كل مكان وزمان.

إن قلب الإنسان يتصل بالله في الشدة وأوقات التذكرة، ولكنه في وقت الغفلة والنسيان والضغوط ينسى الله وعهده معه -وهذه هي بداية الانحراف- فهو يبدأ من نسيان الله، وقدرته، وهيمنته، ولولا ذلك لما استعبدتنا الأهواء، ولما وجهتنا الأنظمة الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والعسكرية، وغيرها.

إن الضمير الحي النقي هو الذي يبقى متوكلا على ربه باستمرار، متصلا به في كل ظرف.

بينات من الآيات:

[٥٤] من أعظم ما يسعى إليه الأنبياء إنقاذ المجتمعات من الانحراف، و توجيهها نحو الخير، ولا يثنيهم عن ذلك شيء مهما كان موقف المجتمع، ذلك أنهم يجدون أنفسهم مسؤولين عن تبليغ رسالتهم التي يتحملون من أجلها كل أذى، وهكذا كان نبي الله لوط: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ كيف تعملون المنكر وأنتم تعلمون قبحه، وأنه ضلال وانحراف؟!.

[٥٥] ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ خلافا للسنة الطبيعية ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إذ تتركون علمكم النابع من العقل والوجدان إلى الجهل الذي هو كل سلوك لا يهتدي بنور العلم، ولا يتوافق مع فطرة الإنسان.

[٥٦] و الذي يحمل رسالة التغيير يجب أن يتحمل من أجل تبليغها كل مكروه، لا أن يكون مستعدا لتحملها مادامت لا تسبب له أذى، فإذا أوذي في الله نكص على عقبيه، ونبي الله لوط كان يعرف مسبقا موقف قومه السلبي إلا إنه لم يتوان في تحمل مسؤوليته.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ حينما يتبع الإنسان الجهل، ويعارض العلم، فإنه يعارض العالم أيضا، و الذي يعارض فكر إنسان ما وعلمه فإنه يعارضه شخصيا في غالب الأحيان، وهكذا نجد الصراع بين لوط وقومه يتحول من اختلاف حول موضوع معين -هو اللواط إلى صراع عنيف يسعى فيه المجتمع إلى طرد نبي الله، وكثيرا ما يلجأ الإنسان إلى منطق القوة مع الأطراف المخالفة له حينما يفشل في معركة المنطق. فعندما أراد مجتمع لوط طرد المؤمنين قالوا: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ إن آل لوط يريدون حياة طاهرة، لذلك يجب إخراجهم وطردهم. أوليست الطهارة تقف مع عقل الإنسان وفطرته؟! بلى؛ ولكن أصحاب منطق القوة لا يهمهم مع من يكون الحق، لأنهم لا يريدون الحق، بل يريدون ما يتفق مع شهواتهم ولو كان الباطل بعينه.

وهذا هو منطق الطواغيت حين يخرجون المؤمنين، ويعذبونهم، ويقتلونهم بحجة أنهم يسعون لإقامة حكم الله، وكأن ذلك جريمة، إنهم يريدون منا أن تنحصر صلاتنا بين جدران المساجد، أما أن تنعكس على واقعنا السياسي والاجتماعي فلا.

[٥٧] وعندما أجمع القوم على إخراج لوط ومن معه أنجاهم الله، و بقيت زوجته معهم لأنها منحرفة، فنزل عليهم العذاب الذي شملها أيضا ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

[٥٨] ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ تستخدم كلمة المطر في القرآن للسوء فقط، أما الغيث الذي يأتي من السماء فأسماؤه مختلفة، وما أنزل الله مطر السوء عليهم دون سابق إنذار، بل أنذرهم فكذبوا بالنذر، ولم ينتفعوا بها.

[٥٩] ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لقد انتهى أولئك فأحمد الله أنك هديت للإسلام. والذي يحمد الله على الهداية وكونه مع المؤمنين لا بد أن يتصل بعباده الذين اختارهم ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ وهؤلاء الذين اختارهم الله من عباده علينا المسارعة للانتماء إليهم إذا كنا نعبد الله حقا، فالخاضع لله هو الذي يسلم لأوليائه الذين اصطفاهم على خلقه، والتسليم الحقيقي هو الخضوع لهم في القول والعمل من جهة، و التبري من أعدائهم في كل شيء من جهة ثانية، ولهذا جاء في زيارة الأئمة عليهم السلام: «أُشْهِدُ الله وأُشْهِدُكُمْ أَنِّي مُؤْمِنٌ بِكُمْ وبِمَا آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرٌ بِعَدُوِّكُمْ وبِمَا كَفَرْتُمْ بِهِ مُسْتَبْصِرٌ بِشَأْنِكُمْ وبِضَلَالَةِ مَنْ خَالَفَكُمْ مُوَالٍ لَكُمْ ولِأَوْلِيَائِكُمْ مُبْغِضٌ لِأَعْدَائِكُمْ ومُعَادٍ لَهُمْ سِلْمٌ لِمَنْ سَالَمَكُمْ وحَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَكُمْ»[1].

---

(١) البلد الأمين: ص٣٠٠.

﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ وهنا تبدأ سلسلة من الأسئلة التوجيهية: أيهما أفضل الله أما يشركون؟ وهدف هذه الأسئلة أن يحرك الإنسان عقله متفكرا، ليبتعد عن الشرك عن وعي وقناعة نابعة من عقله لو أجاب على هذه التساؤلات إجابة سليمة.

[٦٠] في إطار بيان القرآن لعبر الأمم السابقة، يوقفنا السياق لحظات ليذكرنا بربنا العزيز عبر آياته في الحياة:

أولاً: لأن معرفة الله تساهم في معرفة الحقائق الأخرى، وبالذات في حقل الرسالة.

ثانياً: لأن كتاب الخليقة مدونة صامتة لكتاب الله الناطق المنزل على الرسل.

ولعل القرآن يشير في كل سياق إلى الآية الطبيعية التي توحي بنفس الأسماء التي تبينها آيات الله ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ يَعۡدِلُونَ﴾.

إن الإجابة على هذه التساؤلات كلها تهدينا إلى الله، إلا إن البشر كثيرا ما يميلون عن الحق لأنه يخالف أهواءهم.

[٦١] ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا﴾ بسبب الجاذبية التي لولاها لكنا نسبح في هذا الفضاء الرحب ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرًا﴾ يستفيد منها الإنسان، ويقوم بها حضارته ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ من شأنها حفظ توازن الأرض ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ﴾ حيث تنحدر المياه من الجبال وهي عذب فرات، وعلى مقربة منها البحر وهو ملح أجاج، والتراب لا يحجز الماء عن التسرب، ولكن وصول الماء إلى التراب يتحول إلى طين يتحصن أما الماء فيمنعه من التسرب ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ بعد أن يتعرض القرآن إلى هذه الآيات، ويعرضها على عقل الإنسان، يتساءل: هل يوجد مع الله إله آخر؟! والإجابة بالطبع: كلا؛ فلو كان ثمة إله آخر لوجدنا أثره في هذه الحياة في الأرض أو في السماء أو في البحار أو... فإذا أشركنا دون دليل فنحن إذن جهلاء.

[٦٢] ثم يطرح القرآن سؤالا آخر يخاطب به وجدان الإنسان، إذ يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ من هو الذي تلتجئ إليه فيدفع عنك الخطر حين يحيط بك أيها الإنسان؟! ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾.

ألف: يجعلكم خلفاء الأرض بإعطائكم السلطة السياسية.

بـاء: يجعل بعضكم يخلف بعضا.

وسواء هذا أو ذاك، فإن الذي يهلك ملوكا ويستخلف آخرين، ويهلك قوما ويأتي بغيرهم، هل يعقل أن يكون له شريك؟! فلماذا لا تفكرون بعقولكم لتتوجهوا إلى الله؟.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ في كثير من الأحيان يعتقد الإنسان أن السلطة الحقيقية بيد بعض الناس فيعبدهم، و لكنه لا يدري أنه لو شاء الله لتهاوى جميع الذين يجلسون على العرش، و لتساقطوا كأوراق الخريف، إن هذه الحقيقة قريبة من الإنسان، ولو عاد إلى فطرته، وفتش في داخله لوجدها، ولكنه ينساها بسبب الشهوات، و المشاكل، والضغوط.

وحين يوجهنا الله إلى الإيمان به، فذلك لكي نستطيع السيطرة على أنفسنا؟ وتسخير الطبيعة من حولنا، وإلا سخرنا كل شيء، وكما في الحديث القدسي: «... يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا أَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ تَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ»[1].

أما حين يخرج البشر من حصن الله، و يبتعد عنه فإن كل ما في الطبيعة يستعبده ويسخره، كالذي صار شهيدا للحمار فلم يصل عليه رسول الله مع سائر الشهداء.

[٦٣] ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ الهداية من عند الله، فلو لم يلهمه صناعة البوصلة لضل طريقه، ولو لم يرسل له الأنبياء لما عرف الحق والباطل.

وقد يتصور الإنسان أن البوصلة هي التي تهديه حينما يتيه في عرض البحر، أو أن عقله هو الذي يهديه، ولكن من الذي يلهمه معرفة الطريق حينما لا تنفعه البوصلة ولا يهديه العقل؟! ثم إذا كانت الهداية عن طريق العقل فهو من عند الله تعالى.

والمخترعون الكبار يقولون: أن الاختراعات نوع من الإلهام، حتى إن بعضهم يتوصل إلى الاكتشافات في حال النوم، وكذلك يقول كبار الشعراء: إن الشعر شيء من الإلهام في غالب الأوقات.

﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ لقد جعل الله الأنبياء رعاة للأغنام إلا بعضهم، والحكمة في ذلك كما جاء في حديث لينتظروا الغيث، والإنسان يعلم أن الذي يأتي بالسحاب عبر الرياح إنما هو الله إذا: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

مع كل هذه الآيات الواضحة إلا إن بعضا من الناس يتصورون أن النفع و الضر يأتي به الحكام، فيخضعون لهم، ويشركونهم مع الله.

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٠، ص٣٧٦.

[٦٤] ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ من الذي يأتي بالخلق من العدم، ثم يعيده يوم البعث؟!.

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ من أين نحصل على الرزق؟ هل من عند أنفسنا؟! كلا.. إنه من عند الله، الذي بيده أرزاق العباد، ومن الناس من ينظر إلى السبب المباشر للرزق، ويغفل عن ملايين العوامل التي يدبرها الرب من وراء ذلك السبب المباشر.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ البعض يدعون أن لله شركاء كالطواغيت ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن من الحكام ليشتري طائرة خاصة فيها مستشفى للقلب، وطاقم خاص من الأطباء خوفا من أن يموت، فهل هذا إله حتى نشتري مرضاته بمعصية الله؟!.

تعالى الله عما يشركون

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ[1] لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣)﴾.

هدى من الآيات:

في هذه الآيات نجد خلاصة للعبر التي استوحيناها من قصص السورة، وهي التذكرة بالحق، ففي القسم الأول يذكرنا الله بنفسه، بينما يذكرنا في القسم الآخر بيوم القيامة، ولكي نعرف الحقائق لا يكفي أن نثير عقولنا فقط، بل يجب أيضا استثارة الوجدان، لأن العقل يحجب أحيانا بالغفلة والعناد، أما حين يهتز الوجدان فإن الحجب تتساقط عنه، ويعود الإنسان إلى ربه، من هنا كان علينا عند تلاوة آيات الذكر الحكيم أن نتفاعل معها نفسيا لكي نصل إلى معرفة الله حقا، وفي ذات الوقت يجب أن نعرض كل ذلك على العقل، إذ من الخطأ تصديق أي فكرة دون عرضها على العقل، ذلك أن الذي يستسلم دون العودة للعقل قد يستسلم للباطل، وهكذا يجب على الإنسان أن يستثير عقله ووجدانه عند كل قضية حتى يتعرف على الحق أو

(١) ردف: دنا.

الباطل فيها، والمقصود بالوجدان تلك الجوانب الخيرة من نفس الإنسان فهو -مثلا- يحب من أحسن إليه، ويخشى من هو عظيم، والذي بيده نفعه وضره، فعندما نعبد الله فلأننا نجد فيه مصدر العظمة والقوة، وأنه حسبنا الذي نأنس إليه، وفي الوقت ذاته يجب أن نخشاه لأنه شديد العقاب و الانتقام، ويمكن أن يصل إلينا من عنده عذاب عظيم.

وإن طبيعة الإنسان إبعاد الحقائق الكبرى عن ذهنه، فكما أنه لا يستطيع التركيز بنظره ولفترة طويلة في قرص الشمس كذلك لا يستطيع أن يركز فكره وعقله في الحقائق الكبرى كالتفكير في الله أو الموت أو القيامة، وعندما يجلس الإنسان في مجالس الذكر فيستمع إلى هذه الحقائق أو يقرأ كتابا يذكره بها فإنه يخشع قلبه، ويتذكر القيامة، ولكنه لا يبقى على هذا الحال طويلا، فبعد فترة تجده وقد أنساه الشيطان تلك الحقائق وعاد إلى الغفلة مرة أخرى، وهكذا يبقى الإنسان في جدل مع نفسه، فتارة يتذكر الحقيقة وتارة يبتعد عنها، ولذلك سمي مكان الصلاة محرابا (بينما المحراب هو موقع الحرب) لأنه يبقى في صراع باطن مع الأهواء و الشيطان، ويشبه في مسيره إلى معرفة الله الطائرة حين تحلق في السماء، فبمجرد أن تعطب المحركات تهبط وربما تتحطم، وهكذا يسقط البشر في وحل الرذيلة والشقاء حين يغفل عن الله والحق.

والآخرة باعتبارها مستقبلا وليس حاضرا، ولكونها مرحلة أخرى من حياة الإنسان، فإن علمه يصطدم بجدارها، كما يجتمع الماء خلف السد، و هكذا يتجمع علم البشر خلف هذا الجدار فيدرك الواحد الآخر، ولأن أمامه حواجز من الشك والجحود والكفر بالآخرة فإن علمه يتوقف عند حدود الدنيا، أما المؤمن فإن علمه ينفذ من الدنيا إلى الآخرة، ولعلنا نفهم حواجز الوصول إلى الحقائق من خلال التدبر في نهايات الآيات:

- يقول تعالى في الآية (٦٠): ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

- وفي الآية (٦١): ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

- وفي الآية (٦٢): ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

- وفي الآية (٦٤): ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

- وفي الآية (٦٦): ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ﴾.

فأولى مصيباتهم أنهم يعدلون بغيره، وتختلط عندهم مقاييس الحق والباطل، بالرغم من أن أعظم صفات العقل تمييز الحق عن الباطل، والخير عن الشر، والنفع عن الضرر، أما المصيبة الثانية: الجهل و عدم العلم، وجهلهم آت من غفلتهم، وعدم تذكرهم ذلك، والطريق إلى

العلم هو التذكر، والإنسان إما يحصل عليه عن طريق الآخرين وإما عن طريق التجارب، والذي لا يتذكر لا يستطيع الحصول على العلم لا من الآخرين ولا عبر التجارب، ثم يطالبنا القرآن الكريم بالبرهان، ومن لا يملك البرهان لا يتمكن أن يقول شيئا، وأخيرا يبين لنا أن علمهم قد توقف عند حدود الدنيا.

بينات من الآيات:

[٦٥] لو عاد الإنسانُ إلى وجدانه لرفض الخضوع للأنداد. ومن أبرز ما يخشاه البشر المستقبل وما يخبئه له من مفاجئات قد لا تكون سارة.

ومن الذي يعلم الغيب إلا الله، وهل يقدر أحد أن يتحكم في المستقبل إلا الله؟!.

إن علم الغيب ليس كل ما يعلم الإنسان عن المستقبل، بل معرفة الأشياء بصورة ذاتية دون اعلام الوحي لمن أرتضى، -وأيضاً لا يشمل ما تنبئ عن الأسباب الظاهرة التي يدرسها العلم-، فقد ذكر الإمام أمير المؤمنين أنباء عن المستقبل، فزعم البعض أنه علم الغيب، فأوضح لهم الفارق بين علم الغيب ومعرفة حوادث المستقبل، فقال متحدثا لرجل كلبي زعم ذلك: **«يَا أَخَا كَلْب لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْب وإنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْم وإنّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ ومَا عَدَّدَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ إِنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ويُنَزِّلُ الْغَيْثَ ويَعْلَمُ ما فِي الأَرْحام وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَا ذا تَكْسِبُ غَداً وما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ الآيَةَ فَيَعْلَمُ اللهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ وسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ وشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ ومَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطَباً أَوْ فِي الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا الله ومَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ فَعَلَّمَنِيهِ ودَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي وتَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي»**[1].

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ إن هؤلاء لا يشعرون حتى مجرد شعور متى يكون بعثهم.

ومن استعرض فصول من التدبر الإلهي في الآيات السابقة والتي هي آيات الخلق والوجدانية والهيمنة المطلقة لله تعالى، فهنا انتقال إلى ما يكشف زيف الآلهة حيث أنها لا تحيط علماً بما في الكون فكيف يكون لها في التدبر نصيباً.

[٦٦] ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ لقد توقف علمهم وانتهى عند حدود الدنيا لنظرتهم المادية، وكفرهم بالله تعالى، والمؤمن يسأل الله أن يتجاوز علمه وإدراكه الدنيا إلى

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٢٨.

الآخرة، ففي الدعاء: «وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا»(١).

ولا ريب أن الذي يفكر في الدنيا فقط فإن مصيبته ستكون في دينه. والسبب من اقتصار علمهم على الدنيا هو شكهم في الآخرة ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾، بل أكثر من ذلك: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ فلا يذكرون الآخرة، كالأعمى الذي لا يعرف النور ولا اللون. ويبدو أن في السياق تدرجا في مراحل جهلهم، توقف علمهم فلا يعرفون أي شيء من شؤون الآخرة، وهذا وحده سبب كاف لنبذهم من قبل أتباعهم، ثم بين ربنا أنهم أساسا يشكون في الآخرة، فكيف ينفعون أحدا في دار يشكون في وجودها، ثم بين أنهم فقدوا ما كان يمكنهم معرفة الآخرة به وهو عين البصيرة، ومن لا يملك جهازا للإدراك فهل يتصدى إدراكه لشيء.

[٦٧] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ إنهم يشكون في البعث والجزاء لجهلهم بالله وقدرته، وأيضا لجهلهم بالخلق.

[٦٨] ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ والأساطير هي الخرافات التي تشيع داخل المجتمع، ولا واقع لها. ولو أن هؤلاء تعمقوا قليلا لعرفوا أن الحكمة تقف وراء كل شيء في هذه الحياة، ثم لعرفوا من خلال ذلك حقيقة المسؤولية، وأن هناك دارا للجزاء هي الآخرة، ولعل هذه الآية تفسر الآية السابقة وتبين أن سبب عمه هؤلاء الأنداد، ومن يشرك بهم من الجاهلين هو استبعادهم البعث وزعمهم بأنه لا يكون، لأنهم لا يعرفون كيف يمكن أن يكون، وهل يجوز أن تنكر وجود شيء لمجرد أنك لا تعرف كيف وجد، و ما هي عوامل وجوده أو تفاصيله؟!.

[٦٩] [﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ وماذا نشاهد حينما نسير في الأرض وننظر إلى التاريخ؟.

إننا نشاهد آثار تلك الحضارات التي بادت بسبب انحراف أهلها، ورفضهم لرسالات الله، وبالتالي نشاهد آثار الجزاء الدنيوي الذي يدلنا على الجزاء في الآخرة، وانتظار السنين التي تشملهم. إن الأنبياء عليهم السلام قد أنذروا أقوامهم وحاق بهم، فكذلك في الآخرة.

[٧٠] و أنت الذي تؤمن بالآخرة لا تحزن عندما ترى العاقبة التي حلت بالمجرمين، ولا تفكر فيهم: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ولا تغتم على المجرمين الذين ينتظرهم نفس المصير.

ولا تخش مكرهم، لأن مكرهم عند الله، وفي إطار سلطانه سبحانه، و أن الذين سبقوهم

(١) بحار الأنوار: ج٩٥، ص٤١٢، في أعمال ليلة نصف من شعبان.

كانوا أمكر منهم، فلم يغنهم مكرهم شيئا حين قضى الله بتدميرهم؛ ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ويوحي التعبير القرآني بأن علينا ألا نأبه أبدا بمكرهم، بل حتى لا يؤثر خوف مكرهم في خططنا الرامية لتبليغ الرسالة.

[٧١] ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ دليل هؤلاء على عدم وجود الآخرة أنها قد تأخرت، ولكن هل إن عدم وقوع شيء بالأمس أو اليوم دليل على أنه لن يقع في المستقبل؟.

[٧٢] ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ إنكم تستبعدون يوم الجزاء، ولكن ما يدريكم ربما يحل بكم قريبا، وكلمة ﴿رَدِفَ﴾ تدل على القرب، إذ ليس ثمة مسافة بين المترادفين على دابة واحدة، ثم إن العذاب الأشد هو عذاب القيامة، ومن الغباء استعجال مثل هذا العذاب!.

[٧٣] وتسأل: لماذا يؤخر الله العذاب؟.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ إن التأخير تفضل من الله، ولكن الناس لا يستفيدون من هذه الفرصة بالتوبة، بل لا يزالون يزدادون كفرا على كفر حتى يحل بهم الأجل، وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)﴾.

هدى من الآيات:

في إطار بيان خصائص الوحي الإلهي، وبعد التذكرة بالله الذي أوحى بالكتاب، وأنه لا يعلم الغيب في الخليقة سواه.. يذكرنا ربنا بأنه سبحانه يعلم ما تكن صدورهم من هواجس ونيات، وما يعلنون من قول، وأنه ما يغيب عن علمهم من حوادث وظواهر مكتوبة في كتاب مبين (اللوح المحفوظ، والقرآن، وعلم الأنبياء والأئمة منه).

وإن القرآن يبين لبني إسرائيل الحق في ما هم فيه يختلفون، مما يشهد بأنه قد نزل من لدن حكيم عليم.

والقرآن يحمل الهدى والرحمة إلى من يؤمن به وهذا شاهد صدقه، و يقضي بحكمه العادل وهو العزيز العليم.

ويأمر الرسول والمؤمنين بالتوكل عليه، وعدم التردد لأنهم على صراط حق.

وواضح، وألا يأبهوا بأولئك الجاحدين الذين لم يجعل الله لهم نورا. أو يمكن أن تسمع

الموتى أو تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين؟! كذلك أعمى القلب لا يهتدي عن ضلالته، إنما يهتدي من يسلم وجهه لله.

وإذا ذكرنا الرب تعالى بيوم الجزاء، فلا بد أن يذكرنا بالرسالة التي هي إعداد للإنسان ليوم الحساب. وهكذا لا نجد جانبا من العقائد الإسلامية في القرآن مبتورا عن سائر الجوانب، لأنها كلها تدور حول محور واحد هو الإيمان بالله، فبعمق الإيمان وبسعته، وبالتالي بمعرفة الله عبر أسمائه الحسنى، نتعرف على سائر أبعاد العقائد الإسلامية.

لماذا جاءت الرسالة الإلهية؟.

والجواب: جاءت الرسالة لتحقيق الأهداف التالية:

١ - رفع الاختلاف. إذ وفر الله سبحانه فرصة الوحدة بين الناس عبر الرسالة، أما إذا لم يروا الاستفادة منها لرفع الخلاف بينهم فهذا شأنهم.

٢ - الهداية. ولها مرحلتان:

ألف: حل الألغاز الفلسفية. وأدنى قدر من الهداية أن يعرف الإنسان الإجابة على الأسئلة الحائرة في ذهنه: من الذي خلق هذا الكون، ولماذا؟ ومن خلقني، ولماذا؟ ومن أين أتيت، وإلى أين أصير؟، حتى لا يتيه البشر، ويقول كما قال الشاعر إيليا أبو ماضي في قصيدته المعروفة الطلاسم:

جئتُ لا أعلم من أين ولكني أتيتُ
ولقد أبصرتُ قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئتُ هذا أو أبيت
كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقي؟.
لستُ أدري[1].

ومن دون بعث الرسالة تبقى كثير من الألغاز حائرة، يدور الإنسان حول الكون ولكنه لا يصل إلى مفتاح حل الألغاز، وفي النهاية يمسك القلم ليكتب[2] (الإنسان ذلك المجهول) فاللغز يبقى كما هو من دون الإيمان بالله، و تظل المعادلة ناقصة.

والذين يتحولون من الكفر إلى الإيمان يشبهون التائه في الصحراء، و الذي يأتيه شخص

(١) ديوان الجداول: ص١٣٩.

(٢) كاتبه العالم الأمريكي: ألكسيس كارل حائز على جائزة نوبل للعلوم.

ما ليرشده على الطريق فيجد السكون والاطمئنان، و تذهب عنه الحيرة، إن هذا هو الهدى.

بـاء: مرحلة التكامل. وهي مرحلة العروج بروح الإنسان في مدارج كمالات المعرفة، حتى يبلغ به الأمر أن يقول كما قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: «لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِيناً»[1]. أو إلى أن يقول له الله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢].

من مظاهر رحمة الله بالإنسان أن ربنا وفر فرصة الكمال في الهداية للبشر.

٣- الرحمة. وهي هدف بعث الرسل، ونعني بها أنه ينبغي للناس أن يعيشوا في هذه الدنيا مطمئنين، ومرحومين لا محرومين، وقد وفر الله فرصة الرحمة للإنسان إن شاء استفاد منها.

بينات من الآيات:

[٧٤] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ من نوايا وتوجيهات وأفكار، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وهو أولى بالنسبة لمن يحيط بالسر، ولعل الآية تشير إلى مخالفة قولهم لنياتهم.

[٧٥] ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ما من شيء يغيب عن أنظارنا أو علمنا وخيالنا إلا ويحيط به كتاب ربنا، وهو القرآن الذي أودعه الله مفاتيح الغيب واسمه الأعظم، و معارف الحياة، ولكنه خص بعلم تأويله الراسخين في العلم فقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، وكان الرسول وأئمة الهدى من أهل بيته هم الذين اصطفاهم وارتضاهم الرب سبحانه، وبذلك جاءت نصوص عديدة[2].

[٧٦] ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وقد ابتلي أتباع المسيح عليه السلام بالاختلاف العظيم في الدين، ولقد جاء القران بياناً للحق في حقول تلك الاختلافات، فكم كان حظهم عاثراً حيث كفروا به واستمروا في صراعاتهم العقيمة.

[٧٧] كما إن القرآن يحمل في طياته الهدى والبصيرة ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ والهدى هنا بمعنيين:

الأول: هو المرحلة التي تعني مجرد فك اللغز.

الثاني: هو أن تصل إلى ما تريد الوصول إليه من المعارف المعنوية، ومن بناء الذات

---

(١) بحار الأنوار: ج٨٤ ص٣٠٤.

(٢) عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: «هِيَ لَنَا خَاصَّةً إِيَّانَا عَنَى»، راجع بحار الأنوار: ج٢٧، ص٢٠٠.

والعروج بالروح إلى سماء الإيمان.

فالقرآن سعادة وفلاح -ولكن بشرط أن يفهمه المؤمنون- برنامج عمل، و منهاج حياة، يحصلون من خلال تطبيقهم له على السعادة والرحمة.

[٧٨] ويقضي الرب سبحانه وتعالى بين الحق والباطل في مواقف شتى:

ألف: عند الميزان في يوم الحساب، حيث آخر الموازين القسط لذلك اليوم وهم لا يظلمون.

بـاء: عندما يختلف الناس، ويريدون فض خلافاتهم على أساس عادل يجدون القرآن الكريم الذي هو القضاء الفصل، كما يجدون الإمام العادل الذي يفقه الكتاب ويحكم به وقد استحفظ كتاب ربه.

جيم: عندما يقضي بهلاك الباطل ونصرة الحق. ولا راد لقضائه سبحانه.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

[٧٩] وما دام الأمر كذلك، فلا تخش أحدا: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ مادام الحق ينصر، وأنت على الحق، فتوكل على الله، وثق بالنصر و الغلبة.

[٨٠] ولا تأبه بجحود المعاندين، وما عليك إلا البلاغ ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ يستحيل أن يسمع الإنسان ميتا النداء، ليس لإشكال فيه بل لأن الميت فاقد لجهاز الاستقبال، وقد قال الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي

أما الأصم الذي لا يسمع فإنه قد يفهمك من خلال حاسة البصر، عبر الإشارات وبعض حركات الفم، أما إذا أدبر فكيف يفهم ما تقول له؟!.

[٨١] وهؤلاء الذي لا يستقبلون كلامك -أيها المؤمن الرسالي- ينبغي أن لا يؤثروا عليك، فتصاب بردة فعل فتشكك في سلامة نهجك ورسالتك، لأن الإشكال الحقيقي فيهم، حيث إنهم لا يملكون جهاز استقبال ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ الذي أسلم نفسه للحق، وهيأها لاستقبال الهداية يمكن أن يستمع إليك، لا الذين عميت بصائرهم، وماتت قلوبهم.

وكل آتوه داخرين

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ (٨٥) أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٨٦) وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ (٨٨) مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ (٨٩) وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (٩١) وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ (٩٣)﴾.

هدى من الآيات:

ربما تلخص لنا الآية الأخيرة من هذا الدرس مفهوم السورة كلها، فهي من جهة تعرفنا بالله سبحانه، وبأسمائه الحسنى، مما يثير فينا الإحساس بالحمد، فتجري على ألسنتنا كلمة الحمد

عفويا ودونها تكلف، ونحن لا نستطيع إلا ذم أنفسنا التي اختارت الشقاء، أما ربنا فإنه يستحق الحمد بكل تأكيد، فقد خلق الكون برحمته، وأجرى فيه سننه، كما أجرى في قلوبنا تيارا من العقل والعلم والإرادة لكي نستفيد مما في الحياة من سنن.

ولكن تبقى مشكلتنا نحن الذين لا نستفيد من تلك السنن، ولا من هذا التيار الخير، ولذلك فإن سنة إلهية أخرى سوف تقضي علينا وهي سنة الجزاء التي يؤكدها هذا الدرس.

وحينما يفسد الناس فلا يبقى فيهم من بركات الرسالات الإلهية شيء، فينتشر الفساد في الأرض، ولا يبقى إلا لكع ابن لكع، كما قال الرسول ﷺ[1]، آنئذ يحين موعد الساعة، وتقوم القيامة، والتي من علاماتها وأشراطها خروج دابة من الأرض تكلم الناس، الذين يحشرون يومها على صورة مجاميع، طيبين وخبيثين، فتشهد على الخبيثين بأنهم معرضون عن آيات الله كما يشهدون على أنفسهم، فيبدأ الحساب ثم الجزاء.

ويلاحظ أن القرآن يذكرنا بحكمة الله عندما يتعرض لذكر القيامة و يوم البعث، فما هي العلاقة بين ذكر الآخرة، والتذكرة بحكمة الله؟.

إننا عن طريق الإيمان بحكمة الله لما نراه من آثارها في كل أجزاء الكون، نؤمن بالآخرة، فما دام لكل شيء غاية ينتهي إليها، إذن فلا بد أن يكون خلق الإنسان لهدف ما، ولو فكرنا لوجدنا أنه البعث بعد الموت.

ثم يحدثنا ربنا عن بعض آثار الحكمة في الخلق، فلو نظرنا إلى الجبال لظننا أنها ساكنة لا تتحرك بينما هي تمر في حركتها كالسحاب، والذي يخلق عالما بهذه الدقة المتناهية، هل خلقه بعلم أم بجهل؟!.

بالطبع خلقه بعلم، فهو يعلم أيضا ما نعمله نحن البشر.

ثم تستعرض الآيات بعض مشاهد يوم القيامة، وتشير إلى جزاء المحسنين الذين يؤمنهم الله من فزع ذلك اليوم -الذي لا يستثني أحدا غيرهم- أما الكفار فإنهم يلقون على وجوههم في جهنم خالدين.

ويخبرهم الرسول ﷺ بأن الله أمره بأن يعبده وهو رب مكة الذي حرمها وله كل شيء، وأن يتلو القرآن (الذي كفاه هاديا) فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فعليها، وليس الرسول

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٢، ص٤٥٢: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ أَسْعَدَ النَّاسِ بِالدُّنْيَا لُكَعُ بْنُ لُكَعَ خَيْرُ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ مُؤْمِنٌ بَيْنَ كَرِيمَيْنِ» قال المجلسي ﷺ: أي مؤمن بين أبوين مؤمنين كريمين.

وكيلا عنه، إنما هو نذير، والحمد لله أبدا.

ويختم السورة بإنذارهم بالآيات التي سيريهم، ويبدو أنها آيات العذاب .

بينات من الآيات:

[٨٢] ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي انتهى أجلهم، وصار يوم الجزاء، ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ ولأنهم لم يؤمنوا تم القضاء عليهم قضاء مبرما، وهذا هو بيان المحكمة الإلهية الذي تقرؤه الدابة.

ولقد اختلف المفسرون في معنى الدابة على قولين:

الأول: إن الدابة التي تكلم الناس حيوان يختلف عن سائر الدواب، كأن يكون رأسها رأس فيل، وجسدها جسد وحيد القرن.

الثاني: إن الدابة إنسان، فكل ما يدب على الأرض يسمى دابة في اللغة، وكلامها مع الناس يؤكد هذا المعنى، إذ لا يتكلم من الدواب غير الإنسان، وقد أكد الله سبحانه في كتابه هذا المعنى في موضعين -آخرين- ، إذ قال عز من قائل: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

ونقل بعض المفسرين رواية مأثورة عن عمار بن ياسر رضي الله عنه: إن المراد بهذه الدابة هو الإمام علي عليه السلام [١]، الذي يخرجه الله حيا من بعد استشهاده، فيقرأ على الناس بيان انتهاء الدنيا، وبداية عهد الآخرة، وأن وعد الله حق، إلا إن أكثر الناس لا يؤمنون، إلا بعد فوات الأوان.

قال أبو بصير، قال أبو عبد الله عليه السلام: «**انْتَهَى رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَهُوَ نَائِمٌ فِي الْمَسْجِدِ قَدْ جَمَعَ رَمْلًا وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَيْهِ فَحَرَّكَهُ بِرِجْلِهِ، ثُمَّ قَالَ قُمْ يَا دَابَّةَ الله.**

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَا رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله أَيُسَمِّي بَعْضُنَا بَعْضاً بِهَذَا الِاسْمِ؟. فَقَالَ: لَا وَالله مَا هُوَ إِلَّا لَهُ خَاصَّةً وَهُوَ دَابَّةُ الْأَرْضِ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ صلى الله عليه وآله: يَا عَلِيُّ إِذَا

(١) راجع: بحار الأنوار: ج٣٩، ص٢٤٢، حديث: ٣٠.

كَانَ آخِرُ الزَّمَانِ أَخْرَجَكَ اللهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَمَعَكَ مِيسَمٌ تَسِمُ بِهِ أَعْدَاءَكَ»[1].

وعلى هذا فهذه الآية تشير إلى الرجعة، حيث تتضافر أحاديث آل البيت أن هناك قيامة صغرى قبل القيامة الكبرى، وفي ذلك اليوم يبعث بعض المجرمين وبعض الصالحين، وعلى هذا فالآية التالية تشير أيضا إلى هذا اليوم.

[٨٣] وإذا قامت القيامة الصغرى[2] حشر الله من كل أمة فوجا من مجرميها، يخرجهم إلى الدنيا قبل غيرهم، ليشهدوا على أنفسهم، و يشاهدوا جرائمهم، وتكذيبهم بآيات الله ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾.

[٨٤] و هناك تجري محاكمتهم: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الأخطاء التي يقع فيها البشر، هو تكذيبهم بالحقائق لأنهم لم يحيطوا علما بجوانبها المختلفة، كالذي لا يؤمن بوجود منطقة في العالم اسمها أمريكا اللاتينية، لأنه لم يعرف تفاصيل الوضع هناك، هذا هو حال الكفار الذين كذبوا بالآخرة لعدم إحاطتهم بجوانبها المختلفة، ومعنى الآية: أكذبتم بآياتي دون أن تحيطوا بها علما، أم كنتم تعملون عملا آخر غير التكذيب؟! كلا.. إنكم كنتم مشغولين بالتكذيب حتى صار شغلكم الشاغل، والآية بهذا المعنى تتشابه وقوله سبحانه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩].

[٨٥] وجرى قضاء الله سبحانه فيهم بالعذاب بسبب ظلمهم، ولم يحتجوا على ذلك لعدم وجود حجة بالغة لهم ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ إذ لا يجدون عذرا ولا منطقا يخلصهم من المسؤولية، لأن الله محيط بكل شيء، وله الحجة البالغة، حيث تشهد أيديهم وجوارحهم عليهم، وإذا كان الإنسان يستطيع المراوغة و التكذيب في محاكم الدنيا المعهودة فهو لا يستطيع ذلك في المحكمة الإلهية في الحشر الأصغر الذي يكون في الرجعة كما الحشر الأكبر الذي يكون في عالم الآخرة.

[٨٦] ومن احتجاجات الله عليهم أنه يقول لهم: هل كانت الآيات و الدلالات على الإيمان قليلة أو غامضة حتى كفرتم؟!.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ وكل ذلك من آثار حكمة الله التي تدلنا على الآخرة، وتبعث فينا الإيمان بها لو كنا نريد الإيمان، فلو كانت الحياة كلها ليلا أو العكس لاستحالت الحياة.

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٩، ص٢٤٣.

(٢) وهو غير الحشر العام يوم القيامة الذي فيه تقول الآية: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في اختلاف الليل والنهار، و ما يحملانه من تغيرات هائلة في الطبيعة، وتدبير تصريفهما بتلك الدقة المتناهية، إن في ذلك علامات تشهد على الحقيقة، إلا إن القلوب القاسية لا تستفيد منها شيئا.

[٨٧] و مع أن الآيات واضحة وتكفي دلالة للإنسان على الآخرة و البعث، إلا إن أكثر الناس يأتي إيمانهم متأخرا حين تقع القيامة، وهل ينفع ذلك الإيمان إذا ضيعنا فرصة العمل في الدنيا؟!.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ ويبقى المؤمنون مطمئنة قلوبهم، فلماذا يخافون وقد عملوا بمرضاة الله، واستعدوا لهذا اليوم؟! إنهم على العكس من ذلك ينتظرون ساعة الجزاء، ودخول الجنة، ولقاء الله ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾.

خاشعين، مطأطئين رؤوسهم

[٨٨] لقد بين الله لنا آية من واقع الليل والنهار تدلنا على حكمته، و الآن يضرب لنا من حركة الأرض آية على أنه خبير بما يعمله العباد.

وهذه من آيات القرآن الحكيم أنه يبين لنا حركة الأرض من قبل أن يكتشفها البشر، وضرب مثلا رائعا لها حين شبهها بحركة السحاب التي قد لا يحس بها البشر أيضا.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ في حركتها، ولكننا لا نشعر بذلك، ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فهو يؤدي وظيفته على أكمل وجه، وبلا أي خلل ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

[٨٩] الإتقان المتجلي في الخلق يدلنا على حكمة الصانع، وأن للإنسان هدفا يحاسب عليه، فإما ينتهي إلى الجنة أو إلى النار ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ المؤمنون الذين تكون مجمل أعمالهم حسنة يحسون بالاطمئنان يوم الفزع، وذلك بسبب طاعتهم لله -الذي تطمئن القلوب بذكره- وأول ما يخرج المؤمن من قبره يوم البعث يجد على يمينه وشماله ملكين يسلمان عليه، ويفرغان السكينة في روعه، كما إن الله يجعل للمؤمن نورا في جبهته من نور أعماله الخيرة، يضيء له في المحشر.

[٩٠] وفي المقابل نجد الكافر والمنافق يتخبطان في الظلمات فلا يبصران الطريق ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ وهذا المصير ليس بظلم من الله -حاشاه- بل هو نتيجة

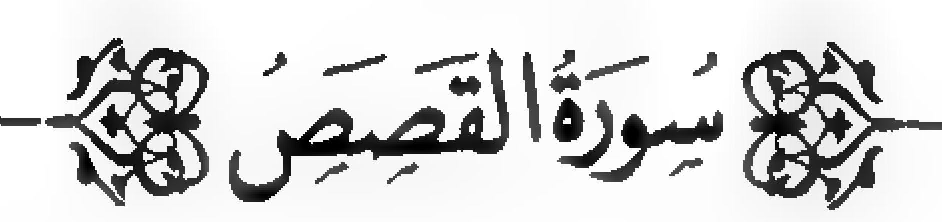
أعمالهم، لذلك يأتيهم النداء وهم يتجرعون العذاب مؤكدا على أنه جزاء عادل لأعمالهم ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

[٩١] ثم إن ربنا سبحانه ذكرهم بالنعمة التي كانوا يرفلون فيها، وأنه هو الذي أسبغها عليهم، وهي نعمة الأمن في الحرم المكي، فقال: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ وليس الأصنام التي وضعت فيها ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ فهو ليس رب البلدة وحدها، بل رب كل شيء ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ إن من علامات الرسول وآياته كما من أهم واجباته أنه يطبق القيم التي جاء بها على نفسه، ثم يأمر الناس بذلك.

[٩٢] كما إن من مسؤوليات الرسول تبليغ الرسالة إلى الناس على أكمل وجه، أما ماذا يكون بعدها أيهتدي الناس أو يتمادون في الضلالة فذلك ليس من شأنه ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

[٩٣] ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وحينما نحمده فإنما نعكس نظرتنا إلى الحياة بأنها قائمة على أساس الخير، أما الشر فهو من أنفسنا، ذلك أن الحمد تنزيه لله بأن خلقه كان حميداً وصالحاً.

﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ آيات الله تتجلى في كل شيء من حولنا وفي أنفسنا، بينما أكثر الناس لا يرونها، ولكن الله سيعرف الجاحدين آياته الخارقة بحيث يرونها، ولكن يومئذ تنتهي فرصتهم، وتحين ساعة الجزاء ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.



* مكية.
* عدد آياتها: ٨٨.
* ترتيبها النزولي: ٤٩.
* ترتيبها في المصحف: ٢٨.
* نزلت بعد سورة النمل.

فضل السورة

عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ قَرَأَ ﴿طسٓمٓ﴾ القَصَصِ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بِمُوسَى وَكَذَّبَ بِهِ، وَلَمْ يَبْقَ مَلَكٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ صَادِقاً، إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ».

(مجمع البيان: ج٧ ص٣٧٣)

الاسم:

جاءت كلمة (القصص) اسماً لهذه السورة التي احتوت على مجموعة متناثرة من القصص القصيرة ذات العبرة المشتركة.

الإطار العام

قصص القرآن؛ بصائر العلم وهدى الحقائق

القرآن ظاهره حكم وباطنه علم، هكذا وصفت الروايات كتاب ربنا العزيز، وإنك إذا نظرت إلى ظاهر سورة القصص استفدت الكثير من الأحكام، ولكنها في باطنها بصائر علمية تهدينا إلى مجموعة متكاملة من الحقائق، أبرزها؛ أن ظاهر الدنيا غير واقعها، فهي تغر بزبرجها، وتضر بمخبرها، تبدو لناظرها أن الناس قادرون عليها، إلا أن يد الغيب هي التي تحرك حوادثها بالنهاية. فعلينا -إذن- عدم الاطمئنان إليها، وعلى أصحاب الدعوة ألا يخافوا من أولي القوة والثروة من أهلها.

ولكي يهدينا السياق إلى هذه الحقيقة، يفصل القول في مسائل شتى تلتقي بالتالي وتلك الحقيقة:

ألف: يبين السياق بتفصيل كيف تمتد يد الغيب لنصرة أصحاب الرسالة، وكيف تُجري الألطاف الخفية لربنا المقتدر،الحوادثَ لتنتهي إلى الغاية المقدرة.

فرعون علا في الأرض، واستضعف طائفة من الناس. هذا ظاهر الحياة الدنيا، أما حقيقتها؛ فهي إرادة الله على وراثة المستضعفين، و التمكين لهم في الأرض، وأن يذيق فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون منهم، وبأيدي المستضعفين أنفسهم (الآيات: ١-٦).

لننظر كيف تتحقق هذه الإرادة العليا؟.

فرعون يقتل أولاد بني إسرائيل الذكور، ولكن الله يأمر أم موسى بوضع وليدها في التابوت، وقذفه في النيل (الآية: ٧).

يلتقط زبانية فرعون التابوت فيهمَّ بقتله، ولكن يد الغيب لا تدعه، إذ يوحي إلى زوجته

أن تمنعه من ذلك، لينمو عدوه ومادة حزنه في بيته.(الآيات: ٨-٩).

أم موسى تكاد تبوح بالسر جزعاً على وليدها، والله يربط على قلبها (الآيات:١٠-١١).

ثم يبحثون له عن مرضعة من غير بني إسرائيل، بيد أن الله يحرم عليه المراضع حتى يرده إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن (الآيات: ١٢-١٣).

ولما صار موسى بالغاً من الناحية الشرعية، وذلك بتكامله العضوي، وتكامل عقله آتاه الله النبوة، ولكن لم تكن النبوة بسبب قرابة بين الله وبين موسى، بل كان جزاءً لعمله وإحسانه (الآية: ١٤).

ثم يستعرض القرآن لقطة من الصراع بين الرساليين وأعدائهم وموقف موسى المناصر للمستضعف الذي كان رساليًّا من شيعته، وبعد الانتصار على عدوه يستغفر موسى ربه لكي لا يُصاب بغرور النصر، ثم يعاهد الله أن لا يستخدم القوة والعلم والحكمة التي وهبها الله له إلا من أجل الخير، وفي سبيل الله، والدفاع عن الحق، وقد تجسَّد هذا الأمر في اليوم التالي حيث استنصره الإسرائيلي على شخص آخر، إلا أنه تبين أنه لم يكن محقاً هذه المرة، بل أذاع سر تواجد موسى في المدينة مما أثار انتباه سلطات فرعون (الآيات: ١٥-١٩).

وعلى إثر ذلك يتآمر فرعون وملأه بقتله، فيبعث الله إليه رجلاً مؤمناً ليخبره بذلك، ويهيء له الرب أمر الهجرة إلى مدين، ويقدر هناك من يستقبله (الآيات: ٢٠-٢٨).

هكذا يعلم حملة رسالات الرب أن الله معهم، وأن هناك حوادث خفية تجري رغم الطغاة لمصلحة الرساليين، فلا يهنوا ولا يحزنوا.

بـاء: ولا تعني الألطاف الخفية لربنا أن ينام الرساليون على حرير الأماني، بل عليهم توخّي الحذر دوماً، وأن يتعالوا على الطغاة بذكاء أحدّ، وانضباط أشدّ، وتضحيات سخية. كيف؟.

يتلو علينا الرب في سورة القصص التي نستلهم منها دروساً عظيمة في أساليب الحركة الرسالية- قصة زوج فرعون، ومؤمن آل فرعون، اللذين كانا في الظاهر في السلطة، ويعملون في الباطن لصالح الرسالة، كما يبين كيف كانت الحركة حذرة، حيث أن أخت موسى تابعت بحذر شديد تابوت أخيها، (و لعلها لصغر سنها أو لأنها امرأة بكر، لم تكن تثير انتباه أحد).

أما النبي موسى عليه السلام فقد دخل المدينة على حين غفلة من أهلها عملاً بالتقاة، وأذاع

غوي من بني إسرائيل السر، وورط الحركة كلها، مما يحذرنا عن مثل ذلك، ثم يبين القرآن كيف كان النبي موسى عليه السلام مترقباً حين خروجه من المدينة، وكيف اختار مدين في خطة مرنة، لأنه كان يدعو الله أبداً ليهديه سواء السبيل.

ونقرأ في موضع آخر من السورة (الآية: ٥٤) ثناء القرآن على أهل الصبر والتقية، وهم البقية المؤمنة من أهل الكتاب، الذين اتسموا بصفات الصبر، ودرء السيئة بالحسنة، والإنفاق، والإعراض عن لغو الجاهلين وجدلياتهم. وهذه الصفات هي برامج أصحاب الرسالة في عصر التقية والعمل السري.

وفي سياق سورة القصص نقرأ عن أخلاقيات المهاجر في سبيل الله، وفي طليعتها؛ الإحسان إلى الناس، والاحتفاظ بقيم الرسالة بالرغم من مشاكل الهجرة، ووفاؤه بالحقوق (لقد قضى النبي موسى عليه السلام أبعد الأجلين) وتجذره في بلاد الهجرة عبر الزواج.

جيم: وسورة القصص تركز -فيما يبد- وعلى دور شخصية القائد وصفاته، فبعد بيان إرادة الله بإنقاذ المستضعفين، نقرأ مباشرة قصة ولادة النبي موسى عليه السلام ثم إن موسى عليه السلام تتجلى شخصيته في صورة قائد مغيب، ثم يحضر فجأة في ميدان الصراع لينصر واحداً من شيعته، ثم تلاحقه أجهزة النظام فيها، وتبقى صفة الإحسان أبرز صفاته قبل ابتعاثه رسولاً، ويؤكد السياق أنها وراء اصطفائه بالعلم والحكم (وكذلك نجزي المحسنين)، ونجد ذلك عندما يتَجاوز ذاته، وكل علاقته بالدنيا عندما يتلقى الوحي في الجانب الغربي عند الشجرة.

دال: وفي الجهة المعاكسة تبرز شخصيّة إمام الكفر (فرعون)، ورمز المال الطاغي (قارون)، ومثال البيروقراطية الفاسدة (هامان) (الآيات: ٢٩-٤٢).

هاء: وتذكر السورة بتواصل الوحي من النبي موسى عليه السلام إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله بهدف التذكرة، خصوصاً لقوم ما أنذروا من قبل،الرسالة هذه التي تشابه رسالة موسى عليه السلام حدث غيبي ينذر بها الرب القوم الضالين بين يدي عذاب شديد، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، لأنهم يطالبون دائماً بآيات جديدة، فيقولون مثلاً: لماذا لا يأتي النبي بآية شبيهة بما ظهرت على يد النبي موسى عليه السلام، مع أنهم كفروا بما أنزل على موسى عليه السلام (الآيات: ٤٣-٥٠).

وبعد أن يبين السياق صفات المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب، الذين يسارعون إلى الإيمان بالنبي (الآيات: ٥١-٥٦)، يبين شبهة أخرى يتشبث بها الجاحدون، إذ يقولون: نخشى أن نفقد -لو آمنا- السلام الذي ننعم به في الحرم (الآيات: ٥٧) ويردها الرب:

أولاً: إن الله هو الذي وفر هذا الأمن لهم.

ثانياً: إن البطر (الفرح بالأمن والغرور به) قد أهلك قروناً سالفة، ولكن الله لم يهلكهم حتى بعث إليهم رسولاً، يتلو عليهم آياته.

ثالثاً: إن متاع الدنيا في الآخرة قليل، وليسوا سواءً مع من متعه الله بالدنيا، وأحضره للحساب والعقاب يوم القيامة،ومن وعده الله وعداً حسناً فهو لاقيه (الآيات: ٥٨-٦١).

واو: في خواتيم سورة القصص يحذرنا الرب من الشرك به -أنداداً- أولي سلطة كانوا أو ذوي ثروة، ففي يوم الحساب يحضرهم جميعاً أئمة الغي ومن اتبعوهم (وأشركوا بالله بطاعتهم) فيتبرؤون من بعضهم،وتعمي عليهم الأنباء، ولا يتساءلون (الآيات: ٦٢-٦٦) ويذكرنا الرب بأن من يختار لنا القيادة هو الرب،تعالى الرب عما يشركون. وبعد أن يذكرنا ربنا بهيمنته على الخليقة، وأنه لو أعدم ضياء النهار، أو اسكن الليل فماذا كنا نعمل؟! (الآيات: ٦٧-٧٣).

بعد ذلك يعود السياق إلى موضوع الشرك، ولكن هذه المرة يعالج الشرك بقصة أصحاب الثروة، ابتداءً من قصة قارون الذي كان من قوم موسى عليه السلام فبغى عليهم، وانتهى به المطاف إلى الهلاك، فخسف الله به وبداره الأرض، وما قدر أحد على نصره (الآيات: ٧٤-٧٦).

وفي (الآيات: ٧٧-٨٨) يحدد الله الموقف السليم من السلطة والثروة، وهو موقف التسامي عليها،ذلك لأن الدار الآخرة يجعلها الله للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين.

ويرغبنا الذكر الحكيم في فعل الخيرات، لأن من جاء بالحسنة فله خير منها، بينما لا يُجزى الذين يعملون السيئات إلا ما كانوا يعملون.

ويبشر رسوله بالعودة إلى معاده، ويبين أن الكتاب رحمة من الرب، وعليه أن يجاهد به الكفار، ويواجه ضغوطهم.

يد اللّه فوق أيديهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا(١) يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٧) فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ (٨) وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾.

هدى من الآيات:

تدور آيات السورة كما يبدو من فاتحتها حول السلطات الفاسدة، وكيفية القضاء عليها، كما تبحث موضوع الحركات الرسالية التي عن طريقها يبدل الله -سبحانه وتعالى- حاكما ظالما بآخر عادل، وسلطة فاسدة بأخرى صالحة، ونستطيع أن نستوحي هذه الحقيقة وبصورة

(١) شيعاً: أي طوائف جمع شيعة وهي الطائفة التي تتبع مسلكاً خاصاً.

واضحة من الصراع الرسالي الذي قاده موسى عليه السلام مع بني إسرائيل ضد فرعون بجاهليته، و المستكبرين من ملئه.

وقبل كل شيء يبين القرآن لنا أن للصراع أداة أيديولوجية، وعوامل ثقافية، وأن أبرز أدوات الصراع الرسالي الجاهلي، وأوسع قنواته، و أفضل عوامله المؤثرة في انتصار جبهة الحق هو القرآن الحكيم، لذلك تبدأ هذه السورة بإشارة مبينة إلى القرآن ذاته، وبعدئذ يبين القرآن أسباب الصراع، ولماذا ينهض الرساليون ضد السلطات الجاهلية عبر التأريخ؟.

ويجيب القرآن بأن المسؤول الأول عن الصراع هو إمام الجاهلية، والنظام الذي يجسده، فلأن فرعون خرج عن سنة الله، وعلا في الأرض، وعاث فيها الفساد بشتى ألوانه وصوره، واستضعف طائفة من المجتمع فسلب حقوقهم، لذلك كله فإنه هو المسؤول عن الصراع وآثاره، وليست الحركة الرسالية. إذ لا يمكن للناس أن يسكتوا عن سلطة تضيع في ظلها حقوقهم وحرياتهم، والذي يزرع بذور الثورة بظلمه وفساده لا يحق له بعد ذلك أن يتهم الرساليين بالإرهاب والشغب، وهكذا تبدأ السورة بالإشارة إلى سبب الصراع وهو فرعون.

ثم يمضي السياق يبين سنتين في هذه الحياة: سنة يرعاها قضاء الله، و سنة يجريها قدره سبحانه، فقدر الله في الحياة أن السلطة التي تتمسك بأسباب القوة، والاستمرار المادية وهي الإرهاب والإغراء والتضليل فإنها تبقى وتستمر، ولكن فوق هذه السنة سنة وقانون أعلى وهو قضاء الله، فالعدالة الإلهية تأبى أن تستمر سلطة جائرة تعتمد على هذا الثالوث، فيأبى الله ذلك وهو العزيز الرحيم، الذي أجرى الأشياء بالحق، وخلق كل شيء لحكمة وهدف. يا ترى هل يدع الناس وهم عياله يسحقون تحت أقدام الجبابرة؟! كلا..

إن هناك إرادة عليا يعبر عنها القرآن الحكيم في هذه السورة بصورة واضحة حين يقول:
﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾
ولكن كيف تتم هذه الإرادة؟ فهل إرادة انتصار الحق على الباطل تتحقق بحركة كونية تنطلق من النجوم؟ أو بإشاعة مرض قاتل في صفوف المستكبرين؟.

ربما يتحقق ذلك عن هذا الطريق، ولكن الأكثر أن إرادة انتصار الحق على الباطل التي هي إرادة الله لا تتحقق من خلال العوامل الغيبية فقط، و إنما على أيدي المؤمنين أنفسهم، وقبلهم قيادتهم وأمامهم، لذلك نجد السياق القرآني فور ما يحدثنا عن إرادة الله العليا في الانتصار، يبين لنا أن هذه الإرادة لا تتحقق إلا بتربية قائد رسالي فيقول: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ ﴾.

حينما أراد ربنا إنقاذ بني إسرائيل من هيمنة فرعون خلق قائدا رساليا، و رعاه منذ

الطفولة. وتدرجت مراحل النصر بعد أن أمر الله أم موسى بأن اقذفيه في اليم، ليحمله الماء إلى ساحل قصر فرعون، فجعل الله تربيته هناك رغم إصرار فرعون على ذبح كل طفل ذكر، وهكذا تجري سنن الله إلى أن يقضي الله على فرعون ونظامه.

إن موسى عليه السلام تجلٍ كريم لإرادة الله، وكان مركز تحقق القضاء الإلهي في ذلك المجتمع، وإرادته لتحقيق العدالة الإلهية الغيبية، وتؤكد هذه السورة كما الكثير من سور القرآن على أن هذا القضاء يتحقق بأمرين: أحدهما عمل الناس، والآخر إرادة الله، فمن جهة نجد موسى يقبض زمام المبادرة ليتحول إلى إمام للثائرين ضد فرعون وجلاوزته، ويخوض الصراع ببني إسرائيل والمؤمنين من حوله، ومن جهة أخرى تحوطه العناية الإلهية وترعاه، ويمكن لنا القول بأن سنة القدر يجريها الله سبحانه وتعالى، بينما يرعى سنة القضاء، ولكنها قد تجري على أيدي الناس أنفسهم.

وهكذا جرى قضاء الله، بنصر موسى عليه السلام ومن اتبعه بإحسان.

بينات من الآيات:

ونجعلهم الوارثين

[١-٢] ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إن هذه المقطعات إشارة إلى القرآن، بل هي جوهره، وبتعبير أفضل هي المادة الأولية التي يتألف منها القرآن الحكيم، وتكتب بها كلماته، و هي تحمل في طياتها النور والهدى، وهي رموز وإشارات يعرفها أولياء الله، ولعلها مفاتيح علوم السورة.

[٣] وهذا الكتاب سوف يكون، أداة لنقل التجربة العظمى لكم أيها البشر، ولك أنت يا من تخوض صراع الحق ضد الباطل.

﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فالحياة قائمة على الحق، ويجري الحق على كل أجزائها، ولكن من الذي يستفيد من هذه القصص؟.

إنهم المؤمنون، فلو لم تكن استجابة للحق من قبل الناس، فإنهم لا يستفيدون من القرآن الكريم، حتى ولو قرؤوه ألف مرة، أو حفظوا آياته حروفا وكلمات.

إذن حتى تستفيد من القرآن يجب أن تؤمن وتسلم له، وما دام هذه القصص حقا فلا يجد لها انعكاسا إلا في قلوب المؤمنين الذين يملكون قابلية فهم الحق.

[٤] ثم يبدأ القرآن بالحديث عن فرعون رمز الفساد والباطل: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ لقد استعلى فرعون وسيطر على الناس، ولكن لم يستفد من السلطة في خير شعبه ولا نفسه، وفي آية قرآنية تأتي في آخر هذه السورة يقول ربنا: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

إن الذي يحب الرئاسة والسيطرة، ويتحول الحكم عنده من وسيلة إلى هدف، فإنه ينشر الفساد، وكم من الجرائم وقعت في التأريخ، ولا زالت على مذبح حب الرئاسة.

ومن طرائف التأريخ(١): أن الإمام موسى الكاظم عليه السلام دخل يوما على الرشيد، فأجله واحترمه بصورة أدهشت الجالسين حوله، ولما أراد الإمام أن يقوم من مجلسه، قام الرشيد وأقبل على الأمين والمأمون قال: يا محمد ويا إبراهيم! سيروا بين يدي عمكم، وسيدكم، وخذوا بركابه وسووا عليه ثيابه.

فاستغرب المأمون من أبيه هذا الصنيع، فسأله عن سبب هذا الاحترام والتقدير، فقال الرشيد: يا بني إنه صاحب الحق، فقال له المأمون: إذا كنت تعلم ذلك فرد عليه حقه، فنظر إليه والده وقال: الملك عقيم، والله لو نازعتني الذي أنا فيه لأخذت الذي فيه عيناك.

وهذه صورة من التأريخ عن الإنسان حينما يضحى الحكم عنده هدفا، فهو يتشبث به حتى لو خالف العقل والشرع في وسائله للوصول إليه، و فرق كبير بين الذي يريد الحق والآخر الذي يريد العلو والتسلط.

وفرعون كان يريد العلو، لذلك أفسد في الأرض، وأعظم إفساده التمييز الطائفي، حيث جعل فريقا من الناس متسلطا على الفريق الآخر، ويبدو أن هذه طريقة كل نظام فاسد وهو تقسيم الناس إلى فريقين، فريق يحكم وفريق يستضعف، وقد يكون هذا التقسيم على أساس طائفي، أو عنصري، أو حزبي أو غيرها، حيث تتعدد الصور ولا يختلف الجوهر، و هو صنع أداة للسلطة الفاسدة يتحكم بها الطاغوت على الناس.

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ إذا كانت الأمة متحدة، فإن الطاغوت لا يستطيع التسلط عليها، لذلك سعى فرعون لتفريق بني إسرائيل أحزابا، عملا بقاعدة (فرق تسد) التي هي أداة السلاطين في جرائمهم، إلا إن فرعون لم يكتف بالتفرقة وحدها، وإنما أضاف لها سياسة أخرى هي الإرهاب ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ وكان فرعون يذبح الأطفال الرضع الذين عادة ما تكون عواطف البشر مركزة فيهم. في هذا البرعم الصغير، وفي هذه البراءة النقية.

(١) بحار الأنوار: ج٤٨، ص١٢٩.

لكن الذي يريد السلطة، تتبلد مشاعره ويموت فيه الضمير.

﴿وَيَسْتَحْيِ نِسَآءَهُمْ﴾ أي يبقيهن أحياء للخدمة في البيوت ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ هذا هو الفساد والذي يلخصه القرآن في ثلاثة أمور:

١ – التفرقة، وبالتالي تحطيم الكيان الاجتماعي الموحد.

٢– القضاء على النفوس البريئة.

٣– استثمار الطاقات البشرية بطريقة غير مشروعة.

وهذه سنة القدر، أن يأتي فرعون، ويستخدم هذه الوسائل المنكرة في تدعيم نظامه وهي: إفساد المجتمع بعدم وحدته، والإخلال بالأمن، و تحطيم أسس الاقتصاد.

[٥] ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ ﴾:

أولاً: ﴿أَئِمَّةً﴾

أن يُشافى بسبب الطبيب مريض أمر معقول، أما أن يدعي بأنه سوف يجعل هذا المريض الذي يرتجف من مرضه أقوى رجل في العالم، فذلك أمر مستبعد، والقرآن يقول إن إرادة الله لا ترفع عن المستضعفين استضعافهم وحسب، بل تجعلهم أئمة وقادة للبشر، وهذا هو الهدف الأسمى لحركة التأريخ.

إنهم سوف يغنمون كل ما لدى المستكبرين من نعم، ورياش، وأمتعة.

ثانياً: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

[٦] وحينما يصل المستضعفون إلى السلطة فإنهم يتمكنون في الأرض، ويثبتون سلطتهم، وذلك حينما يقتلعون جذور الفساد، وينبذون المستكبرين في العراء كما فعل الله بفرعون وملئه.

ومن حقائق التأريخ: أن الأقباط الذين تحكموا في بني إسرائيل، ظلوا محكومين إلى يومنا هذا، ولم ترجع السلطة مرة أخرى إليهم أبدا.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ وسائر المستكبرين على مر العصور ﴿مِنْهُم﴾ أي من المستضعفين ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ حينما يصل المستضعفون إلى السلطة فسيذيقون المستكبرين العذاب العادل، وسيرون منهم كل ما كانوا يحذرونه.

إنا رادوه وجاعلوه من المرسلين

[٧] و لكن كيف يتم ذلك؟.

يتم عندما يوجد إمام وقائد رسالي، يتحمل المسؤولية، ويقود الناس في طريق التغيير الرسالي. لننظر كيف أنبت الله شجرة هذا القائد الكريم في أرض صالحة .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ لقد سبق الذكر بأن قضاء الله بغلبة المستضعفين، واندحار المستكبرين يتحقق غيبيا وبشريا. أما غيبيا: فإن الله لم يرسل رجلا من وزراء فرعون ليقوم بانقلاب عسكري، مع أنه ممكن عند الله، بل أرسل طفلا من بني إسرائيل، في ظروف كان فرعون يذبح الأبناء فيها. وكيف أرسله؟

أوحى الله إلى أمه أن تلقيه في اليم، ليتربى في قصر فرعون، وانتهى هذا الأمر بانتصار بني إسرائيل على فرعون بسببه، وأساساً كلمة (موسى) في اللغة العبرية تعني الماء والشجر فـ (مو): تعني الماء و(سي): تعني الشجر.

إن هذا الولد الذي لا يملك شيئا هو الذي يحطم سلطة الطاغوت.

وأما بشريا: فالله لم يرسل الملائكة، ولا الرياح لتقضي على فرعون، بل أرسل بشرا قائدا هو موسى عليه السلام.

[٨] وبالفعل استجابت أم موسى إلى وحي الله، كما وألقت بابنها في اليم الذي حمله إلى سواحل قصر فرعون.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ في المستقبل ﴿عَدُوًّا﴾ ينهض ضدهم ويقود المعارضة، وإنما يكون عدوا لهم لأنه يحمل قيم الحق التي تتناقض ونهجهم الباطل والمنحرف، ﴿وَحَزَنًا﴾ يسبب لهم القلق الشديد، وسوف يأخذهم الأسف على قرارهم بعدم ذبحه. وهكذا نجد الأمور تسير كما يشاء الله -بإرادته- لا حسب ما يريد الفراعنة، فهم التقطوا موسى ليكون لهم ولدا، بينما أراد الله أن يجعله عدوا، وأرادوه أنه يدخل السرور على فرعون الذي ربما كان يقلقه عقمه، فجعله الله حزنا ومصدرا للقلق بالنسبة إليهم.

ونجد لهذه الإرادة صورا هنا وهناك حينما نقلب صفحات التأريخ على الحقائق.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴾ الظلم خطأ لا تقتصر آثاره

على المحرومين وحسب، بل تطال الظالم نفسه.

[٩] فلقد أحضروا موسى إلى فرعون، فلما عرف أنه من بني إسرائيل -إذ كانت سيماه واضحة- قال: خذوه واقتلوه ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾ الحق يتجسد تارة في امرأة هي أم موسى عليه السلام وتارة أخرى في امرأة فرعون (آسية بنت مزاحم) حيث أصرت على فرعون ألا يقتله، و استجاب لها فعلا: ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ عندما يكبر ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ فقد كان فرعون عقيما، ليس له ولد.

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ ولا يحسون بقدر الله وقضائه في مستقبل هذا الطفل، الذي يريدونه ولدا لهم، هم يخططون لهدف، بينما يجعله الله إماما يزيل سلطانهم على يديه، وأيدي المؤمنين تحت قيادته.

فلن أكون ظهيرا للمجرمين

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ[1] مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

يذكرنا هذا الدرس بجانب مهم من سيرة الأنبياء عليهم السلام حيث الصراع المستمر بين الرسالة الإلهية وأتباعها من طرف، والجاهلية المادية و مؤيديها من طرف آخر، والذي تحسمه الإرادة الإلهية لصالح جبهة الحق، إلا إن ذلك لا يعني أن الغيب يحرك مراحل الصراع مباشرة،

---

(١) فوكزه. الوكز الدفع وقيل اللكم بجمع الكف.

بل إنه قد يمضي سننه عبر إرادة الإنسان ونشاطه، ومن هذا المنطلق يتعرض السياق في هذه الآيات لدور الإنسان، المرأة والرجل.

والدور الهام الذي قامت به أم موسى عليه السلام يؤكد دور المرآة في الصراع الرسالي الجاهلي، كأم، وكزوجة، وكشحنة عاطفية، وهـذه قضية أساسية وهامة.

فمن جهة نقرأ عما قامت به أم موسى في تأسيس هذا الصراع وانطلاقه، وما قامت به أخته من تتبع مصيره، ومن جهة أخرى تحدثنا الآيات عما قامت به زوجة فرعون من عمل حافظت به على حياة هذا القائد. إذ أشارت على زوجها بالإبقاء على موسى عليه السلام حيا، وبالرغم من اختلاف الأدوار، إلا إنها تلتقي في نقطة واحدة هي مساهمة المرأة في الصراع.

وهذه المساهمة لا تقتصر على الأدوار الجانبية، بل نجدها في صميم المسؤوليات الخطيرة، فأم موسى عليه السلام وإن كانت مؤمنة وملتزمة بالأمر الإلهي إلا إنها كأم كانت لها عواطف الأمومة، فكيف تقبل أن تلقي بولدها -الذي عملت المستحيل حتى لا تصل إليه يد السلطة- في اليم لتبتلعه أمواجه الغاضبة، خاصة وأن المرأة مهيأة نفسيا وجسديا للاهتمام برضيعها بعد الولادة، فكل اهتماماتها الفطرية وجوانب تفكيرها مركزة نحو ذلك الوليد!.

وفي البين يذكرنا الذكر بأحد العوامل الأساسية لانتصار الحركات الرسالية في الصراع، وهو عامل الكتمان والسرية في العمل الرسالي و الذي يبدو بعض الأحيان الأهم في العمل، فلو أن أم موسى أبدت عواطفها وباحت بسرها، لتسببت في القضاء على الحضارة التي أسسها وليدها المبارك، ولهذا قال الإمام الصادق عليه السلام: «**كِتْمَانُ سِرِّنَا جِهَادٌ فِي سَبِيلِ الله**»[1].

ثم تذكر الآيات بدور عامل آخر في الانتصار، وهو عامل البحث و التحقيق، وحسب التعبير الحديث التجسس، فالحركة الإسلامية وإن كانت حركة إلهية إلا إن عليها التسلح بكل العوامل المشروعة التي تقرب إليها النصر، كعامل التجسس لمعرفة خطط النظام الفاسد والواقع المحيط، ثم تستفيد من ذلك في تحركها، ومن هذا المنطلق أمرت أم موسى عليه السلام أخته أن تقص أثره، وتتعرف على مصيره، فمشت خلفه حتى رسا على مقربة من قصر فرعون، فالتقطه آل فرعون، واجتمعوا حوله يتشاورون، وهنا تدخل الغيب لإنقاذ موسى عليه السلام ولكن بعد أن هيأت أمه الظروف المناسبة، وبذلت قصارى جهدها، إذ استجابت لنداء الوحي، وصبرت على فراق وليدها، كما أرسلت أخته خلفه، فأعاده الله إليها، ولكن كيف؟.

لما حرم الله على موسى المراضع، وألقى محبته في قلبي فرعون و زوجه، وجعلهم

(١) بحار الأنوار: ج٤٤، ص٢٧٨.

يستجيبون لاقتراح أخته بأن تدلهم على مرضعة يقبلها هي أمه.

وفعلا تحركت أخته لتخبر أمها بالأمر، وجاءت أم موسى عليه السلام صابرة متجلدة، وملتزمة بكامل السرية، فارتضع موسى منها، وعاد إليها سالما كما وعد الله، والدرس الذي نستفيده من هذا الحدث هو: إن الرساليين لو صبروا والتزموا بالمنهج السليم، الذي يرسمه لهم الله عبر آياته ووحيه، وهدى عقولهم فإن الله سينصرهم كما وعد، ومن أصدق من الله قيلا؟!.

وفي آخر الدرس نجد صورة من الصراع بين المستضعفين و المستكبرين.

بينات من الآيات:

فرددناه إلى امه

[١٠] ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ أفرغته من كل اهتمام وانصب تفكيرها على مصير ولدها الصغير، وهكذا يكون الإنسان حينما يواجه مشكلة أو أمرا هاما في حياته، ويقال: فارغا أي مهموما وحزينا، وربما فسرت الآية: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح: ٧]، أي إذا حزنت وغممت، وهذا التفسير يتناسب وموضوع سورة الانشراح.

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي أعطيناها الصبر والمقدرة على كتمان السر، وذلك بجعل قلبها مستقراً متماسكاً ومطمئناً ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والقرآن يبين في هذا المقطع من الآية أهمية الكتمان في الانتصار، وكيف أنه شرط الإيمان. إذا لو أبدت أم موسى مشاعرها تجاه ولدها إذن لما كانت من المؤمنين فالإيمان بالله ووحيه والتوكل عليه وحسن الظن بتدبيره تعالى هو نتيجة (الربط)، وينتج عنها التصرف الحكيم بالكتمان. فالكتمان إشارة لاستقرار القلب على الإيمان بوحي الله وتدبيره. وروي عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: «اسْتَعِينُوا عَلَى أُمُورِكُمْ بِالْكِتْمَانِ فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ»(١).

[١١] وبعد أن ألقت أم موسى عليه السلام بوليدها لم تترك الأمر هكذا تنتظر وليدها حتى يعود إليها، بل أمرت أخته أن تلحق بالتابوت، ولكن بسرية تامة ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حتى لا تكون العلاقات بينهما وبينه واضحة، فلا يقبل منها اقتراحها بأن تدلهم على من يرضعه مثلا، لو عرفوا أنها أخته، وربما يقتلونه.

[١٢] وهكذا عملت أم موسى كل ما في وسعها، فكان ذلك تهيئة لتدخل الإرادة الإلهية

(١) بحار الأنوار: ج٧٤ ص١٥٣.

في الأمر، أما لو كانت تنتظر كل شيء، يأتي من عند الله، دون أن تقوم هي بدور معين، فلربما لم يرجع لها وليدها، لأن سنة الله في الحياة قائمة -في التغيير- على السعي من جهة الإنسان نفسه أولاً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١].

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ وكلمة: ﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ تدل على أن أخت موسى حاولت جهدها أن تخفي علاقتها به أمام الآخرين، فلم تقل أنه أخوها، بل ملكته فرعون بكلمة ﴿لَكُمْ﴾ كما نستفيد من الآية الشريفة أهمية المتابعة للأعمال والقرارات الرسالية حتى لا تموت في الأثناء، بل تظل يد الرساليين ترعاها. لحظة بلحظة إلى أن تصل إلى نهايتها.

إن موسى الذي حرم الله عليه المراضع ربما كان يموت جوعا وعطشا لو لم تتدارك أخته الأمر بالمتابعة، وعلى أحسن الأحوال يصبح مصيره مجهولا عندهم.

[١٣] في آية سابقة قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص:٧] وفي هذه الآية يقول: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ تطمئن، ويذهب عنها الخوف والوجل، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الآية الأولى تبين أن هناك وعدا من قبل الله حين ألهمها بالقذف في اليم، أما الثانية فهي تشير إلى تحقق هذا الوعد و هنا نستفيد أمرين:

١- صحيح أن الله يعد المؤمنين بالنصر ولكنه يطالبهم بالعمل لا أن يكون وعده لهم مدعاة للكسل، والتوقف عن العطاء والسعي، بل منطلقا للسعي الحثيث والجهاد.

إن أم موسى أعطت من جهدها المادي والمعنوي حتى تكون أهلا لوعد الله.

٢- حينما يعد الله بشيء ما يجب أن نطمئن إلى وعده، فهو تعالى لن يخلف وعده، ولماذا يخلف وعده وهو القوي العزيز، الحكيم القاهر؟! فلا يعجزه شيء، وهو الصادق، ومن أصدق من الله قيلا؟!.

لو كان الناس يعلمون بأن وعد الله حق، ويتحسسون بأمل الانتصار لما تسلط عليهم الطغاة أمثال فرعون، لكن مشكلتنا هو ضعف اعتقادنا بالله، فإذا بأحدنا يقول: وماذا أستطيع أن أعمل مقابل هذا الإرهاب، وأنا شخص واحد؟ بلى؛ الله يؤيدك ويسدد خطاك.

إن الثقة بنصر الله، والتوكل عليه هو وقود الحركة، والذي يفقده يفقد كل شيء.

وكذلك نجزي المحسنين

[١٤] لقد عاد موسى كما وعد الله إلى أمه، وترعرع في حجرها ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ صار بالغا من الناحية الشرعية بتكامله العضوي ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ تكامل عقله ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ حيث صار نبيا، وليس رسولا ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ليس هناك قرابة بين الله وموسى حين أعطاه النبوة، وإنما استحقها موسى بعمله وإحسانه وكل إنسان يعمل من أجل الآخرين يجازيه الله خيرا، وهذه الحقيقة نجدها في التأريخ وبالذات في تاريخ الأنبياء، بل وفي حياتنا اليومية أيضا، كما إن أفضل ما يتعبد به الإنسان ربه، ويستدر به رحمته هو الإحسان للناس.

وهذه الآية نجدها في أكثر من موضع من القرآن الحكيم، ففي سورة يوسف يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢]، ونحن يمكننا أن نجرب هذه الحقيقة: لنحسن إلى الناس، ثم لننظر كيف يعاملنا الله. إن الصدقة تزيد في العمر، وتدفع البلاء، وتزيد في المال حتى لو كانت الصدقة هي إماطة الأذى عن الطريق، أو مساعدة الأعمى والطفل على عبور الشارع، إذ ليس شرطا أن تكون الصدقة مالا.

إن أي خدمة يقوم بها الإنسان للآخرين يجد جزاءها سريعا فكيف إذا كرس حياته من أجل خير الناس وصلاحهم. إن الأنبياء لا يفكرون في مصالحهم الشخصية في الدنيا، وإنما يفكرون في خير الناس ومصلحة الرسالة التي يحملونها، ونقرأ في سيرة نبينا الأكرم محمد ﷺ أنه: «لَمَّا مَرِضَ رَسُولُ الله ﷺ وَعِنْدَهُ أَصْحَابُهُ، قَامَ إِلَيْهِ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فَقَالَ لَهُ: فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله مَنْ يُغَسِّلُكَ مِنَّا إِذَا كَانَ ذَلِكَ مِنْكَ؟. قَالَ ﷺ: ذَاكَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لِأَنَّهُ لَا يَهُمُّ بِعُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِي إِلَّا أَعَانَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ: فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله فَمَنْ يُصَلِّي عَلَيْكَ مِنَّا إِذَا كَانَ ذَلِكَ مِنْكَ؟. قَالَ ﷺ: مَهْ رَحِمَكَ اللهُ. ثُمَّ قَالَ ﷺ: لِعَلِيٍّ يَا بْنَ أَبِي طَالِبٍ إِذَا رَأَيْتَ رُوحِي قَدْ فَارَقَتْ جَسَدِي فَاغْسِلْنِي وَأَنْقِ غُسْلِي وَكَفِّنِّي فِي طِمْرَيَّ هَذَيْنِ أَوْ فِي بَيَاضِ مِصْرَ وَبُرْدٍ يَمَانٍ وَلَا تُغَالِ فِي كَفَنِي وَاحْمِلُونِي حَتَّى تَضَعُونِي عَلَى شَفِيرِ قَبْرِي فَأَوَّلُ مَنْ يُصَلِّي عَلَيَّ الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ ثُمَّ جَبْرَئِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ فِي جُنُودٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللهُ جَلَّ وَعَزَّ ثُمَّ الْحَافُّونَ بِالْعَرْشِ ثُمَّ سُكَّانُ أَهْلِ سَمَاءٍ فَسَمَاءٍ ثُمَّ جُلُّ أَهْلِ بَيْتِي وَنِسَائِي الْأَقْرَبُونَ فَالْأَقْرَبُونَ يُومُّونَ إِيمَاءً وَيُسَلِّمُونَ تَسْلِيماً لَا يُؤْذُونِّي بِصَوْتٍ نَادِبَةٍ وَلَا مُرِنَّةٍ.

ثُمَّ قَالَ ﷺ: يَا بِلَالُ هَلُمَّ عَلَيَّ بِالنَّاسِ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ مُتَعَصِّباً بِعِمَامَتِهِ مُتَوَكِّياً عَلَى قَوْسِهِ حَتَّى صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ ﷺ: مَعَاشِرَ أَصْحَابِي

أَيَّ نَبِيٍّ كُنْتُ لَكُمْ؟ أَلَمْ أُجَاهِدْ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، أَلَمْ تُكْسَرْ رَبَاعِيَتِي، أَلَمْ يُعَفَّرْ جَبِينِي، أَلَمْ تَسِلِ الدِّمَاءُ عَلَى حُرِّ وَجْهِي حَتَّى كَنَفَتْ لِحْيَتِي، أَلَمْ أُكَابِدِ الشِّدَّةَ وَالْجَهْدَ مَعَ جُهَّالِ قَوْمِي، أَلَمْ أَرْبِطْ حَجَرَ الْمَجَاعَةِ عَلَى بَطْنِي؟. قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، لَقَدْ كُنْتَ لله صَابِراً وَعَنْ مُنْكَرِ بَلَاءِ الله نَاهِياً فَجَزَاكَ اللهُ عَنَّا أَفْضَلَ الْجَزَاءِ. قَالَ ﷺ: **وَأَنْتُمْ فَجَزَاكُمُ اللهُ.**

ثُمَّ قَالَ ﷺ: **إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ حَكَمَ وَأَقْسَمَ أَنْ لَا يَجُوزَهُ ظُلْمُ ظَالِمٍ فَنَاشَدْتُكُمْ بِالله أَيُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ كَانَتْ لَهُ قِبَلَ مُحَمَّدٍ مَظْلِمَةٌ إِلَّا قَامَ فَلْيَقْتَصَّ مِنْهُ فَالْقِصَاصُ فِي دَارِ الدُّنْيَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْقِصَاصِ فِي دَارِ الْآخِرَةِ عَلَى رُءُوسِ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ.** فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْقَوْمِ يُقَالُ لَهُ سَوَادَةُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ لَهُ: فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله، إِنَّكَ لَمَّا أَقْبَلْتَ مِنَ الطَّائِفِ اسْتَقْبَلْتُكَ وَأَنْتَ عَلَى نَاقَتِكَ الْعَضْبَاءِ وَبِيَدِكَ الْقَضِيبُ الْمَمْشُوقُ فَرَفَعْتَ الْقَضِيبَ وَأَنْتَ تُرِيدُ الرَّاحِلَةَ فَأَصَابَ بَطْنِي فَلَا أَدْرِي عَمْداً أَوْ خَطَأً. فَقَالَ ﷺ: **مَعَاذَ الله أَنْ أَكُونَ تَعَمَّدْتُ** ثُمَّ قَالَ: **يَا بِلَالُ قُمْ إِلَى مَنْزِلِ فَاطِمَةَ فَأْتِنِي بِالْقَضِيبِ الْمَمْشُوقِ،** فَخَرَجَ بِلَالٌ وَهُوَ يُنَادِي فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ مَعَاشِرَ النَّاسِ مَنْ ذَا الَّذِي يُعْطِي الْقِصَاصَ مِنْ نَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَهَذَا مُحَمَّدٌ يُعْطِي الْقِصَاصَ مِنْ نَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَطَرَقَ بِلَالٌ الْبَابَ عَلَى فَاطِمَةَ عليها السلام وَهُوَ يَقُولُ: يَا فَاطِمَةُ قُومِي فَوَالِدُكِ يُرِيدُ الْقَضِيبَ الْمَمْشُوقَ.

فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ عليها السلام وَهِيَ تَقُولُ: **يَا بِلَالُ وَمَا يَصْنَعُ وَالِدِي بِالْقَضِيبِ وَلَيْسَ هَذَا يَوْمَ الْقَضِيبِ؟.** فَقَالَ بِلَالٌ: يَا فَاطِمَةُ أَمَا عَلِمْتِ أَنَّ وَالِدَكِ قَدْ صَعِدَ الْمِنْبَرَ وَهُوَ يُوَدِّعُ أَهْلَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا. فَصَاحَتْ فَاطِمَةُ عليها السلام وَقَالَتْ: **وَا غَمَّاهْ لِغَمِّكَ يَا أَبَتَاهْ مَنْ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ يَا حَبِيبَ الله وَحَبِيبَ الْقُلُوبِ،** ثُمَّ نَاوَلَتْ بِلَالًا الْقَضِيبَ فَخَرَجَ حَتَّى نَاوَلَهُ رَسُولَ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **أَيْنَ الشَّيْخُ؟.** فَقَالَ الشَّيْخُ: هَا أَنَا ذَا يَا رَسُولَ الله بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فَقَالَ: **تَعَالَ فَاقْتَصَّ مِنِّي حَتَّى تَرْضَى،** فَقَالَ الشَّيْخُ: فَاكْشِفْ لِي عَنْ بَطْنِكَ يَا رَسُولَ الله فَكَشَفَ ﷺ عَنْ بَطْنِهِ فَقَالَ الشَّيْخُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَضَعَ فَمِي عَلَى بَطْنِكَ فَأَذِنَ لَهُ، فَقَالَ: أَعُوذُ بِمَوْضِعِ الْقِصَاصِ مِنْ بَطْنِ رَسُولِ الله مِنَ النَّارِ يَوْمَ النَّارِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **يَا سَوَادَةَ بْنَ قَيْسٍ أَتَعْفُو أَمْ تَقْتَصُّ؟.** فَقَالَ: بَلْ أَعْفُو يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ ﷺ: **اللَّهُمَّ اعْفُ عَنْ سَوَادَةَ بْنِ قَيْسٍ كَمَا عَفَا عَنْ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ»**[1].

وهذه سنة الأنبياء عليهم السلام، كما يجب أن يكون هذا دين من يسير على خطهم في الحياة.

[١٥] و من علامات إحساس موسى عليه السلام أنه كان يبحث عن الخير، ولا يبالي بعدها بما يمكن أن يجره ذلك عليه من أذى إذا كان يرضي الله، لقد كان يبحث عن المحرومين حتى

(١) بحار الأنوار: ج٢١ ص٥٠٧.

ينتصر لهم.

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ والذي يحمل قضية رسالية حينما يدخل بلدا يسيطر عليه الطاغوت، إذا كان يريد القيام بعمل رسالي معين، يجب أن لا يكون ساذجا بل حذرا نبها، و يختار الوقت الأنسب الذي يعينه في إخفاء نفسه، وكتمان أمره، وربما كان دخول موسى للمدينة ليلا أو في أول الصبح، وربما كان في مناسبة انشغل بها أزلام النظام عن الوضع.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ بسبب ما قامت به الحركة الرسالية من أعمال سياسية وثقافية، وربما ميدانية في عملية الصراع بينها وبين فرعون حينذاك، استطاعت أن توجد في المجتمع تيارا مناهضا للسلطة، بل وأكثر من ذلك أن ترفع مستوى الصراع بين تيارها والتيار الآخر إلى حد المواجهة المباشرة، ومن أهم مسؤوليات وواجبات الحركة الرسالية حين ترقى بمستوى جماهيرها في الصراع أن تسيطر على الساحة حتى لا يكون للصراع مردود سلبي على خططها وتحركها.

ويبدو من الآية الكريمة: أن موسى عليه السلام منذ البداية كون الحركة الرسالية، فكان له حزب وشيعة، حيث استطاع أن يجمع شمل بني إسرائيل تحت لوائه، ويتصدى للنظام الطاغوتي.

وربما يكون معنى يقتتلان يتضاربان، ولكن ظاهر الأمر يدل على أن أحدهما يريد قتل الآخر.

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ وأمام هذه الاستغاثة وجد موسى نفسه مضطرا للدفاع عن الذي من شيعته. لهذا بادر لدفع ضرر القبطي؛ ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

الفرد الرسالي يريد الخير لحركته وشيعته، ولكن لا يعني ذلك أنه يريد الانتقام من الناس، وقد يصل الأمر أن يقوم الرساليون بحرب فدائية ولكن عن اضطرار وليس بهدف التخريب أو الإرهاب ذاته، بل لإزالة العوائق التي تعترض طريقهم.

لهذا قال موسى عليه السلام حينما وقع القبطي ميتا: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

يقصد بذلك العمل الذي دعا هذين (الإسرائيلي والقبطي) للاقتتال، وإذ ضربته فإنما للدفاع عن المظلوم والمستضعف، وقد قال بعض المفسرين: إن سبب الاقتتال هو محاولة القبطي

تسخير الإسرائيلي ليحتمل شيئا بلا أجر.

وعندما قتل موسى القبطي ولم يكن يريد قتله، بل ردعه قال: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

[١٦] لقد انتصر موسى على عدوه إلا إن ذلك لم يدعه للاغترار بهذا النصر، بل أراد أن يقتل الغرور الذي عادة ما يصيب المنتصرين، وذلك عبر الاستغفار، واتهام النفس بالتقصير، وربما لذلك أمر الله رسوله محمد ﷺ بالاستغفار بعد النصر. إذ قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣].

وهنا نجد نبي الله موسى عليه السلام يستغفر الله بعد انتصاره على عدو الله و عدوه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وجاء في التفاسير: أن موسى عليه السلام قد أخطأ فعلا بدخوله المدينة، حيث كان لا يزال في طور الاختفاء، لأن فرعون كان قد علم بأنه يخالفه، وقد اجتمع إليه شيعته من بني إسرائيل فهم بقتله، فلما دخل المدينة على حين غفلة كان ذلك خطأ منه استغفر الله منه، ومعنى المغفرة هنا أن يستر عليه الله سبحانه فدخول المدينة ثم حادثة القتل أدت إلى الانكشاف أمام فرعون قبل الأوان.

وقد روي مثل هذا التفسير عن الإمام الرضا عليه السلام [١]، ونستوحي من هذا التفسير مدى أهمية الكتمان في العمل الرسالي.

[١٧] ثم عاهد الله أن لا يستخدم القوة و العلم والحكمة التي وهبها إلا من أجل الخير وفي سبيل الله والدفاع عن المستضعفين ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ وكانت هذه الحادثة بالإضافة إلى مواقف أخرى سبقتها، أدت بموسى إلى الهجرة عن بلده، لتبدأ الحركة الرسالية مرحلة جديدة من الصراع والجهاد.

(١) عيون الأخبار: ج١ ص١٩٨.

رب نجني من القوم الظالمين

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ(١) قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ(٢) قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ(٣) وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾.

هدى من الآيات:

تحدثنا آيات هذا الدرس عن صفات القائد الرسالي الذي يقاوم الجاهلية المادية بالرسالة الإلهية، وموسى عليه السلام الذي قرر أن لا يكون ظهيرا للمجرمين، بل يكون إلى جانب الحق لم تكن حركته نابعة من عواطف مؤقتة، ولا من شهوات سلبية، أو ردود فعل مرتجلة تجاه الأحداث،

---

(١) يترقب: الترقب الانتظار.

(٢) تذودان. ذاد بمعنى منع وتذودان أي تمنعان أغنامهما عن الورود على الحوض.

(٣) يصدر الرعاء: من أصدر إذا رجع عن الماء ماشيته.

وإنما كان ينطلق من مبادئ ثابتة، ويتحرك عبر مسيرة واضحة المعالم، فهو يريد أن يحقق العدالة في المجتمع، بادئاً بنفسه أولاً.

فبعد أن قتل موسى عليه السلام القبطي، صار مطلوباً عند السلطة، فكان ينبغي أن يكون حذرا في مدينة تطالها سيطرة فرعون، وقد أشار القرآن لهذا الأمر في حديثه عن موسى عليه السلام وهو يدخل المدينة تارة ويخرج منها تارة أخرى، أو يمشي فيها فقال:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.
- ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.
- ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

وهكذا ينبغي للرسالي أن لا يأخذ الأمور بسذاجة عندما يدخل بلاد الطغاة لأداء مهمة ما. إن موسى دخل المدينة، وخرج منها، وعاش فيها حذرا، وبالتالي مستعدا ومخططا لتصرفاته في شتى الظروف والاحتمالات.

وبينما كان موسى يمشي في المدينة، وفي هذه الظروف الصعبة، فإذا بالذي استغاثه بالأمس يستصرخه اليوم، يريد منه أن يعينه على رجل قبطي آخر، لكنه هذه المرة تفجر غضبا على الاثنين، على الإسرائيلي باعتباره يورط الحركة الرسالية في صراعات غير مخطط لها، قد تنعكس سلبيا على خطط الحركة في التغيير، ويبدو أن الرجل كان ممن تثيره عداواته الشخصية، فتجره إلى مواقف مرتجلة هذا من جهة، ولكن ذلك لم يمنع موسى من نصرته فلقد هم بالبطش بالقبطي باعتباره ظالما من جهة أخرى.

إن خطأ الإسرائيلي الذي استحق عليه اللوم لا يكمن في استراتيجيته، فهو مظلوم يتعرض للإهانة، وربما للقتل ومن حقه الدفاع عن نفسه و كرامته، إنما يكمن خطؤه في أسلوبه، إذ فجر الصراع في ظرف ووقت غير مناسبين، وهنا لا بد أن نعرف أن من أسباب فشل أي حركة هو اللاانضباط الذي من صوره وشواهده دخول أفراد الحركة في صراعات غير مخططة و بعيدة عن قرار القيادة.

لهذا نهر موسى عليه السلام الإسرائيلي وقال له: «قَاتَلْتَ رَجُلًا بِالْأَمْسِ وَتُقَاتِلُ هَذَا الْيَوْمَ لَأُوَدِّبَنَّكَ، وَأَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِهِ»[1]. فزعم أن موسى عليه السلام يريد قتله، فاتهم النبي عليه السلام بأنه لا يصلح للقيادة، وأن هدفه ليس إلا الإفساد في الأرض، والتجبر، وفي البين فضح سرا من أسرار

(١) بحار الأنوار: ج١١، ص٧٩.

الحركة حين أعلن أمام الناس، أن الذي قتل القبطي بالأمس هو موسى عليه السلام فانتشر الخبر في المجتمع، وقررت السلطة أن تنتقم منه عليه السلام وتجعله عبرة للآخرين.

ويبدو أن الحركة الرسالية كانت ناضجة، مما جعلها تخترق خاصة فرعون، وتتعرف على خطط السلطة، وهذا من أسباب النجاح في العمل، إذ يمكن الاختراق الحركات من اتخاذ خطط وقائية ومضادة لخطط الحكومات، وكانت الخطوة الوقائية لموسى عليه السلام هو قرار الهجرة في سبيل الله.

وهكذا دخلت الحركة الرسالية مرحلة جديدة، وأسلوبا آخر في العمل الرسالي، والهجرة مرحلة أساسية لدى الحركات الرسالية عبر التأريخ، وهي ذات معطيات هامة على مستوى الفرد والحركة، فهي مثلا تزكي الفرد من جهة وتحفظ القيادة والتحرك من جهة أخرى.

ولم تكن الهجرة بالنسبة إلى موسى عليه السلام تعني الهروب من ساحة الصراع والعمل في سبيل الله، بل كانت فرصة للإعداد الأفضل للصراع و العمل، حيث كان مستضعفا ومحروما، فكان يبحث هنا وهناك عن مستضعف ليعينه، كما لم ينقطع عن التفكير في جماهيره المغلوب على أمرها.

لهذا نجد القرآن أول ما يحدثنا عن موسى عليه السلام في دار الهجرة يشير إلى أنه أول ما قام به هناك هو خدمة الناس، والإحسان إليهم. إنه لم يقل: يجب أولاً أن أنتصر على الطاغوت، ثم أفكر بعدها في خدمة المستضعفين، كلا.. فأنت أيها المؤمن، وأنت في مسيرة بناء الدولة الإسلامية عليك أن تسعى بما آتاك الله من قوة لخدمة الناس، لأن ذلك يربي الإنسان، وينمي فيه المواهب الخيرة، وبالتالي يجعله أهلا لتحمل المسؤولية الرسالية. و في الآية الأخيرة نجد صورة نموذجية لأسلوب الفرد المؤمن في الدعاء.

بينات من الآيات:

فإذا الذي استنصره يستصرخه

[١٨] ﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ لقد كان موسى عليه السلام مطلوبا عند السلطة باعتباره معارضا لها، فكيف وقد قتل شخصا منهم؟!.

إن الخوف الذي تشير له الآية الكريمة هو الخوف الإيجابي الذي يدعو صاحبه للتفكير في العمل ضمن الظروف الصعبة، لا الخوف السلبي الذي يدعو للتوقف عن التحرك والخنوع،

وفرق بين الأول الذي ينعكس على أسلوب العمل، والآخر الذي ينعكس على ذات العمل.

إن موسى عليه السلام لم يتوقف لحظة عن الجهاد في سبيل الله، ولكنه صار يتحرك بحذر، والترقب: من المراقبة، وتوقع ردات فعل السلطة. الأمر الذي يدعو للإعداد الوقائي لأية ردة فعل من قبلها.

وعندما تدخل الحركة الرسالية في ظروف العمل السري يتوجب عليها أن تحسب ألف حساب لتحركاتها، وأن تختار الوقت المناسب لتوجيه أية ضربة للنظام، وأن لا تفجر الصراع بشكل شامل ومعلن إلا بعد نضجها و نضج الساحة الجماهيرية، وضمن خطة مدروسة آنفا، وإلا فإن مصيرها سيكون الفشل.

ومجموع هذه الحسابات هي التي دعت موسى عليه السلام للغضب على الإسرائيلي لما تقاتل مع القبطي الآخر، ولو لم يكن يستنجد بموسى، و بالتالي يكشفه أمام الناس، ربما لم يتخذ منه هذا الموقف.

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ وقد عبر القرآن عن المرة الثانية بالاستصراخ، ولم يقل يستنصره -كما كان في حديثه عن الأمس- وربما ذلك ليبين أن موقف الإسرائيلي كان فاضحا، ولعل هذا كان مما دعا موسى عليه السلام للغضب عليه ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ إنك تعرف الطريق الصحيح، وإنه من غير المناسب تفجير الصراع في مثل هذه الظروف، ولكنك تتنكب عن الطريق بشكل بين وواضح، وذلك أن موسى عليه السلام -كما يبدو- كان قد بين له في المرة الأولى الخطأ: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥] لكنه خالف القيادة فاستحق العتاب بل التأديب كما في الرواية التي مر ذكرها.

ومع كل ذلك صمم موسى عليه السلام على البطش بالقبطي، لأنه أخذ على نفسه عهدا بأن لا يكون ظهيرا للمجرمين.

[١٩] ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ هو والإسرائيلي -بعد أن لام الذي من شيعته على خطئه- وحيث أن كلمات موسى كانت قد أثرت أثرها في نفس الإسرائيلي، فأراد الثأر لنفسه: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ هكذا تبين أن الرجل كان غويا مبينا، وأن صراعه مع الأقباط كان مجردا عن المضمون الرسالي. إذ بمجرد خشيته من غضب قائده ومنقذه انقلب عليه، واتهمه بأنه يريد أن يتجبر في الأرض -يتسلط على الناس بغير الحق- وأن ادعاءه بالسعي وراء الإصلاح ليس بصحيح، ولعله كان من نمط المارقين الذين خرجوا على الإمام علي عليه السلام

وهذا النمط من الناس هم المتطرفون، المعجبون بأنفسهم، ضعاف الولاء لقيادتهم، ومهما يكن نمط هذا الشخص فقد أذاع سرا هاما من أسرار الحركة.

ويلاحظ في أحاديث أهل البيت عليهم السلام أنهم اعتبروا إفشاء السر أو إذاعة الأمر -حسب التعبير الإسلامي- من أعظم المحرمات، قال الإمام الصادق عليه السلام: «يَا ابْنَ النُّعْمَانِ إِنِّي لَأُحَدِّثُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ بِحَدِيثٍ فَيَتَحَدَّثُ بِهِ عَنِّي فَأَسْتَحِلُّ بِذَلِكَ لَعْنَتَهُ وَالْبَرَاءَةَ مِنْهُ فَإِنَّ أَبِي كَانَ يَقُولُ وَأَيُّ شَيْءٍ أَقَرُّ لِلْعَيْنِ مِنَ التَّقِيَّةِ إِنَّ التَّقِيَّةَ جُنَّةُ الْمُؤْمِنِ وَلَوْ لَا التَّقِيَّةُ مَا عُبِدَ اللهُ وَقَالَ اللهُ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ ...﴾ الْآيَةَ -آل عمران: ٢٨- يَا ابْنَ النُّعْمَانِ إِنَّ الْمُذِيعَ لَيْسَ كَقَاتِلِنَا بِسَيْفِهِ بَلْ هُوَ أَعْظَمُ وِزْراً بَلْ هُوَ أَعْظَمُ وِزْراً بَلْ هُوَ أَعْظَمُ وِزْراً»(١).

قال عليه السلام: «وَاللهِ مَا النَّاصِبُ لَنَا حَرْباً بِأَشَدَّ عَلَيْنَا مَئُونَةً مِنَ النَّاطِقِ عَلَيْنَا بِمَا نَكْرَهُ»(٢).

وقال عليه السلام: «مَنْ أَذَاعَ عَلَيْنَا شَيْئاً مِنْ أَمْرِنَا فَهُوَ كَمَنْ قَتَلَنَا عَمْداً وَلَمْ يَقْتُلْنَا خَطَأً»(٣).

وعندما نقارن بين موقف موسى عليه السلام من الإسرائيلي في المرتين، نجد التالي:

١- أنه في المرة الأولى قتل القبطي، ثم بين له الخطأ: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ [القصص: ١٥]، أما في المرة الثانية، فإنه تكلم ضد الإسرائيلي أولاً: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ﴾ ثم توجه للبطش بالقبطي: ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا ...﴾؛ و لعل ذلك ليبين لنا القرآن حقيقة طالما أكد عليها أئمة الهدى في أحاديثهم و هي: إن الإسرائيلي في المرة الثانية حيث خالف أمن الحركة كان أحق باللوم والتأديب، فموسى بدأ بالقبطي تلك المرة لأن تأديبه هو الأهم، بينما بدأ بالإسرائيلي هذه المرة لأن ردعه عن تصرفاته الخاطئة هذه أهم بالنسبة للحركة الرسالية من قتل القبطي. بل إن بعض الروايات قالت: إن موسى أراد أن يبطش بالإسرائيلي لا بالقبطي، قال الإمام الرضا عليه السلام في تفسير الآية: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ﴾ قَاتَلْتَ رَجُلًا بِالْأَمْسِ وَتُقَاتِلُ هَذَا الْيَوْمَ لَأُؤَدِّبَنَّكَ، وَأَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِهِ ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي﴾.. الآية»(٤).

٢- في المرة الأولى قال القرآن عن لسان موسى وهو يخاطب الإسرائيلي لدخوله في

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٢٨٩.

(٢) الكافي: ج٢ ص٢٢٢.

(٣) مصدر سابق: ج٢ ص٣٨١.

(٤) بحار الأنوار: ج١١، ص٧٩.

الصراع مع القبطي: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ وقد نسب العداوة والضلال المبين للشيطان، بينما قال في المرة الثانية: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ناسبا الغواية الواضحة و المتعمدة للإسرائيلي، وبالمقارنة نصل إلى هذه النتيجة: إن الإسرائيلي وقع في حبائل الشيطان، وصار عدوا لموسى من حيث لا يشعر، وهكذا كل من يخالف أوامر قيادته الرسالية، لتصوراته ومواقفه الشخصية.

فاخرج إني لك من الناصحين

[٢٠] وكما إن عدم الانضباط من أسباب فشل الحركات وضعفها، فإن اختراقها لأجهزة النظام من أسباب قوتها ونجاحها، ولربما كانت حركة موسى تفشل لو لم تكن تملك نقطة القوة هذه، فربما كانت تنتهي لو قبض على قائدها أو قتل.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ ورد في الروايات: «**وَبَلَغَ فِرْعَوْنَ خَبَرُ قَتْلِ مُوسَى الرَّجُلَ فَطَلَبَهُ لِيَقْتُلَهُ فَبَعَثَ الْمُؤْمِنُ إِلَى مُوسَى** ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ .....﴾»[1].

وهو الذي قال عنه تعالى في موضع من القرآن: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٨]، لقد كان هذا الرجل يتظاهر بالكفر، ويخفي الإيمان، و ذلك لينفع به حركته الرسالية، وأن يعيش الرجل بشخصيتين متناقضتين أمر صعب، ويحتاج إلى شخص بمستوى رفيع من التقوى والجهاد و الإرادة، فلا يذوب أمام إغراءات الدنيا فينقلب على عقبيه، ولا يعجز عن أداء هذا الدور، وجاء في بعض الروايات عن أصحاب الكهف:

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ أَسَرُّوا الْإِيمَانَ وَأَظْهَرُوا الْكُفْرَ وَكَانُوا عَلَى إِجْهَارِ الْكُفْرِ أَعْظَمَ أَجْراً مِنْهُمْ عَلَى إِسْرَارِ الْإِيمَانِ**»[2].

ومن طريف ما يحكى عن مؤمن آل فرعون وكتمان إيمانه ورساليته، وإيمانه بموسى، عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**وَلَقَدْ كَانَ لِحِزْبِيلَ الْمُؤْمِنِ مَعَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ وَشَوْا بِهِ إِلَى فِرْعَوْنَ مِثْلُ هَذِهِ التَّوْرِيَةِ كَانَ حِزْبِيلُ يَدْعُوهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ وَنُبُوَّةِ مُوسَى وَتَفْضِيلِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله عَلَى جَمِيعِ رُسُلِ اللهِ وَخَلْقِهِ وَتَفْضِيلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام مِنَ الْأَئِمَّةِ عليهم السلام عَلَى سَائِرِ أَوْصِيَاءِ النَّبِيِّينَ، وَمِنَ الْبَرَاءَةِ مِنْ رُبُوبِيَّةِ فِرْعَوْنَ فَوَشَى بِهِ الْوَاشُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ.**

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص١٣٧. بحار الأنوار: ج١٣، ص٢٧.

(٢) وسائل الشيعة: ج١٦ ص٢٣١.

وَقَالُوا: إِنَّ خِرْبِيلَ يَدْعُو إِلَى مُخَالَفَتِكَ وَيُعِينُ أَعْدَاءَكَ عَلَى مُضَادَّتِكَ، فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ ابْنُ عَمِّي وَخَلِيفَتِي عَلَى مُلْكِي وَوَلِيُّ عَهْدِي: إِنْ فَعَلَ مَا قُلْتُمْ فَقَدِ اسْتَحَقَّ الْعَذَابَ عَلَى كُفْرِهِ لِنِعْمَتِي وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِ كَاذِبِينَ فَقَدِ اسْتَحْقَقْتُمْ أَشَدَّ الْعِقَابِ لِإِيثَارِكُمُ الدُّخُولَ فِي مَسَاءَتِهِ. فَجَاءَ بِخِرْبِيلَ وَجَاءَ بِهِمْ فَكَاشَفُوهُ وَقَالُوا: أَنْتَ تَكْفُرُ رُبُوبِيَّةَ فِرْعَوْنَ الْمَلِكِ وَتَكْفُرُ نَعْمَاءَهُ.

فَقَالَ خِرْبِيلُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ هَلْ جَرَّبْتَ عَلَيَّ كَذِباً قَطُّ؟. قَالَ: لَا فَسَلْهُمْ مَنْ رَبُّهُمْ؟!. قَالُوا: فِرْعَوْنُ. قَالَ لَهُمْ: وَمَنْ خَالِقُكُمْ؟. قَالُوا: فِرْعَوْنُ هَذَا. قَالَ: وَمَنْ رَازِقُكُمُ الْكَافِلُ لِمَعَايِشِكُمْ وَالدَّافِعُ عَنْكُمْ مَكَارِهَكُمْ؟. قَالُوا: فِرْعَوْنُ هَذَا. قَالَ خِرْبِيلُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ فَأُشْهِدُكَ وَمَنْ حَضَرَكَ أَنَّ رَبَّهُمْ هُوَ رَبِّي وَخَالِقَهُمْ هُوَ خَالِقِي وَرَازِقَهُمْ هُوَ رَازِقِي وَمُصْلِحَ مَعَايِشِهِمْ هُوَ مُصْلِحُ مَعَايِشِي لَا رَبَّ لِي وَلَا خَالِقَ وَلَا رَازِقَ غَيْرُ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ وَرَازِقِهِمْ وَأُشْهِدُكَ وَمَنْ حَضَرَكَ أَنَّ كُلَّ رَبٍّ وَخَالِقٍ وَرَازِقٍ سِوَى رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ وَرَازِقِهِمْ فَأَنَا بَرِيءٌ مِنْهُ وَمِنْ رُبُوبِيَّتِهِ وَكَافِرٌ بِإِلَهِيَّتِهِ.

يَقُولُ خِرْبِيلُ: هَذَا. وَهُوَ يَعْنِي أَنَّ رَبَّهُمْ هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَمْ يَقُلْ إِنَّ الَّذِي قَالُوا: هُمْ إِنَّهُ رَبُّهُمْ هُوَ رَبِّي وَخَفِيَ هَذَا الْمَعْنَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَنْ حَضَرَهُ وَتَوَهَّمُوا أَنَّهُ يَقُولُ: فِرْعَوْنُ رَبِّي وَخَالِقِي وَرَازِقِي فَقَالَ لَهُمْ: يَا رِجَالَ السَّوْءِ وَيَا طُلَّابَ الْفَسَادِ فِي مُلْكِي وَمُرِيدِي الْفِتْنَةِ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ عَمِّي وَهُوَ عَضُدِي أَنْتُمُ الْمُسْتَحِقُّونَ لِعَذَابِي لِإِرَادَتِكُمْ فَسَادَ أَمْرِي وَإِهْلَاكَ ابْنِ عَمِّي وَالْفَتَّ فِي عَضُدِي.

ثُمَّ أَمَرَ بِالْأَوْتَادِ فَجُعِلَ فِي سَاقِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَتَدٌ وَفِي صَدْرِهِ وَتَدٌ وَأَمَرَ أَصْحَابَ أَمْشَاطِ الْحَدِيدِ فَشَقُّوا بِهَا لُحُومَهُمْ مِنْ أَبْدَانِهِمْ فَذَلِكَ مَا قَالَ اللهُ ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ -يَعْنِي خِرْبِيلَ- سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ -لَمَّا وَشَوْا إِلَى فِرْعَوْنَ لِيُهْلِكُوهُ- وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ وَهُمُ الَّذِينَ وَشَوْا بِخِرْبِيلَ إِلَيْهِ لَمَّا أَوْتَدَ فِيهِمُ الْأَوْتَادَ وَمَشَطَ عَنْ أَبْدَانِهِمْ لُحُومَهُمْ بِالْأَمْشَاطِ»[1].

وقد تقتضي المصلحة أحيانا أن لا يعيش الفرد الرسالي مع المحرومين في مكان واحد، بل يبحث له عن بيت سعيد، يميل إلى الرفاه من أجل إخفاء شخصه، ولكن لا ينبغي أن ينعكس ذلك على إيمانه وشخصيته الحقيقية أبدا.

والرسالي الذي يمارس هذا الدور يجب أن لا يظهر ارتباطه بالحركة أو القيادة الرسالية حتى لا يفتضح أمره، والقرآن يعبر عن مجيء الرجل من أقصى المدينة بالسعي، وهو الإسراع، وقد جاء مسرعا وذلك حتى يتدارك الأمر قبل أن يقع موسى في يد السلطة من جهة، وحتى يسبق جلاوزة النظام للمكان، وبالتالي لا يرى وهو يؤدي واجبه الرسالي، حيث لا يقول ربنا سبحانه: يركض أو يسرع. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم تكن سرعته بالشكل الذي يلفت

(١) بحار الأنوار: ٧٢، ص٤٠١.

انتباه الآخرين، إذ من الخطأ عندما يكون عند الفرد الرسالي أمر هام أن يظهر في صورة غير عادية أمام الآخرين.

وهنا لا ننسى أيضا أثر الوقت في كثير من المهام، فقد يستدعي الأمر أحيانا أن يرسل الواحد للآخر إشارة فقط، أو لا أقل يختصر الكلام ليكون الوقت في صالحه بشرط أن يكون الاختصار نافعا ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ بهذه العبارة المختصرة التي تتضمن الخبر والتحليل اكتفى هذا الرجل.

[٢١] كما إن موسى عليه السلام لم يفوت على نفسه لحظة واحدة، إذ كان يملك القرار الحازم، بالإضافة إلى البصيرة النافذة، ويعبر عن مجموع هاتين الصفتين بسرعة البديهة، وكم من المجاهدين وقعوا في يد الأنظمة لأنهم لا بديهية لهم، فتراهم عندما يسمعون بأن شيئا غير عادي يحوط بهم . تراهم يترددون في اتخاذ القرار المناسب ربما لصعوبته عليهم، كقرار الاختفاء، أو الهجرة، أو التصدي، فيقعون في محذورات أكبر ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وكان يحمل معه في هجرته زاد التوكل وهو أعظم زاد.

[٢٢] لقد كان موسى مهاجرا بالمعنى المعنوي، عندما هجر سلوكيات المجتمع المنحرفة، أما الآن فإنه بدأ الهجرة العملية بمضمونها المادي أيضا، وللهجرة في سبيل الله فوائد عظيمة. من أهمها تزكية نفس الإنسان، فأول ما يقوم به المهاجر في سبيل الله هو تزكية نفسه. ذلك أن وعثاء السفر، والغربة، والابتعاد عن المجتمع الفاسد، ومواجهة التحديات، و المشاكل الجديدة و..، كل هذه الأمور بوتقة لصياغة شخصية الإنسان باتجاه التكامل، وهكذا كانت الهجرة تعني بالنسبة لموسى عليه السلام فقد كان يبحث عن الهدى، ولم تكن هجرته للهروب عن المصاعب والمشاكل. كلا .. فهو لا يزال يفكر في قومه.

إن قسما من الناس حينما يهاجرون عن شعوبهم، ويجدون الرخاء و الأمن في البلد الآخر، ينسون بلادهم وشعبهم، وكل الدموع والدماء و المآسي التي لا يزال شعبهم يعاني منها، وهذا خطأ كبير، وانحراف بالغ، لأنك حينما تهاجر فلكي تكسب المزيد من الوعي والقوة، فتعود لبلدك لتفجر الثورة.

وهكذا نجد موسى عليه السلام في مسيره إلى مدين يسأل الله سبحانه أن يهديه سواء السبيل: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقد انطلق موسى عليه السلام في الصحراء وحده، وكانت قصة هجرته أروع ما عرفه التأريخ من هجرات البشر. دعنا نقرأ جانبا منها:

[٢٣] لقد هاجر عليه السلام إلى مدين، وكانت مدين مدينة يكثر فيها الرعاة، وتحوطها الآبار ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أي بعيداً عنهم ﴿ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾ تمنعان أغنامهما عن الورود على الحوض، لأنهما كرهتا الاختلاط مع الرجال، فكانتا تنتظران نهاية السقاية. ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾ ما الأمر؟ لماذا لا تسقيان؟ وكان موسى عليه السلام يبحث عن مستضعف يعينه، وهكذا تكون حياة الرساليين أينما كانوا كلها في خدمة الرسالة والناس، وهم يبحثون عن أي فرصة للعمل الصالح دون أن ينتظروا من الناس أن يسألوهم العون. وقد قال القرآن في حق عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] أي أينما حللت، فالمؤمنون مبارك مقدمهم على مجتمع في دار الهجرة.

ولعلنا نستفيد من قيام موسى بهذا العمل ضرورة بناء علاقات اجتماعية تثبت التحرك الرسالي في مجتمع الهجرة، كما يستفيد من خلالها في خدمة قضيته.

﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ لا يستطيع أن يسقي الأغنام، أما نحن ننتظر سائر الرعاة حتى ينتهوا فنسقي أغنامنا.

[٢٤] ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ إننا نجد قسما من الثائرين يسقطون خدمة الناس من حسابهم، بحجة أن العمل للقضية أهم من كل شيء؛ أما موسى فإنه يرى خدمة المستضعفين من أهم أهدافه، لذلك سقى للامرأتين، وكان فتى قويا، عركته صعوبات الحياة وتحدياتها، وقد سقى لهما بدلوٍ لا يطيق حمله إلا عشرة رجال.

والواقع: إن من أهم صفات الأنبياء الإحسان إلى الناس، وبأمثال هذه الصفة اصطفاهم الله للرسالة، فعندما يتحدث القرآن عن اختيار الله للأنبياء كثيرا ما يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ لقد كان موسى يتضور جوعاً، ويعاني من الغربة، ولا يعرف إلى أين ينتهي به الأمر، ولكنه لم يشك إلى الله ذلك، بل ذكر نعمه السابقة، وقال إنني أفتقر إلى ذلك الخير. وهذا من أفضل أساليب الدعاء، إذ يتضمن كناية أبلغ من التشبيه، ونظرة إيجابية. فبدل أن يقول أحدنا: إن عيني تؤلمني فشافها يا رب، ليقل إن عيني كانت سليمة سابقاً، وإني اليوم لفي حاجة لأن أكون مثل الماضي. إذ من آداب الدعاء أن يبدأه العبد بحمد الله، والثناء عليه -كما في الأحاديث-.

وأهمية هذا الأدب المحافظة على الروح الإيجابية عند الإنسان الذي يسعى الشيطان لإغوائه أبدا عن نعم الله، ووضع نظارات سوداء على عينه كلما ألمت به مصيبة، أو فقد نعمة،

حتى لا يرى سائر النعم الباقية وهي بالتأكيد أكثر مما فقدها ومن لا يرى نعم الله عليه لا يمكنه من الانتفاع بها.

وفي تفسير آخر للآية: أن أبا بصير قال: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ الله عليه السلام هَلْ لِلشُّكْرِ حَدٌّ إِذَا فَعَلَهُ الْعَبْدُ كَانَ شَاكِراً؟ قَالَ عليه السلام: نَعَمْ. قُلْتُ: مَا هُوَ؟. قَالَ عليه السلام: يَحْمَدُ الله عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ عَلَيْهِ فِي أَهْلٍ ومَالٍ، وإِنْ كَانَ فِيمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ فِي مَالِهِ حَقٌّ أَدَّاهُ، ومِنْهُ قَوْلُهُ جَلَّ وعَزَّ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ وقَوْلُهُ: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾»[1].

وربما ربط الإمام عليه السلام بين حدود الشكر وبين هذه الآية ليبين حقيقة هامة وهي: أن قول موسى هذا إنما هو شكر، لأنه بعدما سقى إلى الامرأتين، وتولى إلى الظل. قال: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ لأني ما عملته قليل، وأنا محتاج إلى عمل أكثر وأكبر، حتى يرتفع رصيدي عندك.

---

(١) الكافي: ج٢ ص٩٥.

آنس من جانب الطور نارا

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ[1] سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ[2] مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

الهجرة مرحلة ضرورية لكل الرسالات والحركات الرسالية السائرة على خطاها عبر الزمن، فهي تنفع الإنسان تزكية لنفسه، وبلورة لشخصيته، و استقامة على الحق بما فيها من

(١) أشق عليك: أي أتعبك.

(٢) جذوة: القطعة الغليظة من الحطب فيها النار وجمعها جِذى.

ساعات صعبة حبلى بالمشاكل والألم، فالمهاجر يقتلع نفسه من مجتمعه، ويعيش غريبا، مجهول المصير. ولعل تلك الساعة التي آوى فيها موسى إلى ظل الشجرة كانت من تلك الساعات، فهو الآن جائع ومتعب من وعثاء السفر، في بلد لا يعرف فيه أحدا، بالإضافة إلى هموم شعبه المستضعف، وربما كان خوف فرعون لا يزال يلاحقه، ولم يتخلص منه نهائيا إلا بعد أن أخبره شعيب بأنه قد نجا -فعلا- من القوم الظالمين.

أما الوجه الآخر للهجرة، فهي رحمة الله التي ترعى المجاهدين، وفي هذه الآيات الكريمة نجد حديثا عن أبواب الرحمة والبركة التي فتحها إلى نبيه موسى عليه السلام فقد جاءته إحدى الامرأتين اللتين سقى لهما، وهي تدعوه إلى بيتهم حتى يجزيه أبوها أجر السقاية، وتتابعت عليه بركات الرب، حيث أضحى واحدا من هذا البيت بعد أن كان غريبا في مدين، ومستقرا بعد أن كان من دون مأوى، ونقرأ بين السطور دروساً إلهية مهمة حول أخلاقيات المهاجر الرسالي.

وتتجلى الرحمة الإلهية مرة أخرى وبصورة أعظم حينما يرجع موسى بأهله إلى وطنه والمشاكل تحوطه من كل جانب، فالليل حالك الظلمة، والبرد قارص، وزوجته حامل، وهم يسيرون في مفازة شاسعة، دون معرفة بمعالم الطريق، وفي الأثناء تموت مواشيه، وهو لا يعرف ماذا يصنع، وإذا بيد الغيب تمتد إليه لا لكي تستنقذ موسى فقط، وإنما لكي تستنقذ معه بني إسرائيل أيضا.

في بادئ الأمر لما رأى موسى النار لم يكن في خلده سوى الاستفادة من جذوتها للتدفئة، ومن حولها الاهتداء إلى الطريق، ولكن ما إن بلغها حتى سمع النداء: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ [طه: ١٢]، وحينها انسلخ من كل الانتماءات المادية، ونسي كل الهموم والآلام، وتوجه إلى ربه بكل عقله وعواطفه، وهنا تتجلى عظمة الأنبياء، فإذا بموسى عليه السلام لا يخلع نعليه وحسب، بل يخلع كل انتماءات الأرض والتراب عن نفسه، و يأتيه الوحي من طور سيناء، دون أن يلتفت إلى زوجته الحامل، ولا مواشيه التي هلكت والتي كانت حصيلة عشر سنوات من العمل.

بينات من الآيات:

أخلاقيات المهاجر

[٢٥] المهاجر باعتباره غريبا عن بلد الهجرة، يجب أن يكون متساميا في الأدب، لأنه لا يعرف البلد، ولا يعرف خصائصه الاجتماعية، وربما يوجد فيه من يعتقد بأنه ثقيل الظل،

فيحاول الضغط عليه، ومن هنا يجب على المهاجر تفجير طاقاته المعنوية والمادية ليستوعبه أهل المدينة، وأول عمل قام به موسى عليه السلام أنه أعان العائلة الفقيرة، وهكذا نجد حياة الأنبياء والرساليين عبر التأريخ، فرسول الله صلى الله عليه وآله دخل المدينة مهاجرا من مكة، ودخلت معه البركات إليها بسبب نشاطه وقيمه الرسالية، وأول ما وصل إليها بنى مسجدا فيها وهو مسجد (قباء) وردم الحفر والمستنقعات التي انتشرت حولها حسب بعض التواريخ- والتي كانت باعثا على الأمراض. ثم إنه صلى الله عليه وآله لم يكن كلا على أهلها، بل كان يعمل بنفسه، ويكد من عرق جبينه، أو ربما دفع الإمام علي للقيام بهذا الدور، ومثل هذا السلوك يجعل المهاجر محبوبا في المجتمع، وهذا ما حدث فعلا لموسى عليه السلام إذ بعث إليه شعيب عليه السلام لما أنبأته ابنتاه بأنه قوي أمين، وقد أحسن إليهما بالسقي لمواشيهما ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وهنا إشارة إلى أن الأديان الإلهية عموما لا تعارض دخول المرأة إلى الواقع الاجتماعي، وتعاملها مع الآخرين، ولكن بشرط أن يكون تعاملها محاطا بالأدب والحياء، فهذه ابنة شعيب وهو أحد الأنبياء بعثها أبوها في أمر يجده ضروريا، وحين لبت كانت متسربلة بالعفة والحياء.

واستجاب موسى عليه السلام لهذه الدعوة لا ليأخذ أجر السقاية، وإنما ليجد له موقعا في هذا البلد الغريب. إذ ينبغي للمهاجر الرسالي أن يبني شبكة من العلاقات الاجتماعية بمختلف الأسباب المشروعة، ولمختلف الجهات في المجتمع حتى يستفيد منها في سبيل أهدافه الحق، وحينما مشى موسى مع امرأة غريبة مشى بأدب وحشمة، فقد أمرها أن تسير خلفه وتدله على الطريق يمينا أو يسارا، لأنه ربما يرى شكلها وهي تسير أمامه.

وفي الحديث: **«فَقَامَ مُوسَى عليه السلام مَعَهَا فَمَشَتْ أَمَامَهُ فَسَفَقَتْهَا الرِّيَاحُ فَبَانَ عَجُزُهَا فَقَالَ لَهَا مُوسَى عليه السلام تَأَخَّرِي ودُلِّينِي عَلَى الطَّرِيقِ بِحَصَاةٍ تُلْقِيهَا أَمَامِي أَتْبَعُهَا، فَأَنَا مِنْ قَوْمٍ لَا يَنْظُرُونَ فِي أَدْبَارِ النِّسَاءِ»**[1].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ روى له ما جرى عليه في بلاده التي يسيطر عليها فرعون وجلاوزته؛ ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وأول ما دخل عليه موسى أمر له بطعام، فرفض أن يأكله وهو جائع، فلما سأله شعيب عن السبب، قال نحن من أهل بيت لا نأخذ أجرا على خدمتنا للآخرين لأنه لوجه الله، وبقي مصرا على ذلك، حتى أوضح له شعيب أن هذا ما نقدمه لكل ضيف يحل علينا.

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص١٣٧، مستدرك الوسائل: ج١٤ ص٢٧٤.

ويبين لنا هذا الموقف إحدى صفات المهاجرين الرساليين وخلفياتهم، إذ يجب على المهاجر أن يحصن نفسه ضد الذلة، ويحافظ على قيمه التي جاء بها للمهجر، فالكثير من المهاجرين، سواء كانوا عمالا أو مجاهدين حينما ينتقلون إلى بلاد الشرق أو الغرب تنمحي قيمهم من أذهانهم، و تنعكس على شخصياتهم قيم وسلوكيات مجتمع المهجر، لأن المجتمع قوي، وهم لا يجدون ما يحصنهم أمام تياراته، فيذوبون فيه.

وعلى المهاجر أن يفكر في الحفاظ على قيمه، وتحصين شخصيته قبل التفكير في توفير مأكله ومشربه، فقد رفض موسى عليه السلام أن يأكل إلا بعد ما تأكد من أن هذا الطعام لا تستتبعه ذلة ولا انتماء معينا.

[٢٦] ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، وهذا الاقتراح يكشف لنا عن أمرين:

الأول: إحساس المرأة بالحاجة إلى رجل يقوم بمهام البيت، وإن ما يشبع طموح المرأة في الرجل أن يكون قويا يجبر ضعفها، وأمينا تطمئن للعيش في كنفه. هذا من الناحية الخاصة -بالنظر إلى المرأة كامرأة- أما من الناحية العامة حيث الظروف المحيطة ببيت شعيب فهاتان الصفتان مهمتان، فمن الضروري أن يكون قويا حتى يؤدي المهام والأعمال بشكل أفضل، وأمينا حفظا لعرض البيت.

عن أبي عبدالله عليه السلام: «**فَقَالَ لَهَا شُعَيْبٌ عليه السلام أَمَّا قُوَّتُهُ فَقَدْ عَرَفْتِهِ بِسَقْيِ الدَّلْوِ وَحْدَهُ، فَبِمَ عَرَفْتِ أَمَانَتَهُ؟!. فَقَالَتْ: إِنَّهُ قَالَ لِي تَأَخَّرِي عَنِّي وَدُلِّينِي عَلَى الطَّرِيقِ فَأَنَا مِنْ قَوْمٍ لَا يَنْظُرُونَ فِي أَدْبَارِ النِّسَاءِ، عَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ فِي أَعْجَازِ النِّسَاءِ فَهَذِهِ أَمَانَتُهُ**»[١].

الثاني: ربما يكشف هذا الاقتراح عن رغبتها في الزواج منه، فقد ورد في الروايات أن التي تزوجها موسى هي صاحبة الاقتراح، بل وإنما هي التي أشارت على أبيها بالزواج منه، والذي يدل على هذا الأمر الآية اللاحقة، حيث يطرح فيها شعيب موضوع الزواج على موسى لقاء عمله معه ثمان أو عشر سنوات، مما يدل على وجود بحث مسبق، في هذا الموضوع بينه وبين ابنته، ولا ريب أنها كانت تعرف بأن أجور عمله هو الزواج.

[٢٧] وقبل شعيب باقتراح ابنته فأقبل على موسى عليه السلام، ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾، واشترط عليه العمل ثماني سنين ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ﴾ إلزاما، وخيره في سنتين إذا أراد هو ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ﴾ باختيارك وإرادتك، وإحسانا

(١) بحار الأنوار: ج١٣، ص٢٩.

منك. ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

[٢٨] فأجابه موسى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾، وبقي موسى عليه السلام يعمل عند شعيب عليه السلام وقد جعل الله ذلك كرامة لنبيه شعيب لما هو عليه من التقوى والزهد.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «بَكَى شُعَيْبٌ عليه السلام مِنْ حُبِّ الله عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى عَمِيَ فَرَدَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ بَصَرَهُ. ثُمَّ بَكَى حَتَّى عَمِيَ فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِ بَصَرَهُ، ثُمَّ بَكَى حَتَّى عَمِيَ فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِ بَصَرَهُ، فَلَمَّا كَانَتِ الرَّابِعَةُ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ يَا شُعَيْبُ إِلَى مَتَى يَكُونُ هَذَا؟. أَبَداً مِنْكَ إِنْ يَكُنْ هَذَا خَوْفاً مِنَ النَّارِ فَقَدْ آجَرْتُكَ وَإِنْ يَكُنْ شَوْقاً إِلَى الْجَنَّةِ فَقَدْ أَبَحْتُكَ. فَقَالَ: إِلَهِي وَسَيِّدِي أَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي مَا بَكَيْتُ خَوْفاً مِنْ نَارِكَ وَلَا شَوْقاً إِلَى جَنَّتِكَ وَلَكِنْ عَقَدَ حُبُّكَ عَلَى قَلْبِي فَلَسْتُ أَصْبِرُ أَوْ أَرَاكَ فَأَوْحَى اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ إِلَيْهِ أَمَّا إِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فَمِنْ أَجْلِ هَذَا سَأُخْدِمُكَ كَلِيمِي مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ»[1].

وهكذا كان حيث زوج شعيب ابنته لموسى لقاء العمل عنده لمدة ثمان سنوات أو عشر، وعلى هامش هذا الزواج هناك حقائق نشير إليها:

الأولى: من الممكن أن تختار المرأة الزوج المناسب لها، لأن الزواج قضية مصيرية، ذات أثر عميق على حياة المرأة ومستقبلها، ولكن هذا الاختيار يجب أن يكون بطريقة لائقة، تتناسب مع حشمة المرأة، والقيم الإلهية، فهذه بنت شعيب إنما اختارت موسى لما وجدت فيه من الصفات و المؤهلات، من قوة وأمانة، والتزام بمفاهيم الرسالة، ثم عرضت اختيارها بأدب على أبيها.

الثانية: قبل أن يتقدم موسى عليه السلام بطلب الزواج، بادر شعيب إلى ذلك، حيث وجده كفوءا، ووجد في زواجه من ابنته ضمانا لمستقبلها، وسعادة لها في الحياة، وهذا خلاف ما نجده الآن في المجتمعات التي صار فيها عرض الأب بناته للزواج ممن يجده أهلا لها عيبا كبيرا.

الثالثة: إن البنت الصغرى هي التي تزوجت وليست الكبرى. على عكس بعض التقاليد الخاطئة التي ترى ضرورة زواج الكبرى أولاً.

[٢٩] وبقي موسى عند نبي الله شعيب عليه السلام عشر سنوات، وهي أقصى الأجلين قبل أن يقرر العودة من جديد.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ وكان هذا إيذانا بدخول الحركة الرسالية مرحلة

---

(١) بحار الأنوار: ج١٢، ص٣٨١.

جديدة، هي مرحلة العودة للتحرير، وقد سبق أن أشرنا بأن الهجرة عند الرساليين لا تعني الهروب من الواقع وتحمل المسؤولية، إنما تعني الإعداد الأفضل لخوض الصراع الحاسم، ولا ريب أن موسى كان يفكر في مستقبل شعبه، ويخطط للمعركة القادمة وهو في طريق العودة.

كان الوقت ليلا، والفصل شتاءً، والمسير في صحراء مترامية الأطراف، ولم تكن هذه الطريق معهودة عند موسى، فضاع وماتت مواشيه، فصار يلتمس عونا له على هذه الظروف، وفي هذه الأثناء: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ وهو الجبل ﴿نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ وآنس من الاستئناس، وبالفعل أعطت هذه الشعلة شيئا من الأمل للنبي موسى عليه السلام وهو يعاني تلك الظروف القاسية، فأمر أهله بالبقاء، حيث أبقاهم في مكانهم ريثما يعود، وكانت أصعبها عليه الضياع، وبقاء أهله في البرد، كذلك قال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ كان يتصور أن بجانب النار جماعة ما، يسألهم عن الطريق، و يعود لأهله بخبر مفيد، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ والاصطلاء: هو التدفؤ.

[٣٠] كان هذا أبعد ما ذهب إليه موسى حينما رأى النار، ولكنه كان يحمل في داخله هما أكبر من ذلك كله، هم تحرير شعبه وسوقه نحو توحيد الله وعبادته، بعيدا عن العبوديات المزيفة، ولو وصل في هذا المضمار إلى نتيجة لا بد أنه كان ينسى كل شيء سوى ذلك الهم.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وفي غمرة هذا القرب الإلهي أمره الله أن يقطع عنه كل علاقاته الأخرى، وينسى أهله وضياعه، وهلاك مواشيه، لأنه وجد ربه، وهنا التفاتة مهمة تعني المجاهدين أكثر من غيرهم وهي: أن عليهم الاطمئنان إلى نصر الله وعونه، وإن ذلك كله لا يتأتى لأحد إلا بعد السعي والجهاد: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وثمة فكرة نجدها في تفسير الإمام الصادق عليه السلام لهذه الآية. إذ يقول: «كُنْ لِمَا لَا تَرْجُو أَرْجَى مِنْكَ لِمَا تَرْجُو فَإِنَّ مُوسَى عليه السلام ذَهَبَ لِيَقْتَبِسَ لِأَهْلِهِ نَاراً فَانْصَرَفَ إِلَيْهِمْ وَهُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ»[1].

(١) بحار الأنوار: ج٥، ص٨٣.

بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ[1] يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ[2] مِنَ الرَّهْبِ[3] فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا[4] يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)﴾.

هدى من الآيات:

لحظة الوحي هي لحظة حساسة في تاريخ البشرية، لأنها لحظة الاتصال الخارق للعادة، بين رب السماء والأرض عبر مشكاة طاهرة تتجسد في قلوب الرسل الذين يستقبلون الوحي،

---

(١) اسلك: أدخل
(٢) جناحك: يدك.
(٣) الرهب: الخوف.
(٤) رِدء: أي معيناً

ثم يبلغونه للناس دون زيادة أو نقصان، وهذه اللحظة لا تتكرر كثيرا في حياة البشر، إلا وفق حكمة الله البالغة، وقد تحققت لأمة بني إسرائيل عندما كلم الله نبيه موسى عليه السلام في طور سيناء. كما تحققت للأمة الإسلامية في ليلة القدر، حينما نزل القرآن كله على قلب نبي الله الكريم محمد صلى الله عليه وآله ولعظمة هذه اللحظة كانت ليلة القدر خيراً من ألف شهر.

لقد كلم الله نبيه موسى تكليما، ولكنه أجل من أن يكون له لسان، إنما يخلق الصوت خلقا وبذلك تغيرت صفحة الحياة، وبدأت المسيرة الحقيقية لبناء الأمة المؤمنة.

ولقد زود الله نبيه موسى عليه السلام بآيتين عظيمتين هما العصا، ويده التي تصير بيضاء حينما يضمها إلى جيبه، ثم أمره بالتوجه إلى رأس الفساد والانحراف في المجتمع وهو الطاغوت، وذلك أن من خصائص الرسالات الإلهية عبر التاريخ أنها شجاعة مقدامة، لهذا نجد موسى حينما يأمره الله بالتوجه إلى قلب الكفر يفعل ذلك ويترك العمل السري دون أن يخشى من فرعون، ولماذا يهاب أحدا وقد اتصل بالوحي وبخالق الكون كله؟!.

وفي مقابل موسى يقف فرعون وهو تركيز لشتى أنواع الفساد، إنسان ظالم، تحوطه الأهواء والشهوات والكبرياء المزيفة، و بالطبع لا يمكن أن يتخلى عن ذلك كله في لحظة واحدة، ويتجه إلى عبادة الله، ويسلم لقيادة رسوله، إلا إن موسى يبقى ثابتا أمام ذلك، واثقا من ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وأنهم مهما فعلوا، ومهما استمروا، وتشبثوا بأسباب القوة فإن عاقبتهم الخسران.

إن العبر التي نستوحيها من هذا الدرس كثيرة، وتنفعنا في حياتنا ونحن ندعو إلى الله، ولكن أبرزها أن يعرف الفرد الرسالي بأن النقطة المحورية لتحركه هو تقربه من الله، فليدع وليعمل وليعارض ولكن انطلاقا من هذه النقطة وانتهاء إليها.

هل رأيت المحارب ينطلق من خندقه، ثم يعود إليه ليغير سلاحه، ويحكم خطته، ثم يهجم مرة أخرى؟ كذلك المؤمن يواجه السلبيات والمشاكل و التحديات، فيضعف سلاحه، وينفذ زاده، وتتعب نفسه فيعود إلى خندقه ليجبر ضعفه، ويحمل زاده، ويستعيد نشاطه، ولكنه أين هو خندق المؤمن؟ إنه المحراب يقف فيه للصلاة، والقرآن يستوحي منه خطط العمل و التحرك، والصوم يشد به أزره، والتبتل يستفيد منه العزم والإرادة و الإصرار عبر اتصاله بالله.

إنا لو فصلنا الحركة الرسالية عن الروحيات (الصلاة، والصوم، تلاوة القرآن، الإيمان بالغيب و...) فإنها تصبح كأية حركة مادية أخرى لا قيمة لها، كما الإنسان لو أخذنا منه عقله،

أو الحيوان نسلب روحه. إنه يتحول إلى كتلة لحم تتعفن بمرور الأيام، فالحركة الرسالية يجب أن تكون من الله، وإلى الله، وبالله، وفي سبيل الله، وليس من الله إلى غيره، أو من غيره تعالى إليه.

وحينما تتخلى أمة عن الوحي تضحي كبني إسرائيل، الذين كانوا حركة رسالية، فتحولوا إلى حركة مادية بحتة أما المسلمون فقد تقدموا لما اتصلوا بالرسالة، ولما تركوا الرسالة سلب منهم كل شيء.

بينات من الآيات:

اذهبا إلى فرعون إنه طغى

[٣١] لقد زود ربنا سبحانه، نبيه موسى بآيتين عظيمتين هما: العصا التي إذا ألقاها صارت حية تسعى، وإذا أخرج يده من جيبه، فإذا هي بيضاء للناظرين: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ لأن موسى لا زال يحتفظ بخاصيته البشرية، فهو لا يزال وسيبقى بشراً، يملك من العواطف والمشاعر ما يملكه الآخرون، وهذا دليل على أن الأنبياء لا يتحولون بالوحي إلى آلهة، وأن الوحي ليس من عند أنفسهم، بل هو مسؤولية إلهية إلى من يختاره الله.

وكثيرا ما يوحي الله إلى أنبيائه ليقولوا هذه الحقيقة للناس صراحة، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

لذلك ولى موسى فراراً، ولم يلتفت خلفه لما رأى الجان وهو -كما يقول البعض- الحية الصغيرة المتحركة.

ولعل العصا صارت جاناً في تلك المرة، أما في المرات التالية فقد صارت ثعباناً مبينا.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ ﴾ أنت الذي يراد لك أن تحمل رسالة الله، يجب أن تكون مقداما لا تخاف، ﴿وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾؛ فهذا هو أول الطريق، وأمامك صعوبات ومشاكل، فسكن قلب موسى من هذا النداء الرباني، وتشجع فأخذ الحية فإذا هي عصا كما كانت.

[٣٢] و تواصل النداء الإلهي: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ والفسق هو الخروج عن الخط الصحيح نحو الانحراف.

[٣٣] هكذا جاءت الرسالة تأمر موسى بمقاومة الانحراف ورأسه فرعون.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ وربما كان موسى يعني ذلك القبطي الذي وكزه فقضى عليه.

[٣٤] ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾. ونستفيد من هاتين الآيتين أمرين:

١- أن خوف موسى عليه السلام لم يكن على نفسه، فقد باعها برضوان ربه و الجنة، ولم يعد من مدين إلا ليجاهد الطاغوت، ولكن خوفه كان على الرسالة، لأن قتله يعني عدم وصولها إلى بني إسرائيل، كما تكذيبه يعني فشله في تبليغها أو لا أقل تأثيره عليهم بها.

٢- أنه عندما طرح هذه المشاكل أو العقبات التي تعترضه، لم يكن هدفه التبرير والتملص من تحمل المسؤولية، وإنما البحث عن الحل.

وهكذا ينبغي للإنسان الرسالي حينما ينبعث إلى مهمة ما، في أي بلد أن يستعرض العقبات والمشاكل بحثا عن الحل لا التبرير.

[٣٥] ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أي سنقوي كيانك بهارون، ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾. قد يقول البعض إن ذلك نبي الله، أما نحن فكيف يكون لنا هذا السلطان و نحن لا نملك عصا موسى عليه السلام؟!.

بلى؛ ولكن الله يقول: ﴿بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾، إن الذي يلتزم بالرسالة هو الذي ينتصر، وما دام المسلمون يتبعون آيات الله فإنهم الغالبون، كما انتصر موسى وهارون ومن اتبعهما من بني إسرائيل، عندما التزموا برسالة موسى عليه السلام.

[٣٦] ﴿ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ لا تقبل التشكيك، ولا تشبه السحر؛ ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾. إن مشكلة هؤلاء هي النفس البشرية التي تعودت على عادات معينة، و تريد الاستمرار عليها، وبالتالي ترفض كل جديد لأنه جديد، وفي مطلع سورة الشعراء نجد إشارة إلى هذه الكلمة: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ [الشعراء: ٥].

[٣٧] و لكن أمام هذا الإعراض ماذا كان موقف موسى عليه السلام؟.

إن الأنبياء والأولياء عليهم السلام، وكل من يسير في خطهم يتوكلون على الله، و يرجعون كل

شيء إليه، فلا يقول أحدهم أنا، بل يقول: الله، فتراه كلما عرضت له مشكلة أو مصيبة قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. إنا لله وإنا إليه راجعون.

إنهم يجعلون الله شاهدا على الواقع.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ﴾

مادمت أيها الرسالي تعلم بأنك تعمل في سبيل الله، وتعلم أن هذا السبيل ينتهي بك إلى الجنة فما يضرك من حديث الآخرين ومن ضغوطهم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الفلاح هو الوصول إلى الهدف، والرسالة هي الطريق إليه، والظالم أو الفاسق الذي انحرف عن الرسالة لا يفلح في دنياه لأنه لا يملك الهدى لا في دنياه ولا في آخرته، لأن عاقبته ستكون النار.

إن الذي يصلح التربة، ويزرع الأرض -وهذا هو السبيل السليم- يحصد القمح في نهاية الموسم، أما الذي يعيش على الاحتيال والسرقة -و هذا هو السبيل الخطأ- فإنه لا يصل إلى هدفه، فقد لا يقدر على السرقة، و إذا سرق قد لا يستطيع أن يبيع ما سرقه، وإذا باعه لن يتوفق بأمواله، و النتيجة أنه بسبب من الأسباب لا يفلح في هذه الحياة.

إن حقوق الآخرين حقائق واقعية، لا يمكن تجاوزها دون جزاء، أو إزالتها من خريطة الحياة بمجرد الادعاء بأنها غير موجودة، فلا يستطيع الجائع أن ينفي الجوع عن نفسه بمجرد إنكاره له، والظالم لا يستطيع أن ينكر حق الفقير في الشبع، فهو حق ثابت أجريت سنن الحياة على أساسه، فعقل الفقير وحاجته وتطلعاته، مضافا إلى تركيبة الحياة، وسنن الله فيها سوف تجعل من ظلمه مادة لإدانة الظالم وهلاكه.

إنه لا يفلح الظالمون

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا [١] لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ [٢] فِى ٱلْيَمِّ [٣] فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ [٤] ﴿٤٢﴾﴾.

هدى من الآيات:

انتهت آيات الدرس السابق بالحديث عن الظلم، وأنه يسبب الخسران لصاحبه، و في هذه الآيات نجد مثالا واقعيا على هذه الفكرة القرآنية التي تلخص سنة إلهية في الحياة، مستمدة من قصة فرعون، حيث أغرقه الله و جنوده في اليم.

ربما يستطيع الإنسان أن يغير سنة الحياة لفترة من الزمن -بما أعطاه الرب من حرية في ذلك- ولكن ليس للأبد، لأن طاقاته محدودة، بينما الحياة مستمرة، وسننها تجريها إرادة الله المطلقة. إن فرعون حكم الناس، وسيطر على البلاد والعباد، وتكبر حتى بلغ الأمر به أن ادعى

(١) صرحاً: الصرح هو القصر الواسع.
(٢) نبذناهم: النبذ هو الإلقاء والطرح.
(٣) اليم: البحر وقد تطلق على النهر الواسع.
(٤) المقبوحين: القبح الإبعاد وقبّحه الله أي أبعده.

الألوهية. واعتقد بأنه قادر على مقاومة الحق، وأن الحياة لا يحكمها قانون، لكن الواقع كان خلاف ذلك، فقد اصطدم بالواقع، إذ تبين له أن فيها سننا، و أن هناك من يجري هذه السنن.

بينات من الآيات:

انا ربكم الأعلى

[٣٨] يبدو أن موسى عليه السلام صعق الملأ بكلامه، فاهتزت قناعاتهم بفرعون، واضطره إلى الدفاع عن خرافاته بأساليب جديدة، حيث قال:

أولاً: أنه يريد مصلحة الملأ، وأنه لم يجد إلها غيره يحققها، و تظاهر ثانيا: بأنه سوف يبحث عن ذلك الإله الذي يدعو إليه موسى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ فما دام هو لا يعلم من إله غيره، فالآخرين لا يعلمون أيضا، بل يجب أن لا يعلموا، وهو يقول: ﴿لَكُم﴾ لإيهامهم أنه ينفعهم، وهو يخاطب الملأ، لأنه كان قد سلطهم على الناس، وأعطاهم امتيازات كثيرة.

﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ قال: ﴿لِى﴾ وليس للشعب، أو من أجل القيم، والصرح هو العرش أو القصر المرتفع، الذي كان قديما يبنى من الآجر، وهذا بدوره يصنع من الطين بعد تعريضه للنار، وما هو هدفه من بناء هذا الصرح؟.

﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

الهدف الأول: إظهار القوة، فكلما شعرت السلطات الفاسدة، عبر التأريخ بأنها ضعيفة، وأنها سوف تنهار، سعت للبحث عن مظهر من مظاهر القوة، حتى ولو كان هذا المظهر هو بناء العمارات أو الجسور، التي تشملها عمليات ما يسمى بالتحديث.

ولا ريب أن قسما من الناس السذج يعجبون بمثل هذه الأعمال، فيتصورون الطاغوت بقوتها وضخامتها، وفرعون عندما يبني هذا الصرح أو تلك الأهرامات فلكي يغطي بها الاهتزاز الذي أصاب كيانه الجاهلي بسبب رسالة موسى عليه السلام.

واليوم نجد كثيرا من الأنظمة الفاسدة تكدس الأسلحة، لتتظاهر أمام شعوبها بالقوة، ولعل الآية توحي بنظرية في علم الاجتماع تقول: إن التضخم المادي ينبئ بخلل داخلي يعاني منه المجتمع أو النظام السائد فيه، وكما المتكبر يستعلي عندما يحس بعقدة الضعة في نفسه، كذلك المجتمع المغرور داخليًا يهتم بمظاهر الأبهة كبناء القصور الضخمة، أو المعابد الكبيرة، أو ما

أشبه لتأخير حالة الانهيار.

الهدف الثاني: إلهاء الناس، وسد فراغهم بقضايا هامشية، فترى الحكومات عندما تشعر بالفشل، وأنها أقل من طموحات الشعب تشجع الإهتمامات الهامشية غير الأساسية فيما بين الناس.

ائمة النار

[٣٩] والطاغوت حينما يبني القصور، أو يجمع المال والسلاح، يتصور أنه صار عظيما، وهذا الشعور هو الذي يضع بينه وبين الحقيقة حجابا؛ ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ لم يكن العجز في رسالة موسى -حاشا لله- فهي آيات بينات، ولكنهم أعرضوا عنها، وزعموا أنهم أولو كبرياء، و لم يكونوا على حق، و سبب الاستكبار هو عدم اعتقادهم بالبعث ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾.

[٤٠] وكان جزاء هذا الاستكبار هو الإهانة، لكي يعرفوا أنفسهم على حقيقتها ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾، وهذه العاقبة، حذر منها نبي الله موسى عليه السلام من أول يوم، وجاء عليها بالبراهين والآيات، وكان ينبغي لفرعون وجنوده أن يعقلوها، وهذا هو الهدف السامي من نعمة العقل: أن يتعرف به الإنسان على سنن الله، وعواقب الأمور ويعمل على هدى الوحي والعقل، لكن هؤلاء استكبروا على الحقيقة؛ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

لقد أكد نبي الله عليه السلام ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وجاء القرآن بالواقع العملي لهذه السنة الإلهية من خلال قصة فرعون وجنوده، حتى إن السياق القرآني وصفهم بالاستكبار وليس بالظلم، إلا إنه قال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ حتى تجد أنت أيها القارئ الترابط بين الآيتين، وأن هذه شاهد على تلك.

وليست هذه الحقيقة بعيدة عن واقعنا، فالله يقول: ﴿فَانْظُرْ﴾ لكي لا تتصور أنت الذي تقرأ القرآن، بأنك بعيد عن هذه السنن، أو أنها تختص بذلك الزمان، وهذه من مميزات الأسلوب القرآني في التربية. إذ يشد الإنسان إليه، ويحمله مسؤولية النظر، والتفكر، والبحث المنهجي.

[٤١] ويؤكد القرآن الحقيقة الآنفة إذ يقول: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾.

المسألة إذن ليست مسألة شخص فرعون، بل هو خط في الحياة، وفي آية قرآنية أخرى يقول تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] وذلك حتى تعرف بأن في الحياة خطين هما:

١- خط الحق؛ المتمثل في رسالات الأنبياء وأئمة الهدى.

٢- خط الباطل؛ المتمثل في الثقافة الجاهلية والطواغيت.

وأنا الذي أقرأ القرآن أو الذي أعيش في هذا العصر يمكنني أن أكون من الظالمين أو معهم، فيكون مصيري كمصير فرعون وجنده، ويمكنني أن أكون مع المؤمنين ومنهم، فتكون لي عاقبة الدار.

إن السلطات الفاسدة اليوم التي تحارب سبيل الله في الحياة هي الامتداد الفعلي لخط فرعون، بينما تمثل الحركات الرسالية والعلماء الربانيون الامتداد المبارك لخط الأنبياء عليهم السلام.

[٤٢] والطغاة ليس ينالون جزاءهم في الآخرة وحسب، بل يتحولون إلى لعنة على ألسن الناس في الدنيا، ويبعدون عن رحمة الله؛ ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾، إنهم يحشرون بوجوه قبيحة، لأن الجزاء من جنس العمل، فهذه الوجوه طالما دأبوا على تلميعها، وتجميلها عبر وسائل الإعلام في الدنيا، فجزاهم الله بتقبيحها في الآخرة.

بصائر للناس وهدى ورحمة

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ[1] إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا[2] فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

هدى من الآيات:

تؤكد هذه الآيات على الجانب الغيبي للرسالات الإلهية، فهي ليست قمة في تكامل بشري تدريجي طبيعي كالشهادة التي يحصلها الطالب عندما ينتهي من الجامعة مثلا، إنما هي

---

(١) بجانب الغربي: أي في جانب الجبل الغربي (جبل طور) الواقع في الغرب.

(٢) ثاوياً: مقيمًا.

قضاء إلهي مفاجئ، يأتي لتصحيح مسيرة البشر بصورة غيبية.

والرسالة كما في الآية (٤٣) أداة لرؤية الحقائق وتوضيحها، ومنهج لمعرفة العلوم، وهي في نفس الوقت علم ومعرفة وهدى، كما إن الرسالة تأتي لإتمام الحجة على الناس لكي لا يقولوا غدا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾! فقد اقتضت حكمة الله أن يكون الإنسان حرا في حياته، ويمنح فرصة الهداية من قبل الله، ولم يشأ ربنا العزيز إكراه الناس على الهدى بالرسل جبرا، فالهداية ذاتها هي مسؤوليتهم، كالذي يعطيك الكتاب ولا يمنحك العلم، وإنما يوفر لك فرصته، وهكذا الرسالة بالنسبة للناس، ويوم القيامة تكون الحجة البالغة لله علينا، ثم إن السياق يعتبر صلة بين عبر الأمم الغابرة، وسنن الرسل السابقين، وبين رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله.

بينات من الآيات:

كتاب موسى

[٤٣] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ في هذا الشطر يلخص القرآن الدورة الحضارية، فهي تبدأ برسالة إلهية و شخص أو جيل رسالي، ثم تنتهي بثقافة جاهلية، وجيل منحرف ينذره الرب، فإن لم ينتفع بالنذر أهلكه، ولا ريب أن هذه الدورة ليست حتمية، فلو قدر أن تمسك الناس برسالات الله لما أهلكهم الله، كما قدر لقوم يونس ذلك.

ثم يقول ربنا عن الكتاب الذي أنزل مع موسى: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ في الوقت الذي تكون رسالات الله منهج للرؤية (البصيرة) فإنها بذاتها علم ومعرفة توصل البشر إلى الحقائق، فمن جهة تعطي الإنسان بصيرة في الحياة تجاه الأشياء والأحداث، لأنها تحتوي على سنن الله في الحياة، و تحمل في طياتها مقاييس ومعايير تحدد له الرؤية النظرية السليمة، و من جهة أخرى تحتوي على العلم والهدى اللذين يرسمان له الموقف العملي الحق لو اتبعها.

وقد يكون الفرق بين العلم والهدى: أن العلم هو مجرد اتصال الإنسان بالحقائق. أما الهدى فهو تفاعله معها، وانتفاعه منها، وجاء في الدعاء: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ»[١]. يقصد به العلم الذي لا يعمل به.

وعندما لا يعمل الإنسان بالعلم فإنه يضل ويجهل، بل وينسى العلم نفسه، أما حين

(١) مصباح الكفعمي: ص٢٢٩.

يعمل به فسوف تكون النتيجة هي السعادة واللطف الإلهي (الرحمة) ماديا ومعنويا.

والسؤال ما هو هدف هذه الرسالة التي تشتمل على البصائر، والهدى، والرحمة؟.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

وماذا يتذكر الناس؟.

يتذكرون ميثاقهم مع الله، فيعودون إلى فطرتهم، لأن من خصائص الرسالة أنها ترفع الحجب عن قلب البشر، ونستوحي من هذه الآية: أن العامل الأخير في الهدى حركة الإنسان نفسه، فالبصائر والهدى والرحمة من عند الله، أما التذكر فهو مسؤولية الإنسان نفسه.

[٤٤] ثم يذكرنا السياق بأن النبي لم يكن حاضرا الجهة الغربية التي كان النبي موسى يسير إليها من مدين إلى مصر، حين استقبل لأول مرة الوحي الإلهي، ولم يكن هناك من الشاهدين ليصف تلك الحوادث هذا الوصف الدقيق الرائع، ولكن الله سبحانه أوحى بالقرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي كانوا فيه يختلفون، وهذا دليل صدق هذه الرسالة.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ كلمتان في القرآن إحداهما تبين الوضع الطبيعي وهي القدر، والأخرى تبين الوضع الغيبي وهي القضاء، والفرق أن القدر هو السنن التي أجراها الله تعالى في الخلق، بلا تبديل ولا تحويل، أما القضاء فهو الأوامر الغيبية التي تصدر من عنده إلى الخليقة فتتجاوز الأقدار جميعا، فربما يكون قدر الإنسان أن يموت اليوم، فيدفع صدقة لفقير، أو يدعو الله، أو يصل رحمه، أو... فيقضي الله أن يتأخر أجله ثلاثين سنة، وقد يكون قدره العيش ثلاثين سنة فيظلم من لا يجد ناصرا غير الله، فيقضي الله بوفاته اليوم، والرسالة الإلهية نوع من القضاء. إذ ليست ثمة سنة إلهية لو عمل بها البشر لصار رسولا، فتحول موسى بن عمران عليه السلام إلى رسول، أو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله إلى رسول ما جاء بدراسة في الجامعة، أو قراءة في الكتب، إنما الرسالة -وكما تقدم في الهدى- هي قضاء إلهي، يحصل بموجبه الاتصال بين الخلق والخالق، عبر رسالة ورسول يجعله الله خليفته في الأرض جعلا، ولا ينفي هذا القول أن الله يختار رسله وأنبياءه على أساس صفات و مميزات فيهم.

وفي لحظة القضاء قد يتحقق ما لا يمكن تحقيقه عبر قرون، فالرسول صلى الله عليه وآله دخل إلى غار حراء أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولكنه خرج منه يحمل رسالة لا يستطيع البشر بلوغ ذراها أبدا.

﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ ولعل هذه الآية تشير إلى أن الحقائق التي رويت في هذه

القصة لم تكن واضحة عند أهل الكتاب أيضا، أو كانت مثار جدل عظيم سواء في تفاصيل ما حدث أو في تفسيرها.

[٤٥] ثم تبين الآية ما يبدو أنه إشارة إلى الدورات الحضارية، حيث إن من عادة البشر نسيان رسالات ربهم بعد تطاول القرون، مما يجعلهم محتاجين إلى بعث جديد برسالة إلهية.

﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾ لقد بقيت البشرية تلفها الظلمات قرونا بعد قرون قبل ميلاد الرسالة، حيث بدأت الهوة بين الناس ورسالة موسى عليه السلام تتسع شيئا فشيئا، حتى نبذوه وراء ظهورهم، وعشعش الجهل في أوساطهم، لذا كانوا بحاجة إلى رسالة جديدة، تبعث فيهم الوعي وتوقظ الضمير.

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ إلا إن عدم وجودك لا يعني أنهم لم تصل إليهم الحجة، فالحياة قائمة على هذه السنة الإلهية.

﴿ وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ لقد أرسلنا إليهم شعيبا، كما أرسلنا رسولا إلى العرب.

[٤٦] ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ لعل هذه الآية تؤكد على وحدة الرسالات الإلهية من خلال وحدة أهدافها، و بالتالي فإن الإيمان برسالة موسى يستلزم الإيمان برسالة الإسلام، وإذ يربط السياق القرآني بين هاتين الرسالتين فذلك لأسباب منها:

١ - أنهما تشكلان خطا واحدا في الرسالات الأخيرة للحياة، ورسالة عيسى عليه السلام إنما كانت امتدادا لرسالة موسى، وكان هدفه تصحيح مسيرة الناس بعده، وليست هي جديدة بحد ذاتها.

٢- لتشابه تفاصيل الرسالتين، وأن تلك الرسالة كونت أمة في حياة نبيها، كما صنعت رسالة الإسلام أمة أيضا.

وللرسالة هدفان أساسيان:

الأول: هداية الناس، عن طريق التذكرة، قال تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾، فكما بعث الله موسى رحمة، كذلك يبعث محمد صلى الله عليه وآله رحمة، وفي الآية حجة على أولئك الذين آمنوا برسالات الله السابقة، وكفروا بالرسالة الخاتمة مع وحدة الملاك، فكما أن تلك جاءت رحمة من الله كذلك هذه، فلماذا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض؟!.

[٤٧] الثاني: فهو إقامة الحجة على الناس ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي الآية إشارة إلى أن الناس يعلمون بأهمية الرسالة الإلهية حينما تتيه بهم المذاهب، ويجر عليهم ضلالهم الويلات والإرهاق.

ولعل السياق يشير هنا إلى سنة إلهية هي: أن الله يصيب هؤلاء الجهلة بمصائب دنيوية يحسون بها.. من نقص في الأنفس والثمرات، وحروب داخلية تطحنهم، فيلجأون إلى الله طالبين الخلاص. فلما يبعث الله فيهم الرسول ليخلصهم إذا هم به يكفرون، ولعلهم كانوا يريدون الخلاص بلا عمل يقومون به، أو تحمل لصعوبة الجهاد من أجله، ويذكرنا السياق - على هذا التفسير - بقصة بني إسرائيل حين طلبوا من نبيهم ملكا، فلما اختار الله لهم طالوت ملكا، كفروا به لأنه لم يكن على هداهم، ولم يؤت سعة من المال.

[٤٨] ثم يبين القرآن كيف أنهم يكفرون بالحق، لأنهم يريدونه وفق أهوائهم ومقترحاتهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من المعاجز كالثعبان، واليد البيضاء، والسبب أنهم لم يكونوا ينظرون إلى جوهر الرسالة وإلا لوجدوها كرسالة موسى عليه السلام في أهدافها وخطها العام، بل إن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله هو أعظم من عصا موسى. أوليست عصا موسى آية إلهية؟ فكذا القرآن كله آيات.

ومع ذلك يؤكد القرآن أن المشكلة ليست في عدم وضوح الآيات القرآنية بل في نفسياتهم السلبية، المعاندة للحق، والمصرة على الكفر. لهذا يتساءل القرآن: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ ولا ريب أن الذين يخاطبهم القرآن في هذه الآية ليسوا هم الذين كانوا مع موسى ثم كفروا به، ولكن السياق يقول أنهم كفروا بموسى عليه السلام وربما ذلك ليبين لنا وحدة المنهج والتفكير الذي يوصل إلى نفس النتيجة.

[٤٩] ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، من مميزات منطق الرسل أنه موضوعي وعقلاني للغاية، فالرسول على عظمته، وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم تراه لا يعاند، ولا يصر مستكبرا في مقابل الدعوات الأخرى، إنما يقول: إذا كان لديكم كتاب هو أهدى من رسالتي فإني أتبعه، وهو يعلم يقينا أن لا كتاب أهدى من كتاب الله، الذي أنزل على موسى والذي أنزل عليه مكملا ومهيمنا.

ومن أضل ممن اتبع هواه

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٠) ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾.

هدى من الآيات:

كيف نميز الحق عن الباطل، والصواب عن الخطأ؟.

هناك عدة مقاييس تمكننا من ذلك، ومن بينها:

ألف: مقياس النتائج: فالمقدمة الصحيحة لا تنتهي إلى نتيجة خاطئة، كما أن المقدمة الخاطئة لا تنتهي إلى نتيجة صحيحة، فالعمل الصالح كمقدمة يؤدي للحياة الفاضلة كنتيجة، والعكس تماما بالنسبة للعمل السيئ.

باء: مقياس الإجماع: المبادئ التي تجمع عليها عقول الناس المجردة عن العوامل الخارجية لا تكون خطأ كالحرية، والعدالة، والصدق، وغير ذلك من القيم التي يجب البحث عنها وتطبيقها، فهي إذن جيدة بالإجماع، بينما تحترز عقول البشر عن الرذيلة، والظلم والكذب

في كل زمان ومكان.

جيم: مقياس الوجدان: إن أي فكرة تثبت في ذهن الإنسان إنما هي نتيجة لأحد شيئين: فإما تكون نتيجة للعقل والوجدان، أو تكون نتيجة للجهل و الشهوة، وهذا أهم وأسهل من كل المقاييس الأخرى.

والقرآن في هذه الآيات يعالج هذه الحقيقة، ففي البدء يقول الله: إنكم أيها الناس إذا لم تتبعوا هذه الرسالة، فابحثوا عما هو أفضل منها واتبعوه، ولكنهم لو كانوا يريدون الهداية لاتبعوا الرسالة لأنهم لا يجدون أفضل منها، وإذ يتركونها فلكي يتبعوا الهوى باعتبارهم يريدون التملص من مسؤولية التعهد والالتزام بالحق.

فالإنسان إذن إما يتبع العقل أو يتبع الهوى ولا ثالث، ولكن ما هو العقل؟ وما هو الهوى؟.

العقل هو النور الذي يقربنا إلى الحقائق الخارجية، ويجعلها هي المقياس، أما الهوى فهو القوة الداخلية التي تجرنا إلى النفس، ومصدره حب الذات، فالعقل يوجهنا للناس، بينما الهوى يوجهنا لذواتنا.

وكثيرا ما يتميز الحق عن الباطل بوضوح أمام الإنسان، ولكنهما قد يختلطان فلا يتميزان في بعض الأحيان، لذلك ورد في الدعاء: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَرِنِي الْحَقَّ حَقّاً حَتَّى أَتَّبِعَهُ وَأَرِنِي الْبَاطِلَ بَاطِلًا حَتَّى أَجْتَنِبَهُ وَلَا تَجْعَلْهُمَا عَلَيَّ مُتَشَابِهَيْنِ فَأَتَّبِعَ هَوَايَ بِغَيْرِ هُدًى مِنْكَ وَاجْعَلْ هَوَايَ..**»[1].

ومن الناس من يهتدي للحق في أعقد الأمور بلحظة تفكير، بينما نجد آخرين على العكس منهم، والسبب هو أن الفريق الأول يستفيد من عقله لذلك ينمو، بينما الفريق الثاني لا يستفيد منه فيخبو، وهذه سنة الله في الحياة، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لَا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلًا ويَقِينَكُمْ شَكّاً إِذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا وإِذَا تَيَقَّنْتُمْ فَأَقْدِمُوا**»[2].

ثم يشير القرآن إلى حقيقة هامة هي: أن قسما من الناس كانوا مسلمين قبل بزوغ فجر الإسلام، وهناك جماعة يسمون بالحنفيين، لأنهم تركوا عبادة الأصنام لعبادة الله، مثل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه وجعفر الطيار الذي أخبر الرسول صلى الله عليه وآله عن أربع خصال لم يفعلها في الجاهلية

---

(١) البلد الأمين: ص٣١، تعقيب صلاة العشاء.

(٢) نهج البلاغة: حكمة: ٢٧٤.

قائلاً: «مَا شَرِبْتُ خَمْراً قَطُّ لِأَنِّي عَلِمْتُ أَنِّي إِنْ شَرِبْتُهَا زَالَ عَقْلِي، وَمَا كَذَبْتُ قَطُّ لِأَنَّ الْكَذِبَ يَنْقُصُ الْمُرُوَّةَ، وَمَا زَنَيْتُ قَطُّ لِأَنِّي خِفْتُ أَنِّي إِذَا عَمِلْتُ عُمِلَ بِي، وَمَا عَبَدْتُ صَنَماً قَطُّ لِأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ»[1] والسبب أن الإيمان والكفر حالتان في نفس البشر، فالذي اعتاد على الانقياد للحق والتسليم له لا يجد صعوبة للإيمان بالرسالة، والعمل بها، بينما يصعب ذلك على الآخر الذي اعتاد الانهيار أمام الشهوات والأهواء، لذلك نجد فريقا من الناس بقي منافقا حتى بعد البعثة.

وفي نهاية الدرس يؤكد القرآن أن على الإنسان ألا ينتظر الهداية تأتيه رغما على أنفه، بل يجب عليه أن يتحمل المسؤولية بنفسه، وليس الرسول سوى مبلغ للرسالة.

بينات من الآيات:

[٥٠] ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ذلك أن الرسالة تلتقي مع الجانب الخير في الإنسان وهو عقله، وبالتالي يكون الباعث على مخالفتها هو اتباع الهوى؛ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ الإنسان قاصر في ذاته، فلا بد أن يعالج هذا النقص باتباع هدى ربه، واسع العلم والقدرة، ولو لم يفعل ذلك فلن يزداد إلا بعدا عن الحقيقة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الهدى سنة عظيمة لا يمنحها الله للظالمين الذين يعتدون على حقوق الناس وحقوق الله، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور، والظلم يكرس حب الذات، واتباع الهوى في القلب، مما يشكل حجابا كثيفا عن الحقائق.

[٥١] ومشكلة الذين لم يستجيبوا للرسالة، ليست في غموضها أو قصر شواهدها، بل لأنهم لا يريدون الهداية ولا التذكرة، والدليل أنهم كانوا يرفضون رسل الله ورسالاته. ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أي جعلنا أسباب الهداية متصلة لا تنقطع، وفي الروايات أن الله بعث مئة وأربعة وعشرين ألف نبي غير الأوصياء والدعاة إلى الله من أتباعهم؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ولم تكن الرسالات الإلهية شيئا غريبا بالنسبة للنفس البشرية، لأنها تتلاقى مع فطرة الإنسان وعقله، اللذين أودع الله فيهما الحقائق، وما الرسالة في غالبها إلا وسيلة لاستثارة الذاكرة.

[٥٢] وأولئك الذين آمنوا بالكتب، ودربوا أنفسهم على الانقياد للحق لا يجدون حرجاً في التسليم للرسالة الجديدة ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ﴾ يعني بالقرآن الحكيم ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

(١) بحار الأنوار: ج٢٢ ص٢٧٢.

[٥٣] وذلك لأنهم يجدون هذا الكتاب في جوهره مطابقاً للرسالة السابقة، وموافقاً للعقل والفطرة، لأن المؤمنين بالرسالات السابقة كانوا قد روضوا أنفسهم بالحق. وقاوموا جهل قلوبهم وأهوائهم وشهواتهم، وسلموا -بالتالي- لربهم، فإنهم كانوا مستعدين نفسيًّا للإيمان بالحق ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾.

[٥٤] ويعطي الله هؤلاء أجرهم مضاعفا: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرة لإيمانهم بهذا الكتاب الذي أكمل الله به رسالاته، ومرة لأنهم آمنوا بالكتاب الذي أنزل إليهم، وصبروا عليه فلم يحرفوه كما حرفه علماء السوء منهم، ولم يخضعوا لضغط السلطة والثروة.

﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ على الأذى الذي لاقوه لإيمانهم بالكتاب، ولعل أعظم الثواب كان لهم بسبب صبرهم أيام الفترة وانقطاع الرسل، حيث سيطر الطغاة، وانحرف الناس، ولم يبق إلا بقية مستضعفة من المؤمنين أمروا بالصبر، والعمل بالتقاة، ورد أذى الكفار والمنحرفين بسعة الصدر، وحسن الخلق، والعطاء، وعدم الخوض في الجدل العقيم مع المنحرفين.

وعلى هذا يكون معنى الصبر ما يبينه السياق لاحقا، وتكون هذه الآيات بيانا لمنهاج المؤمنين في عصر التقية، ويتلخص في: الصبر، والعفو، و الإنفاق، والإعراض عن لغو الجاهلين.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ لقد تقدم أن الظالم يتبع هواه على حساب عقله، وبالتالي تتضخم ذاته على حساب الآخرين، أما المؤمن فعكس ذلك: يكبح جماح نفسه وهواه، فينمو عقله، فهو يفكر في الآخرين، فإذا أخطؤوا عليه درأهم بالحسنات، و إذا احتاجوا سد حاجتهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

[٥٥] ثم إنهم طوعوا أنفسهم، وروضوا أهواءهم، وحددوا حب ذاتهم عن طريق الإعراض عن اللغو، وهذا ما ينمي العقل، لأنه يخالف الهوى.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ لأن طموحاتهم وأهدافهم أسمى من الأهواء والشهوات، لذلك لم تستفزهم إثارات الجاهلين، ولم يبوحوا بأسرارهم، ولم يخوضوا في الجدل الذي لم يؤمروا به، بل إذا طالبهم الجاهلون بالحجة - جدلا - أعرضوا عنهم ﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾.

هدف هؤلاء ابتغاء رضوان الله، وليس العلو في الأرض، والتظاهر، و الفخر، والغرور بما لديهم، لذلك لا يستفزهم الجاهلون، ولا يثيرهم سبهم، وطلبهم للبراز في ميدان الجدل

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ هكذا يقاوم المؤمنون محاولات التحريف بالاستقامة أمام الضغوط، وعدم التأثر بالمحيط الاجتماعي الفاسد، وإلى هذا دعا الإسلام أبناءه.

قال الإمام علي عليه السلام: «خَالِطُوا النَّاسَ بِأَبْدَانِكُمْ وَزَايِلُوهُمْ بِقُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»[1].

[٥٦] وفي آخر آية يحدد الله مسؤولية حامل الرسالة وهي التبليغ، أما أن يجبر الناس على الهداية، فليس ذلك من شأنه، لأن الهداية لا تتأتى لأحد إلا بسعيه وتوفيق الله له ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾.

(١) بحار الأنوار: ج٢، ص٧٩.

وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ[1] مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ[2] إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ[3] مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا[4] رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾.

هدى من الآيات:

للإنسان موقفان متناقضان تجاه النعمة، فإما الشكر وإما الكفر.

الشكر أن تكون النعمة سبيلا للوصول إلى هدفها، فكل شيء في الحياة هو وسيلة لهدف أسمى منه، فالنشاط وسيلة للسعي، والسعي وسيلة لعمارة الأرض، وعمارة الأرض وسيلة لرخاء الإنسان وراحته، والرخاء والراحة وسيلة للكمال الروحي، وهكذا تستهدف من كل

---

(١) نتخطف: التخطف أخذ الشيء على وجه الاستلاب.

(٢) يجبى: أي يؤتى إليه ويجلب.

(٣) بطرت. هو الطغيان عند النعمة.

(٤) أمها: أم القرى مكة وقيل المقصود بها المدن الكبرى.

نعمة نعمة أخرى أعظم منها، في سلسلة متصاعدة ويكون المنتهى فيها ما قاله عز وجل: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨].

والشكر الحقيقي هو الذي يوصل الإنسان إلى التفكير في عوامل النعم و أسبابها، وبالتالي المحافظة عليها لتدوم له النعم، حيث إن بقاءها مرهون ببقاء عواملها، فظاهرة الصحة هذه النعمة - باقية مادامت الوقاية، ومادامت سلامة النفس والحركة، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى نجد موقف الكفر، والذي يتلخص في ثلاثة أمور هي:

الأول: عدم الاهتمام بعوامل النعمة.

الثاني: عدم السعي لتحقيق أهدافها.

الثالث: اتخاذ الموقف الخاطئ منها.

وفي هذا الدرس نجد معالجة عميقة لهذين الموقفين -الشكر والكفر- فمع أننا لا نجد هاتين الكلمتين إلا إن الآيات -من هذا الدرس حتى قصة قارون- تحدد للإنسان الموقف السليم من النعمة.

إن أهل مكة من العرب كانوا يتصورون أن النعمة التي يتقلبون فيها ناشئة من الواقع القائم، حيث عبادة الأصنام، وفرض السيطرة على العرب من خلال الموقع الاقتصادي والاجتماعي، لذلك لم يكونوا يريدون الإيمان بالرسول ﷺ خوفا من تمرد العرب ضدهم، وبالتالي خسران هذه المكتسبات، فأجابهم الله:

أولاً: إنكم لم تعرفوا السبب الحقيقي للنعمة. إنه إرادة الله، وحكمه الذي قضى بحرمة البيت، وهكذا إذا تمسكوا بسائر أحكام الله نزلت عليهم البركات لا تلك القيم الفاسدة التي تتصورونها، وبالتالي فإن الإيمان به و برسوله سوف يزيد هذه النعمة ويحافظ عليها.

ثانياً: إن النعم قد تكون نقمة على صاحبها، وذلك عندما تخدعه و تدعوه للغرور، فكم هي القرى التي تصاعدت في مدارج النعم المادية إلى أن بطرت معيشتها فدمرها الله بسبب كفر أهلها، بعد أن أقام الله عليهم الحجة ببعث رسله وأنبيائه، وإذ يشير الله إلى ما آلت إليه تلك القرى، فإن في ذلك إنذارا لأهل مكة.

ثالثاً: ثم لو افترضنا جدلا أنها لم تكن من عند الله، فإن دعوة القرآن لهم ليست من أجل الرخاء المادي فحسب، بل من أجل نعيم الآخرة الذي لا يحصى أيضا، ولو أنهم خسروا هذا النعيم المحدود بسبب إيمانهم بالرسالة، فإن الله سيعوضهم ما هو أفضل منه في الدار الآخرة،

فكيف والحال أن الإيمان بها يمنحهم مزيدا من التعيم في الدنيا، والثواب في الآخرة؟!.

والدرس بمجمله يطهر القلب من أدران حب الدنيا المانعة من الإيمان بالرسالة، وذلك من خلال بيان خطأ موقف أهل مكة الذين لم يبادروا إلى الإيمان خشية فقدان مصالحهم العاجلة.

بينات من الآيات:

[٥٧] ترى بعض النظريات أن المدنية تورث الخوف لأن أهلها يريدون الاحتفاظ بمكتسباتها، فيقدمون التنازلات لدرء الأخطار عن أنفسهم، ولعل أهل مكة كانوا في هذه المرحلة. إذ كانوا يخشون من الاصطدام مع قبائل العرب حتى لا يخسروا مكتسباتهم، وكانت القضية التي يتوقع أنها تثير العرب ضدهم هي إيمانهم بالرسالة الجديدة، فكفروا بها وقالوا: نخشى أن تزول حالة الأمن التي نعيشها لو أننا آمنا، فتطفق العرب باقتحام بلدنا، و اختطافنا من الأرض ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾، وفي هذا الحديث اعتراف منهم بأن سبب كفرهم بالرسالة ليس في نقص الأدلة، بل اتباعهم الهوى المتمثل في مصالحهم الخاصة، وقد رد الله عليهم:

أولاً: إن مصدر هذه النعم هو الله، وليس الناس حتى يتصوروا أن الاختلاف معهم سوف يؤدي إلى زوالها، فالله هو الذي جعل الكعبة محلا آمنا، وفرض على الناس جميعا ومن فيهم العرب -من الناحية التشريعية الدينية- الالتزام بحرمتها وإلا لما كانت مكة بلدا آمنا في عرف قوم شعارهم الخوف، ودثارهم السيف، ولهجموا عليها، وحطموا الحضارة الناشئة فيها.

ولو كان ثمة قانون يمنعهم من ذلك لمنعهم من التقاتل. إن الذي يمنعهم هو القانون الإلهي منذ أيام إبراهيم عليه السلام بحيث لو التجأ الصيد إلى الحرم ما كانوا يصطادونه احتراما للكعبة، حتى قال شاعرهم[1]:

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند

يعني قسما بالله الذي أعطى الأمان للطيور التي تستعيذ بالحرم، حتى إن القوافل التي تذهب إلى مكة لتمسح على ظهرها. ولكن قريش لم يعقلوا هذا العامل الأساسي، لما يتمتعون

---

(١) العائذات: ما عاذ بالبيت الحرام من الطير، الغيل: الشجر الكثير الملتف، السند: ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح.

به من أمن ورفاه، لذلك لم يشكروا الله، ولم يؤمنوا برسالة الإسلام، ولو أنهم فعلوا ذلك لاستزادوا من الأمن و البركة.

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ إن أهم النعم لدى أهل مكة كانت هي: الأمن الآتي من حرمة الكعبة، والرفاه بسبب سيطرة أهلها على التجارة، وبسبب توافد الحجاج إلى البيت الحرام. كانوا يحملون معهم خيرات الأرض بالرغم من أن مكة كانت بين جبال وعرة، وأراض جرداء.

﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقد ذكرنا مرة أن هناك فرقا بين الرزق والكسب، فالرزق هو ما يعطيه الله للإنسان هبة وعطاء، وربما بدون سعي، بينما الكسب هو ما يعطيه الله له بعد السعي، والآية تبين أن نعمتي الأمن والرخاء التي كانت ولا تزال لأهل مكة، لم يسع أهلها من أجلها سعيا، وإنما الله هو الذي تفضل عليهم بهما، وعدم إدراكهم لهذا العامل - الذي جاءت بسببه هاتان النعمتان - هو الذي جعلهم يبطرون بالنعمة، ويكفرون بالرسالة، بدل أن يشكروا الله عبر الإيمان برسالته، و طاعة القيادة التي فرضها.

ولعل الآية تشير إلى أهمية التشريعات الرشيدة في بناء الحضارات، و أن القيم الإلهية هي السبب في بركتي الأمن والرخاء للناس.

[٥٨] ثانياً: قد تضحي النعمة نقمة على أصحابها، وذلك إذا صارت هدفا بذاتها، بينما ينبغي للإنسان أن يشكر ربه عليها، وإن شكر أهل مكة الله على نعمتي الأمن والرخاء يتمثل في الإيمان برسوله، وهذا هو السبيل الأوحد للحفاظ على النعم ومنع تحويلها إلى نقمة، وهكذا يبقى الضمان الوحيد لاستمرار الحضارات اتباع رسالات الله ورسله، ومن أبرز فوائد الرسالات كبح جماح الإنسان من الاسترسال مع النعم إلى حد البطر والطغيان و الغرور، حتى ينسى الحدود، ويتجاهل الحقوق، ويندفع في اتباع اللذات إلى أبعد مدى؛ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾، والله لا يدمر القرى لمجرد أنها مرفهة، وكيف يكون ذلك وقد خلق البشر ليرحمهم؟ كلا.. إنه هو الذي وفر النعم للناس، ويخطئ أولئك الذين يصورون الدين بأنه يعارض النعم بذاتها، مفسرين الآيات والروايات التي تتناول موضوع الزهد: بأن الدين لا يجتمع مع الدنيا، أو السياسة. كلا.. إنما دمرها لأنها بطرت بالنعم، وأصابها الغرور، ولم تصل بالنعم إلى أهدافها.

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لقد سكنت من بعدهم تلك المساكن ولكن قليلا، لأنها كانت لا تزال منحوسة، مما جعل ساكنيها الجدد

يرحلون عنها سريعا، ولعل الآية تشير إلى سنة إلهية هي: أن البلاد المدمرة بالعذاب لا تبقى فيها مقومات الحضارة، وهكذا لا نجد الحضارة قد تجددت في ذات المواقع التي دمرت، مما تجعل نتائج البطر بالمعيشة تمتد إلى المستقبل البعيد.

[٥٩] ثم يبين الله -وخلافا لنظرية الحتمية التأريخية التي تتصور الدورات الحضارية مرهونة بالزمن ذاته- أن العامل الأول في الدورات الحضارية بعد إرادة الله هي إرادة الإنسان، فلو بقيت أمة تسير في الخط السليم، فستبقى تتقدم وتتطور أكثر فأكثر، ولن يؤثر فيها الزمن بذاته، و الله لا يسلب حضارة قوم أو يهلكهم هلاكا ماديا، إلا بعد تحقق أمرين:

ألف: إقامة الحجة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ويعلل الله عز وجل هذا الأمر في الآية (٤٧) من السورة (القصص) نفسها إذ يقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويبعث الله رسولا في أم القرى يتناسب مع هدف إقامة الحجة، وقد لا يقصد القرآن من كلمة الأم المدينة الأكثر سكانا، بل الأنسب حيث تصل أصداء الرسالة منها إلى أوسع رقعة من الأرض.

بـــاء: الظلم: فبالإضافة إلى أن سنن الله تقتضي زواله، ودمار أهله، فإنه يحمل عوامل انهياره فيه، فالطاغوت الذي يظلم الآخرين، ويسلب حقوقهم لا يسلم من ردة الفعل إن لم ينزل عليه عذاب مباشر من الله كالمرض والغرق و ما إلى ذلك؛ ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾، والظلم هو الصورة العملية لرفض رسالات الله، بل لمحاربة الله تعالى.

وكلمة أخيرة: إن قسما من الناس يتصورون بأن الإيمان بالله، و الالتزام برسالته، وبما يتضمنه كل ذلك من الالتزامات المالية، أو التحديات السياسية وما شابه سوف يسلب منهم النعيم، بينما سنة الحياة تقضي بالعكس، حيث يهلك الله الذين يكذبون برسالاته، والعبرة جلية في التأريخ، وبالتالي فمن الأولى أن يخشى أهل مكة من عاقبة رفضهم للرسالة أن يفقدوا كل شيء لا من إيمانهم بها، أو ليس الشكر هو التفكير في عوامل النعمة، والحفاظ عليها، وبالتالي الحفاظ على النعمة ذاتها؟!.

[٦٠] ثالثاً: إن الهدف الأسمى الذي يجب أن يسعى الإنسان من أجله هو نعيم الآخرة لا حطام الدنيا، والدنيا يجب أن تكون وسيلة تخدم الغاية العظمى للبشر. إلا إن الكثير من الناس يتوقفون عند الوسيلة، وتضحى عندهم هدفا، وذلك لضآلة طموحهم، وضيق أفقهم.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ المتاع هو الوسيلة لتحقيق هدف ما، وبتعبير آخر الضروريات، ومتاع المسافر هو ما يحتاجه لسفره، والزينة وسيلة التجميل أي الكماليات.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ من حيث النفع والإفادة (البعد المادي)، ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ من حيث الدوام (البعد الزمني).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إن في الإنسان جانبان، هما: العقل والشهوة.

وطبيعة النفس البشرية أنها ميالة للهوى، والله لم يقل: تخلوا عن الدنيا بكاملها، وإنما حمل الإنسان مسؤولية الاختيار السليم الذي تدعو له رسالات الله وعقل الإنسان، وهل يختار عاقل المتاع والزينة الزائلين على الخير الدائم؟!

إن التعقل الذي تدعو له الآية الكريمة، هو أن يجعل الإنسان الدنيا وسيلة للآخرة، ولن يتضرر الإنسان لو خسر الدنيا (وتخطف من أرضه) إذا كان ذلك في سبيل الله، ولو أننا وقفنا على مفترق الطريق بين زينة الدنيا ونعيم الآخرة، فإن واجبنا أن نختار الآخرة على الدنيا، وهذا ما يحكم به العقل السليم.

[٦١] و لهذا نجد القرآن يؤكد: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ من مشاكل النفس البشرية أنها تميل للأشياء الحسية الآنية، والإنسان ينساق وراء الدنيا لأنها بين يديه، ويرفض الآخرة لأنها مؤجلة، ومثل الإنسان الذي يختار الدنيا على الآخرة كالذي يفضل ديناراً واحداً حاضراً، على مليار دينار غائب، تتأخر عنه يوما أو بعض يوم.

وربك يخلق ما يشاء ويختار

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) ﴾.

هدى من الآيات:

لماذا يكفر المرء بكتاب ربه وبرسوله؟ وكيف ينبغي أن نتجاوز عقبات الإيمان بهما؟.

في درس سبق تلونا آيات تنسف عقبة عبادة الهوى، ورعاية مصالح الدنيا، ولكن هل كل الناس تأسرهم مصالحهم؟ فكيف بهؤلاء المحرومين الذين يكفرون بالرسالات أيضا؟.

الجواب: إنهم يتبعون مترفيهم، ويتخذونهم آلهة يشركون بهم ربهم، أو ليسوا يسمعونهم دون تفكر، ويخضعون لهم وما أنزل الله لهم سلطانا؟!.

هكذا يعالج القرآن في هذا الدرس مرض الشرك لنعرف أن توحيد الله الخالص منهج كل هدى، وسبيل كل صلاح.

والشرك في القرآن الحكيم، هو أن يعتقد الإنسان، بأن شيئا أو شخصا غير الله يهيمن مع الله على أحداث الكون ومتغيرات الحياة، ويبين لنا القرآن عبر آياته الكريمة العوامل النفسية للشرك، ويطهرها من هذه العوامل.

وفي هذا الدرس يصور لنا الله مشهدا من القيامة. إذ يقف المشركون مع آلهتهم المزيفة للحساب، فيسأل الله الشركاء المزعومين: لماذا اتخذوكم آلهة من دوني؟ ولماذا أضللتم الناس؟.

فيكون جوابهم: إننا بدورنا كنا ضالين أيضا، ونستفيد من هذا الحوار أمرين:

الأول: أن المشركين اتبعوا بشرا مثلهم، فليس الشرك -إذن- محصورا في عبادة الأصنام والتماثيل الحجرية. إذ ليس معقولا أن يحمل الحجر مسؤولية شرك الآخرين به، كما لا يصح للحجر الهدى أو الضلال حتى يقول: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾.

الثاني: إن معنى الشرك هنا هو الشرك الثقافي، إذ إن الناس اتبعوا مجموعة آراء وعقائد من دون أن يتبينوا، أو أن يكون ثمة حجة وبرهان من عند الله عليها، فلا هم اتبعوا عقولهم، و لا هم اتبعوا الحجة الإلهية، ويتضح هذا في قولهم: ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ إذن الغواية هي الضلال المتعمد وعلماء السوء، والأقلام المأجورة، والمفكرون المنحرفون مثال واضح لهؤلاء، فهم بدورهم يَضِلون ويُضِلون. واتباع هؤلاء الفريق يجب أن يكون مبنيا على بينة وحجة واضحة وإلا فهو شرك.

ونستوحي من تواصل الحديث حول الشرك والقيادة الشرعية التي يختارها الرب: أن الله قد خلقنا وهو الذي يختار ولسنا نحن المخلوقين، أقول: نستوحي من ذلك: أن اتباع أولياء الشيطان هو الشرك بعينه، بل أي متابعة لم يأذن بها الله شرك أيضا. كما نستوحي من سياق الآيات التالية: أن إتباع الرسول و خلفائه تطبيق عملي لعقيدة التوحيد في الحياة، ذلك لأن ربنا يذكرنا فيها بأنه هو الله لا إله إلا هو. ويبدو أن هذا الدرس -إجمالا- يكرس شرعية قيادة الرسل، و زيف القيادات الجاهلية.

بينات من الآيات:

أغويناهم كما غوينا

[٦٢] في يوم القيامة يجمع الله الآلهة المزيفة، والذين عبدوهم من دون الله، ثم تبدأ فصول المحاكمة التي تجري على الملأ العام، ونستفيد ذلك من كلمة ﴿يُنَادِيهِمْ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ والتعبير القرآني ذروة في البلاغة، إن ربنا يسميهم بالشركاء، ويتساءل أين هم الآن ليجعل وجدانهم يجيب قبل ألسنتهم، بل ليجعلهم يبلغون الحقيقة اليوم بنقلة وجدانية خاطفة قبل أن يتورطوا في العذاب في ذلك اليوم ولات حين مندم.

في ذلك اليوم ليس فقط يتبرأ التابعون حين يرون العذاب من المتبوعين، بل يبادر هؤلاء بالاعتراف الصريح بغوايتهم.

[٦٣] فيجيب الذين سبقوا إلى الضلالة، وهم طلائع أهل النار وأئمتها: ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ هؤلاء قد ثبت عليهم القول في الدنيا قبل الآخرة. إذ أضلهم الله بظلمهم، وسلب منهم مصباح العقل، ونور القلب، وتركهم في ظلمات يعمهون.

ونجد هؤلاء ينطقون في الموقف. أو ليسوا في الدنيا صنعوا ناطقين باسمهم؟! دعهم اليوم يعترفون بأنفسهم على غوايتهم، وهؤلاء يدخلون النار من دون حساب.

وتلخص الآية موقفهم في نقطتين:

الأولى: الاعتراف بالضلالة: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ أي أضللناهم عن الطريق المستقيم؛ ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ فنحن بدورنا كنا ضالين، وما فعلناه أننا عكسنا ضلالتنا عليهم، وهكذا تنكشف الحقائق كلها يوم القيامة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[ق: ٢٢].

الثانية: البراءة من المشركين: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ لعل معناه: أنهم في قرارة أنفسهم كانوا يعلمون بأننا لسنا بآلهة، وإنما عبدونا لشهواتهم وأهوائهم، وإذ ينقل القرآن هذا المشهد من القيامة، فلكي يستثير وجدان الإنسان نحو عدم اتباع الآلهة المزيفة من الطغاة والقوى الاجتماعية المختلفة. إذ كيف يتبع شخصا أو جهة تتبرأ منه حين العسرة؟!.

[٦٤] ثم يتوجه الخطاب إلى التابعين والمشركين بالله: ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ ليخلصوكم من العذاب؛ ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ وتحتمل الآية معنيين:

١- أن المشركين حينما يرون العذاب يتمنون في أنفسهم لو كانوا مهتدين من قبل في الدنيا.

٢- أن المشركين كانوا يرون هذه النتيجة منذ كانوا في الدنيا لو أنهم كانوا يتبعون الهدى،

لم يقعوا فيها الآن، لأن الذي يتبع هدى الرسالة يكتشف نتائج الشرك وهو العذاب.

[٦٥] تجري محاكمة المشركين الذين أطاعوا كبراءهم و مترفيهم من دون أن يأذن الله لهم في ذلك، ويسألون عن موقفهم من الرسل وخلفائهم الشرعيين الذين هم القيادة الحق لهم.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فهل أطعتموهم؟.

إن القيادة المنتخبة من قبل الله ميزان في الدنيا بين الحق والباطل، وميزان في الآخرة بين الجنة والنار، ولذلك يسأل الناس عنها يوم القيامة.

نقرأ في النصوص أن أبا حنيفة -إمام المذهب- يحاور الإمام الصادق عليه السلام في الآية: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨]، فيسأله الإمام عنها: «مَا النَّعَمُ عِنْدَكَ يَا نُعْمَانُ؟. قَالَ: الْقُوتُ مِنَ الطَّعَامِ وَالمَاءُ الْبَارِدُ. فَقَالَ عليه السلام: لَئِنْ أَوْقَفَكَ اللهُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَسْأَلَكَ عَنْ أَكْلَةٍ أَكَلْتَهَا أَوْ شَرْبَةٍ شَرِبْتَهَا لَيَطُولَنَّ وُقُوفُكَ بَيْنَ يَدَيْهِ.

قَالَ: فَمَا النَّعِيمُ جُعِلْتُ فِدَاكَ؟!. قَالَ عليه السلام: نَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ النَّعِيمُ الَّذِي أَنْعَمَ اللهُ بِنَا عَلَى الْعِبَادِ، وَبِنَا ائْتَلَفُوا بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُخْتَلِفِينَ وَبِنَا أَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَجَعَلَهُمْ إِخْوَاناً بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَعْدَاءً، وَبِنَا هَدَاهُمُ اللهُ لِلإِسْلَامِ، وَهِيَ النِّعْمَةُ الَّتِي لَا تَنْقَطِعُ وَاللهُ سَائِلُهُمْ عَنْ حَقِّ النَّعِيمِ الَّذِي أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ وَهُوَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وَعِتْرَتُهُ عليهم السلام»[1].

[٦٦] ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ فهناك خرست ألسنة الأنباء، وعميت عيونها، وتوقفت المصادر الخبرية فلم تحمل حقيقة، لذلك عاشوا في منتهى الحيرة، ولم يسأل بعضهم بعضا شيئا، لأنهم جميعا في الجهل شرع سواء، وذلك لبلاغة الحجة الإلهية التي لا تترك لهم مجالا للتبرير.

[٦٧] نعم لو ضل الإنسان لفترة من الزمن عن اتباع القيادة الرسالية أو عن الانتماء إلى صفوف الجماعة الرسالية، لكنه تاب بعد ذلك، فإن الله يقبل توبته: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ وشرط قبول التوبة هو الرجوع عن الخطأ بمحو آثاره الباطنية من النفس عن طريق الإيمان بالرسالة، وآثاره الظاهرية من السلوك بالعمل الصالح، إذ لا يكفي أن تفتح مع الله صفحة جديدة، بل لا بد أن تملأها بعمل الصالحات.

فالعسكريون الذين ينتمون لنظام فاسد ظالم ويخدمون مصالحه ضد الناس يمكنهم أن يتوبوا بالتمرد على النظام الفاسد، والانتماء إلى خط المؤمنين والعمل في سبيل الله، كما فعل الحر

(١) مستدرك الوسائل: ج١٦، ص٢٤٧.

بن يزيد الرياحي حينما ترك معسكر ابن زياد، وحارب بين يدي الإمام الحسين عليه السلام حتى الشهادة.

﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ ويستخدم القرآن كلمة ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ التي يستفاد منها الإمكان ظاهرا وليس التحقيق، حتى يتضح لنا عظم الذنب فلا نصاب بالغرور، أو الرجاء المفرط الذي لا تقل نتيجته سوءا عن القنوط التام من رحمة الله، كما إن بقاء عقدة الذنب في نفس الإنسان من صالحه إذا كان يدفعه للعمل والسعي الأكثر في سبيل الله. طمعا في مرضاته عز وجل.

وربك يختار

[٦٨] ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ إن فطرة الإنسان وعقله يهديانه إلى أن مالك الشيء هو الذي يحق له التصرف فيه، ومالك الخليقة هو الذي يصح له التصرف فيها لأنه خالقها، ولأن الإنسان جزء من الخليقة فلا بد أن ينتظر إذن الله في اتباع القيادة التي يعينها سبحانه، فليس من المقبول -وجدانا- أن يخلقني الله ثم أختار لنفسي دونه القيادة السليمة والولاية الضرورية.

قال الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: «يَخْتَارُ اللهُ الْإِمَامَ وَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَخْتَارُوا»[1].

وفي أصول الكافي عن الإمام الرضا عليه السلام في فضل الإمام وصفاته قال: «... لَقَدْ رَامُوا صَعْباً وَقَالُوا إِفْكاً وَ: ﴿ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ وَوَقَعُوا فِي الْحَيْرَةِ إِذْ تَرَكُوا الْإِمَامَ عَنْ بَصِيرَةٍ ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ رَغِبُوا عَنِ اخْتِيَارِ اللهِ وَاخْتِيَارِ رَسُولِهِ إِلَى اخْتِيَارِهِمْ وَالْقُرْآنُ يُنَادِيهِمْ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾»[2].

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وفي الآية تأكيد على أن اختيار قيادة غير إلهية، والتي تعرف بالتعيين المباشر، أو من خلال المقاييس المبدئية يعتبر نوعا من الشرك.

[٦٩] ولا يحق لنا حينما نعرف القيادة الحقيقية أن نتركها إلى غيرها بمختلف التبريرات،

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص١٤٣.

(٢) الكافي: ج١، ص٢٠١.

أو بالهوى في مقابل النص و المقياس الإلهي، فإننا مهما أخفينا الأسباب والدوافع، إلا إن الله يعلمها ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ الأسباب الباطنية، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ الأسباب الظاهرية.

[٧٠] فإذا أردنا اختيار قيادة فلا نختار غير ما يريده الله لأنه إلهنا، فهو أولى بنا من أنفسنا، وهذا معنى التوحيد.

﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فالذي خلق وأحاط علمه بالغيب والشهادة أحاطت رحمته الخلق في المبدأ والمصير، وهو المهيمن على شؤون الخليقة. إنه الحميد الذي يختار لنا إمامنا الذي نطيعه.

وأحسن كما أحسن الله إليك

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا[1] إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

هدى من الآيات:

الإله في اللغة هو ما يتأله إليه بالبكاء[2] ويرجع إليه عند الشدائد، وبالتالي هو الذي

(١) سرمداً: أي دائماً.

(٢) قال ابن الأعرابي: «الأل كل سبب بين اثنين». وقال ابن الفارسي: «الأل: الربوبية»، وقال الفراء: «الأل رفع الصوت بالدعاء والبكاء»، ويبدو أن ما ذكرناه آنفا يجمع المعاني المختلفة للكلمة. راجع (معجم مقاييس اللغة): ج١، ص٢٠ - ٢١.

ينبغي أن يتخذ وليا، وفي هذا الدرس الذي يذكرنا بربنا عسى أن نسقط الشركاء من حسابنا، ونخلص العبودية لربنا، ونطيع من أمرنا بطاعته من رسله وأوليائه، و نتمرد ضد الطغاة، والظالمين الذين اتخذوا من دون الله أنداداً، و يتساءل السياق عن الإله الحقيقي، الذي يجب أن يتخذه الإنسان وليًّا ونصيراً، وقائدا ومولى، ثم يقول مباشرة: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وكثيراً ما تتكرر هذه الصيغ وشبيهاتها: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.. الخ في القرآن، وفي ذلك تأكيد لفكرة مهمة هي: أن وجود الآيات وحدها في الكون لا يكفي، بل لا بد من وجود جهاز استقبال عند البشر حتى ينتفع البشر منها، فهل ينفع نور الشمس من أغمض عينيه؟!.

إن الله هو الذي جعل الليل سكنا، والنهار ميدانا للسعي و النشاط، وهو الذي يقدر حياة الخلق وموتهم، والمطلوب منا أن نتخذه إلها حقا، وذلك بأن نستمع لرسله، ونبصر آياته، ثم نعقلها لنعرف الحقائق.

نجد في الآيات الأخيرة من هذا الدرس إشارة بل توضيحا لفكرة القوة المالية في الحياة، فما هو الهدف من النعم الإلهية على البشر؟.

إن الهدف من النعم هو الوصول إلى الكمال الروحي، و العروج بقيم الإنسان وروحه في مدارج المجد والعظمة عبر الشكر لله، والذي يمثل الأثر الإيجابي المنبعث عن وجود النعم، و ذلك أسمى من الرفاه والرخاء المادي، ومن لا يشكر النعم تتحول لديه إلى نقمة من الناحية النفسية، فترى نعمة الفراغ تتحول عنده إلى قلق وضياع، تجده بدل أن يصرف الملايين التي يمتلكها في سبيل راحة نفسه وعائلته وأمته، يذهب بها للفساد فيحطم شبابه، ثم يعود صفر اليدين.

وشكر النعمة هو الذي يجعلها نافعة، بينما الكفر بها يحولها نقمة على صاحبها، ويتمثل الشكر في الانتفاع بها ضمن الحدود المشروعة لأهداف خيرة، وقارون كان بعكس ذلك تماما، فقد أعطاه الله من الكنوز ما تنوء مفاتحها بالعصبة الأقوياء، لكنه بدل أن يستفيد منها، وهو من شعب مستضعف كفر بها وبربها كما يذكر القرآن ذلك في الدرس القادم، ولكن السؤال: ما هي مناسبة الحديث عن قصة قارون، وبالضبط عند الحديث عن القيادة؟.

الجواب: إن الانحراف البشري عن القيادة الصحيحة، يتم بسبب ضغط إحدى القوتين: فإما قوة الإرهاب والسيف، أو قوة المال والثروة، وإذا كان فرعون مثلا للقوة الأولى، فإن قارون مثل للقوة الثانية، و إذ يضرب الله لنا هذه الأمثال فلكي يقيم الحجة علينا، فلا نلتف حول صاحب الثروة لماله، ولا حول من يملك الحكم لقوته.

بينات من الآيات:

[٧١] لا ينكر أحد بأن الذي أضاء بنوره الأرض وما فيها هو الله، ويعرف الكل أنه الأحق بالطاعة ممن لا يملك نفعا ولا ضرا، و لا ضياء ولا هدى من جبابرة الأرض ومترفيها.

بلى؛ يعرف الناس جميعا هذه الحقيقة، ولكنهم لا يعقلونها، فتراهم يركضون وراء الطغاة والمفسدين طمعا في بعض الثروة، أو خشية من أذاهم.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دائماً ومستمراً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وهذا هين على الله، فهو يستطيع أن يحجب نور الشمس لتتحول الأرض ظلاما دامسا، ولو فعل ذلك لما استطاع أحد أن يعيد النور مرة أخرى ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.

[٧٢] ثم لو جعل الله النهار أبدا سرمدا، هل يقدر من نعبدهم من دونه على المجيء بالليل لنسكن فيه، وننعم بهدوئه الذي ينفذ حتى في عظامنا.، وأنسجة أعصابنا.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

وبالمقارنة بين الآيتين نستفيد فكرتين مهمتين:

الأولى: أن الله قال في الآية (٧١): ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ من دون أن يبين فائدة الضياء، بينما قال في الآية (٧٢): ﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ﴾ و بين إحدى فوائده ﴿تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ ولعل ذلك لأن الإنسان ينام بالليل، فلا يتفكر في أهميته فاقتضى التنبيه.

الثانية: أنه عز وجل قال في حديثه عن الليل: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ بينما قال في حديثه عن النهار ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأن الحاسة التي يمكن للإنسان الاستفادة منها في الظلام هي السمع، لأنه لا يرى فيه، بينما يعتمد أكبر شيء في النهار على حاسة البصر.

ويبدو أن معنى الآية: أفلا تسمعون عن نعمة الليل، أفلا تبصرون نعمة النهار.

[٧٣] ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي في الليل، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ في النهار، كأمر طبيعي بالنسبة للإنسان، والليل والنهار يبعثان حالة الشكر والرضى في البشر. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وذلك لـ:

١- لأن نفس الإنسان لا ترتاح على نمط واحد، بينما التنوع يرضيها ويبعثها على الشكر.

٢- الذي يعمل بالنهار وينام بالليل يحصل على وقت للتفكير في إنجازاته فيرتاح، وللتفكير في مستقبله فيخطط له، وحينما يأتي لعمله في النهار يكون قد أخذ قسطا من الراحة والاستعداد لبذل جهد ونشاط أفضل.

٣- ثم إن هدف المؤمن من الحياة أسمى من الماديات، فهو من وراء النعم يسعى للشكر، لذلك تراه في حالة من الرضى و الاطمئنان مهما كانت الظروف معاكسة للطموحات المادية المغروزة فيه، لأنه ينظر إلى الجوانب الإيجابية في الحياة.

وفي الحديث عن ابن عباس: «أَنَّ امْرَأَةَ أَيُّوبَ قَالَتْ لَهُ يَوْماً: لَوْ دَعَوْتَ الله أَنْ يَشْفِيَكَ؟!. فَقَالَ عليه السلام: وَيْحَكِ كُنَّا فِي النَّعْمَاءِ سَبْعِينَ عَاماً فَهَلُمِّي نَصْبِرْ فِي الضَّرَّاءِ مِثْلَهَا. لَمْ يَمْكُثْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا يَسِيراً حَتَّى عُوفِيَ»[1].

فعلموا أن الحق لله

[٧٤] الله هو الخالق وصاحب الفضل والنعمة على البشر، وله وحده يصرف الشكر، إلا إن البعض بدل أن يفعل ذلك تراه يشرك بالله، فيعتقد أن السلطة أو أصحاب القوى المختلفة هم مصدر النعم والفضل عليه، فيعبدهم من دونه تعالى، وحساب هؤلاء عسير عند الله ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فلا يجيبون، وقد سبقت آية مشابهة تماما لهذه الآية وهي آية (٦٢) مما يدل بأن النداء الإلهي مرة يكون أمام قادة المشركين من أئمة الضلال، ومرة في حضور الرسل وخلفائهم من أئمة الهدى.

[٧٥] ويتم الحجة عليهم عندما يستدعي الشهود على كل أمة منها: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهم الأنبياء والأئمة. جاء في آية كريمة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. وجاء في حديث شريف في تفسير هذه الآية: «مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامُهَا»[2].

﴿فَقُلْنَا﴾ للمشركين: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ إن كانت لديكم حجة على طاعتكم للأنداد، واتباعكم لذوي الثروة والسطوة، ولكنهم لا يجدون جوابا. إذن علينا أن نفكر مرتين قبل أن

(١) مستدرك الوسائل: ج٢ ص١٥٠.

(٢) بحار الأنوار. ج٢٣، ص٣٤١. وفي الكافي: ج١، ص١٩٠، «نَزَلَتْ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله خَاصَّةً فِي كُلِّ قَرْنٍ مِنْهُمْ إِمَامٌ مِنَّا شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ وَمُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله شَاهِدٌ عَلَيْنَا».

نتبع قائدا، لننظر هل تملك على طاعته برهانا يوم القيامة، حيث لا ينفع الجدل والتطني والتبرير ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ يوم القيامة تبلى السرائر، وتظهر الحقائق، ويتلاشى الباطل و الكذب، كما تتبدد الأعمال المنافقة، ولعل فاتحة الآية تشير إلى ضلال وضياع عبادتهم للأنداد، وأيضا أعمالهم التي مارسوها في الإطار الشركي.

[٧٦] ومن جملة ما يفتري الإنسان على الله هو اتباع مالكي المال والثروة ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ انحرف عنهم، وصار يظلمهم.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ والعصبة كما في تفسير علي بن إبراهيم: «مَا بَيْنَ الْعَشَرَةِ إِلَى خَمْسَةَ عَشَر»[١].

لقد رزقه الله كنوزا ذات مفاتيح (صناديق وخزائن) لو حملتها العصبة أولو القوة لأرهقتها، وكان الهدف من إعطائه الثروة امتحانه. ذلك أن المؤمن الحقيقي تزيده الثروة قربا إلى الله، وتواضعا في خدمة الناس، -ولهذا جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَأَجْرِ الصَّائِمِ الْمُحْتَسِبِ، والْمُعَافَى الشَّاكِرُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَأَجْرِ الْمُبْتَلَى الصَّابِرِ، والْمُعْطَى الشَّاكِرُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَأَجْرِ الْمَحْرُومِ الْقَانِعِ**»[٢]-.

أما ضعيف الإيمان أو المنافق فإنها لا تزيده من الله إلا بعدا، وفي الناس إلا تكبرا وغرورا، ولم يكن قارون من النوع الأول، فبادر المؤمنون لنصيحته: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ﴾ والفرح في هذه الآية بمعنى الغرور، وهو انعدام الهدف، و إحساس الإنسان بحالة الإشباع (انعدام المسؤولية) وكثير هم الذين يصابون بهذا الداء بسبب الجاه والثروة، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ لأنهم ينسون الله فينساهم، بل كثيرا ما يجرهم الفرح لمبارزة الله.

[٧٧] الدنيا سلاح ذو حدين فإما تؤدي بصاحبها إلى النار و ذلك حين يتصورها هدفا بذاتها، وإما أن تؤدي به إلى الجنة و ذلك حينما يتخذها مطية لعمل الصالحات. فالغنى يصير فضيلة إذا استخدمه صاحبه في سبيل الله. هكذا يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن الدنيا: «**مَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ ومَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ**»[٣].

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص١٤٤.
(٢) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٤١.
(٣) نهج البلاغة: الخطبة: ٨٢.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ بإخراج حق الله وحق المحتاجين، وصرف المال في عمل الصالحات كبناء المساجد، ومساعدة الحركات الإسلامية، والإسلام لا يطالب الإنسان بإعطاء كل ماله في سبيل الله ثم يجلس خالي اليد، بل يطالبه بالاعتدال في الإنفاق بقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهذه الآية دليل على هذا التفسير، وعلى خطأ النظرة القائلة بفصل الدين عن الدنيا. إذ بإمكان الإنسان أن يبني مسجدا إلى جانب بيت فخم. إلا إن للإمام علي عليه السلام تفسيرا آخر ينسجم -مع سياق الآيات- ولعلاج نفسية شحيحة، كما كانت عند قارون أمثولة الترف والفساد، يقول الإمام عليه السلام: **«لَا تَنْسَ صِحَّتَكَ وقُوَّتَكَ وفَرَاغَكَ وشَبَابَكَ ونَشَاطَكَ وغِنَاكَ أَنْ تَطْلُبَ بِهِ الْآخِرَةَ»**[1].

ذلك أن ما يبقى من الدنيا ليس سوى ما يبعثه الإنسان إلى الآخرة.

ثم أكد السياق ضرورة الإحسان إلى الناس، والإحسان هو بذل المزيد من الأموال مضافة إلى الحقوق المالية المفروضة، ولا ريب أن الثروة المكدسة لا تهنأ لصاحبها من دون الإحسان، وإن لذة روح الإنسان من الإحسان أعظم بكثير من لذة بدنه بالترف، كما إن الإحسان يمتص نقمة المحرومين على صاحب الثروة، و يحولها إلى ذكر حسن، وثواب عند الله عظيم، بينما الشح يؤدي إلى الفساد والاستكبار في الأرض ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ولعل نهاية الآية (٧٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ تلتقي مع هذه الآية في أن الغرور (الفرح) يؤدي للفساد في الأرض.

---

(١) وسائل الشيعة: ج١ ص٨٩.

ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ (٨٢) تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾.

هدى من الآيات:

بالإضافة إلى الجوانب العلمية في القرآن هناك جوانب بالغة الأثر في الحكمة، تمثل مفتاحا لشخصية الفرد، وشفاء لأمراضها و عقدها، فعندما نقرأ قصة قارون فإن الذي نعتبر به من هذه القصة يساوي أو يفوق ما نتعلمه منها، فنحن نتعلم منها أثر الثروة وميكانيكيتها في المجتمع (قانون الثروة) وهذا وحده لا يكفي إذا لم نعتبر منها في إصلاح أنفسنا عند مواجهة زينة الحياة الدنيا بتجاوز ظاهر الأحداث إلى لبها، وتفاصيل القصة إلى هدفها و ذلك من خلال

وعي الآية القرآنية: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء: ٨٨].

والحديث الشريف عن الدنيا أنها: «تَغُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ»[١].

وكثير هم الذين تخدعهم الدنيا، فيحسبونها غاية المنى، و لكنهم حينما يجربونها يجدونها كالحية ظاهرها أملس، وباطنها السم الزعاف، وهي كماء البحر كلما يشرب العطشى منه كلما يزدادون ظمأ، وهكذا كلما لهث الإنسان وراء زينة الدنيا، يحسبها تحقق أهدافه، كلما ازداد بعدا عنها، وصدق الإمام علي عليه السلام إذ قال: «مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ طَالِبُ عِلْمٍ وطَالِبُ دُنْيَا»[٢].

وأهم ما نستفيده من هذه القصة التالية:

١- من الناحية النفسية يجب أن لا تخدعنا الثروة، وتبعدنا عن هدفنا الأكبر وهو الآخرة، فلقد كان بإمكان قارون الذي يعجز عن حمل مفاتح خزائنه الرجال الأقوياء، أن يجمع آخرته إلى دنياه، ولكنه حينما قيل له ذلك رفض وقال: إن الأموال التي حصلت عليها كانت نتيجة جهدي وعملي وأنكر فضل الله، بينما لم يكن علمه سوى وسيلة بسيطة في جمع هذا المال الذي أعطي له لاختباره، وامتحان إرادته، لذلك فشل في الامتحان، فخسر الدنيا و الآخرة ذلك هو الخسران المبين.

٢- من الناحية الاجتماعية يجب أن نلتف حول الأشخاص لما يحملونه من رسالة صالحة، وما يجسدونه من صفات سامية، و ليس لأموالهم وسلطتهم، والذي جعل الكثير من الطواغيت يتسلطون على رقاب الناس هو تقديس الناس للثروة، واحترامهم لأصحابها، وجعلها مقياسا بدل أن تكون القيم هي المحور؛ و الإسلام يحسس الإنسان بكرامته، وأنها أكبر من المال والجاه حتى لا يقع فريسة لأصحاب الثروة والقوة، وفي الحديث الشريف: «مَنْ أَتَى غَنِيّاً فَتَوَاضَعَ لَهُ لِغِنَاهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ»[٣].

٣- إن الذي يستفيد من الثروة في غير أهدافها، كما لو استخدمها للتباهي والتفاخر يخسر الآخرة، كما لا يتنعم بثروته في الدنيا، بل يخسرها. إن هدف الثروة هو عمارة الأرض، فإذا استخدمناها للتعالي على الناس، والفساد في الأرض فسوف يكون مصيرنا ما انتهى إليه قارون، الذي خسف به في الدنيا، وهو الآخرة من الخاسرين.

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٤١٩.

(٢) نهج البلاغة: حكمة: ٢٢٨.

(٣) بحارالأنوار: ج٧٠، ص١٧٠.

بينات من الآيات:

ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون

[٧٨] عندما نصح المؤمنون من قوم موسى قارون، بأن لا يفرح بماله، وأن يسعى به نحو أهدافه الحقيقية، وهو جعل الدنيا وسيلة للآخرة، وليس هدفا بذاتها ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ الثروة كانت نتيجة لجهودي، وبالتالي فليس لزاما أن تعطى في سبيل الله لأنها ليست من عنده، هكذا لم ير أي أثر للغيب في حصوله على الثروة، بل لم يجد الغيب قادرا على أن يذهب به و بثروته جميعا، هكذا طغى، وأضحى من الفرحين بما أوتي، لقد كانت نفسه ضيقة غمرها حب الثروة، فحجبها عن سائر الكمالات المعنوية، بل وحجبه عن رؤية المستقبل، واحتمال زوال هذه الثروة، بل وهلاكه هو معها، وحتى عن رؤية سائر نعم الله عليه التي لا أثر للثروة فيها.

ويعالج القرآن هذه النفسية المريضة بتوسيع أفقها لتنظر إلى التأريخ، ويتساءل أين أولئك الذين كانوا يملكون القوة والثروة ؟!. ويقول: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ﴾ في الأنصار، ﴿وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾ في المال، وذلك بسبب فسادهم، ولن يمنع الله الغنى أن يهلك أحدا.

﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ البعض يتصور أن بإمكانه تبرير انحرافه، ولكن حينما ينزل العذاب فليس ثمة مجال لسماع التبريرات. هكذا يكون السير في الأرض، والنظر في عواقب الأمم الغابرة، وزيارة المقابر، ودراسة حياة الأثرياء والسلاطين الهالكين أفضل نجاة من غرور النعم وطغيانها.

فخسفنا به وبداره الأرض

[٧٩] كان قارون يسعى لفرض سلطته على الناس من خلال ثروته، مما كان يدفعه للتباهي والظهور بمظهر العظمة، وقد ورد في الأخبار: «وَخَرَجَ عَلَى مُوسَى فِي زِينَتِهِ عَلَى بَغْلَةٍ شَهْبَاءَ وَمَعَهُ أَرْبَعَةُ آلَافِ مُقَاتِلٍ وَثَلَاثُمِائَةِ وَصِيفَةٍ عَلَيْهِنَّ الْحُلِيُّ»[1]. وفي خبر ثالث: «خَرَجَ عَلَى بَرَاذِينَ بِيضٍ عَلَيْهَا سُرُوجُ الْأُرْجُوَانِ وَعَلَيْهِمُ الْمُعَصْفَرَاتُ»[2].

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾ ولا شك أن في المجتمع من تقع هذه المناظر الدنيوية

---

(١) بحار الأنوار: ج١٣، ص٢٥٣.

(٢) بحار الأنوار: ج١٣، ص٢٥٤.

موقعا في نفسه لضعف إيمانه، ولأنه يلتقي مع أمثال قارون في نقطة واحدة هي حب الدنيا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ هكذا أفسد قارون بالثروة المجتمع الإسرائيلي، حيث ضللهم عن قيم الرسالة إلى القيم المادية.

[٨٠] أما المؤمنون الذين ينظرون للحياة من خلال بصيرة الإيمان، فقد تحملوا مسؤوليتهم تجاه هذا الانحراف، فبادروا إلى النهي عن المنكر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وبالتالي عبروا الظواهر إلى ألبابها، وعبروا الدنيا إلى الآخرة، بل وعرفوا عاقبة هذا الموقف، وهكذا ينبغي للمؤمن أن يتحمل مسؤوليته حينما يتأثر الناس بمظاهر الثروة الباذخة.

﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ هؤلاء لم يتأثروا بزينة الحياة لأن هدفهم هو الآخرة التي لا تقاس بالدنيا، وهذه الكلمات تكشف عن النفسية العالية التي تتحدى إغراءات الدنيا بقوة الإيمان، ولا ريب أن هذا التحدي يحتاج إلى الصبر، أو ليس الصبر ينمي في الإنسان النظرة المستقبلية؟!.

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ لقد تقدم في الدروس السابقة: أن من مشاكل النفس البشرية هي العجلة، والميل لما هو حاضر، وحتى يتجاوز الإنسان هذه المشاكل، فإنه بحاجة إلى الصبر حتى يحصل على ما في المستقبل وهو العاقبة الحسنة في الدنيا، والجنة في الآخرة.

[٨١] ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ ولكن لماذا يخسف الله بداره الأرض؟.

لعل ذلك حتى لا تغر بما فيها من زينة أحد غيره.

إن مقام الظالمين يكتسب نحوسته منهم فيستحق الهلاك، هكذا أهلك الله القرى لما ظلم أهلها.

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حتى الذين تجمعوا حوله، كانوا يريدون شيئا من دنياه، أما و قد ذهبت من يده فهو لا يسوى عندهم شيئا، بل لو حاولوا نصره لما استطاعوا أبدا.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ وهذه الآية مثل على الحقيقة الآنفة ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾.

وقد نهى النبي ﷺ أن يختال الرجل في مشيته فقال: «مَنْ لَبِسَ ثَوْباً فَاخْتَالَ فِيهِ خَسَفَ اللهُ بِهِ مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ فَكَانَ قَرِينَ قَارُونَ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنِ اخْتَالَ فَخَسَفَ اللهُ بِهِ وبِدَارِهِ الْأَرْضَ»[١].

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص١٣.

[٨٢] وبعد ما خسف بقارون، وانتهى كل ملكه تبينت للذين تمنوا مكانه حقيقتان.

الأولى: عرفوا كذب ما قاله لهم قارون من أن هذه الأموال من عنده، منكرا أن الله هو الذي يوسع ويضيق على من يشاء، و الدليل أن الله هو الذي سلب منه ماله، والذي يقدر على سلب المال بهذه الكيفية لهو قادر على إعطائه ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ ثم حمدوا الله أنهم ما انجرفوا مع قارون، وإلا لشملهم العذاب ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾.

الثانية: عرفوا أن الكافر الذي يكابر الله، ولا يستفيد من نعمه في أهدافها الحقيقية يفشل في الحياة، وأن المفلح هو المؤمن الذي يعمل الصالحات، كما أكد على ذلك أهل العلم الإلهي في الآية (٨٠).

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ﴾ أي ويل لك يا قارون إنه... ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

العاقبة للمتقين

[٨٣] وجاءت في خاتمة الدرس آية توجز عبرها وحكمها: إن رسالات الله نزلت حتى تزكي أفئدة الناس من دنس الاستكبار و الفساد، وتطهر جنبات المجتمع من المستكبرين والمفسدين، فهذا فرعون علا في الأرض واستكبر، فقصم الله ظهره حين بعث موسى برسالاته وآياته، ثم نبذ فرعون وجنوده في اليم، و قارون إذ بغى على بني جلدته، ففسد في الأرض خسف الله به و بداره الأرض بدعوة موسى عليه السلام. إن فرعون لهو الأمثولة الظاهرة للاستكبار، وإن قارون لهو الأحدوثة البينة للفساد.

وإذ يضرب الله بهما مثلاً فلأن الأمثال تضرب بأوضح المصاديق، وأشدها إثارة، بينما تتسع عبرتها لكل من يكون مثلهما بنسبة وجود صفتهما فيه.

إن القلب الذي ينزع نحو العلو في الأرض ينطوي على فرعون صغير، والفؤاد الذي يهوى الفساد يحمل في ذاته قاروناً بقدره.

وكما أن النار تحرق ما حولها بقدرها، كذلك الانحراف يؤثر بقدره؛ ولا يمكن أن ننكر طبيعة الحرق في النار حتى لو كانت قبساً، كذلك لا يجوز أن نستهين بخطر الاستكبار والفساد حتى لو كان بقدر ذرة والدنيا دار ابتلاء وتمحيص، ولابد أن يتطهر القلب من آثار التكبر والفساد حتى يضحى أهلاً للجنة. دار ضيافة الله، ومقام كرامته، ومأوى أوليائه وأحبائه.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أما الطغاة وأولياؤهم فإن

لهم دارا أخرى، حيث يساقون إلى النار وساءت مصيرا.

وأي امتحان عسير يتعرض له أهل الولاية والسياسة، حيث يطالبهم الرب بأن ينزعوا عن قلوبهم رداء التكبر، ويعيشوا للناس ومع الناس، وفي مستوى المحرومين من الناس؟! وأين تجد مثل هؤلاء؟!.

بلى، كان ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث يروي عنه زاذان: «إِنَّهُ كَانَ يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ وَحْدَهُ، وَهُوَ ذَاكَ يُرْشِدُ الضَّالَّ، وَيُعِينُ الضَّعِيفَ، وَيَمُرُّ بِالْبَيَّاعِ وَالْبَقَّالِ، فَيَفْتَحُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ وَيَقْرَأُ: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا... ﴾ الْآيَةَ»[1].

وكل من طلب الرئاسة بغير حقها في كل حقل حتى ولو كان ضمن قيادة حزب أو تجمع أو هيئة، بل وحتى رئاسة عشيرته و أسرته تشمله هذه الآية.

يقول الإمام علي عليه السلام: وهو يصف الذين شقوا عصا الأمة في عصره، وفرقوها يقول: «فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى، وَقَسَطَ آخَرُونَ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ بَلَى؛ واللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا وَلَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا»[2].

ونقرأ حديثا يجعل كل حب للاستعلاء حاجزا بين الإنسان ودخول الجنة، يقول الإمام علي عليه السلام: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُعْجِبُهُ أَنْ يَكُونَ شِرَاكُ نَعْلِهِ أَجْوَدَ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِ صَاحِبِهِ»[3]، فيدخل تحتها -الآية-.

﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ إن أجلى مصاديقه: تخريب قيم المجتمع ومحاولة السيطرة عليه عبر الثروة، والسعي وراء إفساد ضمير أبنائه بالرشوة.

ومن مصاديقه: إفساد اقتصاده بالغش، وسرقة جهود الفقراء بوسائل غير شريفة، والتلاعب بأرزاق العباد بالاحتكار، و لكن لا يتوقف الفساد عند هذا الحد، بل شهوات الدنيا جميعا تدعوك إلى الفساد إذا لم تضبطها في حدود العقل والشرع. أوليس الإسراف في استهلاك الموارد الطبيعية ينشر الفساد فيها، كذلك الإكثار في الطعام والجنس يرهق جسمك، وهو بدوره يعتبر ضربا من الفساد؟!.

---

(١) بحار الأنوار: ج٤١ ص٥٤.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة:٣.

(٣) نور الثقلين: ج٤، ص١٤٤.

أو ليس طلب المزيد من الحقوق في مقابل القليل من الواجبات يرجح كفة الفساد في حياتك؟! بلى؛ لذلك جاء في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام في صفة المؤمن: «**الْمُؤْمِنُ حَسَنُ الْمَعُونَةِ خَفِيفُ الْمَئُونَةِ جَيِّدُ التَّدْبِيرِ لِمَعِيشَتِهِ لَا يُلْسَعُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**»[1].

إن منهج الاستهلاك والشره والحرص على الدنيا في أبناء المجتمع هو الذي يؤدي - بالتالي - إلى سيطرة المترفين من أولي الثروة ومن خلالها تتحكم القوى المستكبرة خصوصاً من أعداء الأمة بالأمة، إن المترفين هم الجزء الظاهر من جبل الثلج في فساد الاقتصاد. إنهم فروع شجرة ضربت بعروقها بعيدا في أعماق المجتمع.

إن الركض وراء الربح السريع، والتهاون في العمل، والبحث عن الرفاه والرخاء المجانيين، وترك الإتقان، والتطفيف في العمل. كل هذه عوامل للانحطاط الاقتصادي، الذي يؤدي بدوره إلى الفقر والتبعية.

متع الدنيا وسائل بلوغ الآخرة، وأفضل المناهج للتحرز من الفساد الزهد في الدنيا، دعنا نتلو معا الحديث التالي في تفسير الآية، وبيان المصاديق الخفية منه.

روى حفص بن غياث قال أبو عبد الله عليه السلام: «.. **مَا مَنْزِلَةُ الدُّنْيَا مِنْ نَفْسِي إِلَّا بِمَنْزِلَةِ الْمَيْتَةِ إِذَا اضْطُرِرْتُ إِلَيْهَا أَكَلْتُ مِنْهَا، يَا حَفْصُ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلِمَ مَا الْعِبَادُ عَامِلُونَ وَإِلَى مَا هُمْ صَائِرُونَ فَحَلُمَ عَنْهُمْ عِنْدَ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ لِعِلْمِهِ السَّابِقِ فِيهِمْ فَلَا يَغُرَّنَّكَ حُسْنُ الطَّلَبِ مِمَّنْ لَا يَخَافُ الْفَوْتَ. ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ...﴾ الْآيَةَ، وَجَعَلَ يَبْكِي وَيَقُولُ** عليه السلام: **ذَهَبَ وَاللهِ الْأَمَانِيُّ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ.... قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ فَمَا حَدُّ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا؟ فَقَالَ** عليه السلام: **فَقَدْ حَدَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾**»[2].

وإذا كان الإمام الصادق عليه السلام يبكي عند تلاوة هذه الآية خشية ألا يكون ممن تشملهم فكيف بمثلي ممن استبد بقلبه حب الدنيا، وحليت في عينه الضيقة، واستهوته الرئاسات وطلبها بكل وسيلة؟! أعاذنا الله جميعا منها ومن شرورها.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يحفظون أنفسهم من نار جهنم بالتزام نهج الحق، وتعاليم الشرع في كل صغيرة وكبيرة.

---

(١) الكافي: ج٢ ص٢٤١.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٥، ص١٩٣.

كل شيء هالك إلا وجهه

﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ الْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

هدى من الآيات:

كما في خواتيم السور نتلوا في الدرس الأخير من هذه السورة أهم ما جاء فيها من بصائر نشير إليها:

١- تختلف الحسنات عن السيئات في أن جزاءها مضاعف، فبينما يجازى أصحاب السيئات بقدرها، يعطى أصحاب الحسنات عشرة أضعاف ما عملوا من الأجر، ومثل السيئات والصالحات في الدنيا ما يلي: لو أردت حرق بيدر من القمح يكفيك أن تشعل النار فيه حتى تأتي عليه وتحوله رمادا، ولكن هل يقدر الرماد على حرق بيدر آخر. كلا.. أما لو زرعت حبة قمح فإنها تتحول إلى سنبلة، وتصير عشرات الحبوب، التي إذا زرعت تحولت إلى سنابل جديدة، ومن ثم إلى بيدر آخر، وهكذا سنة الله في الحياة، فقد بنى الله الكون على أساس نمو الصالحات، وتحديد السيئات، ذلك لأن كل ما في الكون من قوانين وسنن يساعد بفعالية على البناء، بينما لا تساعد الهدم إلا في ظل قوانين الهلاك الفطرية.

الذي يبني يعمل معه كل ما في الكون لأنه الآخر يبني، ونستوحي من هذا فكرة هامة وهي: أن أفضل وسيلة لنمو الإنسان وتكامله ليس هدم الآخرين وإنما بناء ذاته، لأنه بالبناء سوف تتفاعل معه قوى الطبيعة وسننها، أما عن طريق الهدم فهو يخسر كل ذلك.

٢- إن الحركات القسرية التي لا تنسجم وطبيعة الحياة يحكمها الفشل، فبالرغم من أن الظلم والبغي وما أشبه، قد فسح له ربنا المجال ليختبر إرادة البشر، إلا إنه لا يدوم باعتباره حركة قسرية فالذين يخرجون من بلادهم بالظلم لا بد أن يعودوا إليه ولو بعد حين، وفي التأريخ تمت هجرات قسرية كثيرة، بعضها من أجل الرسالة، وبعضها من أجل الكلأ والماء، وبعضها بسبب الإرهاب الحاكم، ولكن أصحابها كانوا يعودون ولو بعد قرون منتصرين.

وهذا يدل على أن تلك الأعمال التي جرت على الرغم من العدالة والحق في الكون، محكومة بالفشل وقد انتهت بالفعل، و هذا ما تؤكده الآية الثانية في هذا الدرس، والتي نزلت على المهاجرين في المدينة، في الوقت الذي كان أكثرهم لا يحلمون بالعودة إلى وطنهم الأول.

٣- على الإنسان الذي يحمل مشعل العلم والرسالة أن لا يتصور بأن ذلك له بل أنه من الله ألقي إليه، وبالتالي يجب أن لا يسعى للحفاظ عليها وعلى مركزه فيها حتى لو كان ذلك على حساب قيمه ومبادئه، فالرسول لولا رسالة الله لكان فردا عاديا. إذن فالذي منحه الرسالة هو القادر أن يبقيه في علو الشأن الذي بلغه بسببها، ويجب أن لا يفكر بأن يكون ظهيرا للكافرين، ليكتسب منهم القدرة، أو يتنازل عن بعض ما أنزل إليه طمعا في تأييدهم (كما فعل النصارى بدينهم فأفسدوه) وهذا يجري في علماء الدين، لأن القرآن نزل كما عن ابن عباس على لغة: «إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَة»[1].

الخطاب موجه للرسول، ولكن الذي يجب أن يسمع هم الذين يسيرون على خطه، ويعملون بمنهجه وهم علماء الدين، فسر عظمتهم هو الرسالة التي يتحملون مسؤوليتها، فلو فكروا أن يكتسبوا الشهرة والعظمة من مصدر آخر كالكفار، أو السلطات الفاسدة، أو الجماهير المنحرفة، فإن ذلك يكون خرقا لسنن الله في الحياة، ومن ثم عاملا في انحطاط منزلتهم، وربما نهايتهم، فليحترموا أنفسهم والعلم الذي تحملوا أمانته، وليستقيموا، و ليتحدوا الصعاب، وليتجاوزوا العقبات بالتوكل على الله، والعمل بهدى الرسالة.

وفي الأخير تختم السورة بالتذكرة بالتوحيد، وهو لا يعني الإيمان بالله، وأنه فاطر السماوات والأرض فقط -فهذا أمر لا ريب فيه- قال تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) بحار الأنوار: ج١٧، ص٧١.

وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠] وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦١] ولكن مشكلة البشر الشرك، حيث يخلط بين القيم الإلهية السامية، والأخرى المادية الجاهلية. الأمر الذي لا يجعله يخلص العبادة لله.

وأكثر الذين ضلوا منذ خلق الله آدم حتى اليوم إنما ضلوا بسبب شركهم، ومشركو العرب إنما عبدوا الأصنام تصوروا منهم بأنها تقربهم إلى الله زلفى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣٧].

وهذه الفكرة تتناسب مع الفكرة السابقة، أن ما يعبد القوى التي تملك ذلك كالأغنياء، والحكومات، والناس، بينما ينبغي له أن يعبد إله الناس وليس الناس جميعهم، أو كبراؤهم وأغنياؤهم.

بينات من الآيات:

[٨٤] إن عامل البناء يسبق عامل الهدم في الحياة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾

وفي الحديث عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**لَمَّا أَعْطَى اللهُ إِبْلِيسَ مَا أَعْطَاهُ مِنَ الْقُوَّةِ، قَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ سَلَّطْتَ إِبْلِيسَ عَلَى وُلْدِي وأَجْرَيْتَهُ مِنْهُمْ مَجْرَى الدَّمِ فِي الْعُرُوقِ وأَعْطَيْتَهُ مَا أَعْطَيْتَهُ فَمَا لِي ولِوُلْدِي؟!. قَالَ: لَكَ ولِوُلْدِكَ السَّيِّئَةُ بِوَاحِدَةٍ والْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا. قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي. قَالَ: التَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ النَّفْسُ الْحُلْقُومَ. قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي. قَالَ: أَغْفِرُ ولَا أُبَالِي**»(١).

وقال عز وجل: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وعلى العكس من ذلك تقوم الحياة على محدودية السيئة (الهدم).

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ وهذا وذاك من نعم الله على الإنسان، والشقي الشقي هو الذي لا يستفيد من بحر رحمة الله، فتزيد سيئاته على حسناته مع أن تلك بواحدة، وهذه بعشر أمثالها.

قال أبو عبد الله عليه السلام: «كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: **وَيْلٌ لِمَنْ غَلَبَتْ آحَادُهُ أَعْشَارَهُ فَقُلْتُ لَهُ: وكَيْفَ هَذَا؟. قَالَ: أَ مَا سَمِعْتَ الله عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ**

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٦ ص٨٨.

أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ فَالْحَسَنَةُ الْوَاحِدَةُ إِذَا عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْراً وَالسَّيِّئَةُ الْوَاحِدَةُ إِذَا عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةً، فَنَعُوذُ بِاللهِ مِمَّنْ يَرْتَكِبُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ وَلَا يَكُونُ لَهُ حَسَنَةٌ وَاحِدَةٌ فَتَغْلِبَ حَسَنَاتُهُ سَيِّئَاتِهِ»[1].

وتشير خاتمة الآية إلى أن جزاء العمل في الآخرة ذات العمل بعد أن يتجسد في صورة مادية بشعة، فالظلم في الدنيا ذاته هي الظلمات التي تحيط بصاحبها في الآخرة، ومن أكل أموال اليتامى ظلما فإنما يأكلون في بطونهم نارا، وسيصلون سعيرا، أما النتن الذي يخرج من أفواه الفاسقين فإنه ذاته الكذب الذي أفكوه أو الغيبة والتهمة والفرية التي مارسوها في دار الدنيا. دعنا نستغفر ربنا حتى يقينا شر السيئات التي اقترفناها، و الذنوب التي احتطبناها.

[٨٥] الحياة قائمة على أساس سبق البناء لا الهدم، وأن الحركات القسرية نهايتها الفشل، بينما الحركات التي تجري وفق سنن الله في الخلق تنجح وتثمر، لأن عامل الزمن يكون في صالحها، وهذه الفكرة هي منطلق لفكرة أخرى وهي ضرورة انتصار الحركات الإلهية عبر الأجيال.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي إن الذي أنزل القرآن وفرضه عليك يردك إلى وطنك الذي هجرك منه الكفار والمشركون.

ولكن لماذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ولم يقل إن الله العزيز مثلا؟.

الجواب: هناك قاعدة بلاغية تقتضي انسجام المفردات مع السياق، وهنا نجد ترابطا وثيقا بين فرض القرآن وعودة الرسول إلى بلده، فما دام الله هو الذي أعطى الرسول منهج العمل، وفرض عليه الالتزام به، فإنه يجعل هذه الأداة فعالة وكفيلة بأخذ حقه، وبلوغ أهدافه كعودته إلى بلاده منتصرا بعد الهجرة، و هذا ينطوي على فكرة حضارية هي: أن المهاجر الرسالي لا يمكن أن يعود إلى بلده، إلا إذا طبق البرنامج الإلهي وهو القرآن الحكيم.

ثم يشير القرآن إلى ما يبدو أنه تعليل للحكم السابق إذ يقول: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إن الهدى يتسجم مع سنن الله في الخلق، بينما يتنافر الانحراف معها، وبالتالي فالذي يتبع الهدى اعتقادا وعملا سيصل إلى أهدافه، لأن الله المهيمن على الخلق هو العليم بالمهتدين فينصرهم، بينما أصحاب الضلال يحبط أعمالهم.

(١) وسائل الشيعة: ج١٦ ص١٠٣.

[٨٦] والضمانة الرئيسية لوصول الإنسان إلى الجادة هي الاستقامة على الهدى، وبدونها لا يزداد إلا بعدا عنها، فلو استجاب للضغوط أو الإغراءات التي تحف طريقه نحو تطلعاته وأهدافه فهل يصل إليها؟ بالطبع كلا..

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ إذن فلا تطلب الجاه أو الشهرة والعلو من عند غير الله. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ والظهير هو المعين.

[٨٧] ويؤكد القرآن هذه الفكرة مرة أخرى ويقول: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ ويثنيك عنها الكفار بوسائلهم المختلفة، فمن اتبعهم أو نصرهم لا ينتفع من آيات الله في الخلق، ولا آيات الله في الكتاب.

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي استمر في الدعوة إلى الله وحده، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بخضوعك لهم.

[٨٨] ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ لقد تقدم القول بأن الشرك هو مشكلة الإنسان الأولى، فترى الكثير من الناس يخضعون لله ظاهرا، ولكنهم يخضعون في قسم كبير ومهم من حياتهم للسلطة، أو المال، أو الشهرة، أو.. أو ..، وإذ يدعو الله للتوحيد المخلص فلأن الواقع ينسجم مع هذه الدعوة، حيث لا يوجد إله سواه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

الإنسان مفطور على الخضوع للقوة، والجاه، والثروة، و لكنه يضل الطريق فيخضع لغير الله، بينما الله هو مطلق القوة، و الثروة، و.. و...، فتراه تارة يتصور والده هو مصدر المال، أو أن السلطة هي منتهى القوة، فيخضع لهما مخالفا هدى الله و أوليائه.

كما إن من طبيعة الإنسان البحث بين متغيرات الحياة عن شيء ثابت يعتصم به، والله يؤكد له أن لا شيء ثابت غير الله.

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ لا ريب أن الله باق، لكن الآية تؤكد على أن ما يتعلق به سبحانه هي الأخرى باقية، فكل شيء هالك إلا ما كان لوجه الله تعالى، فوجه الشيء هو الظاهر منه، ووجه الله هو سبيله و نهجه.

﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ السلطة، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فله العاقبة وإليه المنتهى.

سُورَةُ العَنكبُوت

* مكية.

* عدد آياتها: ٦٩.

* ترتيبها النزولي: ٨٥.

* ترتيبها في المصحف: ٢٩.

* نزلت بعد سورة الروم.

فضل السورة

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْعَنْكَبُوتِ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ حَسَنَاتٌ بِعَدَدِ كُلِّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ».

(تفسير نور الثقلين: ج٤، ص١٤٧)

***

عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَتَيِ الْعَنْكَبُوتِ والرُّومِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي لَيْلَةِ ثَلاثٍ وعِشْرِينَ فَهُوَ وَاللهِ -يَا أَبَا مُحَمَّدٍ- مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَا أَسْتَثْنِي فِيهِ أَبَداً وَلَا أَخَافُ أَنْ يَكْتُبَ اللهُ عَلَيَّ فِي يَمِينِي إِثْماً وإِنَّ لِهَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ مِنَ اللهِ مَكَاناً».

(تهذيب الأحكام:ج٣، ص١٠٠)

الاسم

العنكبوت؛ حشرة حقيرة، إلا أن نسجها يُرى في كل مكان، وهي تعتمد عليه كأنه فعلاً بيت معمور، إلا أن هَبَّة نسيم كفيلة باقتلاعه.. هكذا يضرب ربنا مثلاً للعلاقات الشركية، ويسمي به سورة تحدثنا عن حقيقة الدنيا، وعلاقات أبنائهابيعضهم، وفتنتها للمؤمنين.

الإطار العام

صرح الكفر وبيت العنكبوت

ما هي الدنيا؟ وما هي حقيقتها؟ وما هي علاقات أبنائها ببعضهم؟ وما هو مصيرها؟ وما هي مسؤوليتنا فيها؟.

إن عشرات من الأسئلة ترتسم يومياً في أذهاننا ونحن نصارع ظواهر الدنيا، ونجد في الذكر الحكيم بصائر جلية تهدينا ليس فقط إلى الحقائق وإنما ترفع الستائر الغليظة التي لا تدعنا نرى الدنيا على حقيقتها، ولعلنا نجد منظومة متكاملة لهذه البصائر هنا في سورة العنكبوت.

ويبدو أن الهدف الأسمى من هذه البصائر التي تجلو بها الأفئدة الزاكية، بناء المؤمن الصابر الذي يتحدى كالجبل الأشم عواصف الفتن.

لقد شاهدنا عبر الطواسين التي سبقت سورة العنكبوت، كيف جاهد رسل الله الأمم الفاسدة، وكيف ينبغي أن يسير على هداهم الصالحون الذين يجاهدون الفساد، ويصبرون على الأذى، وينتظرون نصر ربهم، وهو كما يبدو موضوع هذه السورة.

من أجل تحقيق هذا الهدف التربوي المتسامي لابد أن يعرف المجاهد حقيقة الدنيا، وحكمة فتنها، وضرورتها، وأن الذين يرتكبون السيئات لا يسبقون ربهم، ويعرف أن مدة الفتنة محدودة إلى أجل مسمى، حين يلقى المجاهد ربه ليوفيه جزاءه (الآيات: ١-٧).

أما الضغوط؛ فتأتي من الوالدين اللذين قد يجاهداه على الشرك، وقد تأتي من المجتمع الفاسد الذي يريد أن يفتنه، وقدتأتي من السلطة الفاسدة التي مهما كانت فتنتها شديدة فإنها أخف من عذاب الله.(الآيات: ٨-١٣).

ويعود القرآن يذكرنا بقصص نوح وإبراهيم ولوط وسائر الأنبياء العظام عليهم السلام وكيف

جاهدوا رفض الفاسدين من أممهم، وأن الله أهلك أولئك الفاسدين، ونصر عباده المخلصين. كل ذلك يذكرنا به الرب لعلنا نتخذه قدوة، ونعرف أن سنن الصراع كانت جارية عند المقربين إلى الله سبحانه، وهم الذين اختارهم الله على علم، فكيف بنا ولمّا يعلم المجاهدون منا والصابرون.

وعبر قصة النبي إبراهيم عليه السلام والحوار الذي جرى بينه وبين قومه المشركين يذكرنا الرب بزيف الأوثان، وأنها تعبير عن العلاقات الاجتماعية الباطلة التي يتجلى زيفها في الآخرة، حيث أن الكفار الذين اتخذوا الأوثان محور تجمعهم يلعن بعضهم بعضاً.(الآيات: ١٤-٣٥).

ويبدو أن (الآيات: ٣٦-٤٠) التي اختصرت قصص العديد من الرسل الكرام، وأوجزت القول في مصير المكذبين بهم، تبين السنن الإلهية التي جرت فيهم جميعاً -سنة الإنذار، سنة الرفض، سنة العذاب المدمر- لعلنا نعرف حقائق كبرى من خلال تلك القصص، وبالذات فيما يتصل بالجهاد في سبيل الله.

وبعدها مباشرة؛ نقرأ الآية التي سميت السورة بها، ولعلها تبين أهم بصائر السورة أو تختصر بصائرها جميعاً، وهي أن العلاقات الشركية تشبه في زيفها، وثقة أصحابها بها، واعتمادهم عليها العنكبوت التي اتخذت بيتاً، وأن أوهن البيوت لبيت العنكبوت.(الآية: ٤١).

ما أكرم هذه الآية، وما أعظم البصائر التي فيها، وما أحوجنا إليها ونحن نصارع المستكبرين والمترفين؟.

إنها تبين واقع هؤلاء المشركين، وأنه أوهن البيوت، وأن عاصفة الرفض تقتلعها بإذن الله.

لماذا هم كذلك؟ لأن بناء الخلق قائم على أساس الحق، أما بناؤهم فهو متشبث بنسج العنكبوت الباطل، ومن خلال هذه البصيرة يعرفنا الذكر بحقيقة الدنيا، والتي لو عرفناها هانت علينا مصيباتها، واحتقرنا زينتها، واتقينا مكرها، وانقشعت عن بصائرنا غشاوة غرورها.(الآيات: ٤٢-٤٤).

فما هو البرنامج الذي يجعلنا نعرف حقيقة الدنيا، ونتحدى الفتن التي تتوالى علينا؟ إنه يتلخص في تلاوة الكتاب، وإقامة الصلاة، وذكر الله.(الآية: ٤٥).

ويتعرض السياق لبيان الموقف من أهل الكتاب، ولعله يهدف تكميل الصورة، حيث أن الموقف من المفسدين أضحى واضحاً من خلال قصص الرسل، وبقي الموقف من أتباع

الرسل. ولأن تكريم الرسل يقتضي تكريم أتباعهم، ولأن جوالسورة هو جو الجهاد، والجهاد مع الظلم والكفر بحاجة إلى وحدة الصف، فإنه كان مناسباً الحديث عن أهل الكتاب،وأنه ينبغي جدالهم بالتي هي أحسن، وبيان أسس الوحدة التي تجمعنا وإياهم، وإنما القسوة تكون مع الظالمين منهم (كما تكون مع الظالمين منا)، (الآية: ٤٦).

ويبين السياق مصداق الجدال بالتي هي أحسن؛ أي شواهد صدق الرسالة التي تقنع المنصفين من أهل الكتاب، أما الكافرون فإنهم يجحدونها (من واقع كفرهم). فهذا النبي لم يكتب ولم يقرأ من قبل، وقد جاء بآيات تتبين في صدور العلماء فيصدقونها، بيد أن الظالمين يجحدون بها (من واقع ظلمهم) وهم يطالبون بالمزيد من الآيات، ولا يعلمون أن أمر الآيات بيد الله لا الرسول. وهذا الكتاب العظيم أليس فيه آيات كافية، والله أعظم شهيد على صدق رسالاته بما يهدي القلوب الصادقة إليها وبنصره وتأييده لها.(الآيات: ٤٧-٥٢).

ويجادل الذكر الذين يستعجلون بالعذاب، ويقول: إنه سوف يؤخر إلى أجل مسمىً، ولكن يأتيهم بغتة وهم لايشعرون، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين، حيث تغشاهم النار من فوقهم ومن تحت أرجلهم.(الآيات: ٥٣-٥٥).

وهكذا يثبت الله الذين آمنوا، ويعلمهم كيف يجادلون عن الرسالة، ولكن ماذا عن الضغوط التي يتعرضون لها؟ يقول ربنا: إن الهجرة إلى أرض الله الواسعة، ومعرفة أن الموت قدر لكل نفس، وأن العاقبة هي الأهم، حيث يبوّئ الله الصالحين جناتٍ جزاء أعمالهم، وأن علينا الصبر على البلاء والتوكل على الله عند الشدائد حتى نستحق تلك الجنات.وأن الأرزاق بيد الله، فلا يخشى المجاهد قطع رزقه بسبب الهجرة، أو لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر. ويفصل الذكرالحديث في ذلك، ويبين أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وأنه هو الذي ينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعدموتها، (الآيات: ٥٦-٦٣).

ولكي تطمئن نفوس المجاهدين يبين القرآن حقيقة الدنيا، وأنها لهو ولعب، وإنما الحياة حقاً في الدار الآخرة، وأن علاقات المشركين باطلة، والدليل أنها لاتنفعهم عند الشدة، فحين تحيط بهم أمواج البحر وتكاد تبتلعهم، يدعون الله مخلصين له الدين، ثم يشركون بعدئذ بالله كفراً بنعمته، ومزيداً من التمتع بملذات الدنيا الزائلة التي سوف يعلمون مدى خسارتهم بها.(الآيات: ٦٤-٦٦).

ثم يبين الله أنهم يؤمنون بالباطل، ويكفرون بنعمته عليهم -والرسالة أعظم نعمة- ألا تراهم لا يعتبرون بهذا الحكم الإلهي الذي يؤمّن لهم السلام في مكة، بينما يُتَخطف الناس من

حولهم. (الآية: ٦٧).

وبعد أن يبين مدى الظلم الذي يقترفه الذين يفترون على الله كذباً بحق أنفسهم والناس، يبشر المجاهدين بأنه سيهديهم سبله التي تقربهم إليه، وتساعدهم للتمكن في الأرض، وأن الله لمع المحسنين (الآيات: ٦٨-٦٩).

أَحَسِبَ الناسُ أَن يُتركوا؟!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ[1] لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾.

هدى من الآيات:

تفتتح سورة العنكبوت، التي تهون من شأن الحضارات الجاهلية آياتها الكريمة ببيان حقائق شتى، تمهد بها لبيان سنن الله في المجتمعات الفاسدة.

أولاً: لن يترك الناس من دون فتنة تمحصهم كما تمحص النار الذهب، وإنها سنة جارية غابرا وحاضرا، ليعلم الله الصادقين و الكاذبين في ادعائهم الإيمان.

ثانياً: خطأ يزعم المسيئون أنهم يتحدون ربهم بذنوبهم كلا.. إنهم لا يعجزون.

(١) جاهداك: أي أجهدا أنفسهما من أجل الضغط عليك.

ثالثاً: وهناك أجل مسمى، لا بد أن يأتي المحسنين فينتهي بلاؤهم، والمسيئين فتنتهي أيام مهلتهم فيخسرون.

رابعاً: الذين يجاهدون أهواءهم وشياطين الإنس إنما يعملون لأنفسهم (و هم بالتالي لا يربحون الله شيئا) ذلك لأن الله غني عن العالمين. ومن أعظم مكاسب هؤلاء أن الله سيكفر عنهم سيئاتهم وليجزينهم أحسن ما كانوا يعملون.

خامساً: من العقبات التي تعترض طريق المجاهدين عادة ضغوط الأسرة، وقد أوصانا ربنا بالإحسان إلى الوالدين، ولكن أمرنا بتحدي ضغوطهم التي تدفع باتجاه الشرك بالله، وسيقف الجميع أمام رب العزة لينبئهم بما كانوا يعملون، و ليوفيهم أجورهم، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يدخلهم في الصالحين.

هكذا تأتي فاتحة السورة أذانا بما سوف تبينه آياتها الكريمة.

بينات من الآيات:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تشير هذه البسملة إلى ما تحمله هذه السورة من معان من تجاوز عقبة الذات، وترك الدنيا وزينتها، ولا يتم ذلك إلا بالتوكل على الله، وإعمار القلب بالإيمان، وبالتالي باسمه سبحانه.

[١-٢] ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ كان بعض أتباع الرسل من المؤمنين المخلصين يلقى في قدور الزيت، وتحفر للبعض أخاديد تسعر نارا، ويلقون فيها أحياء، و كان البعض ينشرون بالمناشير، أو يقتلون، أو يصلبون، ولم يفتنوا في دينهم أو يتركوه لما يلاقونه في سبيله، فثبت الله في اللوح إيمانهم، وقيل لهم ادخلوا الجنة مع الداخلين، وهذه السنة جارية في كل زمان ومكان، مهما اختلفت الظروف وتعددت المشارب.

فبعض كان يستمر على الإيمان رغم الفتن، والبعض عندما يجد أن السجن والتعذيب والتشريد والقتل ثمن إيمانه، ينهار ويتراجع. جاء في الأثر المروي قَالَ مُعَمَّرِ بْنِ خَلَّادٍ: سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ عليه السلام يَقُولُ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ عليه السلام لِي: **مَا الْفِتْنَةُ**؟ قُلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ الَّذِي عِنْدَنَا الْفِتْنَةُ فِي الدِّينِ، فَقَالَ عليه السلام: **يُفْتَنُونَ كَمَا يُفْتَنُ الذَّهَبُ**، ثُمَّ قَالَ عليه السلام: **يُخْلَصُونَ كَمَا يُخْلَصُ الذَّهَبُ**»[1].

---

(١) الكافي: ج١، ص٣٧٠.

وحكمة الفتنة في الدنيا أنها تطهر القلب كما يطهر الذهب بالنار، و قد صنع الله الدنيا بطريقة تتناسب والفتنة، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «وَلَكِنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِ نِيَّاتِهِمْ وضَعَفَةً فِيمَا تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ مِنْ قَنَاعَةٍ تَمْلَأُ الْقُلُوبَ والْعُيُونَ غِنَاؤُهُ وخَصَاصَةٍ تَمْلَأُ الْأَسْمَاعَ والْأَبْصَارَ أَذَاؤُهُ ولَوْ كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَا تُرَامُ وعِزَّةٍ لَا تُضَامُ ومُلْكٍ يُمَدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ ويُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ لَكَانَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الِاخْتِبَارِ وأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الِاسْتِكْبَارِ ولَآمَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً والْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً.

ولَكِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الِاتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ والتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ والْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ والِاسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ والِاسْتِسْلَامُ لِطَاعَتِهِ أُمُوراً لَهُ خَاصَّةً لَا تَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ وكُلَّمَا كَانَتِ الْبَلْوَى والِاخْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتِ الْمَثُوبَةُ والْجَزَاءُ أَجْزَلَ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ اخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنِ آدَمَ إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ ولَا تَنْفَعُ ولَا تُبْصِرُ ولَا تَسْمَعُ فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَاماً.

ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الْأَرْضِ حَجَراً وأَقَلِّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدَراً وأَضْيَقِ بُطُونِ الْأَوْدِيَةِ مَعَاشاً وأَغْلَظِ مَحَالِّ الْمُسْلِمِينَ مِيَاهاً بَيْنَ جِبَالٍ خَشِنَةٍ ورِمَالٍ دَمِثَةٍ وعُيُونٍ وَشِلَةٍ وقُرًى مُنْقَطِعَةٍ وأَثَرٍ مِنْ مَوَاضِعِ قَطْرِ السَّمَاءِ دَاثِرٍ لَيْسَ يَزْكُو بِهِ خُفٌّ ولَا ظِلْفٌ ولَا حَافِرٌ ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ ووُلْدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ –وبعد أن بين الإمام أنه لو كانت مكة في مناطق ذات بهجة و ثمر لسقط البلاء قال-: وَلَكِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَخْتَبِرُ عَبِيدَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ ويَتَعَبَّدُهُمْ بِأَلْوَانِ الْمَجَاهِدِ ويَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ وإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي أَنْفُسِهِمْ ولِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَى فَضْلِهِ وأَسْبَاباً ذُلُلًا لِعَفْوِهِ وفِتْنَتِهِ كَمَا قَالَ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾»[1].

أجل يتبين الإيمان المستقر من العواري حين يتعرض الناس للبلاء الشديد وتعتريهم المحن ليكونوا طعمة يقتات عليها الظالمون، والتعبير القرآني ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ استفهام استنكاري على أولئك الذين يتصورون أن طريق الإيمان مليء بالورود. إن طريق الإيمان صعب.

وقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «هَلَكَ الْعَامِلُونَ إِلَّا الْعَابِدُونَ، وهَلَكَ الْعَابِدُونَ إِلَّا الْعَالِمُونَ، وهَلَكَ الْعَالِمُونَ إِلَّا الصَّادِقُونَ، وهَلَكَ الصَّادِقُونَ إِلَّا الْمُخْلِصُونَ، وهَلَكَ الْمُخْلِصُونَ

(١) الكافي: ج٤ ص١٩٨.

إِلَّا المُتَّقُونَ، وهَلَكَ المُتَّقُونَ إِلَّا المُوقِنُونَ، وإِنَّ المُوقِنِينَ لَعَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ»(١).

ويشرح الرسول ﷺ أنواع الفتن التي سوف تبتلى الأمة بها كما جاء في نهج البلاغة: وقام إليه رجل فقال يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت رسول الله ﷺ عنها؟. فقال عليه السلام: **«إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لا تَنْزِلُ بِنَا، ورَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللهُ تَعَالَى بِهَا؟.**

فَقَالَ ﷺ: يَا عَلِيُّ إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَوَلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ المُسْلِمِينَ وحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: أَبْشِرْ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ، فَقَالَ ﷺ لِي: إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذاً؟. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ ولَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى والشُّكْرِ، وقَالَ ﷺ: يَا عَلِيُّ إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ ويَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ ويَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ ويَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ ويَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ والأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ فَيَسْتَحِلُّونَ الخَمْرَ بِالنَّبِيذِ والسُّحْتَ بِالهَدِيَّةِ والرِّبَا بِالْبَيْعِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله فَبِأَيِّ المَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ أَ بِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ؟. فَقَالَ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ»(٢).

[٣] ثم يبين الله سبحانه أن الفتن تصيب الإنسان. عمل السيئات أو الخيرات، وأن مشكلة الذين يعملون السيئات أو ينهارون أمام المشاكل أكبر لأنهم يخسرون الدنيا والآخرة ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ والفتن تتباين أشكالها وصورها وجوهرها واحد، كما أن فتن السابقين كانت مختلفة، فقد جاء في جوامع الجامع: **«قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يؤخذ فَيُوضَعُ المِنْشَارُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُفَرَّقُ فِرْقَتَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، ويُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ عَظْمِهِ مِنْ لَحْمٍ وعَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ»**(٣).

ونحن نرى اليوم من المجاهدين الصامدين تحت ألوان عذاب المتجبرين من البطولات النادرة ما يجعلنا نزداد يقينا بصدق الأخبار هذه، التي أنبأت عن صبر وصمود المجاهدين السابقين. يضعونهم في توابيت مغلقة لعدة أشهر بل لعدة سنوات، أو يسمرونهم على الحيطان خلال أعوام السجن، لا ينظفون تحتهم، أو يلقون بهم في أحواض الأسيد، أو يعذبونهم بأجهزة تدار بالحواسيب الآلية لتزرع أجسامهم بالألم الشديد وتمنع عنهم النوم و الراحة لأسابيع، أو

---

(١) الكافي: ج ٤ ص١٩٨.

(٢) نهج البلاغة: من كلام له عليه السلام خاطب به أهل البصرة.

(٣) جوامع الجامع للطبرسي: ج٢، ص٧٦١.

يحرقون أشد أجزاء بدنهم حساسية، أو يعتدون على شرفهم وينتهكون أعراضهم.

ولكنهم لا يزالون صامدين بتوفيق الله، لأن أرواحهم قد صفت من حب الدنيا، وربتهم هذه الآية الكريمة، وعرفوا حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، فلم يختاروا على الآخرة شيئا.

وليس المهم أن يعلم الناس إيمانك، بل الأهم أن يعلم الله صدقك.

[٤] مسكين ابن آدم يزعم أنه يهرب من حكومة الله، أو يعجزه هربا، ويسبق قضاءه وقدره، وإنما مثله مثل الرجل الذي جاء إلى الإمام الحسين عليه السلام فقال له: أَنَا رَجُلٌ عَاصٍ وَلَا أَصْبِرُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ فَعِظْنِي بِمَوْعِظَةٍ. فَقَالَ عليه السلام افْعَلْ خَمْسَةَ أَشْيَاءَ وَأَذْنِبْ مَا شِئْتَ:

- فَأَوَّلُ ذَلِكَ: لَا تَأْكُلْ رِزْقَ اللهِ وَأَذْنِبْ مَا شِئْتَ.

- وَالثَّانِي: اخْرُجْ مِنْ وَلَايَةِ اللهِ وَأَذْنِبْ مَا شِئْتَ.

- وَالثَّالِثُ: اطْلُبْ مَوْضِعاً لَا يَرَاكَ اللهُ وَأَذْنِبْ مَا شِئْتَ.

- وَالرَّابِعُ: إِذَا جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ لِيَقْبِضَ رُوحَكَ فَادْفَعْهُ عَنْ نَفْسِكَ وَأَذْنِبْ مَا شِئْتَ.

- وَالْخَامِسُ: إِذَا أَدْخَلَكَ مَالِكٌ فِي النَّارِ فَلَا تَدْخُلْ فِي النَّارِ وَأَذْنِبْ مَا شِئْتَ»[1].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ يفوتونا. كلا.. ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ما من يوم يمر على الصابرين حتى يقتربوا يوما إلى رحمة ربهم، ولا يمر يوم على الجلادين حتى يقتربوا خطوة إلى العذاب.

[٥] ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وتعطي هذه الآية أملا لمن يرزح تحت سياط الجلادين، أو في دهاليز سجون الظالمين، أو المنبوذين بسبب إيمانهم، فمتى ما تناهى البلاء قرب الفرج، وإن جهادك وصبرك إنما هو بعين الله.

لقد بعث الطاغية العباسي هارون الرشيد إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الذي كان معتقلا عنده من يستميله، فبعث الإمام عليه السلام إلى الرشيد من الحبس برسالة: «إِنَّهُ لَنْ يَنْقَضِيَ عَنِّي يَوْمٌ مِنَ الْبَلَاءِ إِلَّا انْقَضَى عَنْكَ مَعَهُ يَوْمٌ مِنَ الرَّخَاءِ حَتَّى نَقْضِيَ جَمِيعاً إِلَى يَوْمٍ لَيْسَ لَهُ انْقِضَاءٌ يَخْسَرُ فِيهِ الْمُبْطِلُونَ»[2].

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٥، ص١٢٦.

(٢) بحار الأنوار: ج٤٨، ص١٤٨.

[٦] ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ عندما يقاوم المؤمن سلبيات نفسه، ويتحدى ضغوط الحياة يكتب عند الله مجاهدا، والجهاد: بذل الجهد قدر الطاقة في سبيل الله، وجهاد الإنسان بحسب له، ولن يضيع الله عمل عامل.

وأيام الإنسان كأوراق الشجر التي تتساقط في فصل الخريف، فإنه لم ينتفع منها الانسان وهي خضراء فتذهب هباءً. وأيام ابن آدم إن ذهبت فلن تعود، فقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «مَا مِنْ يَوْمٍ يَأْتِي عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ الْيَوْمُ يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا يَوْمٌ جَدِيدٌ وأَنَا عَلَيْكَ شَهِيدٌ فَقُلْ فِيَّ خَيْراً واعْمَلْ فِيَّ خَيْراً أَشْهَدْ لَكَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

فلنستغل الفرصة كي لا تتحول أيامنا إلى أوراق نقدية لا رصيد لها، جاء في الحديث: «الدُّنْيَا سَاعَةٌ فَاجْعَلُوهَا طَاعَةً»(٢).

ولا يزيد ربنا بأعمالنا غنى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

[٧] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهذه هي البشارة الكبرى، فإن ربنا عز وجل سيمحو السيئات عمن آمن وعمل صالحا، ويعطيهم بدل سيئاتهم حسنات، وهذه أسمى نعم الله على المؤمن، فلو أن شخصا انتبه ذات صباح عند أذان الفجر فتماهل قليلا، وأخذته الغفوة، ثم انتبه ثانية، وإذا بالشمس قد طلعت فإن عليه أن يصمم لمحو أثر هذا الذنب من نفسه بأن يقوم بعمل عظيم لئلا يفتضح في يوم البعث على رؤوس الأشهاد بأنه لم يصل الصبح ذلك اليوم إلا قضاء، آنئذ لا ينفعه الكذب ولا تجديه الوسائط.

بلى؛ في ذلك اليوم ينفع شيء واحد ألا وهو الله الكبير المتعال، و الواسطة هي العمل الصالح، فمن عمل صالحا فإن الله يبدل سيئاته حسنات، و تكتب له في قائمة أعماله.

إذن فلنبادر إلى استغلال الفرصة، فكلنا مسيء، ومن منا من لم يعمل السيئات؟! كلنا خطاؤون، فلا بد أن نغسل خطايانا بالمزيد من الأعمال الصالحة، والعطاء في سبيل الله - جهادا وتضحية - عسى ربنا أن يغفر لنا خطايانا.

[٨] ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ إن أصعب الحالات التي تعترض الإنسان هي مقاومة المجتمع الذي ينشأ فيه، وهنا يشير القرآن الحكيم إلى أن الله يطلب من الإنسان أن

(١) الكافي: ج٢ ص٥٢٣.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٤، ص١٦٦.

لا يجعل والديه مبررا لتنازله عن مسؤوليته، بالرغم من ضرورة الإحسان إليهما والاهتمام بهما، فالوالدان ليسا بالضرورة مثالا يحتذي بهما الابن حتى لو ضغطا عليه خضع إليهما ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أي أكثرا عليك الضغوط ﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي ضغطا عليك لتشرك بالله -أيا كان نوع هذا الشرك- وإن ذكراك بالتعب الذي تعبا عليك في تربيتك، وإن عابا عليك انتماءك إلى المؤمنين الرساليين، ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ فهذا شرك خفي، ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ فيوم القيامة لن يحاسبك أبواك، فأنت وهما سيحاسبكم الله جميعا، ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

والأب الذي يجعل ابنه نصرانيا، أو يهوديا، أو مجوسيا، أو طاغوتيا، أو مشركا مسؤول يوم القيامة عما فعل، ولا تسقط من مسؤولية الابن شيء.

[٩] ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّٰلِحِينَ﴾ لا تفكر بما أصابك في جنب الله، فإن الله سوف يبدلك بما هو أحسن، لقد كان مصعب بن عمير وحيد والديه الثريين، ولكنهما طرداه بعد أن لم ينصع إليهما، فجرداه من كل ما أسبغا عليه، و أخرجاه من البيت، ولكن ما إن أصبح وحيدا، فإذا بمجموعة من المؤمنين الصادقين ممن تصافت قلوبهم، وتلاقت أفكارهم على الإيمان يحتضنون مصعبا، فيتحول من طريد أهله إلى أول مبعوث لرسول الله إلى أهل يثرب.

وكان بذلك أول فاتح إسلامي حقيقي للمدينة المنورة، وأول رجل يمهد الأرضية لهجرة الرائد العظيم رسول الله ﷺ.

فلا تخف، ولا تحزن أيها المؤمن المجاهد فالأمر يسير إن شاء الله، فإذا أخرجتك عائلتك، فسوف تحتضنك القلوب والأفئدة، كما قال الإمام علي عليه السلام: «مَنْ ضَيَّعَهُ الْأَقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ الْأَبْعَدُ»[١].

(١) نهج البلاغة: قصار الحكم: ١٤.

وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥) وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) ﴾.

هدى من الآيات:

تأكيدا لامتحان الله للإنسان في إيمانه تذكرنا آيات هذا الدرس أن الإيمان إنما هو وقر في القلب، سجيةٌ في النفس قبل أن يكون شعارا، وأن بعض الناس الذين يدعون الإيمان حينما يفتنون في سبيل الله بسبب إيمانهم ينهارون أمام الفتن، ويتنصلون عن إيمانهم، وإن ربنا سبحانه

يرد على هؤلاء مستنكرا: إن هذا العذاب البسيط الذي لا يعدو كونه فتنة لا يساوي ذلك العذاب الشديد الدائم الذي ينتظركم.

إن هناك فرقا في التعبير القرآني بين الفتنة والعذاب، حيث نستوحي من لفظة الفتنة محدوديتها زمانا ومكانا، بالنسبة للفرد أو الجماعة، وإن الهدف منها هو اختبار الإنسان في إيمانه ليس إلا، أما العذاب فإنه نتيجة لتلك الفتنة، فحينما يذهب المرء إلى قاعة الامتحانات فإنه لا يلبث إلا قليلا ثم يعود بعدها إلى منزله، و لكن نتيجة تلك السويعات القليلة تستمر معه بعد ذلك وربما تصل إلى سنين عديدة، فالفتنة إذا تساوي بمحدوديتها العذاب بدوامه واستمراره، وقد ورد في الدعاء: **«يا رَبِّ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفي عَنْ قَليلٍ مِنْ بَلاءِ الدُّنْيا وَعُقُوباتِها وَما يَجْري فيها مِنَ الْمَكارِهِ عَلى أَهْلِها، عَلى أَنَّ ذلِكَ بَلاءٌ وَمَكْرُوهٌ قَليلٌ مَكْثُهُ، يَسيرٌ بَقاؤُهُ، قَصيرٌ مُدَّتُهُ، فَكَيْفَ احْتِمالي لِبَلاءِ الآخِرَةِ وَجَليلِ وُقُوعِ الْمَكارِهِ فيها وَهُوَ بَلاءٌ تَطُولُ مُدَّتُهُ وَيَدُومُ مَقامُهُ وَلا يُخَفَّفُ عَنْ أَهْلِهِ لِأَنَّهُ لا يَكُونُ إلاّ عَنْ غَضَبِكَ وَانْتِقامِكَ وَسَخَطِكَ»**[1].

وتشير الآيات القرآنية بعد ذلك إلى الأخطاء المنتشرة في المجتمع، ولكنها قبلئذ تذكر بأن الأفكار الخاطئة تشبه الجرائم الخطيرة التي إذا تكاثرت على قلب الإنسان حجبته عن الخير، وقضت على كل أثر للسلامة عنده ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، ومثل على هذه الأفكار أن يقول إنسان لآخر: اعمل ما آمرك به وأنا المسؤول عن ذلك غدا عند الله. إن هذا القول لا ينفي مسؤولية المنفذ، إذ إن من يتبع إنساناً مفسداً فإنه لا يستطيع الادعاء بأنه بريء، ولا شك أن المتبوع مسؤول عند الله سبحانه، ذلك لأن الإنسان يتحمل تبعة تضليل الآخرين فيعاقب عليها، دون أن يسقط عنهم العقاب.

وحين يبين القرآن الكريم هذه الحقيقة فلكي نتجنب الأفكار التبريرية التي تحول بين الإنسان ورؤيته للحقيقة، والتي تجعل الفكر مقيدا بحدود ضيقة، لا يرى خلالها الواقع كما هو.

بدلا من تبني هذه الأفكار الخاطئة أو اعتناقها، فإن على الإنسان أن ينفتح على الحياة، ويرى الحقائق ببصيرة ثاقبة دون حجب، وينزع عن عينيه تلك النظارات القاتمة.

وهناك كثير من الناس يضع على عينيه نظارات حمراء وخضراء وسوداء، ولكن على شكل كتب وإعلام مضلل، فلا يتنبهون لذلك التضليل. إن تلك الكتب المزركشة وذلك الإعلام الضال يزرعان في الأذهان تفسيرات خاطئة للأحداث وتبريرات مبتدعة للجرائم

---

(١) البلد الأمين: ص١٨٩، من دعاء كميل.

وتشويهاً للحقائق الواضحة، هذا عدا اللغو والكذب والبهتان.

فعلى المؤمن أن لا يعطل عقله ويأخذ ما في هذا الإعلام أخذ المسلمات، بل عليه أن يستخدم عقله، ويعمل على تغذيته بقراءات موجهة هادفة، ليرى العالم على حقيقته لا كما يراه الآخرون.

وبعد عرض وجهات النظر القرآنية حول بعض الأفكار، يضرب ربنا سبحانه وتعالى الأمثال من واقع الأمم السابقة، و كيف أن المؤمنين قاوموا الصعوبات وهم يدعون إلى ربهم، دون أن ينهاروا إزاء الأذى والصعوبات التي تعرضوا لها.

استمر نوح عليه السلام خمسين وتسعمئة سنة. يدعو قومه دون أن يستجيبوا له، حتى اضطر أن يستقل ظهر السفينة عندما أراد الله إهلاكهم، فأنقذه الله سبحانه والذين آمنوا معه من الطوفان، وهذا النبي إبراهيم عليه السلام يمكث في قومه زمنا طويلا فلم يكن جزاؤه إلا الإلقاء في النار، ولما نجاه الله نفوه بعيدا عن بلاده، وهذه الامتحانات لا تدل على أن الله سبحانه لا يحب الإنسان، بل على العكس تماما، فقد تكون الفتنة في كثير من الأحيان دليلا على حب الله للمفتون، ولرفع درجته عنده.

جاء في الأثر: أن الإمام الحسين عليه السلام رأى جده رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام ذات مرة فشكا إليه جفاء قومه، فقال له الرسول صلى الله عليه وآله: «**إِنَّ لَكَ فِي الْجَنَّةِ دَرَجَاتٍ لَا تَنَالُهَا إِلَّا بِالشَّهَادَةِ**»[1]. وجاء في الحديث المعروف: «**أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ**»[2].

بينات من الآيات:

[١٠] ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ ادعاء وليس اعتقادا ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ وهل تقاس الفتنة التي يمتحن الله بها عباده بعذابه؟! إنه قياس باطل، فأين الفتنة المحدودة البسيطة التي قد تنطوي على هدف كريم من العذاب الشديد الدائم، الذي يعني نقمة الله وهوانه على من فشل في دار الفتنة، وما الأذى الذي كان يلحق بالمؤمنين الصادقين عبر التاريخ إلا لأنهم كانوا يرفضون سلطات الجور والطغيان رغم ما كانوا يلاقونه من قمع وإرهاب. كانوا يلقون بالثلاثة أو الأربعة منهم في سجن مظلم لا يميز فيه الليل عن النهار، كانوا يتناوبون على قراءة القرآن لتحديد مواعيد الصلاة، فمثلا يقرأ الأول

(١) بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣١٣.
(٢) الكافي: ج٢، ص٢٥٢.

ثلث القرآن فيصلون الصبح، ويقرأ الثاني الثلث الثاني من القرآن فيصلون الظهر والعصر، ويقرأ الثالث الثلث الأخير من القرآن فيصلون المغرب، أما غذاؤهم فلا يأتيهم إلا مرة واحدة في اليوم يرمى به إلى طامورتهم المغمورة الرطبة، التي تنتشر فيها الجراثيم والحشرات السامة، وفي تلك الظروف الحرجة حيث القاذورات والروائح الكريهة وإذا مات أحدهم، يبقى على وضعه حتى يتتن جثمانه، ويتفسخ، ثم يموت الآخرون الواحد بعد الآخر فيهدم عليهم السجانون الطامورة بعد أن أضحى الجميع رميا[1].

وبالرغم من تلك الفتنة المجهدة كان الواحد منهم[2] -لو كتب له الخروج من تلك الطامورة- إنما يخرج ليشهر سيفه ثائرا، وما كان ذلك الإرهاب ليلويهم عن أهدافهم، لأنهم قد اختاروا طريقهم بوعي، وآمنوا بما عملوا إيمانا حقيقيا، ولأنهم عرفوا أن هذا الأذى الدنيوي أمره حقير، وخطره يسير، وأمده قصير، إذا ما قورن بما ينتظر أعداءهم يوم القيامة، ذلك العذاب الذي يتمنى الإنسان لو أن عنده ملء الأرض ذهبا فيفدي نفسه به.

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ أيتصور هؤلاء أن ادّعاءهم الإيمان سينقذهم؟! يقولون: نحن مع المؤمنين حينما تكون عند المسلمين دولة، ولكنهم مع الكفار حينما يتعرض المسلمون للسجن والقتل!.

﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بلى إن الله سبحانه يعلم ما في صدر هذا وذاك، وما يكنونه من الإيمان أو الكفر.

[١١] ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ فالله يعلم من الذي آمن وصبر، كما يعلم من هم الذين آمنوا ثم انهاروا، والمنافقون هم أولئك.

[١٢] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ﴾ تعال معي وأنا أتحمل عنك تبعات عملك. إنه منطق مرفوض قرآنياً، وهل يعمل الإنسان عملا دون أن يسأل عنه ويحاسب عليه؟! إنك ستحاسب عليه يوم القيامة مع من أغواك، ويتبرأ منك.

﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ في دعوى تحمل خطايا من اتبعهم عنهم بحيث لا يحاسبون عنها.

---

(١) إشارة إلى المأخوذين من بني الحسن عليه السلام وكان كبيرهم عبد الله بن الحسن المثنى وعددهم ثمانية واستشهد سبعة منهم ونجا الثامن، راجع بحار الأنوار: ج٤٧، ص٢٩٩ وما قبلها.

(٢) إشارة إلى يحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى الذي أدركه الأعراب بعد طمر السجن عليهم وبه رمق، فقد شارك لاحقاً في ثورة فخ.

فالإنسان مرهون بعمله.

[١٣] ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ كل مخطئ يتحمل خطاياه بقدر عمله ونيته، ويحمل مع أوزاره أوزار من تبعوه وزر السنة السيئة والدعوة إليها ووزر عمل الأتباع، وهذا التحمل لا ينتقص من مسؤولية الذين اتبعوهم.

إن كل خطيئة تتحول يوم القيامة إلى غل يناط بعنق المذنب، فكم سيحمل الجاني المضلل من أغلال يوم القيامة؟! وسيواجهون يوم القيامة ويسألون عن افتراءاتهم بأنهم يتحملون الخطايا عن أتباعهم ليغروهم للضلالة. وسيرون أن لكل من الضالين والمضلين نصيب من العذاب.

إن من يظلم إنساناً، أو لا يعطي حقا من حقوق الله كالزكاة أو الخمس، أو يغتصب أرضا فإن ذلك يتحول إلى ثقل يحمله على ظهره يوم القيامة. وفي الحديث: روى الطبرسي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ رَجُلٍ لَايُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ فِي عُنُقِهِ شُجَاعٌ[١] يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٢].

ثم يذكرنا الرب -مرة أخرى- بقصة نوح فإبراهيم، ويعود السؤال إلى أذهاننا: لماذا هذا التكرار؟ ونقول: إن الحوادث التي خلدها القرآن كانت ذات أهمية قصوى، فليست حادثة الطوفان، أو مجمل قصص إبراهيم وسائر المسلمين هينة نسمعها مرة و نمضي عنها، لا بد أن تحفر في قلوبنا، وتتحول إلى وعي إيماني عميق، يسمو بالبشرية أبدا إلى التكامل المعنوي، وهكذا يكرر الذكر هذه الظواهر المرة تلو الأخرى، ويعتصر منها عبرها وآياتها وحكمها، ويلعن الظالمين ليصبحوا عبرة، ويكرم أنبياءه الكرام ليصبحوا أئمة و هداة.

[١٤] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ورغم هذه المئات التسع والخمسين سنة لم يؤمن قوم نوح به، فاضطر عليه السلام أن يدعو ربه لينزل عليهم العذاب ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ لم يأخذهم الطوفان إلا لأنهم كانوا ظالمين.

[١٥] ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ حيث أهلك الله أولئك الظالمين جميعا بذلك الطوفان الرهيب الذي وسع البسيطة، إلا فئة محدودة كان الله قد أمرها بصنع سفينة في الفلاة، ثم ركبوها وبدأ الطوفان. أوليس في ذلك آية للعالمين؟!.

---

(١) بضم الشين: ضرب من الحيات.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧ ص ١٤١.

[١٦-١٧] ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ دعا إبراهيم عليه السلام قومه إلى عبادة الله وتقواه، مبينا أن ذلك أفضل لهم، ثم حدد لهم ماهية أفكارهم وواقعها عبر الأسلوب الرسالي الذي يتكرر في كل رسالة، والذي يعتمد على نقطتين:

ألف: بيان بصيرة التوحيد التي تحقق للمجتمع حريته و استقلاله، وتمنحه القيم الإنسانية الراقية من الحق، والعدالة، والسلام.

بـــاء: تعرية الواقع الفاسد، وتسليط الضوء عليه ليتبين لأفراد المجتمع خطورة الفساد الذي هم فيه.

أوضح النبي إبراهيم عليه السلام لقومه وضعهم المزيف بقوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾.

ثم إن هذه الأوثان التي تعبدون أنتم صنعتموها، ثم أضفيتم عليها صبغة الواقعية، ولكن مهما فعلتم فإنها تفتقر إلى الواقعية، و لعلنا نستوحي من قوله سبحانه: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ حقيقة نجدها في آيات أخرى أيضا هي: أن الناس هم الذين يخلقون الطاغوت دون نفسه، لأن الطاغوت أضعف من ذلك، إن الذين يرضون بالطاغوت، ويسكتون عليه، والذين يلتفون حوله، و يسمعون أوامره، ويحاربون معه أولئك هم الذين يخلقونه.

﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي تخلقون كياناً باطلاً كذباً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ إنكم انتم الذين تعطون لما خلقتم القوة، وأنتم الذين تقتطعون لهم من أرزاقكم وليسوا هم، وهل يستطيع الطاغوت أن يعيش دون ضرائب يفرضها على أبناء الشعب؟!.

﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ فانبذوا هذا الواقع المزيف، واطلبوا من بارئكم الحق رزقكم، فهو الجدير بالطاعة، والخضوع، والتسليم، ثم... ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ والشكر هو العبادة العملية، كما قال: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، وهذا يعني: أن تكون أعمالكم وسلوكياتكم بحيث تجلب لكم المزيد من النعم والبركات، وكذلك فإن من يشكر يزداد رزقه، و نستوحي هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي أن من يريد الرزق فليبتغه من الله بالعبادة والشكر، وقد قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وبالتالي ستعودون إلى ربكم.

ومرة أخرى يؤكد الذكر الحكيم أن كل الصفات الحسنة، و الأخلاق الفاضلة إنما تأتي من الإيمان الصادق بالله واليوم الآخر، فمن يؤمن بيوم الجزاء سيجعل من حياته هذه مزرعة للخيرات، و قنطرة للسعادة في الآخرة، كما يستمر السقف صحيحا ما دامت أسسه سليمة، فكذلك حياة الإنسان تعمر وتزدهر كلما كانت عقائده صحيحة وواقعية.

قل سيروا في الأرض

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤)﴾.

هدى من الآيات:

يوصينا القرآن الكريم -مرة بعد أخرى- بضرورة العودة إلى التأريخ للاعتبار بسير السابقين بنفس القدر الذي يؤكد فيه على ضرورة البحث المباشر، والتطلع إلى ما يحيط بالإنسان من مظاهر طبيعية، وآثار تحمل أخبار الماضين، وما يكتنف الحياة عموما من السنن والحقائق والتطورات.

والتأكيد على هاتين القضيتين تحقق عدة أهداف:

أولاً: إن سعة الأفق العلمي، وشمول المعرفة البشرية يساعد الإنسان على النهوض من واقع التخلف، والتسامي إلى سماء القيم بعيدا عن الخرافات والأساطير، ذلك لأنه ليس إيمان

الجاهل كإيمان العالم، فكلما تقدم العالم في ميدان العلم، اقترب أكثر فأكثر من حقيقة الإيمان بالله، ونشأة الكون، وبدء الحياة، و لذلك فالإيمان بالله هو قمة العلم والمعرفة.

ثانياً: معرفة أحوال الأمم السابقة، وكيفية نشوئها وتطورها، والأدوات التي استخدموها، لا يتم إلا بدراسة الآثار التي تحمل مخلفاتهم، ومطالعة كتاباتهم، ونوع تفكيرهم وفنونهم، عبر النقوش على الصخور والكهوف، وبتلك الدراسة المستوفاة، نستطيع التعرف على الأمم السابقة، وكيف تقدمت ولماذا بادت.

ثالثاً: إن الحياة لم تكن على وتيرة واحدة، وإنما منح ربنا سبحانه الحياة الكمال شيئا فشيئا، وخلقا بعد خلق، وليس الأمر كما يقول الجاهلون بأن الطبيعة كانت شعلة متوهجة منذ البداية، و ستبقى هكذا إلى النهاية، ولو كانت شعلة منذ الأزل لانتفى الكمال، ذلك لأن فلسفة الكمال تتلخص في: أن المسيرة ابتدأت من وضع غاية في البساطة، ثم راحت تتصاعد في مدارج الكمال عبر ملايين السنين، حتى وصلت إلى ما نحن عليه الآن، و ستواصل المسيرة في المستقبل إلى أن تصل القمة التي شاءها الله، فيأذن بأمره.

والعلم الحديث قد توصل إلى هذه النتيجة بدليل علمي وهو قدرة العلماء على اكتشاف عمر الإنسان من الحفريات والآثار التي يعثرون عليها، عن طريق التحليل الطيفي لذرة الكربون الموجودة في الكائنات العضوية - الحيوان والنبات - وكلما مر قرن من الزمان على ذرة الكربون زاد في عدد نيوتروناتها واحد، وبقدر ما في الذرة من نيوترونات يعرفون عدد القرون التي مرت على هذه الذرة، وبالتالي يعرف عمر الجمجمة مثلا بعد معرفة عدد السنين التي مرت على هذه الذرة، وإن دل هذا الاكتشاف على شيء فإنما يحمل دلالة على أن الإنسان كانت له بداية وكذلك كل الخلائق، والسير في الأرض هو من اجل معرفة تلك البداية، و إذا كان الله سبحانه هو الذي أوجد الإنسان في البدء ولم يكن شيئا مذكورا، أوليس بقادر على أن يعيده مرة أخرى؟! ولا يستطيع أحد أن يقول أن الله ليس بقادر لأن ابتداع الخلق من بعد العدم أصعب بذاته من إعادته، بعد أن كان -وبالطبع- ليس أصعب على الله سبحانه، لأن الأمور عند الباري سواء.

رابعاً: لكي نعتبر من التاريخ العام بعد التعرف الدقيق على سير الأمم التي سبقتنا، يجب أن نتيقن بأننا مسؤولون عن أعمالنا، وأن السنن التي حكمت السابقين تحكمنا أيضا، والقرآن الحكيم حينما يحدثنا عن التأريخ فإنه لا يتحدث بأسلوب علمي محض لمجرد نقل الخبر دون الاعتبار، وإنما يخترق الفواصل الزمنية ليبين: أن سنة الله تجري في من يأتي بمثل ما جرت على من مضى.

واكتشاف القانون لتطبيقه على الواقع الحاضر هو الهدف القرآني، من هنا نرى أن النظرة الإسلامية للتأريخ (نظرة عبرية) ليتحول التاريخ من حقيقة علمية إلى حقيقة سلوكية في حياتنا، و إلى حقيقة إيمانية في أذهاننا.

ومن سنن الله:

أولاً: أن الله يفعل ما يشاء، يرحم أو يعذب من يشاء، دون أن يقدر أحد على تحدي مشيئة الرب سبحانه، مما يجعلنا أكثر واقعية وأن الناس يرجعون -بالتالي- إلى ربهم ليوفيهم الجزاء الوفاق.

ثانياً: أن البشر لا يقدر على مقاومة قدره الإلهي، فإذا نزل به فلا شيء ولا أحد ينصره أو يواليه.

ثالثاً: الكفار لن ينالوا رحمة الله في الدنيا، وينزل بهم في الآخرة عذاب أليم.

كل ذلك قاله إبراهيم عليه السلام لقومه، ولكنهم كذبوه، و أرادوا أن يحرقوه فأنجاه الله من النار.

بينات من الآيات:

[١٨] ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ لستم أول من كذب، فقبلكم أمم قد كذبت، وحاق بها العذاب، فاعتبروا! وليس على الرسول إلا أن يبلغكم، وقد سبق القول: أن من مشاكل الإنسان النفسية أنه يعتقد بأن الهداية ليست من مسؤوليته، ولكن القرآن الكريم يؤكد على أن السعي وراء الهداية من مسؤولية البشر نفسه، وليست مسؤولية الأنبياء، فمسؤولية الأنبياء تنتهي بمجرد التبليغ، وعلى الإنسان أن يسلك بقية الطريق .

[١٩] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إن بعض أنواع المخلوقات لها أعمار مديدة جداً، والعرب يضربون المثل في طول العمر بالغراب، يقال: (عندما يشيب الغراب) لأن الآباء والأبناء يرون الغراب نفسه رغم تعاقب الأجيال، وهذه الأنواع لا يمكن للفرد مراقبة أطوار حياتها، و هناك أنواع أخرى قصيرة الأجل كالذبابة أو البعوضة التي لا تعيش أكثر من ثلاثة أيام، وكذلك هناك بعض الحشرات التي لا تلبث سوى ساعتين هما كل عمرها، ويمكن للإنسان أن يراقب ولادته و نهايته ببساطة ليعرف كيف يولد بيسر، وكيف ينتهي بلا ضوضاء، وليعتبر أن عودته كما بدايته سهلة ولا يعجز الله شيء، ولا يصعب عليه

فعل سبحانه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فإرادته سبحانه بين الكاف والنون.

[٢٠] ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ إن قضية السير في الأرض لا يمكن أن تدرس في الغرفة المغلقة، وإنها على الطبيعة. ينقب الإنسان عن الآثار، ويبحث في الطبقات، ويدرس الحفريات، حتى يفهم كيف ابتدع الله الخلق ابتداعا.

وكل واحد قادر على أن يلاحظ تطورات الحياة، من خلال سيره في الأرض، بأعين مفتوحة، وقلب واع، وضمير يقظ.

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ إذا عرفنا أن الخليقة لم تكن ثم كانت، وأن تحريكها يتم بصورة غيبية (أي بتدخل قوة خارجية في الكون) نعرف بأن الله هو الذي خلقها، ونعرف أن الذي خلقها قادر على أن يعيدها بعد أن يميتها وآنئذ نؤمن.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنه يقلب الحياة خلقا بعد خلق، ونشأة بعد نشأة.

[٢١] ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ لأنه المالك المتصرف، ولا أحد يستطيع الاعتراض على مالكيته -شاء أم أبى- فهو الذي خلق، ووهب الحياة، وأهدى الوجود، ورزق الكائنات، فإن عذب فبعدله، وإن رحم فبعفوه و تجاوزه.

﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ إلى الله المآب والمرجع.

[٢٢] ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فلا تمنّ نفسك بالتهرب من الجزاء، كما يمني المجرم نفسه بالفرار، فإن عرف المرء منذ البداية أنه لا فرار من العقوبة فسوف يرتدع عن الجريمة.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وهذا رد لمن يمني نفسه بالشفاعات، ويظن مثلا أن عيسى عليه السلام سيفديه بنفسه، ويدرأ عنه العذاب، إلا إن الحق تبارك و تعالى يقول: لا عيسى ولا سائر الأنبياء ولا الأولياء يستطيعون أن ينقذوكم من عذابه إلا بإذن منه.

وينذر ربنا الكفار الذين لا يؤمنون بيوم القيامة، بأنهم يائسون من رحمته، فلا ينتظروا منه رحمة -وهو الذي وسعت رحمته كل شيء- فلا يتمنوا عليه أن يدخلهم جنات النعيم، إلا بعد الإيمان و إصلاح أنفسهم.

[٢٣] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ ولعل الآية تشمل فيمن تشملهم أولئك الذين يدعون الإيمان بالآخرة، ولكنهم يبنون عملهم وسلوكهم

على أساس عدم وجود النشور.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وأحد أنواع العذاب اليأس.

إن المؤمن على العكس من ذلك، فهو يعيش الرجاء، فالرجاء يعطي فرصة التفكير في المستقبل، والتخطيط للنجاح، وبلوغ الأهداف، وقد صدق الشاعر حين قال:

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

فالعيش ضيق، والعمر كئيب، والحياة مظلمة لولا فسحة الأمل، ولكن الكافر لا يملك فسحة الأمل، ولا روح الرجاء، لأنه لا يثق بالله سبحانه، لذلك يعيش الألم.

[٢٤] تلك كانت خلاصة ما قاله النبي إبراهيم عليه السلام لقومه: إذ أمرهم بالفتح لأعينهم، والسير في الأرض، والنظر في سير الآخرين، واستخدام عقولهم.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ طلب إبراهيم عليه السلام من قومه التعقل والتروي قبل الحكم السريع، ومناقشة واقعهم الفاسد على ضوء الأدلة، ومع ذلك لم يبد منهم إلا العناد والرد القبيح بالقتل أو الحرق؛ ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وما أوسع رحمة الله إذ لم يأخذهم بالعذاب بغتة، فنحن لم نقرأ في التأريخ أو في القرآن: أن الله عذب قوم نمرود أو دمرهم، أو أنزل عليهم رجزا من السماء، وإنما قرأنا أن الله سبحانه أنجى نبيه من نارهم، فخرج مهاجرا عن القوم الظالمين.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أجل. ينبغي أن يكون أملنا بالله تعالى قويا، فرحمته وسعت كل شيء، وقد سبقت رحمته غضبه، فهو مولانا. عليه توكلنا، و إليه أنبنا، وإليه المصير.

وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ[1] الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا[2] وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ

---

(١) ناديكم: النادي المجلس إذا اجتمعوا فيه.

(٢) صاق بهم ذرعاً: أي ضاق قلبه وقيل حيلته فيا أراد من حفظهم.

مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا [1] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

هدى من الآيات:

يواصل السياق بيان قصة إبراهيم عليه السلام وقومه وكيف هاجر مجتمعه الفاسد، فآمن له لوط، ويبين أن التجمع الصنمي لا ينفع شيئا عند الله، إذ يكفرون ببعضهم يوم القيامة، ويتلاعنون، و مصيرهم جيما جهنم ولا يتناصرون، ولقد هاجر هو ولوط الذي آمن معه، ورزقه الله إسحاق ويعقوب، وجعل النبوة والرسالة في ذريتهما، وآتاه أجره في الدنيا، وأدخله في الآخرة في زمرة الصالحين، ثم يبين قصة لوط وكيف واجه فساد قومه الفاحش من إتيان الرجال، وقطع السبيل، والإجهار بالمنكرات. أما قومه فقد طالبوه بالعذاب، فدعا ربه فنصره إلا إن الملائكة عرّجوا على إبراهيم قبل أن يصبوا العذاب على قوم لوط عليه السلام فجادلهم بأن في القرية لوطا، فأخبروه بأن الله سوف ينجيه وأهله إلا امرأته، و هكذا أنجاهم الله ودمر الباقين.

ولأن سورة العنكبوت تشدد على ضرورة جعل محور العلاقة بين الإنسان ونظيره الإنسان علاقة الإيمان بالله، ورفض المحاور الوثنية الأخرى، لأنها زائلة وضارة، و تستدرجنا إلى عذاب الله الأليم، فإننا نجد إبراهيم عليه السلام يبين فكرة هامة هنا هي: أن اتخاذ الأوثان إنما تم بهدف المودة المتبادلة بين المشركين، وإن هذا الهدف باطل، إذ يكفر المشركون ببعضهم يوم القيامة.

إن البشر خلق اجتماعيا، ولعل اسم الإنسان والناس مستوحى من هذه الفطرة الراسخة فيه، أما كلمة الحضارة أو المدنية فإنها تشير إلى حضور الإنسان عند نظيره، إلا إن هذه النزعة الاجتماعية تضل سبيلها وهي كسائر الغرائز البشرية بحاجة إلى توجيه وتزكية، فكما غريزة الجنس يهذبها الإسلام ويهديها إلى السبيل القويم لها بالزواج، كذلك النزعة الاجتماعية، ولكن بسبب انفلات هذه النزعة عن قنواتها المحددة، جرت البشرية إلى مآسي مروعة.

كيف ذلك؟.

قبل أن نجيب عن هذا السؤال نوضح حقيقتين:

---

(١) رجزاً: أي عذاباً.

ألف: النزعات الفاسدة في قلب البشر هي التي تضحي علاقات اجتماعية شاذة في حياته، فحب المال حبا جما يفرز الطبقية، و التكبر يولد الاستكبار والعلو في الأرض، والجبن يسبب الاستضعاف، والحرص يجر إلى الفساد الاقتصادي و...

ولذلك كان الجبت والطاغوت وجهين لعمله فاسدة واحدة، فعبادة المال والتسليم للصولجان هو جبت القلب، بينما الديكتاتورية والاستبداد طاغوت المجتمع.

باء: أن الجاهليين الذين كانوا يعبدون الأوثان لم يكونوا ناقصي العقول إلى هذه الدرجة ليزعموا أن هذه الأحجار التي يصنعونها بأيديهم هي التي خلقتهم فعلا.

كلا.. إنما كانت الأوثان رمزا لتجمعهم، وتعبيرا عن نوع العلاقة التي ارتضوها لأنفسهم، ولذلك كانت الأصنام تكبر وتصغر حسب حجم القبيلة، فهناك صنم قريش (هبل) يعتبر أكبر الأصنام في الجزيرة، لأن تلك القبيلة كانت تزعم أنها كبرى قبائل العرب، وأصغر منها حجما كان صنم ثقيف (مناة) لأن تلك القبيلة كانت أقل مستوى من قريش، وكلما صغرت القبيلة تضاءلت أهمية أوثانها، حتى بلغ بتجمع صغير حقير أن صنع لنفسه صنما من التمر، فإذا أصابتهم مخمصة وقعوا على إلههم المزعوم و التهموه عن آخره.

بعد بيان هاتين الفكرتين نجيب عن السؤال السابق:

باستثناء التجمعات التوحيدية انحدرت البشرية إلى درك الوثنية بطريقة أو بأخرى، إذ إنها ارتبطت ببعضها عبر المصالح و العصبيات والخرافات البعيدة عن العلاقة التوحيدية، ما الذي جمع طبقة المترفين إلى بعضهم؟ أوليس الحرص على تكديس الثروة؟! إذ المحور هنا حب المال، والعلاقة بالإنسان تمر عبر قناة جمع الثروة، ولا يحترم الإنسان كإنسان بل بصفته صاحب ثروة، إذ إن الاحترام هو للثروة ذاتا ولم يملكها بالتبع أليس كذلك؟! إذا الثروة معبودة، وهي محور العلاقة، ولا بد أن يختاروا إلها رمزا يحترمونه ويكرمونه ويقدسونه، وبالتالي يعبدونه. ذلك الرمز قد يكون صنما من ذهب أو فضة أو أحجار كريمة -كما كان يصنعه الإنسان البدائي- ولكن قد يكون رمزا متطورا يسمونه بـ (العلم)، أو بتمثال الحرية، وبرج تاريخي، أو تمثال الفيل أو التمساح.

وقد يختار تجمع المترفين شخصا يسمونه بالملك ويضفون عليه قدرا من القداسة المزعومة، و الجلالة المزيفة، فيجعلونه رمزا لتجمعهم.

وكما محور الثروة كذلك محور القومية والوطنية وما أشبه، تنفلت من إطارها السليم، وتتحول إلى صنم يعبد من دون الله.

أما والآن وقد عرفنا أن هذه الأوثان التي كانت تعبيرا عن نزعات نفسية شاذة ومنحرفة جرت المزيد من الويلات على البشرية، فكم ارتكبت باسمها الجرائم وكم سوغت باسمها المجازر، وكم أشعلت نار الحروب الضارية ولا تزال.

وقد بين ربنا على لسان محطم الأصنام إبراهيم عليه السلام أن اتخاذ الأصنام إنما كان لأجل تحقيق ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ فالهدف هو إيجاد العلاقة، ثم أوضح أن الكفار سوف يتبرؤون من بعضهم يوم القيامة.

ومن هنا نعرف العلاقة بين الآية الأولى والثانية في هذا السياق، إذ إن رفض الإسلام للمودة الوثنية يقابله تشجيعه على المودة الرحمانية، القائمة على أساس التوحيد. فكما حارب إبراهيم الوثنية آمن به لوط، ورزقه الله إسحاق ويعقوب، ومن ورائهما الأسباط، والتجمع الإيماني، ذلك التجمع الذي باركه الله في الدنيا، حيث أعطي جزاء إبراهيم عليه السلام وافيا، وفي الآخرة أدخله في الصالحين. أولئك الذين لا يتبرأ بعضهم من بعض.

أي تجمع يباركه الإسلام؟ وهل كل تجمع مفيد؟ وعلى أي أساس؟.

إن التجمعات اليوم قائمة على محاور وثنية، كالتجمع حول (وثن الوطنية، أو صنم الإقليمية، أو القومية، أو العنصرية، أو الطبقية) هذه الأوثان التي قد يرمز لها بعلم، أو شخص (طاغوت) أو مسميات أخرى (الجندي المجهول، أو تمثال الحرية، أو تمثال الفيل، أو التمساح، أو أبي الهول، أو شجرة الأرز).

ولا تعني هذه الرموز حين تكون شعاراً للجماعة سوى النزعة الصنمية، ذلك لأن أولئك الذين كانوا يقدسون الأصنام في الجاهلية، التي كانوا يصنعونها من التمر ثم يأكلونها إذا جاعوا، هل كانوا يعتقدون فعلا أنها آلهتهم؟!.

كلا.. فلو كانوا يعتقدون حقيقة أنها آلهتهم لم يأكلوها عندما يجوعون. إنهم كانوا يزعمون أنها رمز تجمعهم، لذلك كانت كل قبيلة لها صنمها الخاص.

بينات من الآيات:

[٢٥] ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حيث اتخذتم وثنا يكون رمزا لعلاقاتكم في الحياة الدنيا، بيد أن هذه العلاقات غير ثابتة لأنها منبثقة عن النزعات النفسية التي تتبخر عند الموت، فحينما ينزل ابن آدم إلى قبره يودعه على حافته ماله، وعياله، و ذويه، وانتماءاته الحزبية، وولاءاته السياسية، ليواجه مصيره وحده.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ورد في مواضع أخرى من القرآن تجسيد حي لبعض مشاهد الآخرة، وهذه الآية تعرض واحدة من تلك الصور التي تجسم النزاع الذي يدور بين الجماعات التي كانت متوحدة في الدنيا على بعض القيم المزيفة، إذا بهم يتلاعنون يوم القيامة، أما المؤمنون فيقول عنهم ربنا سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وجاء في حديث مأثور عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في تفسير الآية: عن مالك الجهني قال: قال لي أبو عبد الله: «يَا مَالِكُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَوْمٍ ائْتَمُّوا بِإِمَامٍ فِي الدُّنْيَا إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَلْعَنُهُمْ وَيَلْعَنُونَهُ إِلَّا أَنْتُمْ وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ حَالِكُمْ»(١).

[٢٦] كلا الفريقين يعكسان طبيعة ما كانوا يعيشونه في الدنيا من زيف أو حقيقة، ولكن على الرغم من تكذيب القوم لإبراهيم عليه السلام وجوابه لهم بهذا المنطق الصارم، إلا إن دعوته لم تذهب سدى حيث آمن به لوط عليه السلام.

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ولوط عليه السلام بإيمانه قد حقق هجرتين لا هجرة واحدة، فالأولى هجرة معنوية حيث هجر المجتمع الفاسد رافضاً تمحوره حول الأوثان ليتصل بالمجتمع الصالح المتمحور حول الإيمان الحق، والهجرة الثانية هجرته الجغرافية حيث ترك مدينة بابل ليرحل إلى مصر ففلسطين مع إبراهيم عليه السلام لكي يقوم ببناء محور جديد لتجمع يقوم على أساس الإيمان بالله، وليقوم بدوره في تبليغ رسالات ربه.

[٢٧] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ويشير القرآن هنا إلى امتداد إبراهيم عبر الزمن عن طريق إسحاق ويعقوب، بينما كان أولاده بالفعل (إسماعيل وإسحاق) ولكن الله سبحانه وتعالى ركز على إسحاق، ولم ينف إسماعيل و ذلك لأن التجمع الرسالي امتد عبر الزمن عن طريق إسحاق، و وراءه يعقوب، ومن بعده ذرية طيبة كانت فيهم النبوة والكتاب، فتصدروا بذلك مسرح الأحداث، وكل أولئك كانوا من ذرية إسحاق عليه السلام في الوقت الذي كانت فيه ذرية إسماعيل عليه السلام تغط في سبات و جهل وخمول إلا قليلاً فهم توارثوا الحنفية، إلى أن بزغ نور رسول الله صلى الله عليه وآله فيهم، فكان رحمة للعالمين، وسيد المرسلين، وهكذا بارك الله في أمة إبراهيم بحيث أصبح ذكره اليوم محمودا عند أكثر من ملياري إنسان. هذا في الدنيا، أما في الآخرة فهو

---

(١) الكافي: ج٨ ص١٤٦.

عند الله من الصالحين وكفى بذلك مقاما كريما.

[٢٨] ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بدأ لوط عليه السلام باستنكاره على قومه الإتيان بالفاحشة، فقال لهم: يا قوم إنكم ترتكبون من الفواحش ما لم يسبقكم إليها أحد من العالمين، فأنتم أعظم خطرا، وأسوأ شرا لأنكم ابتدعتم جرائم عديدة.

وجاء في حديث مروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ إِبْلِيسَ أَتَاهُمْ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ فِيهِ تَأْنِيثٌ عَلَيْهِ ثِيَابٌ حَسَنَةٌ فَجَاءَ إِلَى شَبَابٍ مِنْهُمْ فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقَعُوا بِهِ فَلَوْ طَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَقَعَ بِهِمْ لَأَبَوْا عَلَيْهِ ولكِنْ طَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَقَعُوا بِهِ فَلَمَّا وَقَعُوا بِهِ الْتَذُّوهُ ثُمَّ ذَهَبَ عَنْهُمْ وتَرَكَهُمْ فَأَحَالَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ»[1].

[٢٩] ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ إضافة إلى فاحشة اللواط كانوا يقطعون الطرق الآمنة على الناس، لأن قراهم كانت في مركز جغرافي حيوي يشرف على طرق التجارة. فلا يسمحون بمرور القوافل.

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي تجاهرون بالمنكرات، وتقترفونها في نواديكم التي تجتمعون فيها بكل صراحة، فمن يعمل المنكر ويخفيه عن أعين الناس فإن أمره هين وقد يغفر الله له، أما أن يفعل المنكر أمام الناس فذلك تعد على الحرمات والقيم.

وذكر في بعض الروايات: «أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَضَارَطُونَ فِي مَجَالِسِهِمْ مِنْ غَيْرِ حِشْمَةٍ وَلَا حَيَاءٍ»[2].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فوق ما اقترفوا راحوا يستكبرون، ويتوغلون في التحدي، إذ إن من يعمل السيئات ثم يندم عسى الله أن يتوب عليه، أما أن يعمل السيئات، ثم يتحدى الله، فهو مخلد في النار.

[٣٠] ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ هناك أنهى لوط عليه السلام رسالته، وأوكل الأمر إلى الله، ومتوكلا عليه، طالبا منه النصرة. وقد بقي ينصحهم ثلاثين عاما فلم يقبلوا.

[٣١] ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا إِنَّا مُهْلِكُوٓا أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ

(١) الكافي: ج٥ ص٥٤٤.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٢، ص١٤٧.

إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ الحسم لا يتم إلا بمعرفة القيادة العليا، فالملائكة الرسل الذين جاؤوا لنصرة لوط، وإهلاك قومه مروا في طريقهم على إبراهيم لكي يوعز ربنا سبحانه لإبراهيم: بأنك أنت القائد الأعلى للتجمع الإيماني في الأرض، وقد كان بإمكان هؤلاء الملائكة أن يذهبوا رأسا ناحية لوط، ولكنهم مروا على إبراهيم جزاء من الله له على إيمانه الصادق وإخلاصه.

وهؤلاء الرسل لم يبدؤوا إبراهيم بالإنذار، وإنما ابتدؤوه بالبشرى بأن الله سيهب له إسحاق ومن ورائه يعقوب والذرية الصالحة، رغم أنهم يحملون العذاب لقوم لوط، ولا تخلو هذه اللفتة من مفارقة كريمة وهي: أن ربنا سبحانه وتعالى قبل أن يهلك قوما كفروا وعاندوا بشر رئيس ذلك المجتمع إبراهيم عليه السلام بأنه سيعطيه ذرية صالحة، تحمل راية الحق، وتنشر كلمة الله في الأرض، فتلك هي المفارقة، ويبشره بالعطاء أولاً، ثم ينذره بأنه سوف يهلك الظالمين، ولكن إبراهيم عليه السلام حينما عرف أن الله مهلك قوم لوط فزع.

[٣٢] ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ وذلك هو سلوك المؤمنين الصادقين، فمن صفات الأنبياء عليهم السلام أنهم رحماء بالبشر غيورون على المؤمنين، بحيث لم يتمالك نفسه، واندفع قائلا: وما هو مصير لوط؟!

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: أن إبراهيم كان يسعى لدرء العذاب عن قوم لوط، يقول الحديث (بعد بيان جوانب من قصة لوط): «فَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: لِمَاذَا جِئْتُمْ؟. قَالُوا: فِي إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنْ كَانَ فِيهِمْ مِائَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَتُهْلِكُونَهُمْ؟!. فَقَالَ جَبْرَئِيلُ: لَا، قَالَ: فَإِنْ كَانَ فِيهَا خَمْسُونَ؟. قَالَ: لَا. قَالَ: فَإِنْ كَانَ فِيهَا ثَلَاثُونَ؟. قَالَ: لَا. قَالَ: فَإِنْ كَانَ فِيهَا عِشْرُونَ؟. قَالَ: لَا. قَالَ: فَإِنْ كَانَ فِيهَا عَشَرَةٌ؟. قَالَ: لَا. قَالَ: فَإِنْ كَانَ فِيهَا خَمْسَةٌ؟. قَالَ: لَا. قَالَ: فَإِنْ كَانَ فِيهَا وَاحِدٌ؟. قَالَ: لَا.

قَالَ: فَإِنَّ فِيهَا لُوطاً؟!. قالُوا: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ»[1].

قال الحسن بن علي عليه السلام: «لَا أَعْلَمُ هَذَا الْقَوْلَ إِلَّا وَهُوَ يَسْتَبْقِيهِمْ، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾»[2].

﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾

(١) الكافي: ج٥ ص٥٤٦.
(٢) المصدر السابق: ص٥٤٦.

وفي هذه الآية عودة للتذكر: بأن التجمع الأسري مطلوب، ولكن في حدود الإيمان الحقيقي، ولأن امرأة لوط كانت سيئة فقد أصبحت من الغابرين واستبعدت من الصالحين.

[٣٣] ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ كان لوط يحرث الأرض، وإذا به يرى مجموعة من الرجال يأتون إليه، فاستقبلهم بحفاوة وطلب منهم النزول عليه في بيته ضيوفا، ولكن ما إن سمع القوم بقصتهم حتى هرعوا إليه يريدون أن يفعلوا الفاحشة، فضاق بهم ذرعا، ولم يدر ما يصنع، ولكن حينما رأى الضيوف حيرة لوط طمأنوه..

﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ لا تخف على المستقبل، ولا تحزن على الماضي، فنحن رسل السماء إليك.. ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

[٣٤] ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ولا بد من ملاحظة الفرق بين (منزلين) بالتخفيف و(منزلين)بالتشديد، الأولى من (أنزل) أي دفعة واحدة، بينما الثانية من (نزل) أي على فترات شيئا فشيئا، والملائكة هنا أخبروا لوطا أن العذاب سينزل من السماء رجزا على الفاسقين دفعة واحدة.

أما كيف نزل بهم العذاب؟ فقد روى أبو حمزة الثمالي قصة ذلك مفصلا في رواية:

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله سَأَلَ جَبْرَئِيلَ كَيْفَ كَانَ مَهْلِكُ قَوْمِ لُوطٍ؟. فَقَالَ عليه السلام: إِنَّ قَوْمَ لُوطٍ كَانُوا أَهْلَ قَرْيَةٍ لَا يَتَنَظَّفُونَ مِنَ الْغَائِطِ وَلَا يَتَطَهَّرُونَ مِنَ الْجَنَابَةِ بُخَلَاءَ أَشِحَّاءَ عَلَى الطَّعَامِ، وَإِنَّ لُوطاً لَبِثَ فِيهِمْ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَإِنَّمَا كَانَ نَازِلاً عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ وَلَا عَشِيرَةَ لَهُ فِيهِمْ وَلَا قَوْمَ وَإِنَّهُ دَعَاهُمْ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى الْإِيمَانِ وَاتِّبَاعِهِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَحَثَّهُمْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ فَلَمْ يُجِيبُوهُ وَلَمْ يُطِيعُوهُ وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا أَرَادَ عَذَابَهُمْ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رُسُلاً مُنْذِرِينَ عُذْراً نُذْراً فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ أَمْرِهِ بَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَائِكَةً لِيُخْرِجُوا مَنْ كَانَ فِي قَرْيَتِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدُوا: ﴿فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فَأَخْرَجُوهُمْ مِنْهَا وَقَالُوا لِلُوطٍ أَسْرِ بِأَهْلِكَ مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ اللَّيْلَةَ ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ... وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ فَلَمَّا انْتَصَفَ اللَّيْلُ سَارَ لُوطٌ بِبَنَاتِهِ وَتَوَلَّتِ امْرَأَتُهُ مُدْبِرَةً فَانْقَطَعَتْ إِلَى قَوْمِهَا تَسْعَى بِلُوطٍ وَتُخْبِرُهُمْ أَنَّ لُوطاً قَدْ سَارَ بِبَنَاتِهِ وَإِنِّي نُودِيتُ مِنْ تِلْقَاءِ الْعَرْشِ لَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ يَا جَبْرَئِيلُ حَقَّ الْقَوْلُ مِنَ اللهِ بِحَتْمِ عَذَابِ قَوْمِ لُوطٍ فَاهْبِطْ إِلَى قَرْيَةِ قَوْمِ لُوطٍ وَمَا حَوَتْ فَاقْلَعْهَا مِنْ تَحْتِ سَبْعِ أَرَضِينَ ثُمَّ اعْرُجْ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَأَوْقِفْهَا حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرُ الْجَبَّارِ فِي قَلْبِهَا وَدَعْ مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً مِنْ مَنْزِلِ لُوطٍ عِبْرَةً لِلسَّيَّارَةِ فَهَبَطْتُ عَلَى أَهْلِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِينَ فَضَرَبْتُ بِجَنَاحِيَ الْأَيْمَنِ عَلَى مَا حَوَى عَلَيْهِ شَرْقِيُّهَا وَضَرَبْتُ بِجَنَاحِيَ الْأَيْسَرِ عَلَى مَا حَوَى عَلَيْهِ غَرْبِيُّهَا فَاقْتَلَعْتُهَا يَا مُحَمَّدُ مِنْ تَحْتِ سَبْعِ أَرَضِينَ إِلَّا

مَنْزِلَ آلِ لُوطٍ آيَةً لِلسَّيَّارَةِ.

ثُمَّ عَرَجْتُ بِهَا فِي جَوَافِي جَنَاحِي حَتَّى أَوْقَفْتُهَا حَيْثُ يَسْمَعُ أَهْلُ السَّمَاءِ زُقَاءَ دُيُوكِهَا وَنُبَاحَ كِلَابِهَا فَلَمَّا طَلَعَتِ الشَّمْسُ نُودِيتُ مِنْ تِلْقَاءِ الْعَرْشِ يَا جَبْرَئِيلُ اقْلِبِ الْقَرْيَةَ عَلَى الْقَوْمِ فَقَلَبْتُهَا عَلَيْهِمْ حَتَّى صَارَ أَسْفَلُهَا أَعْلَاهَا. وَأَمْطَرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴿حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ -يَا مُحَمَّدُ- مِنَ الظَّالِمِينَ -مِنْ أُمَّتِكَ- بِبَعِيدٍ﴾»(١).

[٣٥] ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تركناهم عبرة لمن يستفيد من التجارب والدروس التاريخية. و قد أكد الله سبحانه هذه الحقيقة في آية متقدمة من هذه السورة: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٨]، ثم قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

فعلينا أن نسير في الأرض، وننقب في الآثار، ونكتشف إلى أي مدى من التحضر أو التخلف وصلوا، حتى نفهم كيف كان هؤلاء، ولماذا هلكوا.

وما أحوج البشرية اليوم للاعتبار بمصير قوم لوط وهي تنزلق في وحل الرذيلة والفحشاء، وتراها استمرأت المجون و استباحت الزنا وانتشر فيها الشذوذ الجنسي وبدأ يكتسب وضعا قانونيا في بلاد عديدة، وبالرغم من تحذير الحكماء، وإنذار الرب بانتشار الأوبئة المهلكة فإنهم لا يزالون يهبطون نحو الهاوية، حيث غضب الله الذي لا يقدرون على رده - أنجانا الله منه-.

(١) بحار الأنوار: ج١٢، ص١٥٢. تفسير العياشي: ج٢، ص١٥٧.

وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟[1] فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ
﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ
وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟
مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم
مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ
﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا[2] وَمِنْهُم
مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم
مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ
كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ
ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ
مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ
نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

(١) ولا تعثوا: يقال عثى إذا أفسد فساداً كثيراً.
(٢) حاصباً: الحاصب هو الريح العاصفة التي فيها الحصباء وهي الحصى الصغار.

هدى من الآيات:

أوهن العلاقات الاجتماعية، وأوهن الحضارات البشرية هي التي تقوم على أساس باطل، لأن هذه العلاقات والحضارات وإن كانت قوية في الظاهر، إلا إنها ضعيفة في الواقع. لأنها لا تتفق و رسالات الله، وسنن الحياة، وعبر التاريخ، ويرفضها العقل و الفطرة، مما يجعلها عرضة للزوال، لأن من طبيعة الباطل الزوال و الزهوق، تماما كبيت العنكبوت الذي قد يخدع الإنسان بمداخله و مخارجه وهندسته، ولكنه سرعان ما يطير مع هبات الريح، و كذا هو عذاب الله بالنسبة لتلك الحضارات.

وتذكرنا هذه الآيات المباركة ببعض دروس التأريخ، وعبره الحضارية، حيث تستعرض الأسباب التي أنهت مدنيات عديدة، و تأتي بعدة شواهد على ذلك، من مجتمعات متباعدة زمنيا، متباينة في السلوك والتوجهات، فمن قوم نوح إلى قوم إبراهيم إلى قوم لوط إلى قوم شعيب إلى قوم عاد وثمود، وبعد ذلك النموذج الأشهر وهو قصة موسى وفرعون، متعرضا لقصة قارون.

ولنهاية الحضارات أسباب ذاتية وخارجية في منظور القرآن، إلا إن السياق يبين الأسباب الذاتية، لأن العوامل الخارجية لا تنهي الحضارات من دون وجود أسباب داخلية لانهيارها، وحتى لو بدت بعض العوامل الخارجية ذات أثر فعال فلا بد أن نبحث في أساس بنيان الحضارات مما أضعفها وجعل زوالها ممكنا، وتبين الآيات الممارسات الخاطئة التي تختلف من تجمع إلى آخر، و لكنها تنتهي بالتالي إلى ثلاثة عوامل -في ما يبدو لي-:

١- الثقافة الجاهلية

حيث يلعب انحراف الثقافة دورا بارزا في تبرير أخطاء الإنسان مما يجعله يفقد المناعة ضد الخطأ، ويغدو متراكم السلبيات عرضة للبوار، ثم إن الثقافة الباطلة تحول القيم فتنحرف مسيرة الحضارة الصاعدة إلى طريق هابط، وأخيرا تشوش الثقافة الفاسدة الرؤية فيتخذ البشر مواقف خاطئة، ولأن الثقافة بمثابة البنيان التحتي لأي كيان، فمتى كان الأساس غير سليم، فإن البنيان ينهار سريعا.

٢- الانحراف عن الصراط

فالانحراف يذهب بطاقات الأمة والفرد بعيدا عن أهدافه الرئيسية، كالذي يسير بعيدا

عن الجادة، لا تزيده السرعة إلا بعدا، وكلما ابتعد الإنسان عن الطريق الذي ارتضاه الله له كلما قرب من نهايته، سواء كان الإنسان الفرد أم الحضارة.

٣- الاعتماد على القوة المادية

ثقافة الإنسان الجاهلية، وانحراف عن الصراط يدفعانه إلى تجاهل قدرة الله، والاعتماد أكثر فأكثر على حسابات مادية بحتة، سواء كان يمتلكها هو أو تحيط به، ناسيا أن من يسير الحياة هو رب العباد، وأنه سبحانه هو الذي يشاء لا غيره، وهذه خاتمة المطاف في مسيرة التدهور البشري، وحين تصل البشرية إلى هذا المطب، فقد أذن لها بالزوال.

ومع أن الله قدم لنا أدلة واقعية على أسباب سقوط الحضارات، إلا إننا نرى الآن البرهان تلو البرهان على جاهلية هذا القرن، وزيف حقائقه، ففي هذا الزمان صار الهوى صنما، وصارت المظاهر المادية قوت الإنسان اليومي، والشواهد والأرقام تبين مدى الأخطار التي تهدد البشرية، ولا ريب أن التصاعد الجنوني في ميزانيات التسلح في العالم، واتساع الفجوة العظيمة بين الدول المستكبرة والمستضعفين، وانتشار الفساد الخلقي و الإرهاب والنفاق، هو بعض مظاهر الكفر في الجاهلية الحديثة التي تهدد مكاسب الإنسانية جمعاء.

بينات من الآيات:

[٣٦] ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بعث شعيب عليه السلام إلى مدين من أجل الإصلاح، وقد كانوا مفسدين، وذكرهم شعيب عليه السلام بثلاث مسائل:

١ - عبادة الله، والتي تعني إخلاص العبودية له، والتوجه إليه.

٢ - ورجاء اليوم الآخر الذي يعني الخوف من النار والرجاء للجنة، بمعنى أن يضعوا اليوم الآخر في حسبانهم، يعرفوا أنهم محاسبون على أعمالهم، ومتى ما عرف الإنسان ذلك صلحت أعماله.

٣- ولا تعثوا في الأرض مفسدين، وفي آي القرآن الكريم في سورتي الأعراف والشعراء فسادهم الاقتصادي.

[٣٧] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ كعادة سائر الأقوام كذبت مدين نبيها شعيبا، وجرت فيهم سنة الله سبحانه، إذ أخذهم بالرجفة،

فأصبحوا جاثمين في بيوتهم، بعد أن صرعهم العذاب.

وهنا سبحانه يختصر السياق ببيان الصراع بين نبي الله وبينهم، الذي فصل القول فيه في سور مختلفة، فقال سبحانه: ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ ولكنه في المقابل يصف عذابه وصفا بليغا، ولعل ذلك للاستخفاف بتكذيبهم، وأن تكذيبهم لم يكن ليضر الله، أو ينقص في حكمه، وبيان أن الله سبحانه عندما ينتقم فإن انتقامه سيكون رهيبا.

[٣٨] ولم يكن العذاب ليحيق بمدين أو قوم لوط فحسب، بل إن العذاب على من كذب وتولى.

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾ انظروا إلى مساكنهم وآثارهم، لتعرفوا رهبة العذاب، وقدرة الله سبحانه وتعالى، وفي المقابل انظروا إلى أي مدى وصلوا في التحضر، وهل كل ذاك التمدن منع عنهم عذابه.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ عبادة الشيطان كان السبب الرئيسي في ضلالهم، فقد زين لهم أعمال السوء التي كانوا يعملون، وصدهم عن السبيل، وقد أخذ الله سبحانه من البشر عهدا بعدم عبادة الشيطان عندما قال لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

ولكنهم نكثوا عهدهم مع الله فحاق بهم نكثهم.

﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ ولعل الآية تهدينا إلى أن استبصار الأمم عند نشوئها لا يشفع لهم عند الله إذا انحرفوا، وأن على الأمم المستبصرة ألا تستهين بمكر الشيطان الذي يزين أعمال السوء في أعين الغافلين ويصدهم عن السبيل.

وهنا فكرة أخرى نستوحيها من هذه الخاتمة هي فكرة الدورات الحضارية، وأن الأمم الفتية يغلب صلاحها على فسادها، إلا إنها لا تلبث أن يتغلب عليها جانب الفساد، وإن الله سبحانه يبعث الرسل لمنع تدهورها، إلا إن كثيرا منها تتخذ طريقها إلى النهاية المدمرة.

[٣٩] و كما سائر الأقوام كذلك قارون وفرعون وهامان الذين استكبروا، ولكن هل كانوا قادرين على مواجهة عذاب الله ؟!.

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴾ تشير الآية إلى الأعمدة الثلاثة للفساد وهي:

١- السلطة الاقتصادية (قارون).

٢- السلطة السياسية (فرعون).

٣- السلطة الإعلامية (هامان).

فقد كان يمثل قارون الفساد الاقتصادي -الاحتكار، عدم دفع الاستحقاقات، الطغيان على المجتمع، اتهام القيادة- بينما كان فرعون يجسد الإرهاب السياسي والعسكري، أما هامان فقد كان المستشار الإعلامي لفرعون وموضع سره، ولا يتجسد الفساد في المال، أو السلطتين السياسية والعسكرية ولا في الإعلام، فهي مجرد وسائط اجتماعية، وإنما الفساد في الرؤوس المدبرة لهذه السلطات الثلاث.

[٤٠] لقد كان حصيلة تمسك هؤلاء بالفساد استكبارا في الأرض الدمار، ولم يكن هلاكهم بدعا أو صدفة، إنما كان سنة جارية تكررت في مختلف الظروف، وعند أمم متباينة تأريخيا و قوميا وفسادا.

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وهذا جزاء قوم عاد وثمود، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ قارون، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾، فرعون وهامان. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ لم يكن الله ليظلم عباده، بيد أن عذابه للكافرين تجسيد لأعمالهم أنفسهم، وظلمهم لها، وأن عذاب الله إنما هو صورة لعدل الله سبحانه.

ونحن نعرف أن الجزاء من جنس العمل، وعذاب الله سبحانه -دنيا وآخرة- إنما هو صورة أخرى لأفعالهم، فمن قدس الماء غرق فيه، ومن حفر الصخر عذب به.. وهكذا.

قال الحجاج لسعيد بن جبير ﵁ لما أراد قتله: «اختر أي قتلة، -فأجابه سعيد بكل ثقة واطمئنان- فقال له: بل اختر أنت لنفسك فإن القصاص أمامك»[١].

[٤١] ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ إن من اعتمد على غير الله، فإن حضارته كبيت العنكبوت، و إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت؛ فمهما كانت قوة الإنسان وقدرته، فإنها لن تجدي نفعا أمام قدرة الله، بيد أن الضمان الوحيد لاستمرار الطاقات، ونمو الحضارات هو تبلور المفاهيم التوحيدية في الواقع، وأداء واجب الشكر، وحق الطاعة،

---

(١) المعارف: ابن قتيبة: ص٤٤٦، ط: القاهرة، دار المعارف.

واقتلاع جذور الشرك والعبودية لغير الله.

[٤٢] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾
إن الله يعلم حقائق الشرك الخفية في النفوس، ومصاديقها في الواقع، مهما تعددت أشكالها، وتنوعت حقائقها، والله عزيز قادر على الأخذ كيفما يشاء متى يشاء، ولكنه حكيم لا يأخذهم حتى يتم الحجة عليهم.

[٤٣] ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ وجود القابلية للهداية والرغبة فيها، والتحذير من مواطن السيئات التي وقع فيها من قبلنا شرط أساسي للاستفادة من عبر التاريخ.

وتعقل هذه البصائر لا يتم إلا من العلماء لأن أكثر الناس لا يعقلون.

خلق الله السماوات والأرض بالحق

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)﴾.

هدى من الآيات:

تركيزا بعد القصص التي تليت، وبيانا لمنهج إلهي يقينا مصير الغابرين تأتي آيات هذا الدرس لتبين:

أولاً: أن الحق أساس خلق السماوات والأرض، وحين نعرف ذلك نهتدي إلى أن كل

شيء يسير على هدى سنة مفروضة عليه، وعلينا -إذا- معرفة تلك السنن إن كنا نريد التعامل مع حقائق الخلق، ولا يجوز أن تتمنى أن يكون العالم المحيط بنا على صورة نصنعها في أنفسنا ثم نتعامل مع تلك الصورة التي لا تمت إلى الواقع بصلة كما يفعل الجاهلون، وأكبر عقبة في طريق العلم هو التصورات الذاتية التي يتوهمها البشر، ويزعم بأنها هي الحقائق الموضوعية.

وحين يثبت الوحي مبدأ الحق يبني عليه مبدأ المسؤولية، فليس بالتمنيات تقدر أن تبلغ الحياة الفضلى، إنما بالسعي الرشيد، والعمل الجاد المخلص تتقي العقاب الإلهي.

ثانياً: إن معرفة هذا المبدأ بحاجة إلى قابلية في القلب تأتي بالإيمان والتسليم، ذلك أن القلوب المغلقة لا تستطيع أن تستوعب هذا المبدأ الشامل.

العين تعجز عن التركيز على نور باهر، والأذن لا تسمع الأصوات ذات الذبذبات العالية جدا، وكذلك القلب فليس كل قلب قادرا على معرفة الحقائق الكبرى في العالمين، وإنما القلوب المؤمنة التي روضت بالتقوى، وبوركت بالوحي، ونورها الله بنوره البهي قادرة على وعي هذه الحقيقة. إن محور الخليقة هو الحق ﴿فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثالثاً: لكي نفهم هذا المبدأ، ونعتبر بالتالي بعاقبة الذين أهلكهم الله بفسادهم وعنادهم، لا بد أن نتلو القرآن، لنقرأ من خلال آياته آيات الله في الخليقة.

رابعاً: وعلينا أن ندفع عن قلوبنا هجمات الشيطان التي لا تتوقف، هذه الوساوس والظنون والتمنيات جنود الشيطان التي تحيط بالقلب إحاطة السوار بالمعصم، والصلاة وذكر الله حصن القلب ضدها.

خامساً: إيجاد علاقة إيجابية وبناءة مع أهل الكتب الإلهية يساهم في تكريس وحدة الرسالات، وبالتالي رفع مستوى الوعي الإيماني للبشرية، وبالرغم من أن الجاهلين قد أوغلوا في الكتب السابقة تحريفا وتأويلا باطلا، وبالرغم من وجود نواقص في الكتب أتمها الإسلام، إلا إن علينا احترام أهلها وعدم الجدل معهم إلا بالتي هي أحسن.

ويمضي السياق في بيان جدل الكفار في رسالة النبي ويرد شبهاتهم ويقول: إن الرسول لم يكن يتلو من قبل كتابا ولا يخطه بيمينه حتى لا يرتاب المبطلون في صدق نزول الكتاب من الله عليه .

إنما الكتاب آيات تعيها صدور العلماء، أما من يجحد بها فإنما لظلمه، ولآثار الذنوب على قلبه، وهم يطالبون بآيات خارقة و هي عند الله وبأمره، وإنما الرسول نذير وما عليه إلا البلاغ.

لو كان هؤلاء من أهل الهداية كان هذا الكتاب كافيا لهم، أوليس قد أنزله الله رحمة وذكرى لقوم مؤمنين؟!.

بينات من الآيات:

[٤٤] قد يعرف الفرد حقيقة واحدة تفتح له أبواب المعرفة و قد يجهلها فتصبح كل معلوماته لغزا، والوحي الإلهي يذكرنا أبدا بتلك المعارف التي هي كالمفتاح تفك رموز الخليقة. منها: أن بناء الأرض والسماوات قائم على أساس الحق.

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ فهي ليست تصورات، ولا تمنيات، ولا تمشي حسب أهواء أحدٍ من الخلق، ولا هي مخلوقة عبثا وبلا هدف.

أرأيت لطف الخلق ودقته؟! أورأيت فيه ثغرة أو فطورا؟! هل رأى فيه أحد لعبا ولهوا وعبثية؟!.

ألا تنظر إلى إتقان صنع المجرات التي تكاد لا تحد؟! وإتقان صنع البعوضة؟! أفلا ترى حالة التكامل بين أبعد مجرة، وأصغر دابة بل أحقر جرثومة؟!.

الله أكبر. إنه محور الحق الذي لا يحيد عنه شيء، ولكن لماذا لا نعي نحن هذا المحور العظيم الذي تهدي إليه كل الشواهد و الآيات. أتدري لماذا؟.

القرآن الكريم يجيب قائلا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ هل تستقبل الصخرة الصلدة بركات الغيث، وهل تنبت زرعا، أو تحفظ ماء؟ كلا.. لأنها ليست بذات قابلية، كذلك القلب الصخري المعاند الذي يخلق في ذاته صنما فيعبده ويزعم بأنه الحق، ويغلق على نفسه منافذ المعرفة.

الإيمان هو التسليم، والتسليم هو التصديق، والقلب الذي يرفض سلفا قبول أي فكرة كيف ينتفع بآيات العلم؟!.

[٤٥] لماذا يتحجر قلب البشر، وكيف نزيل قسوته ونجعله لينا، أو لا أقل كيف نحافظ على القلوب الخاشعة ألا تقسوا؟.

الجهل، والغفلة، واتباع الهوى، وطول الأمل، والعادات السيئة، والأفكار الباطلة، ووساوس الشيطان، وظنون النفس، و تمنيات القلب كل أولئك يمكن أن تكون حجباً سميكةً على القلب، أو مغاليق لا تفك على أبوابه، وعلى الإنسان أن يقوم بجهدٍ مكثف ودائم لتطهير

قلبه وفك أقفاله وفتح منافذه ولكن بماذا؟.

بالكتاب، بالصلاة، بذكر الله.

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ القرآن شفاءٌ لما في الصدور، كل آيةٍ منه تفتح سبيلاً للهداية إلى القلب، وتطهر جانباً منه، وعلينا أن نتلوه في آناء الليل وأطراف النهار، ونتدبر فيه، ونلين قلوبنا القاسية بآياته.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ دعنا نصلي صلاة الخاشعين لا صلاة الساهين، وعندئذ نشعر بالفائدة العاجلة التي نستفيدها منها.

ولعل كلمة (الإقامة) تعني إتيانها بشروطها، ومن شروطها السكينة والخشوع. والفائدة العاجلة التي نرجوها بإقامة الصلاة تركيز التقوى في القلب، مما تبعدنا عن الذنوب الكبيرة والصغيرة.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ ولعل الفحشاء هي الخطايا الكبيرة التي لا يمكن تبريرها كالقتل، والزنا، والنهب، والسرقة، والاعتداء على حقوق الناس علنا.

أما المنكر فلعله الذنوب التي ينكرها القلب، و قد لا يعرف عنها المجتمع كالمساهمة في قتل الناس عبر إسقاط شخصياته بالغيبة والتهمة، وكذلك الغش والرشوة وهكذا الرياء والنفاق و...

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ إن من عظمة الصلاة أنها ترسخ في القلب عقيدة التوحيد و التي هي الينبوع الصافي لسائر العقائد السليمة.

ولعل الآية تشير إلى أن جوهر الصلاة هو ذكر الله، ولذلك كان علينا أن نهتم به سواء في الصلاة أو في حالات أخرى، ذلك أن ذكر الله يحصن القلب من وساوس الشيطان، ويحفظه من همزاته، ويقاوم الغفلة والاسترسال.

ومن المعروف أن ذكر الله ليس مجرد التلفظ بـ(الله أكبر، لا إله إلا الله) وإنما هو تذكر الله عند المعصية فيصبر عنها، و عند الطاعة فيندفع إليها، وعند المصيبة فيتسلى عنها، وعند الزحف فلا يولي الدبر ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾.

[٤٦] الآيات التي مضت كانت تبين قصص الأنبياء مع الأمم، و لعل ذلك كان

مناسبة للحديث عن موقف الإسلام من الرسالات السابقة، وجاء الجواب: إن الموقف إيجابي ويتلخص في:

ألف: الجدال بالتي هي أحسن، دون خشونة أو عنف.

بـاء: توجيه العنف إلى الظالمين منهم كما يوجه العنف ضد الظالمين من أبناء الأمة الإسلامية.

جيم: بيان أسس الوحدة بينهم وبين المسلمين.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ جاء في بعض الروايات أن معنى هذا الجدال: أن تستدل بالأدلة الواقعية، وألا تنكر حقا يستشهد به صاحبك، ولا تدعي باطلا لإثبات حقك.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ ومن هذه الآية نستوحي: أن الإسلام لا يهتم فقط بالمسلمين -كطائفة بشرية- إنما أيضا بأبناء الطوائف الأخرى، فيقاوم الظلم أنى كان وعلى أي شخص وقع، مسلما كان أو نصرانيا أو يهوديا وحتى لو كان مشركا.

الإسلام رسالة الله لإنقاذ الإنسان كإنسان، وعلى المسلم أن يكون نصيرا للمظلوم أنى كان، فقد جاء في حديث مروي عن الإمام الصادق عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «**مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ وَمَنْ سَمِعَ رَجُلًا يُنَادِي يَا لَلْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يُجِبْهُ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ**»[1].

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ والواقع: أن وجود محور توحيدي واحد يؤمن به الجميع هو أمتن أساس للتعايش السلمي بين الديانات.

[٤٧] قد تشتبه الأمور على بعض أهل الكتاب، بينما البعض الآخر يسارع للإيمان بالرسالة التي ختم بها الله رسالاته لمعرفته بجوهر الرسالات الإلهية، الذي يتجلى بأفضل صوره في هذه الرسالة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ لعل معناه: كما أنزلنا على الرسل من قبلك.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ لأنهم يجدونه مكتوبا عندهم، ولأنهم يجدون

---

(١) الكافي، ج٢، ص١٦٤.

فيه شواهد الصدق التي كانت في الكتب السابقة.

﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ لعل المراد بهم الموجودين في الجزيرة من غير أهل الكتاب.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الذين يكفرون بنعم الله، وتنطوي قلوبهم على مرض، وإلا فإن هذه الآيات واضحة لا ريب فيها.

[٤٨] ومن شواهد صدق الرسول تفجر ينابيع الوحي على لسانه مرة واحدة، دون تكامل ذلك عبر التعلم أو بالتدريج، ودون أن يتصل بالوسط الاجتماعي الذي هو فيه، بل ومن دون أن يكون لذلك الوسط أثر عليه، بل يأتي أبدا تحديا لمفاسد الوسط، وفتحا لآفاق جديدة من المعارف عليه ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

[٤٩] ومن شواهد الصدق على رسالة الإسلام يقين أهل العلم والحكمة والفضيلة في الأمة بها، ففي الناس -في كل عصر ومكان- طيبون وآخرون فاسدون، ومن خلال تمسك الطيبين بفكرة نستشهد على صحتها، كما إن في الناس علماء وجهال و إيمان العلماء بخط يزيدنا يقينا بصدقه.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم في هذه الأمة أئمة الحق من آل بيت الرسول ﷺ والعلماء بالله، الأمناء على حلاله وحرامه، وهم أهل الذكر الذين أمرنا بالسؤال منهم.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أما الفئة الكافرة بالكتاب فهم أولئك المنبوذون عند العرف، الذين يظلمون الناس، إذا من خلال طبيعة المؤمن والكافر بالرسالة نعرف مدى صدقها.

[٥٠] ويطالب الكفار -جدلا- بالمزيد من الآيات والآيات الخارقة، بينما لا تجديهم الآيات نفعا، لأنها لو نزلت فكفروا بها لنزل بهم العذاب.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهو الذي ينزلها متى ما شاء بحكمته وبعد أن تنتهي فرصة القوم ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

إن الثقافة الجاهلية تلعب دورا هاما في تبرير أخطاء الكفار المنهجية، ولعل الآيات التي كانوا يطالبون بها كانت تدور حول موضوعات لا غنى فيها كالجدليات البيزنطية، بينما مهمة الرسول الأولى الإنذار لا لكي يكرههم على الإيمان، بل لكي تستضاء قلوبهم فيؤمنوا طوعا

لينتفعوا بالإيمان، وهذا -فيما يبدو- هو المنهج السليم للدعوة وبه يتحقق الجدال بالتي هي أحسن.

[٥١] ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أوليس دليلا كافيا على عظمة هذا الكتاب الذي نستكشف منه رؤى الحياة وبصائر العمل أنه رحمة للعالمين، حيث يقدم لهم برامج الحياة السليمة، والرؤى الواضحة الصحيحة، وحيث يقوم بتذكير المؤمنين الذين رفعوا عن أنفسهم حجاب الجهل، و التكبر، فأثار فيهم دفائن عقولهم، واستحث هممهم الناشطة من أجل السير قدما في مسيرة تحرير الأرض والإنسان من عبودية الأوثان إلى عبادة الله الواهب المنان.

قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ (٥٨) ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦٠) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾.

هدى من الآيات:

هل هناك أكبر من الله ومن شهادته، وهو الذي يدبر شؤون السماوات والأرض؟!

كلا.. الله بكل عظمته وسلطانه شهيد على صدق رسالاته، وكفى به شهيدا، والخاسر حقا هو الذي يؤمن بالباطل، ويكفر بالله (وبرسالاته).

ويزعمون: أن دليل صدق الرسالات يتبغي أن يكون عذابا عاجلا لمن يكفر بالله، ولا يعلمون أنه لو جاءهم لا ينفعهم إيمانهم شيئا، بل يأتيهم فجأة دون أن يشعروا، ولا يعلمون أن العذاب الذي يطالبون به محيط بهم، لولا أنهم محجوبون عنه بظاهر من الحياة الدنيا، وحين ترتفع عنهم حجبهم يغشاهم من كل أطرافهم.

لا بد من إخلاص الإيمان بالله للتخلص من عذابه، ولا يمكن التبرير بغلبة سلاطين الجور والكفر، لأن أرض الله واسعة يمكن الهجرة في أطرافها، ولا ينبغي الخوف من الموت لأن كل نفس ذائقة الموت، والمرجع إلى الرب.

وليرغب العاقل في ثواب الله، حيث هيأ للمؤمنين الذين يعملون الصالحات غرفا من الجنة خالدين فيها، أوليسوا قد صبروا على البلاء، ولم يداخلهم اليأس لتوكلهم على الله، ولم يخشوا قطع أرزاقهم لأن الله يرزق كل دابة، كما يرزقنا وهو السميع العليم؟!.

(والله يدعوهم لفطرتهم) فلئن سألتهم من خلق السماوات و الأرض تراهم يعترفون بأن الله هو خالقهما، ومسخر الشمس و القمر، فلماذا يسمحون للشيطان بإضلالهم؟!.

كذلك الله يبسط الرزق لمن يشاء، ويضيق على من يشاء، و هو محيط علما بكل شيء، فلماذا نخشى الفقر ونكفر بالله طمعا في الغنى وهو الذي يدبر أمور الحياة، فهو ينزل من السماء ماء، ويحيي به الأرض من بعد موتها، فله الحمد، ولكن أكثر الناس لا يعقلون.

بينات من الآيات:

[٥٢] الرسالة هي تجسيد لصفات الله، وهذا ما نلاحظه من خلال تجلي أسماء الله في الرسالة، فهي آية من آيات الرحمة، و الحكمة، والعظمة وغيرها، وبنظرة في الرسالة نعرف أن ربنا رحيم، حكيم، عظيم، وإلى غيرها من أسمائه الحسنى.

ومن جهة أخرى فإن الرسالة هي تحقيق لتطلعات العقل وتلبية لنداء الفطرة، وإرواء لعطش الوجدان، وليس بين الرسالة والعقل تناقض، ولذلك جاء في بعض الروايات: «**إِنَّ للهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ: حُجَّةً ظَاهِرَةً، وحُجَّةً بَاطِنَةً، فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ والأَنْبِياءُ والأَئِمَّةُ** عليهم السلام

وأَمَّا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ»[(١)].

وشهادة العقل دليل على صحة الرسالات.

ومن دلائل صدق الرسالة تلك الانتصارات الهائلة التي يمن بها الرب على عباده المؤمنين، بالرغم من قلة عددهم، وضعف عدتهم، حيث يقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، والمعاجز الخارقة وغيرها نتيجة استجابته لدعائهم، وحينما نقف مع الرسالة، ونؤمن بالله، فإن الحياة ستسخر لنا، وفي الحديث القدسي: «يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا غَنِيٌّ لا أَفْتَقِرُ أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ غَنِيّاً لا تَفْتَقِرُ يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا حَيٌّ لا أَمُوتُ أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ حَيّاً لا تَمُوتُ يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا أَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ تَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ»[(٢)] وهذه شهادة أخرى.

وشهادة الله تتجسد أيضا في الحقيقة الفطرية التي يؤمن بها جميع الناس، وهي حقيقة الخالق والمخلوق، فلا بد للكون من إله، ولكن هذه المعرفة إجمالية، وإذا أردنا المعرفة التفصيلية، فإن ذلك لا يأتي إلا من خلال الإيمان بالله، ومعرفة آياته، وهذا لا يأتي أيضا إلا من خلال التزامنا بتعاليم الرسالة، وتطبيق أحكام الشريعة الغراء.

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إن الله يعلم ما تسرون وتعلنون، ويعلم خفاياكم، وهو الشاهد على ما تعملون من خير أو شر، من حق أو باطل، وليس الله بظلام للعبيد.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وهناك علاقة حتمية بين الإيمان بالباطل والكفر بالله، فبمقدار إيمانك بالباطل يكون ابتعادك عن الله وكذلك العكس.

[٥٣] ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ إن مشكلة السواد الأعظم من الناس هي أنهم لا يفهمون أن الزمن هو سبيل الامتحان الذي رست عليه قواعد الحياة، حيث يفصل بين العمل والجزاء ولذلك يطالب البعض بتعجيل العذاب، و لكن الله يعدهم بالعذاب حيث لا يتمكنون من التوبة أو العودة.

[٥٤] ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ إن الحقائق موجودة

---

(١) بحار الأنوار: ج١ ص١٣٧.

(٢) بحار الأنوار: ج٩٠، ص٣٧٦.

ولكنا لا نراها، وهي أشبه ما تكون بالطاقة الكامنة في الأشياء، فعندما تأكل مال اليتيم فإنها تأكل في بطنك نارا، والكذب رائحة نتنة تخرج من فمك، ولكن جميع هذه المظاهر لا ترى الآن، إلا إذا تغيرت طبيعة الكون، وحينها يصبح المال نارا، والكذب نتنا، وهذا هو العذاب الذي به يكذبون، وهكذا تكون جهنم محيطة بالكافرين.

[٥٥] ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في ذلك اليوم سيغشاكم العذاب من كل حدب وصوب و جزاؤكم من عين أفعالكم، وستذوقون ما كنتم تعملون.

[٥٦] بعد أن ذكرنا القرآن بشهادة الله التي تكفي عن كل شهادة على صدق رسالاته، وبين أن الكافرين هم الخاسرون وليس المؤمنون، وأن تأخير العذاب عنهم لا يعني أنه يمكن التخلص منه. كلا.. بل هو موجود فعلا ومحيط بهم، إذ إن أعمالهم هي التي يذوقونها عذابا حين يغشاهم من أطرافهم، و بالتالي بعد أن هز السياق ضمائرهم أخذ يعالج العقبات التي تعترض طريق الإيمان، ومن أبرزها: هيمنة الجبارين، فأمر بالهجرة عن بلاد الكفر قائلا:

﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ أنت عبدي والأرض أرضي، فاسع فيها واعبدني، ولا تخضع لسلطة الطغاة، لأنهم يرهبون الناس من الموت، وعلى الإنسان أن يتحرر من خوف الموت بمعرفة أنه لا ريب ذائقه، حتى يخرج من عبادة الطغاة إلى عبادة الله.

[٥٧] ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾.

[٥٨] ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ الغرفة هي: الغرف المرتفعة، وهي قصر المؤمن، حيث ينعمون بالخلود، والشباب، والحور العين، وخدمة الولدان جزاء عملهم وإيمانهم، وهكذا يكون جزاء العاملين.

[٥٩] ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ولكن هذا الجزاء ليس بلا ثمن، فثمنه الصبر والتوكل، و هي من صفات المؤمنين. الصبر يعني تحمل الصعاب من أجل مستقبل أفضل، والتوكل يعني استخراج كنوز الذات من أجل العمل.

[٦٠] ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ من الآيات الأربع الماضية يبين الله حجابين يعيقان فهم الإنسان للوصول إلى الحقائق وهما:

الحجاب الأول حذر الموت

كل حي يتحسس في أعماقه ضرورة الحذر من الموت، ومن أولى ضروريات الحياة البحث عن النجاة وضمان البقاء، ولكن قد يصل هذا الشعور إلى درجة المبالغة فتتضخم حتى نكون عبيدا للدنيا، إذن فلا نلقي بأيدينا إلى التهلكة، ولكن أية ذلة تلك أن نموت ونحن أحياء؟!.

إن ميزة الحياة الحيوية، ولفظ الحياة مشتق منها، فإذا فقدنا الحيوية والنشاط فكأننا أموات، فالحياة بلا حركة حياة ميتة، لا روح فيها، والإنسان بذلك يقتل نفسه بلا ثمن، لذلك كان الحذر المبالغ من الموت من أبرز العوائق أمام فهم الحياة والعمل في سبيل الله.

ويعالج القرآن هذه الحالة بدواءين هما:

ألف: طرح حقيقة الموت وحتميته، فكل نفس ذائقة الموت، وليس هناك مجال للهرب منه فاسع سعيك، واستفد من فرص الحياة.

باء: والموت ليس واقعا مخيفا، بل إن الخوف هو فكرة مخيفة تعشعش في رأسك، والموت ليس ما يحذر منه، وعندما ترغب في الموت توهب لك الحياة، نعم القتل والتعذيب هما سلاحا الأعداء، وحين تتحداهما تستطيع أن تختار قرارك بحرية.

الحجاب الثاني خشية الفقر

إن كثيرا من الناس يحذرون الفقر، إن درجة تجعلهم يمتنعون عن الإنفاق حتى على أنفسهم، مما قد يصل بهم إلى درجة الشح، و السبب في ذلك هو نظرتهم المادية البحتة، وتغافلهم عن فكرة العمل، والجزاء، والنية، فإن الله يرزق على قدر النية و الثقة به سبحانه، وليس هذا دعوة للإسراف، بل دعوة للإنفاق في سبيل الله، لكيلا تكون خشية الفقر هو الحاجز الذي يحول دون وصولك إلى الحقيقة، فعلينا أن نؤمن بحكمة الله وتدبيره، فإن الله لا يضيع أجر عباده المحسنين.

[٦١] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ فإذا يعلمون بحقيقة الخلق، والرزق، وأن الله مدبر الأمور، فلماذا يبيعون إنسانيتهم من أجل لقمة عيش مغموسة في وحل العبودية؟! فليستنجدوا برب العالمين، مسخر الشمس، وصانع الكون، وعليهم أن يتركوا الغرور والتكبر لحظة ليكتشفوا واقع التخلف والذل الذي يعيشون فيه.

[٦٢] ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ إن مفاتيح الرزق بيد الله وليست بيد أحدٍ من الناس، وإنما يقبض الروح عزرئيل، ولكل أجل كتاب، ولن يصيب الإنسان إلا ما قدّره الله، فعليك أن تتحلى بالرضا والقناعة، فالله يعلم مقدار حاجتك، وما هو الواجب إعطاؤه إياك وفق ما يناسب حكمته، والقضاء بيد الله، فإن أصابك شيء فلا تحزن، لأن الله سيعوضك خيرا منه بسعيك و جهدك، وهذه المرحلة لا يصل إليها إلا المؤمنون الحقيقيون.

[٦٣] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وها هي شواهد الكون تترى، ودلائل العلم تتوالى، من أجل تأكيد حقائق الرزق، ولكنها لا تنفع إلا لمن يعقل هذه الحقائق و يستوعبها، وهذه وظيفة الإنسان ومسؤوليته، وبمدى إدراكه و التزامه بها يكون جزاؤه وثوابه.

وإن الدار الآخرة لهي الحيوان

﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى (١) لِلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾.

هدى من الآيات:

إن الحياة التي لا تتصل بالآخرة لا تستحق إلا صفة اللهو أو اللعب، والفرق بين الصفتين هو: أن اللهو عمل بلا هدف، بينما اللعب عمل بهدف غير محترم، وقد تكون حياة امرئ لهوا، حينما لا يضع لنفسه أهدافا، أو أن تكون اهتماماته مادية وسطحية وبالتالي غير محترمة كالملذات الحسية.

والأهداف التي تقتصر على الوصول لمركز اجتماعي مرموق، أو ثروة عظيمة، أو امتلاك وسائل ترفيهية، دون امتلاك الفاعليات البشرية التي تغير مجرى الأحداث، هي مجرد أهداف غير محترمة.

وقد يضع الإنسان أهدافا لحياته الدنيا، ولكنه لا يستطيع أن يجزم أن بإمكانه تحقيق هذه

---

(١) مثوى: أي مقاماً.

الأهداف، وهل إن الموت سيفصل بينه وبين ما يتمنى، وحتى لو حققها فهل ستستمر معه طويلا أم لفترة محددة؟.

إن هذه الأهداف هي الأخرى ليست أهدافا جدية لتعلقها بالحياة الدنيا فقط، والتي تعتبر لعبا -حسب التعبير القرآني- وقد روى الثعلبي في تفسيره أن النبي الأعظم ﷺ كان جالسا بين أصحابه، فخط خطوطاً وخط خطاً منها ناحيةً فقال: «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟ هَذَا مِثْلُ ابْنَ آدَمَ وَمِثْلُ التَّمَنِّي، وَذَلِكَ الخَطُّ الأَمَلُ بَيْنَهُمَا هُوَ يَتَمَنَّى إِذْ جَاءَهُ المَوْتُ»[1]. فالعاقل هو الذي يجعل الحياة قنطرة للآخرة.

كل إنسان مفطور على معرفة الله سبحانه، ولكن قد يفصل بينه وبين المعرفة حجب الغفلة والنسيان والهوى، فإذا ارتفعت هذه الحجب صارت الرؤية واضحة، ولنأخذ مثالا من واقع الحياة: عندما يمرض ابنك، وتفتقد الطبيب المعالج، عندئذ تزول جميع حواجز الجبت والطاغوت، وتعرف الله وتتصل به، ويكون دعاؤك نابعا من صميم فؤادك، وما إن يتشافى حتى تنسى الله ونعمته عليك.

فالإنسان لا يعرف الله إلا عند الحاجة، وعندما تنتهي حاجته تنتهي معرفته معها، فعندما يركب السفينة، ويمخر بها عباب المحيطات الشاسعة، وتتلقفه الأمواج الهادرة، حينها فقط يتوجه قلبه بكل إخلاص إلى الله سبحانه.

إنه الله الذي تلجأ إليه، ويتصل به قلبك في أوقات الحاجة، حين تسد جميع الطرق أمامك، ولا يبقى لك من منفذ من البلاء، حينها لا يبقى إلا أن تطرق أبواب السماء بدعائك الخالص، والمشوب بالعجز أمام قدرة الله، حينذاك يأتيك الرد إلهيا فتزول جميع العوائق والمشكلات، وهذه هي آثار الله، وبها نعرفه.

ثم يبين الله في آخر آيات هذه السورة نعمة الله على أهل مكة حين جعل لهم حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم.

ولكنهم مع وجود هذه النعمة عندهم تراهم يؤمنون بالباطل و يكفرون بالله، ويكذبون رسوله، وهذه عادة أصحاب القرى أن يكذبوا وينسوا ما أنعم الله عليهم به، بل وقد يتخذون من النعم مادة للفساد.

وبعكس أولئك الذين آمنوا بالله وبالرسول واتبعوه و عزروه وجاهدوا معه. إن الله

---

(١) تفسير الثعلبي: ج٩، ص٢٣٩.

ليهدينهم سبلهم. جنات تجري من تحتها الأنهار، وإن الله مع المحسنين، وسيحيق ربنا بالذين كفروا جهنم وبئس المهاد.

بينات من الآيات:

[٦٤] ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ إن الحياة الدنيا بصورتها العادية، ومقوماتها، وأبعادها المادية مجرد لهو عبثي أو لعب بلا هدف، فالأهداف الجدية ترتبط جديتها بمدى ارتباطها بالحياة الآخرة، والقضايا الغيبية.

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ وفي الدار الآخرة تتوفر جميع مقومات الحياة من الخلود الأبدي، واللذات الجمة، والراحة النفسية الممتزجة بالطمأنينة، فيتخلص المؤمن من هموم الدنيا، ومشاغل الحياة.

[٦٥] ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ تبين هذه الآية الحالات النفسية للإنسان في بعض مواقفه الحياتية، فحينما اضطر واحتاج إلى الله سبحانه، أقر له بالحاكمية والسيادة، وجعل له الولاية والسيطرة على الكون والحياة، وهو الذي كان يعارض الرسل، و يكفر بالله بالأمس، فما عدا مما بدا؟!.

ولكن ما إن تطأ قدماه ساحل الأمان، ويبتعد عن الخطر، و يستغني عن الضرورة، حتى ينقلب على عقبيه، ويكفر بالله، ويشرك به في قدرته وسلطانه، «فما لله لله، وما لقيصر لقيصر»؟!

كما أن هذه الآية تبين حقيقة وجود الله، وهيمنته على الكون، فقد قال رجل للإمام الصادق عليه السلام: «يَا بْنَ رَسُولِ الله دُلَّنِي عَلَى الله مَا هُوَ؟ فَقَدْ أَكْثَرَ عَلَيَّ الْمُجَادِلُونَ وَحَيَّرُونِي!. فَقَالَ عليه السلام لَهُ: **يَا عَبْدَ الله هَلْ رَكِبْتَ سَفِينَةً قَطُّ؟**. قَالَ: نَعَمْ، قَالَ عليه السلام: **فَهَلْ كُسِرَ بِكَ حَيْثُ لَا سَفِينَةَ تُنْجِيكَ، وَلَا سِبَاحَةَ تُغْنِيكَ؟**. قَالَ: نَعَمْ، قَالَ عليه السلام: **فَهَلْ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ هُنَالِكَ أَنَّ شَيْئاً مِنَ الْأَشْيَاءِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ وَرْطَتِكَ؟**. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: **فَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ اللهُ الْقَادِرُ عَلَى الْإِنْجَاءِ حَيْثُ لَا مُنْجِيَ، وَعَلَى الْإِغَاثَةِ حَيْثُ لَا مُغِيثَ**»[1].

إذا أردت أن تعرف الله فاركب الأهوال، وستعرف الله حيث لا ينفعك مال ولا بنون، وحينها ينفتح أمامك باب المعرفة الإلهية، وترى آثار رحمة الله.

---

(١) بحار الأنوار: ج٣، ص٤١.

[٦٦] ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ولقد أنعم ربنا على الإنسان بنعمة العقل والفطرة والبصيرة، و لكن الإنسان يترك عقله إلى جهله، وبصيرته إلى عماه، و فطرته النقية إلى شهواته الشائبة.

والتمتع مجرد إثارة عاجلة لأعصاب الإنسان وشهواته، و المشكلة في الإنسان أنه يعتبر المتعة هدفه في الحياة، وهذا الاعتقاد ناتج من الكفر بالقيم و الغيب والروح، والمتعة لا تتعدى بضع ثوان يشعر فيها الإنسان بالسعادة الوهمية، ولكن لا يعلم أنه يحتطب على ظهره وزرا، ولذا جاء في الدعاء: «مِنْ ذُنُوبٍ أَدْبَرَتْ لَذَّاتُهَا فَذَهَبَتْ، وأَقَامَتْ تَبِعَاتُهَا فَلَزِمَتْ»[1].

وسيعلم الكفار يوم القيامة فداحة الخطأ الكبير، حين فصلوا المتعة عن إطارها السليم، وفرغوها من مضمونها الرفيع، و جعلوها ممارسات حيوانية، تهبط بالإنسان إلى حضيض الرذيلة و الشقاء.

[٦٧] ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ ميزة القرآن أنه يستخرج أمثلة من واقع الحياة لا من وهم و خيال، و لقد كانت الجزيرة العربية عبر التأريخ مسرحا واسعا للنهب والسلب، وانتهاك الحقوق، وتضييع الكرامات، حيث أصبح الإنسان لا يأمن على نفسه، أو ماله، أو عرضه، وحتى دينه، وكان شعار العرب حينذاك السيف، ودثارهم الخوف، فمن الله عليهم بنعمة الأمان والرخاء والشبع، وأنزل منهاجه لتنظيم العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على أسس العدل و الحرية والتكامل وغيرها من مبادئ الإنسانية التي لا يختلف عليها العقلاء، ولا تختلف مع سمو تطلعات الإنسان وأهدافه.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ فوا عجبا للإنسان على جهله وكفره، وهل هناك شيء أوضح من نعم الله على الإنسان لكي يكفر بها؟!.

إن اتباع الهوى، والسير وراء المصالح والأهداف الشخصية، تحول الباطل إلى حقيقة، والكفر بالنعم إلى واجب شرعي.

[٦٨] ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ أكثر الناس ظلما لنفسه وللآخرين هو من ينبذ القيم الإلهية، و يستبدلها بقيم بشرية شيطانية، وأخطر الكفار من أنكر القيم، و افترى على الله الكذب في أحكامه. ولذا كان حد منكر الصلاة القتل شرعا، فالذي يؤمن بالصلاة ولا يقوم بها قد توجد لديه قابلية القيام بها في المستقبل، أما الذي يكفر بها من الأساس، ويضع لنفسه تشريعات مزاجية لا يجدي

(١) الصحيفة السجادية: في ذكر التوبة وطلبها.

معه إلا حد السيف.

ويكمن الخطر في هذا الإنسان حين يلبس الباطل أثواب الحق، ويفيض على الباطل صبغة السمو والألوهية، وعادة ما تكون دوافع الكفر نفسية كالكبر، أو الغرور، أو ترسخ تقاليد الآباء في النفس، ولكن هل يعتقد هؤلاء أن جهنم لا تكفيهم جميعا؟! بلى؛ إن بها مثوى للكافرين والمتكبرين منذ أن خلق ربنا آدم عليه السلام وإلى يوم القيامة، وليس ذلك على الله بعزيز.

[٦٩] ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ويقفز إلى واجهة التفكير سؤال: ماذا نعمل لكي لا تتبدل قيمنا؟ وكيف نهتدي إلى السبيل القويم؟.

تجيب هذه الآية الكريمة بأن شرط الهداية هو الجهاد، لأن الجهاد يبعد الإنسان عن حب الذات والأنانيات المقيتة، وعندما يكون الإنسان مجاهدا، فإن أبواب

العلم والمعرفة ستكون مشرعة أمامه، وما عليه سوى الجد والاجتهاد والإحسان شرط رئيسي في المحافظة على القيم، لأنه يبعد الإنسان عن استغلال القيم لمصالحه الخاصة، بل يوجهها نحو خدمة الناس.

المحتويات